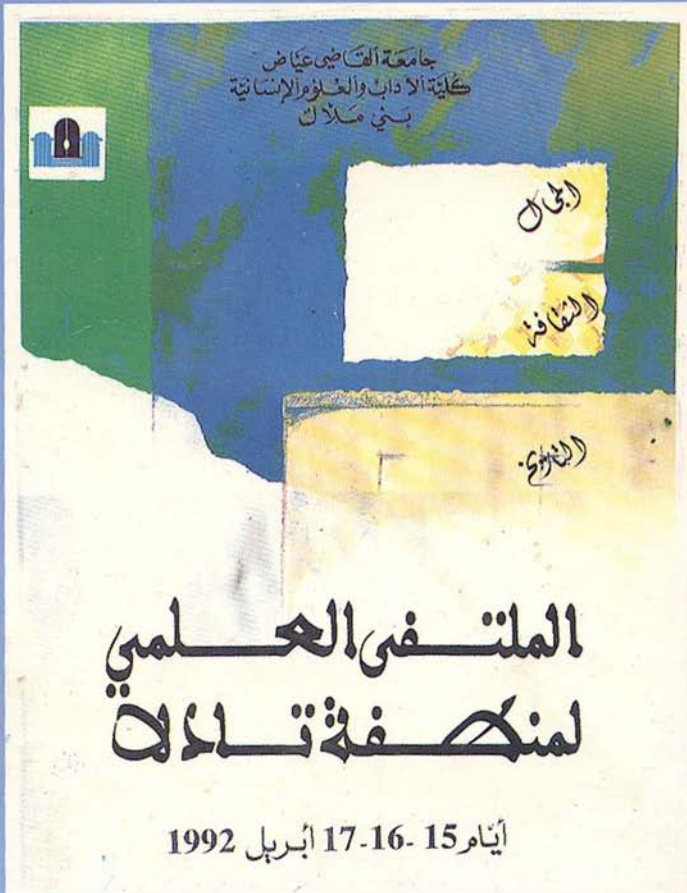


جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بني مراك

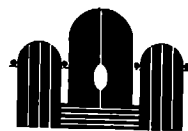


تلاوة

التاريخ، الجمال، الثقافة



المملكة المغربية
جامعة القاضي عياض
مَنْشُورَاتُ كَلِيَّةِ الْآدَابِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ
بَيْنِي مَكَلَّاك
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 1



تلاوة

التاريخ، الجمال، الثقافة

اللجنة المنظمة

محمد الساوري

جمال كويالي

محمد العاملي

عبد الرحيم بنعلي

سعيد شبار

عبد الرحمان اليوسي

عبد الرحيم العماري

محمد أزهرري

علي فرتاحي

تعبر الآراء الواردة في المقالات عن وجهة نظر أصحابها .

مطبوعات  **البيان**
الطبعة الأولى: 1993

الإيداع القانوني رقم 1993/855

ردمك 9981-875-01-5

المحتويات

9.....	الكلمة الافتتاحية للسيد عميد جامعة القاضي عياض بمراكش
11.....	الكلمة الافتتاحية للسيد قيديم كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال
13.....	الكلمة الافتتاحية للجنة المنظمة
17.....	المحور الأول : جوانب من تاريخ تادلا
	داي أو الصومعة كمركز ثقافي في تادلا
19.....	محمد حجي
	تاريخ تادلا في العصر الوسيط
25.....	محمد زنيبر
	النشاط الاقتصادي في تادلا خلال العصر الوسيط
37.....	محمد حجاج الطويل
	" داي " أو " أوداي " من خلال مصادر العصر الوسيط
51.....	محمد العاملي
	أولياء تادلا خلال القرن السادس عشر الميلادي (ملاحظات أولية)
57.....	أحمد الوارث
	تادلا خلال القرنين 16 و 17م " إشكالية الإلتقاء والتمازج "
73.....	إدريس أبو إدريس
	ملاح من تاريخ قصبة تادلا
87.....	أحمد عمالك
	ملاحظات حول كتابة تاريخ منطقة تادلا
99.....	أحمد بوكاري
	التدخل العسكري بتادلا والمناطق المجاورة (1912-1916)
113.....	محمد العروصي

123.....	مساهمة منطقة تادالا في مناهضة الاستعمار الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى محمد بركاوي
129.....	علاقات بني ملال مع القبائل الأمازيغية المجاورة (نموذج قبيلة آيت سخمان) محمد بوسلام
145.....	المحور الثاني : المجال الريفي الحضري وحركة التمدين والتنمية بتادالا بعض المشاكل البيئية بمنطقة تادالا عبد الرحيم بنعلي
161.....	بعض الجوانب الديموغرافية لظاهرة التمدين في منطقة تادالا . محمد الغوت
167.....	العلاقات الريفية الحضرية بسهل تادالا الحسين أزرز
185.....	بني ملال قطب غير مكتمل عبد الفتاح أبو العز
195.....	السقي والتمدين : حالة مدينة الفقيه بن صالح محمد مداد
203.....	الجهاز الحضري بتادالا : قصبة تادلة ، القصيبة وزاوية الشيخ ، مراكز قديمة في تحول محمد ميوسي
213.....	المراكز " الحضرية " الناشئة (المدن الصغرى) عرض لبعض الاستنتاجات نموذج تادالا محمد أحباشان
229.....	السكان والتنمية المستدامة بالأرياف المغربية : حالة قطاع بني عمير بتادالا محمد أسعد
245.....	بعض مظاهر تكتيف أنظمة الماشية بسهل تادالا (حالة قطاع بني عمير) محمد مدينة
263.....	البنيات الزراعية والتحول الاجتماعي بتادالا محمد بهومي

275.....	المحور الثالث : النظام الثقافي الشعبي ودلالات الخطاب حول تادلا
277.....	التلقي السياحي بتادلا : البطاقة البريدية من منظور سمبائي-اجتماعي عهد الرحيم العماري
305.....	المرأة في تادلا من خلال كتب الرحلات في العصر الوسيط عصمت عهد اللطيف دندش
321.....	شعرية الخطاب الصوفي في كتاب العشوف لابن الزيات التادلي علال الغازي
349.....	ملحوظات حول الحماستين المغربية والبياسية نحمة المريني
383.....	غريب بداي عهد الرحمان قوبي
395.....	فضاء تادلا في الرواية المغربية حسن بحر اوي
403.....	توصيات الندوة

كلمة الافتتاح للسيد عميد جامعة القاضي عياض

د . محمد الكنيدري

يطيب لي في بداية هذه الكلمة أن أهني كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال على أولى ثمرات جهدها الثقافي والعلمي لهذا الموسم ، هذه المؤسسة الفتية التي استطاعت بفضل عزيمة مسؤوليها وأطرها وأساتذتها وطلبتها كافة ، أن تسمو إلى ما كنا دوما نرجوه لها من نتائج طيبة ومحمودة وما هذه الندوة إلا دليل واضح على هذا الوجه العلمي والثقافي المتميز الذي طبع سيرتها منذ التأسيس حتى الآن ، لاسيما وأن منطقة تادلا غنية وزاخرة بمقومات تاريخية وثقافية واقتصادية متنوعة ، سيكون من دون شك لأعمال هذه الندوة دور كبير في إبرازها وتبسيط الضوء على مختلف الجوانب المتعلقة بها .

فهنيئنا لكل المنظمين والمشاركين والساهرين على هذه الأشغال ، ليس فقط لما لمسنه من وسائل وإمكانيات سخرت لإنجاح هذه الندوة ، وإنما كذلك لما تعد به من عطاءات مستقبلية جادة ومتميزة .

ونظرا لما تتميز به منطقة تادلا من معطيات وثروات مختلفة ومتنوعة ، لاسيما في المجال الفلاحي، اقتضى نظر المسؤولين بحكومة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ، تأسيس مؤسسة علمية من نوع جديد ، تستجيب لحاجيات المنطقة في مجالات العلوم والتقنيات ، الأمر الذي من شأنه أن يساهم بشكل مباشر وفعال في تدعيم سبل التنمية الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة ، واستغلال مواردها البشرية والطبيعية على الوجه الأمثل .

وبهذه المناسبة أود التأكيد على ضرورة اندماج الجامعة في محيطها الاقتصادي والاجتماعي . إن الوزارة تفكر بشكل جاد في وضع استراتيجية فعالة لتهيئ برامج تتماشى مع التقدم العلمي والتكنولوجي وحاجيات البلاد من أطر ذات تكوين منسجم مع حاجيات الاقتصاد الوطني ، كما نفكر بعمق في وضع سياسة وتخطيط متكامل للبحث

العلمي في إطار المخطط الخماسي المقبل 1993 - 1997 بغية إيجاد خطة عملية يمكنها أن تعطي للبحث قفزة نوعية بتوفير الظروف المادية الملائمة للباحثين حتى يقوموا بمهامهم البحثية المختبرية منها والميدانية في أحسن الظروف .

وكلنا أمل أن يتحقق لهذا المركز الجامعي ما ننشده له من إشعاع وتقدم وازدهار .

وفقنا الله لما فيه خير بلادنا السعيدة ، تحت القيادة الرشيدة لجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

كلمة الافتتاح للسيد قيودم الكلية

د . محمد الساوري

يدخل تنظيم هذه الندوة العلمية المباركة في إطار برنامج عام سطرته الكلية للدفع بالبحث العلمي خطوات إلى الأمام ، بواسطة إقامة ملتقيات علمية وأيام دراسية انطلاقا من قناعة قائمة على مبدأين متلازمين هما إدماج الجامعة في محيطها الاقتصادي والاجتماعي ، وتوجيه البحث العلمي إلى البحث الميداني الجهوي بتنسيق مع مؤسسات الإنتاج والتشغيل بالمنطقة .

وقصد مساهمة مستجدات البحث العلمي المعاصر من جهة ، وربطه بالمحيط الجهوي من جهة أخرى ، تم عقد اتفاقية علمية بين المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بتادلا (O.R.M.V.A.T.) وشعبة الجغرافيا بالكلية .

وفي الإطار نفسه ، وتعزيزا للدور الجهوي للكلية ، تعمل المؤسسة على إعداد مشروع اتفاقية مع معمل السكر بأولاد عياد (S.U.T.A) تهدف إلى تكوين أطر هذه المؤسسة الاقتصادية تكوينا مستمرا في اللغة الإنجليزية .

ويعمل الأساتذة بمختلف الشعب والتخصصات المتوفرة بالكلية على خلق خلية للبحث العلمي حول تادلا ، تكون ملتقى لحوار علوم ومناهج عديدة تضمن الانسجام مع تعدد وتنوع الموارد الطبيعية والبشرية بتادلا . ومن بين المشاريع التي تحتل مكان الصدارة بهذه الخلية ، الشروع في إعداد أطلس حول المنطقة يكون بمثابة مرجع أساسي لا للباحثين المختصين فحسب ، بل للمصالح الجهوية والوطنية والجماعات المحلية كذلك . ولا شك أن ذلك يستجيب لرغبة التنسيق بين المؤسسة الجامعية والجماعات المحلية ، خصوصا وأن من بين اختصاصات هذه الأخيرة ضمان النمو الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

وإذا كان عدد لا بأس به من أساتذة وطلبة الكلية قام بإنجاز بحوث علمية نظرية وتطبيقية حول منطقة تادلا ، فإن شغلنا الشاغل في الوقت الراهن هو خلق مختبرات متخصصة تساعد على تحليل المعطيات الميدانية المستخلصة وتقييمها بالشكل الذي

يجعل هذه البحوث أكثر مردودية . وحتى نصل إلى ما نصبو إليه فإتنا نفكر في إنجاز :

- مختبر اللسانيات التطبيقية .
- مختبر جغرافية الأرياف .
- مختبر جغرافية المدن .
- مرسم للخرائط .

وإنني إذ أستعرض هذه الأنشطة لأغتتم الفرصة لأشكر زملائي الأساتذة الذين تكاثفت جهودهم لإرساء قواعد هذه المؤسسة الفتية ، وإخراج هذه المشاريع إلى حيز الوجود . ولا يفوتني أن أقدم جزيل الشكر إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذه الندوة سواء بمشاركتهم في جلساتها أو بإعدادهم لها عبر مختلف المراحل ، وأخص بالذكر السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم بني ملال ، والسيد عامل صاحب الجلالة على إقليم أزيلال ، والسيد عميد جامعة القاضي عياض ، كما أشكر السادة المدير العام للمكتب الوطني للسياحة والمدير العام لمعمل السكر ببني ملال على دعمهم لهذه التظاهرة العلمية .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

كلمة الافتتاح للجنة المنظمة للندوة (*)

تنظم كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال ندوة في موضوع : " تادلا : التاريخ ، المجال والثقافة " أيام 11 ، 12 ، 13 شوال موافق 15 ، 16 ، 17 أبريل 1992 .

لم يكن اختيار تادلا موضوعا لأول ندوة علمية كبرى بالكلية عفويا ، وإنما جاء تلبية لرغبة سن سنة تقوم على إنجاز ملتقيات علمية متتالية تكون بمثابة ملفات مترابطة بالشكل الذي يعزز مبدأ إدماج الجامعة في محيطها المجتمعي والاقتصادي والثقافي .

ومن ثم اقترحت محاور ثلاثة كبرى تروم منح التكامل المعرفي حول تادلا .

فبصدد المحور التاريخي تصب المداخلات في خانات ثلاث كل واحدة تتميز عن الأخرى من خلال المقياس الزمني التتابعي :

تادلا في العصر الوسيط والحديث والمعاصر .

بيد أن ذلك لم يمنع من بناء تصورات تقدم المكانة المرموقة التي لعبتها المنطقة تاريخيا بواسطة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية .

وهذا ما سيتضح على امتداد أربع جلسات مخصصة للمحور التاريخي التي ستتناول مواضيع متعددة منها ما يتعلق بالبحث التاريخي والأركيولوجي بالمنطقة ، ومنها ما يتعلق باستقرار القبائل وتعدد علاقاتها مع قبائل أخرى مجاورة .

ويرتبط الاستقرار القبلي المكثف بطبيعة المنطقة السهلية وغنى مواردها الفلاحية من جهة ولوقعها على الطريق التجاري مراكش - فاس من جهة أخرى . وهذا ما سيتم التطرق إليه من خلال مداخلات تناول تعدد أوجه النشاط الاقتصادي وتنوعه بالمنطقة .

(*) ألقاها الأستاذ عبد الرحيم العماري .

وغير خاف أن الدور الوطني الذي لعبته تادالا في مقاومة المستعمر الفرنسي أثار اهتمام المؤرخين المغاربة والأجانب وكان حافزا لهم على تقصي الحقائق التاريخية في إطار بحوث جادة . وسيتضح كل ذلك من خلال مداخلات الجلسة الرابعة التي ستقربنا من تاريخ تادالا المعاصر .

وإذا كانت بعض مداخلات محور المجال ذات صبغة عامة ، فإن معظمها عبارة عن استقراء لمعطيات ميدانية وقف عليها الباحثون أنفسهم وسيتم تقديم ذلك ضمن ثلاث جلسات خصصت الأولى منها للمشاكل البيئية الناجمة عن الإعداد الهيدروزراعي من جهة وإلى العلاقات الريفية الحضرية من جهة ثانية .

وفي الجلسة الموالية سيتم تناول المراكز الحضرية التادالية التي رشحتها المخططات الوطنية والجهوية لبلورة شبكة حضرية مكتملة البنية والوظيفة . كما أن مجالات هذه المدن عرفت ردود فعل مختلفة حسب موقعها داخل أو خارج الدائرة السقوية .

أما الجلسة الأخيرة فسيتم التعرف من خلالها على بنية موارد تادالا وإشكالية تنميتها وذلك بإبراز علاقة سكانها بالتنمية المستدامة وبجرد مواردها السوسيواقتصادية داخل إطار تنميتها الجهوية مع تحليل بعض مظاهر تكثيف أنظمة تربية الماشية بها .

وأخيرا سيتم تشخيص البنى الزراعية بتادالا وما تطرحه من مشاكل أمام تنمية " المنطقة " .

ولم تكن تسمية المحور الثالث في الندوة بالثقافة إلا إجرائية ؛ فقد تم التعامل معها كمؤسسة لها خاصية الوجود من حيث البنية والوظيفة وإذ أن الخطاب الثقافي التادالي يتراوح بين النظام اللساني من جهة ، والنظام غير اللساني من جهة أخرى ، اقترح تحقيق تكامل على مستوى المداخلات .

فمن منظور الخطاب العلمي المتعدد (علم النفس ، علم الاجتماع ، السوسيو-سميائيات) ، ستعالج قضايا المجتمع من حيث الموارد الطبيعية (السياحة) والبشرية (الطفولة والشباب) .

ولن يحول ذلك دون الانتباه إلى معالجة نماذج من الخطاب اللساني الشعبي من منظور علوم إنسانية : علم اللهجات ، والأنثربولوجيا الثقافية والسميائيات .

بيد أن تادالا لا تفتقر إلى خطابات ثقافية " عالمية " ، غنية بدلالاتها الاجتماعية والسياسية والتاريخية .

وإذا كانت رغبتنا منذ البداية منح كل مشارك وحاضر في هذه الندوة فرصة اختيار القضية أو القضايا التي تصب في صلب اهتماماته العلمية ؛ فإننا لا ندعي أن الاقتراحات كفيلا بالإجابة عن كل التساؤلات ؛ إن على المستوى المعرفي ، أو على المستوى المنهجي .

وإذا كان المعهد في الندوات العلمية الإلمام بجوانب الموضوع المدروس ، فإن الطموح يسمو أن يكون مدعاة للفتى أرحب وأوسع لحوار التخصصات العلمية وتكاملها حول موضوع جهوي .

ختاما ، لن تفوتنا الفرصة للتعبير عن مدى ابتهاجنا لقبول السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم بني ملال والسيد عميد جامعة القاضي عياض ترأس أشغال هذه الندوة ، كما نشكر السيد القيدوم الذي بذل قصارى جهوده بالتنسيق مع عدة جهات لإنجاح هذا المشروع العلمي . وسررنا غاية السرور بحضور أساتذة نحن مدينون لهم وتقتضي منا فضيلة الاعتراف بالجميل التنويه بشاركتهم في هذه الندوة ؛ فشكرا لجميع الحاضرين .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

المحور الأول

جوانب من تاريخ تادلا .

داي او الصومعة مركز ثقافي ببلاد تادالا

محمد حجي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الرباط -

تتقارب كلمات داي وتادالا والدلا فتشكل رموزا لم يهتم الباحثون بعد لحلها بكيفية قاطعة . وقد سبق لي في بداية الستينات عندما كنت أبحث في تاريخ الزاوية الدلالية أن توقفت أمام إشكالية مدلول هذه الأسماء ومدى تباينها أو تداخلها ، وعمومها أو خصوصها .

وكننت وصلت إلى نتيجة محتملة ولو أنني لم أطمئن إليها كل الاطمئنان ألا هي ترادف تادالا والدلا ، غير أن تادالا - كمنطقة ومدينة وقصبة - كانت معروفة مذكورة في أخبار كل الدول الإسلامية منذ الأدارسة ، حيث ورد أن إدريس الأول غزا سنة 172 بلاد تادالا ونشر فيها الإسلام ، وبعد وفاة إدريس الثاني وتوزيع الأقاليم على أبنائه سنة 213 كان من حظ ابنه أحمد - حسب رواية معظم المؤرخين - مدينة مكناس ومدينة تادالا وما بينهما من بلاد فازاز أي جبال الأطلس المتوسط . وحسب رواية البكري في المسالك والممالك أن يحيى بن إدريس هو الذي اختص بداي وما حولها من البلاد . وحتى مطلع القرن العاشر (16م) نرى الحسن الوزان في وصف إفريقيا يذكر من بين النواحي أو الأقاليم لمملكة مراكش ناحية تادالا ، وفصل فيها القول مدنا وجبالا ، وتبعه في ذلك مارمول في إفريقيا .

لكن ابتداء من منتصف هذا القرن (العاشر) وجدنا اسم الدلا - بدون تاء - أخذ يطلق على نفس منطقة الدير سهلا وجبالا ، وذلك في النصوص المشهورة لعبد العزيز الفشتالي في مناهل الصفا ، يقول عن تنصيب أحمد المنصور أولاده عمالا في الأقاليم : "وعقد للمولى زيدان أصغرهم على الدلا ، ثم بدا له أن يدل كل منهما بالآخر فنقل المولى أبا الحسن للدلا ، وعقد له على أعمالها ، وشفعها له ببلاد أدخسان جارتها والمتاخمة لها" (ص 191) وكل المصادر التاريخية مجمعة على أن ولاية زيدان وأبي الحسن

شملت إقليم تادلا كله .

وظهرت في نفس الفترة زاوية الشيخ أبي بكر المجاطي في الدلا على الحدود المطلة على تادلا . وإلى ذلك وجدنا أبا القاسم الزباني في **البستان الشريف** وغيره يكتب " يدلاً " - بالياء بدل التاء - وذلك ما سمعته من أفواه سكان المنطقة يوم زرتها مع المرحوم أحمد بن قاسم الزباني صاحب **تاريخ خنيفرة** .

أما " داي " التي يساق إليها الحديث فهي وإن لم يختلف لفظها ، ولا وقع اضطراب في موقعها الذي تقوم عليه اليوم مدينة بني ملال ، فقد حدث تضارب في معناها وتاريخ بنائها . فبينما كان المفهوم من الأدبيات التي تحدثت عن " داي " أنها مثل " داء " وزنا ومعنى ، لما عُرفت به من وخم الهواء وتعدد الأمراض لكثرة ما بها من عيون وشلالات ، وما يتبع ذلك من مستنقعات . مثل ما نجده عند الحسن البوسي في المحاضرات من قصص وإنشادات ، كقوله :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بسهب الشنين أو بسهب بنى ورا
وهل تعبُرَن نهرَ العبيدِ ركاثي وهل تترَكُن دايًا وأدواءَ ها ورا

إلى أن جاء أخيرا المستشرق كوتيبي Gauthier ونشر سنة 1926 في مجلة هسبريس مقالا بعنوان مدينة أوداي أي مدينة اليهودي ، وراج هذا الافتراض على ما به من تحمل .

أما عن تاريخ " داي " فالمشهور أنها من إنشاء المرابطين في القرن الخامس (١١م) إلا ما سبق من إشارة البكري إلى أنها كانت قائمة في عهد الأدارسة . وإذا صحت هذه الرواية فيكون المرابطون قد جددوا دايا حتى لكانهم أنشؤوها إنشاء . وهناك من يخلط بين داي ومؤسسة عمرانية مرابطية أخرى في تادلا هي تآكرارات القريبة منها . حسبهما بعضهم شيئا واحدا ، وزعم آخرون - اعتمادا على رواية شفوية عامية - أن يوسف بن تاشفين خرب دايا وبنى على أنقاضها تآكرارات . والواقع أن مدينة داي وقلعة تآكرارات عمارتان مستقلتان كانتا معا قائمتين في عهد المرابطين والموحدين . فداي كما وصفها الشريف الإدريسي في **نزهة المشتاق** واقعة " في أسفل جبل خارج من جبل درن . . . وهي صغيرة لكنها كثيرة العامر ، والقوافل عنها واردة صادرة " ويبدو

أنها التي يعني صاحب الاستبصار بقوله : " وبني فيها - تادلا - المثلثون حصنا عظيما منيفا وهو الآن معمور فيه الأسواق والجامع " ، في حين كانت تكرر قلعة عسكرية أقرب إلى الجبل كما تقتضيه طبيعتها . وهناك نص البيدق في أخبار المهدي الذي لا يدع مجالا للشك في وجود المؤسستين معا ، إذ وصف عن مشاهدة استيلاء الموحدين على تكرر ثم على داي .

وعن نهاية مدينة داي يحددها نص التشوف في سنة 1163/559 ويقول إنه طرأ على أهلها في هذه السنة ما طرأ وافترقوا في البلدان . وإذا كان سبب خراب داي غير معروف فقد افترض أخونا الأستاذ أحمد التوفيق - أخذاً من إشارات متناثرة في التشوف - أن يكون ذلك بسبب ثورة المريدين المتوافرين في تادلا وتأبيدهم للمسمى " عتاب " الذي قد يكون رام انتزاع السلطة من يد الموحدين بعد موت عبد المومن في السنة السابقة .

وأضيف أنه يؤيد هذا الافتراض الوجهه أمران : الأول ما عُرف من كراهية أهل داي لنحلة الموحدين وخروجهم عليهم المرة تلو الأخرى ، وذلك ما يُفهم من تكرر فتح تادلا وداي في عبارات ابن القطان في نظم الجمان ، كقوله في أنباء سنة ست وعشرين وخمسائة : ثم تحرك رضي الله عنه إلى داي مرة ثانية وردّ سريةً إلى بلد هزرجة وهم غافلون ، فقتلهم قتلا ذريعا . الثاني ما يُستشف من مختلف المصادر التاريخية أن السنتين المواليتين لوفاة عبد المومن يحيط بهما الغموض لشدة الاضطرابات وتوالي المؤامرات حتى من طرف أبناء عبد المومن أنفسهم ، بحيث لم يبايع أبو يعقوب يوسفبيعة الجماعة إلا يوم الجمعة ثامن ربيع الأول عام 22/560 يناير 1165 .

هكذا تكون داي عاشت كحاضرة لتادلا نحو مائة وسبعين سنة ، قمتت خلالها برفاهية العيش بسبب موقعها الاستراتيجي وسط البلاد ، وعلى الطريق الرئيسية بين الشمال والجنوب وحاضرتيها فاس ومراكش ، وبسبب خصب تربتها ووفرة مياهها ، كما امتازت بوفرة علمائها وصلحائها ، فغدت بذلك المركز الثقافي اللامع في منطقة تادلا ، واشتهر أعلامها بنسبتهم التادلية ، ولم يُنسبوا إلى داي مباشرة ، ربما لما يشعر به هذا الاسم من داء ووباء ، فيقال للواحد منهم تادلي من داي أو أصله من داي . وقد عم إشعاع مدينة داي الفكري والديني كل مراكز تادلا المحيطة بها كمدينة تادلا العتيقة على

مرحلة منها ، وعين الحوت في شمالها الغربي ، وقلعة تاكرارات التي تدعى أيضا محلة داود نسبة إلى القائد المرابطي داود بن عائشة ، ويسمى بها البيذق تاكرارات مُتاعُ داود .
وقرية نضير المعروفة اليوم بدوار أولاد عبد الله . كل هذه المراكز وغيرها من مواقع التجمعات السكنية في تادالا كانت على صلة قوية أو ضعيفة بداي ، تستمد منها وتلتجئ إليها في التعليم والتربية الروحية والأحكام الشرعية .

إنه من المؤسف ألا نجد من مؤلفات العصر الوسيط كتباً أخرى غير *التشوف* تهتم بالحياة الدينية والفكرية في هذه المنطقة التبادلية الغنية . وسنحاول أن نستخرج من إشارات هذا الكتاب ، وأخرى مبثوثة في بعض المصادر ، صورةً تقريبية سريعة لداي كمركز ثقافي في بلاد تادالا خلال القرنين الخامس والسادس (11 - 12م) . وقد لا نكون مغالين إذا قلنا إن تمركز الثقافة العربية الإسلامية في بلاد تادالا يرجع إلى حاضرة داي في هذه الفترة .

عاش في داي جماعة من الفقهاء والصلحاء اشتهروا بالتدريس والإفتاء والخطابة ، أو بالنسك والزهد وتربية المريدين . وتوارثت أسرٌ منهم العلم والصلاح ، أو الخططُ الشرعية . كآل ويحلان أو ويحلان الذين كان منهم أبو الربيع سليمان بن يوسف خطيب داي وفقهها ، وخلفه في ذلك ابنه أبو موسى عيسى بن سليمان . وغلب طابع الزهد والتشوف على معظم الفقهاء المدرسين في داي ، أو هذا بالأحرى ما حرص على تسجيله ابنُ الزيات ، كأبي موسى عيسى الرفروفي الذي عاش متفرغاً للعلم والعبادة ، " ما تزوج ولا تلبس بالدنيا " ، وكأبي سليمان داود بن يحيى الجراوي رفيق الخطيب أبي موسى ابن ويحلان ، الذي كان ينقبض عنه وينصرف إذا رأى لديه ترفها ونعيما ، كما كان يُغلق باب داره في وجه من يلاحظ عليه من تلاميذه زهواً أو مخالطةً لأهل الدنيا .

ومما يدل على انتشار العلم بين سكان داي أنه كان من بين تجارهم فقهاء علماء ، كأبي يعقوب يوسف المؤذن الذي ظل يؤذن بصومعة داي أربعين سنة ما طلع الفجر إلا وهو على الصومعة ، وروى مؤلف *التشوف* عن والده أخباراً طريفة عن هذا التاجر الفقيه الصالح الذي كان رجلاً طويلاً جهير الصوت يُسمعُ صوته عن بعد ، ويُشدُّ عند السحر فوق الصومعة مقطوعة زهدية مطلعها :

يا طويلَ الرقادِ والغفلاتِ كثرةُ النومِ تورثُ الحسراتِ

ثم يبكي فلا يسمع صوته أحداً إلا بكى لبكائه . وفي النهار إذا رأى الناس تكاثروا على حانوته للشراء منه ، أرسل الشبكة عليها وقال : سبحان الله ! سوق الدنيا عامرة وسوق الآخرة خالية ، ودخل المسجد ليصلي فيه .

أكره يوسف المؤذن على تولي خطة الحسبة في داي ، فدخل داره يبكي وامتنع من أكل لحم السوق إلى أن أعفي من ولايته . ونحن نعلم أن الحسبة فرع من القضاء لا يتولاها إلا من يتقن فروع الفقه . ولو لم يكن يعرف الأحكام لسهل عليه التخلص من هذه الخطة التي أزعجته وأبكته وحرمته من ضروريات العيش . ولعل مما يزكي المكانة العلمية لمدينة داي ، إن صحت رواية أحمد المقرئ في *أزهار الرياض* عن ابن رشيد ، أن الموحدين عيّنوا لقضائهم سنة 541 القاضي عياض الشهير ، بعد أن ولي قضاء مسقط رأسه سبعة مرتين ، وقضاء غرناطة بالأندلس . ومهما يكن فإن لداي ارتباطا ثابتا بعياض وذكرنا في شعره الذي يقول فيه :

فكم من فلاة بين داي وسبتة وخرق بعيد الخافقين قواء

ولا ننس والد مؤلف *التشوف* ، العالم الصالح يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي الذي قضى حياته في داي ، ولم يغادرها إلا عندما وقعت الواقعة التي شتتت شمل أهلها ، تدل رواياته وأخباره وإنشاداته في *التشوف* على علم واطلاع ودقة ملاحظة . كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن شعلة داي لم تنطفئ بإخلائها وتحطيم جدرانها ، فقد التحق أهلها بمراكز ثقافية أخرى وتابعوا رسالتهم العلمية ، فاشتهر في فاس عبد الله بن محمد ابن عيسى التادلي الذي كتبت *المدونة* من حفظه بعد أن أحرقها الموحدون ، وفي مراكش الحاضرة المرابطية شقيقة المفقودة ، تجمع أهل داي في جانبها الشرقي ، ومعهم علماءهم وصلحائهم أمثال أبي يعقوب يوسف بن عبد الله بن مصباح التادلي ، ومحمد بن تميم الزناتي التادلي ، ويحيى بن أبي بكر مع الله التادلي الذي قرأ عليه هناك الصبي المهاجر يوسف بن يحيى التادلي الذي سيخلد في تشوفه أخبار داي وتادلا ودكالة وسائر بلاد الجنوب المغربي .

وفي موقع داي قامت في أوائل القرن التاسع (15م) زاوية الصومعة على يد الشيخ الصوفي العالم سعيد أمسناو تلميذ عبد العزيز التباع أشهر مريدي الشيخ محمد ابن سليمان الجزولي . والصومعة التي أضيفت إليها الزاوية هي صومعة الجامع المرابطي

داي ، ويظهر أنها سلمت من عوادي الزمن . ولم يمض وقت قصير حتى تكاثر البناء حول الزاوية فأصبحت قرية البلد ومقر الإمارة ، ودار العلم والصلاح كما كانت من قبل . تذكر المصادر أن عدد مريدي سعيد أمسناء وتلامذته في زاوية الصومعة بلغ ثمانمائة أو ألفا ، كان يُطعمهم ويسهر على تربيتهم عن قرب ، وربما أخذهم بالشدة وضربهم بالعصا حرصا على نفعهم وتقويم سلوكهم ، ومع ذلك كانوا واقفين عند إشارته ممثلين لأوامره .

وبلغت زاوية الصومعة أوجها مع الشيخ الكبير أحمد بن قاسم الصومعي التادلي الذي انقطع فيها لتعليم الصغار والكبار زهاء نصف قرن ، إلى أن أزعجه السعديون عنها ونقلوه إلى مراكش بعد اختلاقه مع الأمير زيدان في صحة صيغة المغزى الذي سُمي به الصومعي كتابا له في مناقب الشيخ أبي يعزى . وقد حظي الصومعي بترجمة حافلة من قبل أحمد المقرئ في كتابه *روضة الأس* ، وصفه وهو يدرّس في جامع الكتبيين ، وكتبه تُقرأ بين يديه ، والناس يزدحمون للسلام عليه والتبرك به فلا يخلص منهم إلا بعد جهد . واستجاز المقرئ أحمد الصومعي فأحضر هذا ستين كتابا من مؤلفاته وأجازه بها .

واشتهر أيضا من رجال الصومعة عالمان آخزان ، هما محمد بن عبد الرحمن الصومعي التادلي الذي درس في الزاوية الدلائية ، وشرح *سينية ابن باديس* في التصوف ، و*همزية البوصيري* في السيرة النبوية ؛ وعبد الرحمن بن إسماعيل الصومعي التادلي الذي فعل ما فعله سلفه يوسف ابن الزيات التادلي في *التشوف* ، ألف كتابا في التعريف بصلحاء الصومعة وتادلا والبلاد المجاورة لها سماه *تشوف الراغبين إلى السادة الكرام المتصوفين* ، ويعرف *بالتشوف الصغير* ، لاختصاره وتقييمه عن تشوف ابن الزيات .

شاء ربك أن تظل هذه البقعة المباركة دار علم ومعرفة باسم داي ، أو الصومعة ، أو بني ملال مقر كلية الآداب والعلوم الإنسانية التي نسعد اليوم بحضور انطلاقاتها الجامعية الموفقة راجين لها اطراد التقدم والازدهار .

تادالا في العصر الوسيط

محمد زنيهر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الرباط -

لم يهتم المؤرخون في العصور المنصرمة بكتابة تاريخ خاص بتادالا . ولذا فمن الواجب التأكيد بأن كثيرا من أخبارها في العصر الوسيط وحتى في العصر الحديث قد ضاع . وكل ما لدينا ، في الحقيقة ، هو إشارات عابرة ومقتضبة في مصادر مختلفة نستطيع من جمعها وترتيبها أخذ فكرة ولو ناقصة عن حضور تادالا في تاريخ المغرب .

ولكم تساءلت شخصا عن إمكانية العثور على مخطوط فيه تاريخ للمنطقة وإلى حد الساعة لم يبلغ لعلمي شيء يتعلق بذلك ، ما عدا كتب المناقب التي أفاضت في الحديث عن أولياء المنطقة وزواياها ، ولكن المناقب إن كانت مفيدة حقا ، فإنها لا تكشف لنا إلا جانبا محدودا ومحددا من التاريخ . هنالك العلوم المساعدة للتاريخ التي ربما مازالت لم تقل كلمتها الأخيرة مثل الأركيولوجيا ، وعلم النميات والكشوف الجوية . وكل ذلك مازال في محط الانتظار .

لكن قبل البحث في الجانبات التاريخية لنتساءل : ما المراد من تادالا وهل هي منطقة لها خصوصيتها داخل المغرب ؟ وما هي حدودها في التاريخ الوسيط ؟ هنالك جواب للجغرافيين وآخر للمؤرخين . فأما الجغرافيون فإنهم يصفون تادالا كسهل يحده نجد الفوسفاط والنجد الأوسط في الغرب والشمال والأطلس المتوسط شرقا وجنوبا . وهي منطقة يغلب عليها الجفاف إذ لا تتلقى إلا 300 مم من المطر في السنة ما عدا منطقة الدير المحاذية للأطلس المتوسط التي تستفيد أكثر من الرطوبة . ولعل إقليم بني ملال بدوائره المختلفة دائرة بني ملال ، دائرة بني موسى ، دائرة القصيبة ، دائرة الفقيه بن صالح ، دائرة قصبة تادالا ، يغطي معظم ما يصطلح عليه الجغرافيون باسم إقليم تادالا (J. Martin etc . . . Géographie du Maroc) .

فماذا يقول المؤرخون في هذا الصدد ؟

نجدهم ، أولا ، يشعرون بأن تادلا إقليم له خصوصيته التي تميزه عن الأقاليم المجاورة ، فيذكرون اسمه في كتبهم ، مفترضين أن المنطقة بلغت من الشهرة ما جعلها في غنى عن مزيد من التعريف . فالبكري يكتفي بذكر " داي وما والاها " كتعريف بالإقليم⁽¹⁾ . وأما الإدريسي الذي جاء بعد البكري بنصف قرن ، فإنه يذكر اسم تادلا في الجزء الأول من الإقليم الثالث . إلا أنه يفهم من كلامه أنه يتحدث عنها كمدينة لا كإقليم وذلك ، حين يقول متحدثا عن ذلك الجزء : وفيه من بلاد البربر سجلماسة ودرعة وداي وتادلا . . .⁽²⁾ فهو يعطفها على مدن أخرى ، ويذكرها إلى جانب داي التي هي ، أيضا ، من منطقة تادلا . وفي مكان آخر يتحدث عنها صراحة كمدينة⁽³⁾ وأما صاحب الاستبصار فيتحدث عنها هو الآخر كمدينة ، مضيفا إلى ذلك توضيحا لا تخفى أهميته وهي أن المدينة " قديمة فيها آثار للأول"⁽⁴⁾ مما يذكروا بأهمية التنقيب الأثري ، ويبين لنا أن المنطقة لربما كان لها تاريخ يرجع بنا إلى ما قبل الإسلام . وهو ما تؤكد لنا الباحثة الفرنسية " جاكلين مونيي " في دراستها المهمة عن المغرب الصحراوي التي تؤكد فيها أن الجنوب المغربي ، الذي أهمله المؤرخون الأقدمون ، كان له تاريخ يرجع بنا إلى ما قبل الميلاد ، مع قدوم اليهود إلى جهات الواحات الجنوبية وتأسيس إمارات ودويلات أمكنها أن تخرق الأطلس الكبير لتتزل إلى الحوز وناحية تادلا⁽⁵⁾ . ومهما يكن ، فالبحث لا بد وأن يتناول هاته النقطة المهمة ليشبعها درسا .

واعتقد أن المدينة ، مدينة تادلا ، نالت من الأهمية ما جعلت اسمها يطلق على المنطقة كلها ، وهي عادة جارية في أقطار المغرب العربي حيث تطلق تونس على القطر وعاصمته ، وكذلك هو الشأن في الجزائر وطرابلس . وإذن ، يمكننا أن نقول إن اسم تادلا كان يطلق على مدلولين : مدلول ينحصر في مدينة ، وآخر يشمل كل إقليمها وهذا منذ أوائل العصر الوسيط ، كما سنرى .

وإذا لم يكن من الممكن أن نكتب تاريخا متصلا لإقليم تادلا ، فنستطيع على الأقل ، من خلال المعلومات المتوفرة لدينا أن نلمس بعض الأدوار التي قام بها الإقليم في فترات مختلفة من التاريخ ، وأن ندرك بعض العوامل التي أكسبته جاذبية سواء بالنسبة للدولة (المخزن) أو بالنسبة لعامة الناس .

ولا شك أن أول تلك العوامل هو الموقع الذي يجعل أقصر الطرق الرابطة بين

مراكش وفاس أو بين الجنوب والشمال ، بصفة أعم ، هي الطريق المارة من تادلا . ثم إنها طريق تمر على مناطق مختلفة من حيث تعدد الموارد الاقتصادية وإمكانيات التبادل التجاري والاتصال بين السهل والجبل وتوفر الأسواق . وقد حرصت الدول المتعاقبة على امتلاك هذه الطريق لأسباب منها :

1 - هي الطريق التي كانت تمكنها من بسط هيبتها في الأطلس المتوسط والتحكم في مسالكه المختلفة . ومن المعلوم أن تلك السلسلة الكبيرة من الجبال كانت معقل قبائل صَناكة أو صنهاجة المعروفين بنزوعهم إلى الحرية والتمرد على السلطة المركزية .

2 - هي الطريق التي كان يمكن أن يأتي منها خطر على الدولة القائمة من جهة قوة أخرى ناشئة كما يمكن أن نشاهد في مثال الموحدون مع المرينيين أو مثال الوطاسيين مع السعديين . ومن المعلوم أن الزاوية الدلائية التي كانت مسيطرة على تادلا ظلت تشكل تهديدا خطيرا للدولة السعدية في آخر عهودها .

3 - إن السيطرة على تادلا يمكن من السيطرة على السهول المجاورة التي تفصلها عن المحيط الأطلسي والتي كان يضمها إقليم تامسنا . فالسهل يتهيب في الغالب السلطة المتمكنة من الهضاب المجاورة .

4 - لا ننس الجانب المعنوي . فاشتهار تادلا بكونها إقليما صعبا ومنيعا ، جعل الدولة حينما تتمكن من ضبطه وحكمه تنال من وراء ذلك سمعة وهيبة لدى عموم سكان المغرب . ولذلك فإن الدول المتعاقبة كانت في وقت عنفوانها تحرص على الاستفادة من هاته المنزلة ، فتبذل قصارى جهدها في بسط نفوذها على ذلك الإقليم .

إلى جانب الموقع ، يجب ذكر غنى المنطقة على المستوى الاقتصادي . طبعنا نحن نعرف اليوم ونشاهد بأم عينينا أن تادلا تعد من أغنى الأقاليم المغربية . وهذا ناتج عن إنشاء بنية تحتية واسعة النطاق وعن دراسة علمية معمقة واستخدام تقنيات جد متطورة . وكل هذه أحداث لم تقع إلا في القرن العشرين . فكيف كان الوضع في القرون الماضية ، سيما إذا اعتبرنا أن المنطقة من المناطق التي يغلب عليها الجفاف ؟

هنا نعود إلى مصادرتنا الجغرافية والتاريخية لنستنتقها في هذا الصدد . ونبدأ

بأقدم مصدر لدينا ألا وهو أبو عبيد الله البكري ، الذي يقول منذ ألف سنة ، تقريبا ،
متحدثا عن المنطقة :

" . . . ومنها إلى حصن داي وهو في وسط غيضة كبيرة من أجناس
الشجر وله سوق حافلة يجمع فيها رفان فاس والبصرة وسجلماصة بضروب الأمتعة
والمتاجر . . . " (6)

- بعد ذلك بقرن نجد تأكيدا لهاته الصورة في مصدر آخر لا تخفى أهميته وهو
نزهة المشتاق للإدرسي ، إذ يقول :

" ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن . وهي مدينة بها معدن النحاس
الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغارها . وهو نحاس حلو لونه
إلى البياض يتحمل التزويج ويدخل في لجام الفضة . . . ومدينة داي صغيرة ، لكنها
كثيرة العامر والقوافل عليها صادرة وواردة . ويزرع بها وبأرضها كثير من القطن . ولكنه
بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينة داي . ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيرا ويسافر به
إلى كل الجهات . ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب الأقصى ولا
يحتاجون إلى قطنها مع غيره من أنواع القطن المجلوب من سائر الأقطار . وبهاتين
البلدتين أرزاق ومعاش وخصب ونعم شتى . وأهلها أخلاط من البرابر . " (7)

وبعد ذلك بنصف قرن يتحدث صاحب **الاستبصار** بدوره ، فيقول مؤكدا ما ورد
سابقا :

" مدينة تادلة : هي مدينة قديمة فيها آثار للأول . وبنى فيها المثلثون حصنا
عظيما منيفا . وهو الآن معمور . فيه الأسواق والجامع . والبلد كله كثير الخيرات والأرزاق
وأحاطت به القبائل من كل الجهات . فهو حقيق بالمملكة والأمر العزيز أدام الله دوامه
ملتفت له محتاط عليه . " (8)

من هاته الشهادات الثلاث يتضح أن تادلا كانت متوفرة على موارد اقتصادية
مهمة تضم الإنتاج المعدني إلى جانب الإنتاج الزراعي والصناعي مع التسويق التجاري
وهي الوضعية التي كانت عليها المنطقة ، على الأقل ، في القرنين الخامس والسادس
للهجرة ، إذا وقفنا عند خد الشهادات التي أوردنا .

فهل ستحتفظ تادلا في القرون التالية بنفس المكاسب ؟ أم هل سيدخل عليها بعض التغيير ؟ . والسؤال معقول إذا أدخلنا في الاعتبار التغيير الذي طرأ على تركيب السكان في المنطقة بدخول العرب إليها ومن المعلوم أن نمط حياة العرب الطائرين يختلف عما كان عليه السكان الأصليون . فالعرب أهل كسب ورعي أكثر منهم أهل زراعة . فمن المنطقي ، إذن ، أن ندلي بالتساؤل الذي طرحناه .

وقد رجعت إلى الحميري في *الروض المعطار* فوجدته يكرر ما عند الإدريسي بحيث لا نشعر بأن لديه معلومات جديدة .⁽⁹⁾ وأما ابن الخطيب ، فإنه لم يمر في طريق عودته من مراكش على تادلا ، بل تابع الطريق الساحلي ومصر من تامسنا كما ورد في رحلته المهمة *نفاضة المجراب* ⁽¹⁰⁾ . وكلاهما عاشا في القرن الثامن الهجري أي الرابع عشر الميلادي .

لكن الحسن الوزان الذي جاء بعدهما بقرنين قطع السكوت وملاً الفراغ وكان مفيداً . فذكر أن تادلا تعد أحد الأقاليم السبعة التي تحتويها مملكة مراكش ثم يشير في مكان آخر إلى كونها من أجود السهول الممتدة ما بين المحيط والأطلس ويشير إلى غنى الإقليم وأهله في فقرات مختلفة . منها وهو يتحدث عن تفزة ، حاضرة تادلا بقوله :

" سكان تفزة كثيرون أثرياء وفيها نحو مائتي دار لليهود ، كلهم تجار أوصناع . يقصد تفزة عدد وافر من التجار الغريباء ليشتروا منها بعض المعاطف السود . التي تنسج قطعة واحدة بغطاء الرأس . ويسمى هذا اللباس البرنس يباع عدد منه في إيطاليا وإسبانيا حيث يوجد بكثرة . ويباع بتفزة على الخصوص أدوات مصنوعة بفاس كالأقمشة والسكاكين والسيوف والسروج والشكائم والقلنسوات والإبر وأدوات الخياطة " ⁽¹¹⁾ .

والتنصيص على كون تفزة في كلام الوزان هي حاضرة تادلا يرجح كثيراً أنها هي مدينة داي أي مدينة بني ملال الحالية ، لأن هذا الاسم لم يعد له الآن ذكر . وفيما يخص الزراعة ، يشير المصدر في فقرات مختلفة إلى ازدهارها ، فهو حين يتحدث ، مثلاً ، عن آيت عياض بنفس الإقليم ، يقول : " أرض السهل خصبة كذلك تنتج كل أصناف الحبوب . وأرض الجبل جيدة لإنبات الشعير ورعي المعز " ⁽¹²⁾ ومع ذلك لا نجد ذكراً للقطن في المزروعات فهل اختفى من المنطقة أم إن الوزان لم ينتبه إليه ؟

كلا الجوابين محتملان. ودون أن أقطع برأي نهائي ، يخيّل إلي أن انتشار الرعي في المنطقة على يد العرب الذي كان من أفضاله ظهور ذلك الخروف المشهور بالمغرب ، وأعني به الخولي التادلوي ، كان له ، ولربما ، أثر في تقلص بعض الزراعات . ومهما يكن ، فقد وقع تعويض القطن بلحم الخروف . وهنالك الكثير ممن يصفقون لهذا التحول ويفضلون أكل اللحم على لباس القطن . ونحمد الله اليوم على أن مكنتنا من الجمع بينهما بفضل التقدم العلمي والتنظيم العقلاني لاستثمار الأرض . والموضوع يحتاج إلى بحث تاريخي معمق للخروج بنقائض موثقة لا بافتراضات كما فعلنا الآن . والمهم بالنسبة لبحثنا الحالي هو أن نصل إلى هذا الاستنتاج ، وهو أن التحول الذي طرأ على ساكنة تادالا لم يكن له أثر سلبي على غناها وثروتها الاقتصادية ، خلافا لما توحي به بعض الكتابات الاستعمارية من أن استقرار بعض القبائل العربية بسهول المغرب أضر بالاقتصاد الزراعي .

هنالك جانب ثالث من عوامل الجذب إلى المنطقة . وينتقل بنا هاته المرة من الحياة المادية إلى الحياة الروحية ، وهي أن التاريخ يكشف لنا بأوضح صورة أن تادالا كانت منطقة تصوف من الدرجة الأولى . فهل لذلك تفسير ؟

أشعر بأن الموضوع طويل وعريض ويحتاج إلى بحث مطول ، ولذلك فأنا مضطر إلى الاختصار ، ومع الاختصار قد تفوتني أشياء مهمة . ولنبدأ أولا ، بأخذ صورة على انتشار التصوف بتادالا .

إذا وقفنا عند حدود القرن السادس ، وهو القرن الذي أُرُخ له ابن الزيات في *التشوف* ، نجد أكثر من عشرين ترجمة خاصة برجال التصوف الذين نشأوا بتادالا أو استوطنوها ، بحيث لا نتردد في القول بأن تادالا كانت أحد مراكز التصوف الكبرى بالمغرب ، بل أحد المراكز التي بنت التصوف المغربي وأخرجته إلى الوجود . بل إن أحد أقطاب التصوف المغربي كان من أبناء المنطقة ، ألا وهو أبو يعزى يكنى بالذي أخذ التصوف عن أبي شعيب السارية الدكالي وأصبح شيخا لكثير من رجال التصوف منهم أبو مدين . يقول عنه الصومعي في كتابه *المعزى* : " الأئمة الذين أخذوا عنه وظهرت عليهم عنايته وأشرفت لهم أسرارهم فانتفعوا به أكثر من أن يحصى عددهم ، والمشهور منهم جماعة " ⁽¹³⁾ ثم ذكر بعد ذلك من تلاميذه أبا مدين بن شعيب الأنصاري ، وأبا محمد

يسكر بن موسى الجراوي ، ويحيى بن صالح المزطار ، وأبو يلبخت ياللتن ، وأبو يحلوا الصديني ، وأبو الصبر أيوب الفهري السبتي ، ومالك بن تانجوروت ، وأبو جعفر محمود بن يوسف الصنهاجي التادلي إلخ . . . وأتم هذا الاستعراض بنقل جملة أوردتها الصومعي في المعزى ، رواية عن أحد أصحاب أبي يعزى يقول فيها : " أدركت بتادلا ثلاثمائة وسبعين رجلا من الصالحين ، كل منهم يزار . " (14)

طبعاً ، ما ذكرناه إلى الآن يتعلق بالقرن السادس . فهل استمرت هاته الحركة في القرون التالية؟ ليس لدينا ، مع الأسف ، مؤرخون من نوع ابن الزيات والتميمي لرسم صورة كاملة عن التصوف المغربي في القرون التالية. على أننا نفهم من كلام ابن الزيات (15) أن حركة التصوف ربما تكون قد ضعفت في عصره ، أي في وقت تأليفه لكتابه سنة 617 هـ وذلك حين يقول : " وبالجملية فقد قل الصالحون المخلصون في هذا الأوان " ولعلها ظاهرة طبيعية . فالتاريخ يسير حسب حركة جدلية تبرز أشياء وتخفي أشياء . فالقرن السادس شاهد الدولة الموحدية في عنفوانها فنمت في ظلها وكنقيض لها الحركة الصوفية ، بينما عرف القرن السابع تدهورها وانقراضها وقيام دولة جديدة ، مما جعل منه قرن فتن واضطراب وتقلبات ، مما يدفع بالحياة الروحية إلى نوع من التهميش والانزواء ، ويحولها إلى أطوار أخرى من التعبير عن نفسها . بحيث إن جذوة الصوفية لم تمت ، ويكفي أن نذكر كدليل على ذلك أن الشيخ الصوفي أحمد التادلي الصومعي مؤلف كتاب المعزى الذي عاش في القرن السادس عشر في عهد السعديين ، يعقد فصلاً كبيراً في كتابه يتحدث فيه بإسهاب عن اتصال سلسلته " بالشيخ الإمام القدوة سيدي أبي يعزى . " (16)

وفيما يخص منطقة تادلا بالذات ، فقد عاشت تحولات كبيرة في عهد الموحدين . ونستنتج من قراءة ابن خلدون أنها آوت خليطاً من السكان فيهم زناتة وصناكة وهسكورة . ويلخص الوضع بالنسبة للمناطق السهلية بقوله : " بقيت البسائط من الغرب مثل أزغار وتامسنا وتادلا ودكالة . واعتمرها الطوائع من العرب الطارئين عليه من جشم ورياح . ففص المغرب بساكنه من أمم لا يحصيه إلا خالقهم . " (17)

فيتبين من ذلك عدم استقرار في نوعية السكان وأصولهم . فالبربر ليسوا من فصيلة واحدة إذ فيهم مصمودة وزناتة وصناكة . ولا يقف الأمر عند هذا الحد في الاختلاف ، إذ ما لبث أن جاء العرب بقوة على يد الموحدين ليأخذوا مكاناً كبيراً في

المنطقة . وهذا الحدث الأخير هو الذي يجب أن يستأثر باهتمامنا لما رافقه من صراع وعنف وتحولات اجتماعية في تركيبة السكان . وليست لدينا ، مع كامل الأسف ، معلومات دقيقة في هذا الشأن ، اللهم إلا ما أورده ابن خلدون .

فابن خلدون يحدثنا عن المشاكل التي جرت بين أحد البطون من قبيلة جشم الهلالية العربية وبين الموحدين في وقت تدهور سلطانهم ، عند وفاة يحيى بن الناصر سنة 633 هـ . وهذا البطن هو المعروف باسم جابر ، الذين اضطروا ، في الأخير ، فرارا من مضايقة الموحدين إلى الالتجاء إلى منطقة تادلا في سفح الجبل " يجاورون هنا صناكة الساكنين بقشته وهضايه من البربر ، فيسهلون إلى البسيط تادلا ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخاطر من السلطان أو من ذي غلبة . " (18)

لكن ، كيف استقر بنو جابر بتادلا ؟ وكيف أصبحوا مسيطرين عليها أو على جزء منها ؟ ألم يكن هنالك سكان قبلهم ؟ تلك أسئلة لا نجد أجوبة عليها في المصادر . ولا شك أن استقرارهم لم يتم بدون صراع ومعارك . على أن ذلك الصراع قد يكون مخففا بعض الشيء إذا افترضنا أن بني جابر ، بحكم تقاليدهم العربية ، لم يأتوا لامتلاك الأرض الزراعية وإنما للحصول على مراعى جيدة لما شيتهم . ومع ذلك ، فإن وجودهم بالمنطقة كقوم ذوي عصبية وذوي تقاليد حربية جعل لهم نفوذا قويا وحاسما في تقرير مصير الإقليم . وما كان صناكة الأطلس المتوسط يقبلون التحالف معهم لو لم يكونوا شعروا بقوتهم ووجدوا لديهم الحليف المناسب لمواجهة السلطة المركزية .

لكن قدوم العرب لم يقف عند هذا الحد ، فقد جاءت موجة أخرى من عرب معقل اليمنية ، الذين كانوا من جملة ما انتشروا فيه من أرض المغرب بلاد تادلا حيث جاءت أفواج من ذوي منصور (19) . ويذكر ابن خلدون أنهم " أقطع لهم ببلاد تادلا والمعدن من تلك الثنايا التي منها دخولهم إلى المغرب للمربع والمصيف والميراث الأقوام " . ويشير ابن خلدون في مكان آخر إلى الامتيازات التي أصبح يتمتع بها هؤلاء العرب في عهد بني مرين وبالتفات منهم ، إذ يقول : " ولأولاد حسين هؤلاء استيلاء على هذا الوطن ومن يازائه في جملة من قبائل البربر صناكة وغيرهم . ولهم عليهم ضرائب وخف ووضائع ولهم في مجابي السلطان إقطاعات . " (20)

تلك بعض الإشارات الواردة عند ابن خلدون والتي لولا اهتمامه بتدوينها لغابت عنا بالمرّة أخبار العرب بتادلا ، التي يتراءى من خلفيتها أن لهم قصة طويلة بالإقليم ، قصة قد تكون صورة أخرى من قصص أبي زيد الهلالي المشهورة .

وتفرعت عنهم ، اليوم ، عدة قبائل أصبح اسمها معروفا مثل ورديفة وبني عامر أو بني عمير وبني موسى ، وبني شجدال وآيت الربيع وأولاد يعيش وبني جابر الذين يمثلون أحد الأصول الأولى والذين كان لهم تاريخ حافل مع الدولة الموحدية في أخريات أيامها . ويقول الشيخ عبد العزيز الملوّزي في ذكر بني جابر :

جماعة جابر قوم كرام	كسوا من صدق نصحهم ثيابا
فجروا منه يوم الحرب ذبلا	على الأعداء تنسحب انسحابا
بيوسف بن قيطون تساموا	فعرّزوا جانبنا وسموا جنابا
فلا بن عجّاج الأرضى على	فخار يورث الشرك اكتسابا
لأن أخرتم في الأرض يشهد	لكم في سبقكم من حل زابا (21)

وما كان شاعر بني مرين يقدم على مثل هذا الثناء لو لم يكن لملك القبيلة اعتزاز وحسن أحواله في عهده . مازلنا لحد الساعة لم نجب على السؤال الذي طرحناه بشأن ازدهار الحركة الصوفية بتادلا في القرن السادس الهجري وما طرأ عليها فيما بعد من تراجع ظاهري بسبب التقلبات السياسية والبشرية التي طرأت على المنطقة والتي كانت سبب استطرادنا إلى الحديث عن العرب واحتكاكهم بالسكان الأصليين في تادلا .

هنالك ، في الواقع أسباب مختلفة نذكر منها :

1 - أن منطقة تادلا كانت منطقة التجاء واعتصام . وحينما ظهر الموحدون بسلطتهم الكبيرة وإدارتهم المضبوطة ومذهبهم الصارم القائم على المهدوية صادفوا جملة من المعارضين والمتحفظين الذين فضلوا أن يظلوا بمنجاة من مراقبتهم ومضايقتهم ، فكانت تادلا بفضل موقعها من الأمكنة المساعدة على مزاولة النشاط الاعتراضي في صورته الصوفية (22) .

2 - أن تادلا بحكم موقعها في سفوح الأطلس المتوسط أصبحت من المناطق المؤهلة للدعوة الإسلامية . ومن المعلوم أن الدولة الإدريسية ، وهي التي حملت كبر نشر

الدين المحمدي في المغرب ، اعتبرت تادلا من المراكز الأساسية . فكان أن أناط محمد بن إدريس بأخيه يحيى إمارة داي ومنطقتها ، حسب رواية البكري ⁽²³⁾ . والتوجه بالدعوة كان ، بالطبع ، إلى الأطلس المتوسط الذي كانت تقطن به قبائل منيعة ، صعبة المراس ، قبائل صناكة ، التي كانت متحصنة في وديانها وشعابها وسط جبال وأوعار لم يكن من السهل اختراقها والجوس خلالها . وليس من السهل معرفة وقت دخولها إلى الإسلام ، بالتدقيق . ولكن ، كل القرائن تدل على أن ذلك تأخر بمدة ليست بالقصيرة بالنسبة لجهات أخرى من المغرب ، وأن السكان حتى إذا اعتنقوا الإسلام ، لم يكونوا حريصين في حياتهم اليومية على تطبيق كل تعاليمه والإقلاع عن بعض العادات الموروثة عن العهود السابقة .

لكل هاته الأسباب حرص الأدارسة على تأسيس إحدى الإمارات بتادلا في مواجهة الأطلس المتوسط حتى يقوموا بتبليغ الدعوة إلى أهاليه . وليست لدينا ، بكل أسف ، معلومات وفيرة عن تاريخ تلك الإمارة . وكل ما نستطيع أن نؤكد به بالنسبة لهاته الفترة الأولى من تاريخ الإسلام بالمغرب هو أن الأدارسة تمكنوا من الاستقرار بتادلا ، بل ومن التوغل داخل الأطلس المتوسط المجاور ، كما تدل على ذلك دور السكة التي أنشأوها في وازقور ، ومريرت ، ومهنا وتغراك وما قرب منها . ⁽²⁴⁾ ومن دلائل استقرار الحكم الإدريسي بالمنطقة ، قدوم مهاجرين من الأندلس إليها . ⁽²⁵⁾

ومهمة الدعوة إلى الإسلام ظلت من تقاليد المنطقة المرعية إلى اليوم كما يدل على ذلك عدد الزوايا الكبرى التي اتخذت تادلا منطلقا لها أو مركزا من مراكزها الأساسية ، كما تدل على ذلك أسماء عدد من الزوايا في العصر الحديث مثل زاوية علي البوزيدي ، وزاوية الصومعة ، والزاوية الدلائية إلخ .

تلك نظرة عجلت على بعض الجوانب المثيرة في تاريخ تادلا أثناء العصر الوسيط اقتصرنا فيها على التعريف بالإقليم جغرافيا وتاريخيا ، وذكر الموقع الممتاز الذي يتميز به داخل المغرب ، وغناه من الناحية الاقتصادية ، ودوره في حياة التصوف بالمغرب ، والتحولت التي طرأت على تركيبة ساكنته واستقرار العرب بربوعه ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام مع ذكر عدد من الأحداث المهمة . وتخلينا عمدا عن نقاط أخرى أهمها علاقة تادلا بالدول المتعاقبة في تاريخ المغرب ، كل ذلك تجنبنا للإطالة واستبقاء لتنفسات أخرى ينصب عليها البحث فيما بعد .

الهوامش

- 1- ص . 124 .
- 2- الإدريسي ، القارة الإفريقية والأندلس ، ص . 124 .
- 3- ن . م . ص . 144 .
- 4- الاستبصار ، ص . 200 .
- 5- Meunié (J.), Le Maroc Saharien des origines au XVIe siècle.
- 6- البكري ، المغرب ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ص . 154 .
- 7- الإدريسي ، القارة الأفريقية ، ص . 144 .
- 8- الاستبصار ، ص . 200 .
- 9- الحميري ، الروض المعطار .
- 10- ابن الخطيب ، نفاضة الجراب .
- 11- وصف أفريقيا ، الرباط ، 1983 ، ص . 176 .
- 12- ن . م . ص . 185 .
- 13- المعزى ، ص . 127 .
- 14- المعزى ، ص . 152 .
- 15- ابن الزيات ، التشوف ، ص . 41 .
- 16- المعزى ، ص . 214 .
- 17- ابن خلدون ، تاريخ ، بيروت ، 1959 ، 202/6 .
- 18- ن . م . ص . 66 .
- 19- ابن خلدون ، 119/6 .
- 20- ن . م . ص . 134 .
- 21- روض القرطاس ، ص . 364 .
- 22- بمراجعة تراجم ابن الزيات في التشوف ، نجد دلائل كثيرة على هذا الموقف .
- 23- البكري ، المغرب ، ص . 124 .
- 24- Eustache (D.), "Les ateliers monétaires", Hespéris Tamuda, Vol. XI, 1970.
- 25- البكري ، ص . 154 .

النشاط الاقتصادي في تادالا خلال العصر الوسيط

محمد حجاج الطويل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بنمسبك - الدار البيضاء

قبل أن أعرض لهذا الموضوع أرى لزاما علي أن أثير الانتباه إلى بعض الإشكالات التي يطرحها الموضوع على مستوى المفاهيم ، أي أنه لا بد أن نبدأ من البداية ، والبداية هنا تتعلق بكلمة تادالا ، وبالتحديد الجغرافي التاريخي للمنطقة .

- أول الإشكالات يتعلق برسم كلمة تادالا ، فهي في بعض المصادر (تادلة) بالتاء الساكنة ⁽¹⁾ ؛ وفي بعضها الآخر بالألف الممدودة (تادالا) ⁽²⁾ ؛ وفي مصادر أخرى بالألف المقصورة (تادلي) ⁽³⁾ . وبطبيعة الحال ، فرسم الكلمة يتبعه شكلها ونطقها ؛ والنسبة إليها ، فهي تادلوي ، أوتادلوي - وهي المتداولة في دارجتنا - أو تادلي . فأيهما صحيح ؟

يجب إذن ضبط الاسم الذي ما يزال حتى اليوم يكتب بأشكال مختلفة سواء في الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية ، أو عند بعض الدارسين .

- الإشكال الثاني يهم مدلول (العلم الجغرافي) ، فتادالا حسب التفسير الأمازيغي المتداول اليوم تعني - حسب بعض الاجتهادات - حزمة السنابل ⁽⁴⁾ ، وعند بعض القبائل تعني حزمة ، سواء حزمة السنابل ، أو حزمة الحشيش وغيره . وحتى إذا سلمنا بهذا التفسير - وهو الوحيد حتى الآن - فما علاقته بالمنطقة ؟ فهل أطلق عليها لخصوبتها ؟ إن الجواب بنعم يعني أننا أمام ظاهرة جديدة بالمنطقة وهي زراعة الحبوب ، أي أن الاسم أطلق على المنطقة عندما انتقل سكانها الزناتيون من حياة الرعي والترحال إلى الزراعة ، ومع ذلك تبقى هذه العلاقة مجرد افتراض خاصة وأننا نعرف أن جل أسماء الأماكن في المغرب من أصل بربري ومعظمها مشتق في الغالب من مميزات المناطق الطبغرافية والتضارسية أو من خصائصها الهيدروغرافية والمناخية مثل : دكالة وتامسنا وإيروجان وغيرها ⁽⁵⁾ .

وإذا تتبعنا مختلف التأويلات وطبقنا القاعدة المشار إليها ، فإن الاسم الجغرافي (تادلا) يكون قد أطلق على السهل المحصور ما بين وادي وانسيفن (أم الربيع) وجبل فازاز (الأطلس المتوسط) ، لخاصيته الطبغرافية (شبيه بالحزمة) . وقد يكون أطلق على المنطقة المحصورة ما بين وادي أم الربيع ووادي العبيد ، والتي لها نفس الشكل تقريبا . وقد تكون الخصائص الهيدروغرافية (كثافة الشبكة المائية وانحدار الجداول والأنهار الصغيرة نحو وانسيفن) ، وراء الاسم لأنها تبدو من أعلى كحزمة أعواد السنابل أو ما شابهها . وهكذا ، فإن التأويلات قد تصل بنا إلى متاهات أكبر ولا تأتي بحل للإشكال المطروح . توجد في لهجتنا الدارجة ، وبالتحديد في لهجة قبائل الشاوية - المجاورين لتادلا - كلمة (تودلة) ؛ وتعني زراعة الحقل بأنواع من المزروعات ، فيقال فلان تودل أرضه أي جعل فيها مزروعات عديدة كالثوم والبصل والفول والحبوب ... فهل كلمة تادلا آتية من هذا الفعل أم العكس ؟ إن اشتهار تادلا بتنوع مزروعاتها في العصر الوسيط (الأوسط) جعل إشعاعها في الميدان الفلاحي يبلغ مناطق أخرى وتدخل الكلمة القاموس الفلاحي ، شخصيا أرجح هذا الطرح .

الإشكال الثالث يتعلق بالتحديد الجغرافي التاريخي ، فالمصادر الوسيطية خاصة منها مصادر العصر الوسيط الأعلى لم تهتم بتحديد المنطقة على أن قراءتها توحى بأن منطقة تادلا كانت أكبر مما هي عليه الآن بكثير ⁽⁶⁾ . أما أكثرها دقة في الموضوع فهو كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ⁽⁷⁾ . وهو من العصر الوسيط الأدنى فمنطقة تادلا عنده - بعد تصحيح الأخطاء التي وقع فيها - تبتدئ غربا من الضفة اليسرى لنهر أم الربيع ، ويحدها جنوبا وادي العبيد ، وشمالا منابع أم الربيع ، وشرقا تمتد على جبل فازاز ودرن لتطل على التخوم الصحراوية (بلاد القبلة) .

ما يهمنا في هذا التحديد أن منطقة تادلا كانت تمتد على طول نهر أم الربيع ابتداء من التقائه بوادي العبيد إلى منابعه أي تدخل فيها منطقة خنيفرة ، وجزء من جبل إيروجان ، وسهل أدخسان . وما يثير الانتباه في هذا التحديد ، أنه لا يجعل المنطقة تمتد عبر أم الربيع لتشمل الضفة اليمنى كما هي اليوم ⁽⁸⁾ . ويرجع ذلك إلى أن تامسنا التي حددها الوزان نفسه - وهي مجال برغواطة - كانت تمتد إلى أم الربيع .

- المجال التادلوي : مجال متنوع التضاريس يضم الجبال والسهول والهضاب

والأودية ، مجال يلتقي فيه السهل بالجبل فيقدم هذا الالتقاء الكثير من المعطيات الإيجابية ، فمنطقة تادلا ذات تربة خصبة متجددة تنحدر من الجبال بواسطة المياه الجارية⁽⁹⁾ ، وذات كثافة هيدروغرافية هي اليوم أقل مما كانت عليه في الفترة المدروسة ، فالدير يعتبر منطقة تفجر الينابيع الشديدة الاندفاع ، إضافة إلى أن تادلا كما حددناها أعلاه تضم منابع العديد من الأنهار وباختصار فمجال تادلا مجال مسقي باستمرار مما أعطى غطاء نباتيا كثيفا ومتنوعا⁽¹⁰⁾ .

موقع سهل تادلا موقع متميز وسط المغرب فهو يربط بين مختلف جهاته أي أن له أهمية استراتيجية ، بل إنه يكاد يكون الممر الوحيد الذي ربط بين الشمال والجنوب خلال العصر الوسيط بعد أن سيطر البرغواطيون على الطرق الساحلية ، ويعددهم القبائل الهلالية⁽¹¹⁾ ، إضافة إلى العوائق الطبيعية كالعواصف الثلجية في الأطلس الكبير الشرقي وشمال جبال فازاز ، والعوائق البشرية المتجلية في انعدام الأمن وانتشار قطاع الطرق ، فكان الطريق السهل المأمون من سجلماسة إلى فاس يمر عبر تادلا .

فمجال تادلا ذو المعطيات الطبيعية الهائلة ، والاستراتيجية الهامة ، عرف التعمير البشري منذ وقت مبكر ، وعرف الارتباط بباقي جهات المغرب والخارج منذ أواخر العصر الوسيط الأعلى ؛ فبدأ تطوره بشكل ملموس ، إذ عرف الحياة الزراعية والاستقرار إلى جانب الاقتصاد الرعوي والترحال⁽¹²⁾ .

- الرعي : الإشارات الأولى في المصادر العربية عن تادلا في العصر الوسيط الأعلى ، ذكرت أن عقبة بن نافع قد مر من المنطقة⁽¹³⁾ ، ويفهم من الجغرافيين الأولين والذين كانوا يلتقون أخبار المغرب عن بعد ، يفهم من إشارتهم ، أن المنطقة كانت رعوية تركز حياة سكانها أساسا على رعي الأغنام والتعيش منها ؛ وكانت الأغنام من الكثرة لدرجة أن السكان لا يهتمون بجلودها وأصوافها عند شويها⁽¹⁴⁾ .

لما جاء الأدارسة بسطوا نفوذهم على تادلا ، وأصبحت من ضمن عمالاتهم التسع ، وعين الأمير محمد بن إدريس - الذي تولى الإمارة بعد أبيه - أخاه أحمد على هذه العمالة التي كانت تضم أيضا مكناسة⁽¹⁵⁾ .

وكان من بين أسباب فتح الأدارسة للمنطقة وجعلها من عمالاتهم ، تأمين

الاتصال بالمناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية للمغرب ، لضمان وصول القوافل التجارية إلى فاس ، وفي هذا السياق جاء فتح الإمام إدريس لحصون تادلا وقلعها ووضع هذا المر الهام بيد أتباع مخلصين⁽¹⁶⁾ ، وأيضاً لحماية المعادن النفيسة ودور السكة التي أنشأها الأدارسة في أطراف المنطقة وهي : تدغى ووزقور ومهنا⁽¹⁷⁾ .

ليست أهمية المنطقة رعوية هي التي جلبت الأدارسة إليها ، بل عجزهم عن القضاء على الإمارة البرغواطية المتحركة في الطرق الساحلية العابرة لمنطقة تامسنا هو الذي دفعهم إلى السيطرة على المر العابر لتادلا⁽¹⁸⁾ فلم يكن لهم غيره .

ومن أجل نفس الهدف ولتنفس الأسباب جاء بنو يفرن ويسطوا سلطتهم على بني عمومته من الزناتيين بالمنطقة ، وامتد مجال سيطرتهم إلى أغمات ليصبح الجزء الهام من طريق القوافل التجارية مع السودان : سجلماسة - أغمات - فاس ، عبر تادلا تحت مراقبتهم⁽¹⁹⁾ .

فالاقتصاد الرعوي الذي ساد بالمنطقة في هذه الفترة ، لم يكن ليجلب كل هذا الاهتمام من قبل الدول والإمارات المتعاقبة على المغرب ، لأن الأراضي المباحة للرعي كانت شاسعة وهي التي عرفت بالأراضي البراح⁽²⁰⁾ ، بل أهمية المنطقة الاستراتيجية كانت هي المحرك الأساسي لها ، ولنا في شهادة التاجر والجغرافي العراقي ابن حوقل ت . 340 هـ خير دليل فقد قال عن السكان ما بين سجلماسة وأغمات وفاس : " وجميعهم يبيعون البلاد للمراعي والزرع ، والمياه لورود الإبل والماشية . . . " ⁽²¹⁾ . فالصراع إذن كان من أجل الأهمية الاستراتيجية للمنطقة .

ساهم مرور القوافل التجارية والمسافرين بمنطقة تادلا في تطورها ، فتعددت فيها التجمعات السكنية من مداشر وقلاع وحصون ، فكان شيوخ القبائل وأعيانها وكبار رجال المخزن يسكنونها ويرسلون قطعان مواشيهم ودوابهم إلى المراعي الصيفية في أعالي الجبال ، وإلى المراعي الشتوية في السهول ، كما استفاد هؤلاء من المرور بفرض الإتاوات ، وتقديم خدماتهم بمقابل إلى المجتازين ببلادهم ابتداء من أواخر العصر الوسيط الأعلى .

اكتسحت المجموعات الصنهاجية الصحراوية المغرب بزعامة المرابطين ، فعرفت حياة الرعي في بداية أمر هؤلاء انتعاشا بسبب انتشار تربية الإبل ، وانتقالها من

الصحراء إلى ما وراء جبال درن وفازاز ، فتنوعت بذلك مواشي القبائل وتعددت أساليب الرعي فلم يعد الرعي الواسع في الأراضي البراح أو الرعي بدون راعي ⁽²²⁾ ، بل دخل العمل المأجور في الرعي ، وكلف الصنهاجيون وبعض أعيان القبائل الأخرى العبيد بالرعي ⁽²³⁾ . بينما اشترك عدة كساية في استئجار راع مشترك ، وفي المدن استخدم راعي الدولة ⁽²⁴⁾ .

المرابطون وجهوا اهتمامهم مباشرة بعد وصولهم إلى أغمات والقضاء على بني يفرن ، إلى منطقة تادلا للأسباب التي سبق عرضها : تأمين مرورهم ومرور القوافل التجارية نحو الشمال ، إذ لم تكن لهم القدرة على انتزاع الطريق الساحلي من يد البرغواطيين الأقوياء ، لذلك أقاموا سلسلة من الحصون على طول الدير في المنطقة وخارجها ⁽²⁵⁾ بهدف مراقبة الطريق باستمرار ، ومحاصرة القبائل الزناتية في جبل فازاز . ولهذا الغرض استقدموا بعض قبائلهم المعروفة بشجاعته وأوطنوها في تادلا وعلى طول الدير . بل إن الزحف الصنهاجي اكتسح جبل فازاز نفسه حتى أصبح يعرف بجبل صنهاجة . منح المرابطون الأراضي التي أنزلت فيها تلك القبائل كإقطاع انتفاع ، أما إقطاع التملك فكان أقل شيوعا ومقتصرا على كبار رجالات الدولة والأمراء ، كل ذلك في محاولة لتثبيت السكان وخلق مناطق للاستغلال الفلاحي المتنوع ⁽²⁶⁾ .

- الزراعة : شكلت هذه الإقطاعات حول الحصون والقلاع أنوية لانتشار النشاط الزراعي (زراعة الحبوب والبستنة) الذي بدأ يتسع تدريجيا تبعا لتزايد أعداد القبائل المستقرة ، وتبعا لاستثباب الأمن ، وأيضا تبعا لخصائص المنطقة ومعطياتها الطبيعية .

لا تقدم لنا مصادر هذه الفترة الوسيطة ، وخاصة كتب البكري والبيدق أية معلومات مفصلة عن هذا التحول ولا عن النشاط الاقتصادي عموما ما عدا إشارات مقتضبة عن حصن داي ، إذ قال عنه البكري : " سوق حافلة " ، وعلق البيدق على غزاة الموحيدين لحصن داي قائلا : " إن أيدي الموحيدين امتلأت بالغنائم " ⁽²⁷⁾ ، مما يعني أن المنطقة ظلت غنية كما كانت بموارد الاقتصاد الرعوي مضاف إليه الاقتصاد الزراعي الرعوي المرتكز أساسا على تربية المواشي وعلى مشتقاتها ، وعلى تربية الخيول والبغال ، وأيضا على زراعة بعض الحبوب التي بدأت تدخل تدريجيا في تغذية الإنسان والحيوان ⁽²⁸⁾ .

عرفت تادالا في العهد الموحيدي ابتداء من منتصف (القرن 6 هـ - 12 م) ما يمكن أن أسميه " ثورة فلاحية " . والجدير بالإشارة قبل أن نفصل الحديث في هذه " الثورة " أن منطقة تادالا كانت أول منطقة غزاها الخليفة الموحيدي عبد المومن بعد بيعته من قبل الموحيدين . هذا الحدث له أهميته التاريخية فهو يؤكد ما أسلفناه من أهمية المنطقة الاستراتيجية (منطقة المرور إلى الشمال وبلاد القبلة وسجلماسة) وأيضاً غنى المنطقة في مادة الخيول . والموحدون في هذه المرحلة كانوا في أمس الحاجة إليها . لذلك أشار عليه أتباعه بفتحها قبل غيرها (29) .

قلنا " ثورة فلاحية " ، لأن المنطقة عرفت في عهدهم قمة ازدهارها الاقتصادي : فالرقعة الزراعية تضاعفت مئات المرات واختفت الأراضي البراح (30) ؛ وتنوعت المزروعات ؛ فانتقلت تادالا من الزراعة الخفيفة الوحيدة المنتج والمكملة للرعي ، إلى الزراعة الكثيفة المتعددة المنتج العالية المردودية ذات الدورة الزراعية الثنائية والثلاثية في بعض الحقول والبساتين . وإلى جانب استمرار الرعي الواسع ، أصبحت تربية المواشي والدواب في الحظائر والإسطبلات ، وأصبح تحسين النسل والنوع أمراً معمولاً به ، وازدادت المساحات الزراعية المخصصة للحبوب اتساعاً ، حتى إن عمليات الحصاد والدراس كانت تتم جماعياً بما يعرف عندنا اليوم " بالتوزيع " (31) ، ودخل العمل المأجور في مختلف مراحل الزراعة إلى جانب العمل بالمزارعة والمغارسة والمساقات وغيرها سواء كان موسمياً في الحقول أو دائماً في البساتين (الحوائط) (32) .

البستنة بلغت قمة اتساعها ، فامتدت على طول الأودية والجداول وعلى ضفتي وادي وانسيفن - في الأماكن التي تسمح بذلك - فتعددت المحاصيل وفاضت عن الحاجيات المحلية فصدرت خارج الإقليم (33) . أهم ما تميزت به هذه الثورة الفلاحية هو إدخال زراعة القطن حتى بلغت أوج ازدهارها وإنتاجها في ظرف وجيز ، فأصبحت تادالا المزود الوحيد لمختلف مناطق المغرب من هذه المادة ، بل تجاوز التصدير الأقاليم المجاورة ليصل إلى السودان والأندلس وإفريقية . الشريف الإدريسي سجل لنا في مصنفه إعجابه بهذه المادة وتخصص تادالا في إنتاجها (34) ، وبشكل موازي أدخلت إلى المنطقة زراعة نباتات مكملة للقطن والصوف وتدخل في صناعة النسيج كملون ، وهي الحناء والنيلج (النيل) (35) .

هذه الثورة الزراعية لم تقتصر على تطوير الإنتاج وتنوعه وارتفاع المردودية ، بل شملت الهياكل الزراعية وقوى الإنتاج : فالملكية الخاصة للحقول والبساتين انتشرت بشكل لم يسبق له مثيل (36) ، وقيمت الملكيات الجماعية للقبيلة مقتصرة على الرعي ، وازداد حجم الاستغلاليات بسبب النمو الديموغرافي ووفرة الأيدي العاملة المأجورة والمتخصصة أحيانا (37) . كل ذلك جعل الاستغلال المباشر للحقول والبساتين من طرف مالكيها أمرا ممكنا . نتج عن هذا التطور نمو ديموغرافي تجلّى في تعدد التجمعات السكنية التي وصل بعضها إلى مستوى مدن كبرى مثل داي (أو داي وتادالا) كما جاء عند الإدريسي ، ولم تعد تلك التجمعات مجرد حصون خاصة بقبيلة أو عشيرة معينة بل أصبحت تضم أخلطا من السكان (38) ، وأصبحت سوقا للعمل ، فيها يلتقي عارض الشغل وطالبه ، وتلك ظاهرة قديمة يمكن مشاهدتها حتى اليوم بحدة في مدينة بني ملال ، حيث يلاحظ في الصباح الباكر ، وعند الغروب ، الشاحنات ومقطورات الجرارات محملة بأكداش من البشر من مختلف الأعمار متجهة من وإلى الحقول والبساتين .

مثل هذه الثورة وما صاحبها من ازدهار اقتصادي (فلاح ، تجارة وصناعة) ، جعلت المجتمع التادلاوي يخرج عن بساطته ، وتتوحد حاجياته . مثلاً أصبح الطلب على الخضر متزايدا ؛ فانتشرت زراعة المقاشي إلى جانب البساتين وهي زراعة كانت عادة تنتشر حول المدن الكبرى ودخلها (فاس ، مراكش ، سبتة ...) ، وتعمدت الحياة ، وتشعبت العلاقات الاجتماعية واستجدت مشاكل في ميدان العلاقة بين العمل المأجور وأرباب العمل ، وفي مختلف المعاملات ، وصدرت فتاوى فقهية ، ومما يستدل به على هذا التطور الحضاري أن الموحدّين عينوا في تادالا أكبر القضاة على المستوى الإمبراطوري وهو القاضي عياض (39) . هذا الازدهار الاقتصادي والتطور الحضاري خلق فوارق اجتماعية (طبقية) وأفرز فئات طفيلية تبحث عن الإثراء السريع ، ولا تتورع في استغلال الغير والكسب الحرام ، وبشكل موازي برزت ظاهرة التصوف التي أخذت في المنطقة أبعادا متقدمة ، فالمتصوفة كانوا بمثابة ملجأ وملأ يقصده المحرومون والمهمشون والمظلومون ، فأصبحت الظاهرة الصوفية معارضة قوية تتكلم بلسان الفئات المحرومة (العامة) ، وبلغت درجة من القوة جعلتها تهدد السلطة الموحدية ، مما يجعلنا نعتقد جازمين أن هذا التطور كان وراء " ثورة داي " التي قمعها الخليفة يعقوب المنصور بتشريد أهلها وإخلائها .

هذه " الثورة الفلاحية " وما أفرزته من تناقضات اجتماعية وما وفرته للمخزن الموحد من مداخيل ، كانت قبل كل شيء نتاجا لما وفره المجال التادلاوي من معطيات طبيعية وبشرية ، إلا أن هذه المعطيات كانت موجودة قبل الموحدين فلماذا لم تعط نفس النتائج ؟ مما يعني أن المسألة تتعلق قبل كل شيء بسياسة الموحدين التي تم تعديلها حتى أصبحت مرنة ، فتخلى الموحدون عن تشددهم فشجعوا الفلاحين على تعمير أراضيهم وضمنوا لهم الأمن والاستقرار فانصرفوا إلى العمل والإنتاج ، بالإضافة إلى المبادرة التي اتخذها الموحدون (خلفاء - سادة - أشياخ وغيرهم) بغراسة البساتين والتعاطي للزراعة وتربية المواشي والدواجن والدواب واتخاذ الضياع والرباع من قبل كبار الموظفين والأعيان (40) ، كل ذلك أحدث رواجاً ومنافسة في السوق وإقبالا على العمل الفلاحي .

في ختام هذا العرض السريع حول الزراعة لابد من الإشارة إلى أن تربية النحل وصيده وصيد الأسماك من نهر أم الربيع وروافده ، لم تشكل فقط موارد تكميلية للفلاحين كما كانت في بداية العصر الوسيط ، بل أصبحت مواد تجارية مربحة ؛ يكثر الطلب عليها في حواضر المنطقة وخارجها تبعا لتحسن المستوى المعاشي .

- الصناعة : سبقت الإشارة إلى أن أطراف منطقة تادلا كانت تتوفر على معادن نفيسة ساهمت في بروز دور ضرب السكة في عهد الأدارسة ؛ إلا أن هذه المراكز والمعادن لم يرد لها ذكر في المصادر اللاحقة ، مما يدل على أنها استنفذت ، ووردت في هذه المصادر إشارات عن معادن أخرى ، بل إن الإدريسي في كتابه *نزهة المشتاق* .. (41) ، أطنب في وصف معدن النحاس بداي ، وذكر خصائصه ومميزاته ، وأن الإقبال عليه كبير من قبل التجار والصناع من داخل المغرب وخارجه ، ويتم تصديره خاما ومصنعا . أما المعدن الثاني ، فهو معدن عوام للفضة . ويبدو من كتاب *التشويق* للتادلي (42) أن مادته كانت تصدر خارج المنطقة ويتم مرور القوافل المحملة به عبر تادلا و " بزطاط " منها ، لأن الطريق لم تعد مأمونة (أواخر العهد الموحيدي ، وبالذات بعد وفاة يعقوب المنصور) .

لم يرد بعد الموحدين ذكر لمعدن النحاس في داي ولا لمعدن جبل عوام ، فالحسن الوزان في كتابه *وصف إفريقيا* ، وهو من مصادر العصر الوسيط الأدنى ، ودقيق في وصفه وتقصيله ، لم يشر إلى تلك المعادن ولعل السبب ليس فقط استنزافها بل الظروف

المضطربة التي صاحبت فترة الضعف الموحدى .

باقي الصناعات ارتكزت على المنتجات الفلاحية كالمنسوجات الرفيعة والبرانس التي اشتهرت بها المنطقة ، إضافة إلى صناعة الأطباق والفخار والحصر والسلال وغيرها من الأدوات والأواني المرتكزة على الأعشاب ومنتجات الغابة ، ونخص بالذكر هنا ، النجارة ، ونجارة خشب الأرز بالذات الذي أصبح يدخل في زخرفة المنازل (منازل الأغنياء وقصور الأمراء ، وشيوخ القبائل) .

- التجارة : أول ما عرفته منطقة تادلا من التجارة ، التجارة الخارجية باعتبارها منطقة مرور ، ولم تفقد هذا الدور حتى في العهد الموحدى رغم قضاء هؤلاء على البرغواطيين ، وسيطرتهم على الطرق الساحلية العابرة لتامسنا ، رغم كل ذلك لم يتم الاستغناء عن ممر تادلا بسبب ما توفره المنطقة من مواد تجارية متميزة : قطن ، نحاس ، فضة ، منسوجات ، خيول ، حبوب وغيرها ، إضافة إلى أن المرور من تادلا إلى سبلماسة كان ممكنا ومختصرا جدا في الظروف الملائمة ، ولم تكن التجارة الداخلية في الحواضر والبوادي بتادلا أقل أهمية عن التجارة الخارجية ، بل إنها فاقتها في فترات معينة ، فتعددت الأسواق الأسبوعية في البوادي ، وتعاطى السكان ، فلاحون وغير فلاحين للتجارة ، مما جعل هذه الأسواق من الكثافة لدرجة أنها تغطي كل أيام الأسبوع ، ولا تبعد عن بعضها أحيانا إلا بمسافة قليلة : (يراجع في هذا الصدد كتاب *التشوف*) كل ذلك يعتبر مؤشرا على أن المستوى المعاشي في البادية قد تحسن بعد دخولها في دائرة اقتصاد السوق ، أما في الحواضر الكبرى مثل داي فإن الدكاكين كانت كثيرة ومتخصصة وعليها إقبال كبير حتى إن بغضها يضطر فيها الزبون إلى انتظار دوره لقضاء حاجته ، هذه التجارة تشعبت وتعددت حتى أصبح لها محتسب ، على غرار المدن الكبرى .

- العودة إلى الرعي : بعد ضعف الدولة الموحدية إثر هزيمة العقاب 610 هـ ، تواصل التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي عرفته منطقة تادلا ، والذي ارتكز كما مر بنا على المعطيات الطبيعية المتميزة والمعطيات البشرية ؛ وأساسا على سياسة المخزن الموحدى الذي أشاع الأمن والاستقرار . هذا التوازن بين مختلف العناصر بدأ يختل ، بسبب الفوضى التي عمت البلاد وبسبب عدم انضباط القبائل العربية والبربرية ، إذ أصبحت تتحرك في كل اتجاه بحثا عن مصالحها الخاصة فكان من الطبيعي أن

تجلب منطقة تادلا أنظارها بما كانت تتوفر عليه من إمكانات ، وازدهار اقتصادي ، كانت القبائل الهلالية سبابة في التحرك إلى المنطقة ، إذ تحالفت قبيلة الخلط (قبيلة عربية من أقوى القبائل الهلالية) مع قبيلة هسكورة (قبيلة من أقوى القبائل البربرية) ، تحالف هؤلاء لاقتسام خيرات تادلا والسيطرة عليها حتى أن بني جابر (هلاليون) استوطنوا المنطقة ، سهولها وجبالها وعاثوا فيها فسادا ، فاضطر السكان المستقرون إلى العودة إلى الرعي والترحال ، فذهبت نضارة المنطقة وازدهارها . استمرت حياة الرعي والترحال إلى نهاية العهد المريني حيث استنجدت القبائل التادلالية بقبيل من بني معقل لحمايتها من جور بني جابر (43) . فخلق مجيء معقل إلى المنطقة نوعا من التوازن ، أعطى فيما بعد محطة أخرى ، ومرحلة من مراحل الازدهار التي عرفتتها المنطقة ، إلا أنها أقل من المحطة السابقة .

شهد هذه المرحلة الحسن الوزان فسجلها بتفصيله وتدقيقه المعهود (44) . ومن قراءتنا لكتابه **وصف إفريقيا** نستطيع القيام بمقارنة بين محطتين مزدهرتين في تاريخ تادلا الاقتصادي .

أبرز ما نستنتجه من هذه المقارنة أن قطاع النسيج عرف نهضة وازدهارا كبيرين ، خاصة نسيج الصوف الرفيع الذي برعت فيه نساء الحواضر الجديدة (أفزا وتفا) (45) ، وغيرها ، ونسيج البرنوس الأسود الذي تميزت به المنطقة والذي جلب إليها التجار الأجانب من مختلف الدويلات المسيحية . وهذه ظاهرة جديدة (مجيئ التجار المسيحيين) تبين مدى ضعف الوساطة التجارية المغربية . الاستنتاج الثاني يتعلق بالفلاحة ، فالحسن الوزان أشار إلى وفرة الفواكه حتى أنها كانت لا تباع في الكثير من المناطق (46) . إلا أن ذلك لا يعني اكتفاء ذاتياً ، أو انعدام الرغبة في التسويق والاستهلاك . ولكن المسألة لها علاقة بانعدام الأمن وصعوبة التصدير ، أما الحبوب فقد أشار إلى أن الأراضي خصبة إلا أنها لا تزرع كلها لانعدام الأمن وجور القبائل الهلالية وحلفائها ، فانخفض الإنتاج في هذه المادة . الظاهرة الجديدة التي نستنتجها من قراءة الوزان ، هو ظهور فئة التجار اليهود وبروزهم على الساحة الاقتصادية ، حتى أن ثروة هذه الفئة في مدن تادلا أدهشت الوزان فسجلها بتفصيل (47) . هذه الفئة وغيرها من التجار استفادت من استراتيجية تادلا كم منطقة تربط ما بين الشمال والجنوب ولها اتصال مع

سجل ماسة خاصة وأن الطريق الساحلية عبر تامسنا والغرب وسایس عادت إلى الاضطراب بعد سيطرة القبائل الهلالية عليها . لم تكن تجارة " الترانزيت " وحدها سببا في غنى فئة اليهود والتجار الكبار ، بل وأيضا فو تجارة داخلية في الحواضر الجديدة . وكذا الأرباح الكبيرة المحصل عليها من الصناعات الحديدية ، وصناعة الحلي والمنسوجات ، وتجارة العبيد والخيول وغيرها من المواد التي يتم تبادلها مع التجار الفاسيين مقابل قطع ذهبية اشتهرت بها تادلا ، لكن الصراع والحروب بين السكان داخل المدن وبينها وبين البوادي والاستعانة بالقبائل المجاورة أو الاستنجد بالمخزن الوطاسي الضعيف ، حال دون استمرار الازدهار الاقتصادي في هذه الفترة ، إذ كانت الأطراف المستنجد بها تستغل الظرف لاستنزاف أموال المتحاربين .

هذه بعض محطات التاريخ الاقتصادي لمنطقة تادلا عرضت لها بإيجاز كبير مستفيداً بالدرجة الأولى من المصادر المكتوبة التي لا تتعدى فيها المادة التاريخية أحيانا مجرد إشارات وتلميحات عابرة ، على أن الصورة التاريخية للنشاط الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة لن تكتمل إلا بنهج سياسة جادة للبحث العلمي في بلادنا تعطي الإمكانات للجهات والمناطق قصد النهوض بها على جميع المستويات ، وما خلق هذه النواة الجامعية بمنطقة تادلا إلا بداية نتمنى مخلصين أن تتبع بالرغبة الصادقة في خدمة العلم والبحث العلمي .

الهوامش

- 1- الشريف الإدريسي ، نزهة المشتاق ، نابولي الطبعة الإيطالية ، ج . 3 ، ص . 241 .
 - 2- ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، بيروت ، 1987 ، ص . 440 - ابن القطان ، نظم الجمان ، طبعة تطوان ، ص . 226 .
 - 3- الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، بيروت ، 1975 ، ص . 127 .
 - 4- التادلي ، العشوف ، تحقيق أحمد توفيق ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، 1984 ، ص . 108 والهوامش .
 - 5- التادلي ، المصدر نفسه ، تراجع فيه الهوامش أساسا لمعرفة تفسير المحقق لمعاني الأسماء البربرية (الخاصة بالأعلام الجغرافية) .
 - 6- الناصري السلاوي ، الاستقصا ، الدار البيضاء ، 1954 ، ج . 1 ، ص . 172 .
 - 7- الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، الرباط ، 1980 ، ج . 1 ، ص . 139 .
 - 8- Martin et autres, Géographie du Maroc, Paris, Hachette, 1965.
 - 9- المرجع نفسه ، ص . 124 .
 - 10- المقرئ ، أزهار الرباض . . . نشر وزارة الأوقاف ، ج . 4 ، ص . 240 - 241 يعتبر القاضي عياض شاهد عيان ، فقد عينه الموحدون قاضيا بدي ، فتألم من غربته ومنفاه وأتشد :
- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| أخا شجن بالنوح أو بئناء | أقمية الأدواح بالله طارحي |
| وخرق بعيد الخافقين قواء | فكم من فلاة بين داي وسبعة |
| كما ضععتني زفرة الصمداء | تصفق فيه للرياح لواقص |
| دموعا أريقت يوم بنت ورائي | يذكرني سح المياه بأرضها |
| خمائيل أشجار ترف رواء | ويعجيني في سهلها وحزونها |
- 11- البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، باريس ، 1965 ، ص . 87 وما بعدها ، الناصري السلاوي ، الاستقصا ، مصدر سابق ، ج . 3 و4 انظر قبيلة الخطل وسفيان ، والشاوية .
 - 12- أحمد التوفيق ، إيثولتان ، الدار البيضاء ، 1978 ، ج . 1 ، ص . 75 وما بعدها .
 - 13- المرجع نفسه ، ص . 78 .
 - 14- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، لندن ، 1906 ، ص . 238 .
 - 15- الاستقصا ، مصدر سابق ، ج . 1 ، ص . 172 .
 - 16- المصدر نفسه .
 - 17- دانييل أوستاش ، "Les Ateliers Monétaires du Maroc", Hespéris Tamuda, Vol. XI fascicule unique , 1970, pp. 95-103.
 - 18- الاستقصا ، مصدر سابق ، ص . 65 - 116 - 207 .
 - 19- المصدر نفسه ، ص . 66 - 93 - 206 .
 - 20- ابن حوقل ، صورة الأرض ، لندن ، 1938 ، ص . 99 .
 - 21- المصدر نفسه .
 - 22- الطريل محمد حجاج ، الفلاحة المغربية في العصر الوسيط ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا ، كلية الآداب الرباط ، 1988 .

- 23- التادلي ، العشوف ، مصدر سابق ، ص . 210 - 242 وما بعدها .
الطويل محمد حجاج ، مرجع سابق ، ص . 108 وما بعدها .
- 24- المرجع الأخير نفس الصفحات .
- 25- البيّتي ، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، الرباط ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، 1971 ، ص . 50 وعن المحصور المرابطة في تادلا تراجع هرامش كتاب العشوف ، مصدر سابق .
- 26- الطويل محمد حجاج ، الفلاحة المغربية ، مرجع سابق ، ص . 65 وما بعدها .
- 27- البيّتي ، أخبار المهدي ، مصدر سابق ، ص . 50 .
- 28- المصدر نفسه .
- 29- المن بالإمامة ، مصدر سابق ، ص . 440 .
- 30- الطويل محمد حجاج ، الفلاحة المغربية ، مرجع سابق ، ص . 65 وما بعدها .
- 31- التادلي ، العشوف ، مصدر سابق ، ص . 242، 91 .
- 32- التادلي ، العشوف ، مصدر سابق ، نفس الصفحات .
- 33- المصدر نفسه ، ص . 415 .
- 34- الشريف الإدريسي ، مصدر سابق ، ص . 241 .
- 35- التادلي ، العشوف ، مصدر سابق ، ص . 215 .
- 36- التادلي ، العشوف ، مصدر سابق ، ص . 91 ، 112 ، 113 ، 120 ، 225 وما بعدها .
- 37- التادلي ، العشوف ، مصدر سابق ، ص . 242 ، 243 ، 245 .
- 38- الإدريسي ، نزهة المشتاق ، مصدر سابق ، ج . 3 ، ص . 241 .
- 39- المقرئ ، أزهار الرياض ، مصدر سابق ، ج . 4 ، ص . 240 ، 241 وما قبلها .
- 40- مجهول ، التحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، الدار البيضاء ، 1979 ، ص . 145 و 146 وينظر أيضا الفلاحة المغربية في العصر الوسيط ، مرجع سابق ، ص . 65 وما بعدها و ص . 196 وما بعدها .
- 41- الإدريسي ، مصدر سابق ، ج . 3 ، ص . 241 .
- 42- التادلي ، العشوف ، مصدر سابق ، ص . 340 .
- 43- الوزان ، وصف إفريقيا ، مصدر سابق ، ج . 1 ، ص . 139 و 140 و 141 وما بعدها .
- 44 - المصدر نفسه .
- 45 - المصدر نفسه .
- 46 - المصدر نفسه .
- 47 - المصدر نفسه .

" داي " او " أوداي " من خلال مصادر العصر الوسيط

محمد العاملي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

احتلت منطقة تادلا عبر المراحل التاريخية مكانة متميزة ، مستمدة من خصوصيات متنوعة . خصوصيات تميزت باستقرار وتعايش قبائل متعددة استفادت من موارد المنطقة الفلاحية والتجارية باعتبارها تقع على الطريق التجاري مراكش - فاس .

هذه الخصوصيات دفعت بعض الباحثين إلى استنتاج مفاده أن المنطقة عرفت خلال العصر الوسيط مراكز حضرية متقدمة . وفي هذا الإطار تحدثوا عن " داي " أو " أوداي " حاضرة منطقة تادلا ، وأضافوا أنها دمرت خلال العهد المرابطي وقامت على أنقاضها مدينة بني ملال الحالية .

نشير منذ البداية أننا لن نهتم بشكل التسمية وذلك لعدة أسباب نذكر من بينها ، أن الاهتمام بهذا الموضوع يفرض الوجود المسبق لهذا الكيان ، وهذا شيء سابق لأوانه . ما يهمنا هو الإجابة عن بعض الأسئلة التي سنصوغها كالتالي :

* هل وجدت بالفعل حاضرة تدعى " داي " أو " أوداي " ؟

* هل هي بالفعل مدينة ؟ حصن ؟ أو اسم لمنطقة أو قبيلة ؟

* وسؤال أخير يتمحور حول إشكالية الموقع .

إن الجواب عن هذه الأسئلة خاصة السؤال الأخير ، يبقى نسبيا لأن إثبات الموقع يستدعي تظافر جهدين : أحدهما نظري وهو موضوع هذه المداخلة المتواضعة التي لن تقتصر بالدرجة الأولى على المصادر التاريخية ، بل ستكون في مرحلة أولى قراءة في تلك المعلومات المتفرقة والمتضاربة ، معلومات ورد ذكر البعض منها في كتابات متأخرة لباحثين اهتموا نسبيا بالموضوع من خلال دراستهم لمنطقة تادلا ، وفي مرحلة ثانية سنحاول مقارنتها مع ما تركه رحالة ومؤرخو العصر الوسيط . وثانيهما تطبيقي ، ونقصد

بالتطبيقي التحريات الأركيولوجية انطلاقا مما هو نظري . ولعل السادة الأساتذة على علم بالصعوبات التي تقف أمام البحث الأركيولوجي . فإذا كانت التحريات الميدانية قد أعطت بعض نتائجها بالنسبة لبعض مواقع ومدن المغرب القديم ، فإن الأركيولوجيا الإسلامية لازالت تعرف عدة صعوبات : صعوبات تفرض تظافر الجهود لتجاوزها ، خاصة وأن المغرب يزخر بالعديد من المآثر الإسلامية التي لم تدرس بعد ⁽¹⁾ .

بدأ الاهتمام بـ " داي " أو " أوداي " يتزايد منذ أن نشر E. F. GAUTIER مقالته " مدينة داي " . وقد اعتمد هذا المؤرخ على الرواية التي احتفظت بها الذاكرة الشعبية بالمنطقة وراجت على الخصوص بمدينة بني ملال ، هذه الرواية سجلها القائد TARRIT مسير مكتب الاستخبارات بنفس المدينة . تقول الرواية : " أوداي مدينة كبيرة ويبلغ قطرها ستين كلم . وقد دمرت هذه المدينة من طرف الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين " ⁽²⁾ .

ويضيف GAUTIER " لم يتبق منها اليوم سوى حصن تاكرارت وصومعة سيدي أحمد بلقاسم " ⁽³⁾ .

من المستبعد أن تكون الصومعة وتاكرارت من بقايا داي ، لأن تأسيسهما يرجع إلى الفترة المرابطية . ومن المستبعد كذلك أن تكون تاكرارت قلبا لمدينة ، فبقاياها الأثرية توجد على بعد 12 كلم شمال مدينة بني ملال الحالية ، وعلى بعد 2 كلم عن واد درنة أحد روافد نهر أم الربيع . وطرحنا هذا يقودنا إلى طرح آخر مفاده أن تكرارات ربما هي تحريف لتاجارات والتي تعني الحصن . فقد اعتاد المرابطون بناء مجموعة من المعسكرات لحماية الطرق التجارية ، خاصة الطرق الغربية التي ازدهرت مع المرابطين ⁽⁴⁾ .

وفي هذا الاتجاه ، نجد تاجارات (تاكرارات) بمنطقة تادلا والتي ورد ذكرها في رواية GAUTIER ، وتاجارات بني والوط بين فاس وتلمسان . فالأولى تراقب الطريق التجاري الرابط بين مراكش وفاس ، والثانية لمراقبة الطريق الرابط بين فاس وتلمسان . وما يؤيد الطرح القائل بأن تاجارات تعني المعسكر ، ما ذهب إليه المؤرخ عبد الوهاب بن منصور الذي يقول متحدثا عن تاجارات : " . . . ولا تزال أطلال هذا المعسكر المرابطي موجودة إلى اليوم " ⁽⁵⁾ .

وتحدثت دائرة المعارف الإسلامية عن داي وعن تدميرها ، وأضافت أنها أسست مكان مدينة بني ملال الحالية ⁽⁶⁾ .

هناك رأي آخر وهو لعبد الوهاب بن منصور يتحدث عن داي كمدينة ، ويجعل لها موقعا آخر بضواحي مدينة بني ملال حيث يقول " لا تزال بقايا هذه المدينة العظيمة موجودة بالجبال الواقعة بين قسبة تادلا وبني ملال غير بعيدة عن حصن تاكرارت " ⁽⁷⁾ .

هذا الطرح مخالف للطرحين السابقين ، خاصة حينما يتعلق الأمر بالموقع . وتتعدد الأمور حينما نعلم أنه شمال مدينة بني ملال توجد الآن مجموعة من التجمعات السكنية على شكل قرى نذكر من بينها : فم العنصر - تاغزيرت - فشتالة وغرم لعلام .

ويتحدث الجنيرال SPILLMAN المعروف باسم G. DRAGUE هو الآخر عن " داي " ويذكر أنها تقع في الجنوب الغربي من مدينة بني ملال الحالية ⁽⁸⁾ . وللإشارة هناك قرية تقع في المكان الذي ذكره G. DRAGUE تدعى فم أودي ، وهي على بعد عشر كيلومترات جنوب غرب مدينة بني ملال .

إن غايتنا من طرح هذه الآراء الوقوف على التضارب الحاصل بين المؤرخين حول " داي " والموقع ؛ هذا التضارب دليل قاطع على صعوبة الموضوع ، وسيظل الأمر كذلك ما لم تتضافر جهود المؤرخين والأركيولوجيين .

تحدث جل هذه الآراء عن داي كمدينة مندثرة ، كانت من المدن العظيمة ، لكن كيف لمدينة عظيمة أن تختفي بهذه السرعة ؟ وهل وصل امتداد مدينة إسلامية مسافة 60 كلم ؟ إنها مسافة مغالى فيها . ولو قمنا بقياس المسافة الفاصلة ما بين الموقع الذي تحدث عنه GAUTIER في الشمال وهو تاكرارت ، والموقع الذي تحدث عنه DRAGUE في الجنوب الغربي ، فإن المسافة لن تتعدى 24 كلم ، وهو رقم بعيد كل البعد عن 60 كلم .

أشرنا في البداية أن المعلومات التي اعتمدها الباحثون مستقاة من الرواية الشفوية ، ومن بعض مصادر العصر الوسيط . والمصادر التي تحدثت عن داي قليلة جدا ، تحدث عنها البكري ، والإدرسي وأبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق ، كما تحدث عنها الحميري . وباستثناء البيذق الذي زار المنطقة في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ، فإن

جل المؤرخين والرحالة اعتمدوا على ما كتبه البكري والإدريسي . ونود هنا إثارة الانتباه إلى نقطة هامة وهي أن المعلومات التي وردت عن داي لدى كل من البكري والإدريسي معلومات سابقة لفترتيهما ، وأنهما اعتمدا معلومات ابن الوراق (القرن العاشر الميلادي) ، وابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) بالإضافة إلى اعتمادهما روايات التجار والحجاج ⁽⁹⁾ .

ففي معرض حديثه عن الطريق الفاصل بين أغمات وفاس يقول البكري : " حصن داي يقع وسط غابة متنوعة ويقام به سوق ، ويقصده التجار من فاس والبصرة وسجلماصة وبينه وبين واد درنة مسافة يوم واحد " ⁽¹⁰⁾ . هذه المعلومات المستخلصة من كتاب **المسالك والممالك** للبكري - والمستقاة على ما يبدو ، من كتاب مفقود لابن الوراق - تتحدث عن داي كحصن لا كمدينة ، لكن هذا لن يحسم الأمر ، ذلك أن نصا آخر للإدريسي ، والذي اعتمد من بين ما اعتمد ، كتاب **صورة الأرض** لابن حوقل ، يتحدث عن داي كمدينة : " من مدينة أغمات مع الشرق والشمال إلى مدينة داي وتادلة أربعة أيام ، وبين داي وتادلة مسافة يوم واحد ، ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبال درن . وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس . . . ومدينة داي صغيرة لكنها كثيرة العامر " ⁽¹¹⁾ .

يستفاد من خلال هذه المعلومات ، وإن كنا نشك في وجود منجم للنحاس بالمنطقة ⁽¹²⁾ ، أن داي كانت معروفة في القرن العاشر الميلادي وربما قبل هذا التاريخ ، لكن مع اختلاف في التعريف ، فهي بالنسبة للبعض عبارة عن حصن ، وبالنسبة للبعض الآخر عبارة عن مدينة ، ونسأله هنا عن مفهوم المدينة أو الحاضرة من خلال كتب الرحلات ؟

بعد القرن العاشر الميلادي وإلى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ، يمكن أن نتحدث عن اختفاء ذكر " داي " ، بحيث لن يزيد المؤرخون والرحالة شيئا عما ذكر في الكتابات السابقة . وتكتفي المصادر التاريخية بالحديث عن منطقة تادلا بصفة عامة ، وتذكر أنها كانت من نصيب هذا الأمير أو ذاك . فبماذا يمكن تفسير هذا التغييب ؟ هل بالتدمير كما ذهب إلى ذلك الرواية الشفوية ؟

الرواية الشفوية التي سبق ذكرها تشير إلى هذا التدمير ، وترد دائرة المعارف

الإسلامية هذه الحادثة إلى الفترة التي كان يغير فيها يوسف بن تاشفين على حصون فزاز وهو إقليم مجاور لتادلا من ناحية الشمال (13) .

لا نناقش هنا مسألة التوسع المرابطي شمال عاصمتهم مراكش فأهمية المنطقة اقتصاديا وموقعها الهام بين مراكش وفاس جلبا إليها أنظار الأنظمة التي تعاقبت على حكم المغرب . فالمرابطون الذين أسسوا مدينتهم مراكش كان لابد لهم من التوسع شمالا أو جنوبا ، وفي هذا الإطار يدخل غزوهم لمنطقة تادلا ، وكان لابد أن تصطدم مصالحهم بمصالح القبائل المستقرة بالمنطقة . لكن ما يجب الانتباه إليه هو التدمير وكذلك الموقع .

الرواية التي اعتمدت رواية شفوية ، والباحث يعرف مدى الأهمية التي أصبحت تكتسبها الرواية الشفوية لتدعيم وإتمام المكتوب والمدون ، وتسمح كذلك بإعادة بناء نسبي لماضي منطقة إذا ما تعذر الوصول إلى المدون لكن شريطة أن تخضع هذه الرواية لدراسة نقدية ، فالرواية التي اعتبرت أن داي انتهى أمرها على عهد يوسف بن تاشفين رواية مشكوك فيها . ذلك أن البيذق المؤرخ الرسمي للدولة الموحدية ، ذكر داي كموضع تم غزوه من طرف الموحدين . يقول البيذق : " . . . ثم هبطنا لموضع يقال له تآكرارت متاع داود بن عائشة ، ثم خرج منا جمع فاكل تآكرارت فأقبل بغنائمها . ثم رحلنا لموضع يقال له داي وكان به علي بن ساقطرا ، فلما وصل بقربها هرب فغنمنا داي . . . " (14) .

ماورد من معلومات لدى البيذق يقودنا إلى استنتاجين متواضعين كفيلين بيده
تحر ميداني :

أولهما : أن داي ليست مدينة وليست بالحجم الذي ذكره GAUTIER أو غيره ، ولم يكن هناك تدمير وأن موقع داي هو غير الموقع الذي بنيت عليه مدينة بني ملال الحالية ، وهذا ما سيتضح من خلال تتبعنا لحملة الموحدين بالمنطقة حيث همت وايزغت (15) ، وهي قرية شهيرة مطلة على بحيرة سد بين الودان . وانتقلت الحملة بعد ذلك إلى تآكرارت (16) وبذلك تكون قد قطعت مسافة 37 كلم ، ولم يتحدث البيذق طوال هذه المسافة عن أي حصن أو مدينة أو تعرض الحملة لمقاومة ما . وبعد تآكرارت وصلوا إلى داي . ويبدو أن الحملة انطلقت من تآكرارت في اتجاه الشمال الشرقي بدليل أن البيذق يتحدث عن حملات الموحدين ضد مناطق فزاز مباشرة بعد إخضاع داي .

ثانيهما : أن موضع داي كما ورد ذكره لدى البيذق يتوافق والمكان الذي توجد به اليوم قبيلة تحمل نفس الاسم " بني أودي " على الضفة اليسرى لنهر درنة . هذا المكان هو قرية تاغزيرت وتقع شمال مدينة بني ملال على بعد 25 كلم تقريبا .

الهوامش

- 1- إثارة الأركيولوجيا الإسلامية في هذا الملتقى ترجع أساسا إلى كون المنطقة تزخر بعدة مآثر إسلامية فهناك : أطلال تاكرارت وغرم لعلام وقصبة بلكوش والصومعة (صومعة سيدي أحمد بالقسام) والقصبة الزيدانية ، وغيرها من المآثر التي لم تحظ باهتمام الباحث .
- 2- GAUTIER (E. F.), "Medinat OU-DAI", Hespéris, T.IV, RABAT, 1926, pp. 7 - 8. -3 Ibid, p. 8.
- 4- ارتبط ازدهار الطرق التجارية خلال فترة المرابطين بعدة عوامل نذكر من بينها الركود الذي عرفتته بعض الطرق التجارية الوسطى نتيجة للاضطرابات السياسية وانعدام الأمن . كما ارتبط هذا الازدهار باكتشاف مناجم الملح بتفازة : وتحكم المرابطين في المسالك الغربية للتجارة الصحراوية .
- 5- البيذق ، أخبار المهدي بن قوصرت وبداية دولة الموحدين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1971 ، ص . 50 ، الهامش 89 .
- 6- دائرة المعارف الإسلامية . مادة تادلا ، ص . 437 .
- 7- البيذق ، ن . م . ن . ص . الهامش 90 .
- 8- DRAGUE (G.), Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Confréries et Zaouïas, Paris, Ed. J. Pey-ronnet et Cie. 1951, p. 164.
- 9- VANACKER (C.), "Géographie économique de l'Afrique du Nord Selon les auteurs arabes du IXe siècle au Milieu du XIIe siècle " Annales E.S.C., 1973, p. 659.
- 10- EL BEKRI (Abou Obeïd), Description de l'Afrique Septentrionale, (traduite par Mac Guckin de Slane) Paris, Ed. Andrieu-Maison neuve, 1963.
- 11- الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ج 1 . ص . 241 .
- 12- المنطقة رسوبية ولا تسمح بوجود منجم للنحاس انظر :
- SAADI (M.), Rapport S.E.G.M n° 861, A la recherche de l'ancienne ville de Dai et de sa mine de Cuivre, Archives de la Province de Beni-Mellal, 1968.
- 13- دائرة المعارف الإسلامية : مادة تادلا ، ص . 457 .
- 14- البيذق ، م . س . ص . 50 .
- 15- تقع جنوب مدينة بني ملال وعلى بعد 27 كلم تقريبا .
- 16- يقع هذا الحصن أو المعسكر المرابطي شمال مدينة بني ملال وعلى بعد 12 كلم ، انظر البيذق ، م . س . ص . 50 .

الهامش 89 .

أولياء تادلا خلال القرون السادس عشر (ملاحظات أولية)

أحمد الوارث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الجديدة -

كانت منطقة تادلا من بين المناطق المفضلة لدى العباد والزهاد ، ثم الصوفية ، منذ فجر الإسلام بالمغرب ، لممارسة شعائرتهم وطقوسهم . وحسبنا هنا التراجم الواردة في كل من *التشوف الكبير* لابن الزيات يوسف التادلي (1) ، و*التشوف الصغير* لأبي زيد عبد الرحمان التادلي الصومعي . (2) وخلال العصور الوسطى المغربية ، نجد تادلا الإقليم الوحيد في المغرب الذي نافس المراكز الحضرية الشهيرة زمنئذ ، وهي فاس ومراكش وأغمات ، في مجال التشوف والولاية الصوفية . (3) ونجد تادلا ، مرة أخرى ، في العصور الحديثة ، ولاسيما في القرن 16م تضاهي غيرها من نواحي البلاد ، سواء من حيث عدد أوليائها ، أو شهرتهم ومكانتهم . . . وهذه الفترة الأخيرة هي التي تشكل زمنيا محور عرضنا المتواضع هذا .

أولا : أولياء تادلا : خصائص ومميزات .

إن الضرورة المنهجية تفرض علينا أن نستهل حديثنا هذا بذكر جميع أولياء تادلا خلال الفترة المذكورة . لكننا نرى ذلك غير ممكن البتة ، نظرا لطول اللائحة . ومن ثم سنكتفي بذكر أولياء الجيل الأول أو الطبقة الأولى خلال القرن المذكور . مع العلم أن هذه المائة عرفت ستة أجيال متتابة ، يرتبط أولياء الجيل اللاحق بمن سبقهم بحبل يسميه الصوفية بالسند . وهكذا فأولياء الجيل الأول هم :

- 1 - إبراهيم بن عبد الجليل التادلي .
- 2 - أبو عثمان سعيد بن العباس العمراوي التادلي الصومعي .
- 3 - محمد بن سعيد بن عمر الملقب بالزعري ، المتوفى بوادي الشرفاء ، وقيل بوادي الجرومي بتادلا .

- 4 - أحمد بن محمد الملقب بمولاي تاطلوس دفين قرب وادي الشرفاء .
- 5 - سيدي الزعيم العسعاس بن المهدي بواد الشرفاء .
- 6 - أبو حفص عمر المخفي بواد الأسود بتادلا .
- 7 - ميمون السحراوي بواد الشرفاء .
- 8 - محمد الغريب بن أحمد الغماري دفين الزكيلو بقرب أم الربيع .
- 9 - أبو محمد فاضل بن إبراهيم بن عثمان ، دفين قرب تاغزوت .
- 10 - محمد بن المبارك بن علي الغماري ، دفين قرب أم الربيع .
- 11 - علي بن سعيد الشجرالي التدلاوي .
- 12 - الحسن بن علي الجابري التدلاوي .
- 13 - طلحة بن يحيى الجرلوي التدلاوي .
- 14 - أبو الأعلام حدو بن أبي نحاس ، دفين فشتالة .
- 15 - فضل بن محمد الضاوي الجابري الفشتالي .
- 16 - عيسى بن علي الحسني ، دفين اشقوندة .
- 17 - عمر بن خليفة التلمساني التدلاوي (4) .
- 18 - محمد أمسنا والصومعي (5) .

إنهم ثمانية عشر وليا ، وربما أكثر ، وهذا أكيد . إلى جانب أولياء الطبقة الثانية ، تم الثالثة والرابعة والخامسة ، إلى السادسة ، آخر طبقة صوفية عرفت تادلا خلال القرن السادس عشر . هذا ويتيح لنا الاطلاع على تراجم هذا العدد الهائل من الأولياء ، تسجيل ملاحظتين من الأهمية بكان .

الملاحظة الأولى تتعلق بالسند الصوفي ، حيث يلاحظ أن جميع أولياء تادلا من الطبقة الأولى إلى السادسة خلال الفترة المذكورة ، اقتدوا بأسلوب صوفي واحد ، وهو الأسلوب الجزولي . فالأولياء الثمانية عشر المذكورون ضمن الطبقة الأولى أخذوا التصوف الجزولي الشاذلي عن واضع مبادئه الشيخ محمد بن سليمان الجزولي ، ثم أخذ من تلاهم نفس المبادئ ، إما عن أولياء تادليين أو غير تادليين . ولا يعني هذا أن الطريقة الجزولية كانت وحيدة زمانها في المغرب زمنئذ ، وإنما نافستها في ذلك الطريقة الزروقية من

جهة ، والطريقة القادرية من جهة ثانية . لكن تادلا على غرار سوس وجزولة ومراكش وحاحا ودكالة ، خلت من أي نفوذ زروقي كان أو قادري ، بل ظلت الجزولية منفردة بالنفوذ الصوفي في تادلا حتى بعد اختلاط الزروقيين بالجزوليين في مناطق أخرى كانت حكرا على إحدى الطريقتين . ونعتقد أن الأمر لا يرتبط بقرب تادلا من مراكز الجزولية الأولى في الجنوب ، فقط ، لأن مراكش مثلا أقرب ، ومع ذلك دخلتها الزروقية ، وإنما لكثرة من صاحب محمد بن سليمان الجزولي من أبناء تادلا . وقد أحصينا منهم 18 وليا . وهذه ميزة انفردت بها تادلا عن سائر أقاليم المغرب . أضف إلى هذا ميزة أخرى تتعلق بالناحية الصوفية أيضا ، وهي غياب ما يعرف بالأولياء البهاليل والمجاذيب المطبقين (6) . فجميع أولياء تادلا خلال القرن السادس عشر جزوليون وكلهم صوفية سالكون . هذه هي الملاحظة الأولى .

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بتطور خريطة المقدس الصوفي بتادلا ، حيث يظهر أن هذه الخريطة عرفت تمعدا ملحوظا ، سواء على المستوى العددي أو المستوى التوزيعي . ويؤكد ذلك تضاعف عدد الأولياء من طبقة إلى أخرى ، من جهة ، وظهور زوايا في مختلف جهات تادلا ، سهلا وجبلا ، من جهة ثانية . وقد عبر أحد كتاب سير الصالحين عن هذا الوضع قائلا : " إن أكثر بلاد الله أولياء تادلا في الغالب . إن الأولياء يفرون إليها من أوطانهم كما تفر الإبل إلى بلد الرعي . . . " (7) . كما عبر أحد الباحثين المهتمين بقضايا التصوف عن نفس المعنى ، حينما قال إن وادي أبي الجعد الذي تأسست به الزاوية الشرفاوية في العقد السادس من القرن السادس عشر ، " يكاد يكون هو ما تبقى من الأودية شمال أم الربيع ، والتي يقوم بها ضريح صالح من الصلحاء " . (8)

وقد كان محقا ، في اعتقادي ، عندما أستعمل كلمة ضريح بدل زاوية . صحيح أن الأضرحة تكون في الأصل ربطا أوزوايا ، وقد تبنى زوايا حول الأضرحة ، لكن ميزة تادلا في هذا الباب أن أضرحتها أكثر بكثير من زواياها خلال القرن 16 م . أعني أن كثيرا من زواياها لم يقدر لها الاستمرار في ممارسة نشاطها المعتاد فتحوّلت إلى أضرحة خامدة . ومعنى آخر إن هذا الإقليم عرف مع كل طبقة خلال القرن السادس عشر أولياء جددا لكن لم يكتب إلا لقليل من خلفائهم الحفاظ على كيان زواياهم حيا ونشيطا ، وأقصد

هنا : آل أمسنو الصومعي ، وشرقا ، والدلايين إضافة إلى آل أبي يعزى . وكان هذه العائلات المرابطية ، لم تكن تسمح بظهور منافس لها في تادلا ، مقتسمة مع بعضها النفوذ الصوفي بها طيلة القرن السادس عشر . وهذه الميزة قلما نجد لها مثيلا في البادية المغربية .

وإذا علمنا هذا أدركنا لماذا وجدنا أقطاب أولياء تادلا في طريق القوم من الأسر المذكورة دون غيرها ، وبالتناوب . ونعني بهم : الشيخ الشهير أبا عبد الله محمد بن يلqاسم الزعري المشهور ببوعبيد الشرقي المتوفى حوالي 1010 هـ / 1602 م (9) ، والشيخ أبا العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي ، المتوفى حوالي 1013 هـ / 1604 م (10) إلى جانب أبي بكر الدلائي ، المتوفى حوالي 1020 هـ / 1613 م . (11)

هاتان ميزتان تنفرد بهما تادلا أو تكاد . وهناك ميزة ثالثة لكنها مشتركة ، هذه المرة ، بين أولياء تادلا وغيرهم في سائر نواحي البلاد ، ونعني بها الحظوة والمكانة والرفعة التي تتمتع بها أولئك الأولياء ، أحياء كانوا أو أمواتا . وهذا محور العنصر الموالي من هذا العرض .

ثانيا : وظائف أولياء تادلا على ضوء الواقع المعيش .

في محاولتنا للبحث عن الأسباب الكامنة وراء تفشي ظاهرة الولاية وسمو مكانة الأولياء بتادلا خلال القرن السادس عشر ، نجد الباحثين الذين أهتموا بهذا الموضوع سواء في المغرب ككل أو في إقليم آخر معين ففسروا المسألة بواحد من ثلاثة ، رسوخ ظاهرة الاستقرار ، مدللين على رأيهم بخلو مجالات الرحل من أي معلم صوفي ، أو بالطابع الانقسامي القبلي العشائري الذي يقال إن المجتمع المغربي تميز به ، أو حماسة رجال التصوف في مجال الجهاد .

فهل تساعدنا هاته الرؤى في تفسير لماذا كثرة أولياء تادلا في القرن 16 م ، وتعليل لماذا علو مكانتهم ؟ إننا نعتقد أن تطبيق أي من هذه الرؤى سيجعلنا نفصل فصلا تعسفيا منطقة تادلا عن جسمها ، الذي هو المغرب ، كما سيجعلنا نخل بوحدة الشبكة الصوفية التي تميز بها مغرب القرن 16 م . مع العلم أن تادلا تحتل مكان القلب في الصدر من البلاد .

وبناء عليه نعتقد أن استفحال ظاهرة الولاية في تادلا زمنئذ ليس إلا نموذجاً لما عرفه المغرب قاطبة ، كما تشهد على ذلك الدراسات التي أنجزت في هذا الصدد . وبناء عليه أيضاً نعتقد أن بروز هذه الظاهرة كان نتاجاً عاماً للواقع المعيش في البلاد المغربية ، شمالها وجنوبها ووسطها حيث تقع تادلا . ذلك الواقع المعيش المشترك الذي تميز من بين ما تميز به طغيان عوامل الإبادة والتقتيل ، وتفشي مظاهر المحن والأرزاء ، بشكل لم يكد يشهد المغرب مثيلاً له من قبل . والتي تتمثل في تعرض المغرب للغزو المسيحي ولأول مرة ، وما نتج عنه من تقتيل وضياح وتشريد ، من جهة ، وتعسف المخزن الحاكم ، وطاسيا كان أو هنتاتيا أو سعديا ، وخصوصاً فيما يتعلق بالتسلط والقهر الجبائي ، من جهة ثانية ، علاوة على ما تسببت فيه الغارات المتبادلة بين عصابات الفزاة والحركات المخزنية ، هذا إلى جانب الخوف والهلع اللذين أحدثتهما القبائل المترحلة أو ما يسمى بالاعراب ، الذين مارسوا كل فنون الخرابة والخرابة ، حسب تعبير الحسن الوزان من سفك للدماء وسلب للأموال ، وإهلاك للحرث والنسل . . . وهي متاعب صاحبته سلسلة من الحروب القبلية والعشائرية بين القبائل المستقرة حول مصادر العيش ، في مختلف نواحي البلاد ، وسلسلة أخرى من الصراعات الحربية الدامية بين الوطاسيين والسعديين ، والثورات العنيفة والمتكررة حول العرش بين أمراء بني وطاس ، أو أفراد الأسرة السعدية المالكة .

أضف إلى هذا كله معاناة المغاربة سنوات طوال من الجفاف والقحط والمجاعات القاتلة والأوبئة الفتاكة ، والتي خلفت بدورها مئات الضحايا من قتلى ومشردين وعبيد باعوا أنفسهم للبرتغاليين مقابل الطعام ، ومسلمين أصبحوا نصارى ، وما إلى ذلك .

ولعل من أهم النتائج التي أفرزتها هذه الوضعية المتأزمة اختلال التوازن الفكري للمجتمع المغربي وسيادة التفاسير الغيبية والشعوذة ، كما يحدث عادة في مثل هذه الظروف . ويفسر ذلك التعليل الذي وجد الجو الملائم للشيوع منذ بداية القرن 16 م ، والقاتل بأن سبب هذه المآسي كلها يرجع إلى ابتعاد المغاربة عن تعاليم الديانة الإسلامية وأن ما حل بهم هو عقاب من الله . وهو تفسير اقتنع به العوام وغير العوام على حد سواء .

وبناء على هذا التفسير أيقن المغربي ، التادلي وغير التادلي أن لا خلاص له من الأزمة إلا بإرضاء الله ورجاء رحمته . بل إن حرصه الشديد على التقرب من الله دفعه إلى التقرب من أقرب الخلق إليه وهم أولياؤه . وهذا ليس غريباً أو طارئاً لا مثيل له ، فالتاريخ الإسلامي زاخر بالأمثلة الدالة على هذه المعادلة ، وهي : كلما ازداد القلق واشتدت الحاجة كلما كان للولاية حظ كبير في التمدد والرفعة . (12)

وعلى كل حال يشهد تاريخ مغرب القرن 16 م ، أن معظم أهالي تادلا بل معظم المغاربة أصبحوا ييجلون ويقدون أولياءهم أشد ما يكون التقديس والتبجيل ، وأن هؤلاء الأولياء أصبحت لهم مكانة تسمو على غيرهم من أفراد المجتمع ، كما سنرى من خلال إجابتنا عن السؤال التالي : إلى أي حد ساهم الأولياء في تادلا في التخفيف من حدة هذه الأزمة حتى احتلوا هذه المكانة ؟

1 - شروء الإنسان :

ونقصد بها ما سببه الإنسان لأخيه الإنسان سواء تعلق الأمر بالمحتلين أو المخزن أو الأعراب أو من شاكلهم . وبخصوص مساهمة أولياء تادلا في مواجهة الغزو المسيحي ، فإن الحديث عنه يبدو من العبث ، لبعد تادلا عن الساحل المغربي الذي تعرضت ثغوره للاحتلال ، لكن مع ذلك يأبى بعض الباحثين إلا أن يروا في زوايا تادلا حلقات في سلسلة طويلة من الحصون الخلفية الممتدة قبالة الساحل ، والتي تحمي ظهور المجاهدين ، من جهة ، وتقدم بالعدة والعدد لمواصلة الصمود والمقاومة (13) ، بل يرى البعض أن أولياء تادلا ساهموا فعلياً في عمليات الجهاد ، (14) سواء في دكالة أو الشاوية أو وادي المخازن . (15) فساهموا بالنتيجة في طرد شبح الخوف عن أهالي تادلا الذين ما فتئوا يسمعون عن الغارات البرتغالية ووحشيتها على طول الساحل المغربي .

ومن جانب آخر نتوفر على أمثلة حية عن مساهمة أولياء تادلا في التخفيف من خوف ومعاناة الأهالي من تعسف المخزن ولا سيما في جباية الضرائب ، وذلك بتوفير الحماية لهم ولأمتعتهم . (16) بل لدينا الأمثلة التي تؤكد لجوء كثير من المنكوبين والمتابعين من قبل السلطة إلى زواياهم ، (17) وأمثلة أخرى عن اتصال بعض الأولياء

بالسلطين قصد الشفاعة لديهم وتطبيب خواطهم على الشائرين ودفع الظلمات عن المتوسلين إليهم وقضاء حوائج الناس لديهم . (18)

ولدينا أمثلة أخرى تشير إلى إسهام أولياء تادلا في التخفيف من حدة الصراع بين الفرقاء حول السلطة ، وهدفهم الأساسي حفظ دماء المغاربة وأرواحهم من التهلكة ، كما فعلوا عندما دخلوا " بالصلح بين السعديين والوطاسيين والتراضي على قسمة البلاد " ، إبان المعارك العنيفة التي جمعت بين الطرفين في تادلا في بوعقبة ودرنة وفي غيرها . (19)

هذا إلى جانب استغلال الأولياء في تادلا لصلاحهم الظاهر وكراماتهم في مجال التقليل من الصراعات القبلية ، ومواجهة الأعراب وقطاع الطرق ، وغير هذا وذاك مما يساعد على تحقيق التكافل الاجتماعي والاستقرار ولو نسبيا . (20) وحسبنا أن نذكر هنا تكثير العمارة حول الزوايا ، كما فعل أولياء أبي الجعد والدلاء لتشجيع الأهالي على الاستقرار ، (21) وإشرافهم على عقد الاتفاقات وضمان سريان مفعولها ، مثل التحالفات المشهورة في تادلا تحت اسم طاطا ، تاظا . (22) وما يؤثر في هذا الصدد عن شيخ شرقاوة الكبير تدخله لدى قبائل تامسنا ، خلال بعض سنوات الجذب ، لتسهيل انتجاع ماشية ورديفة بأراضيها (23) ، مثلما يؤثر عن أبي بكر شيخ الدلاء استضافته لزعماء العرب ، كما فعل مع العكاكزة ، وإباحته لهم زرع بهدف كسب ودهم وحماية أتباعه من شرورهم . (24) والأمثلة كثيرة جدا .

2 - مقاومة الكوارث الطبيعية :

وتشمل الجفاف ، كما تشمل المجاعة ، وغيرهما من الكوارث الطبيعية . وكما هي عادة المجتمع الزراعي ، عندما تشح السماء ، يسارع المرء إلى فتح كفيه كأسهل وسيلة لطلب الرحمة من رب السماء . غير أن التادلي كأخيه المغربي خلال القرن 16 م ، أضاف إلى هذه العادة التلقائية ، عادة أصبحت لها ملازمة ، وهي طلب الرحمة في ضريح ولي صالح أو بصحبته إيمانا منه أنه قريب من الله ودعوته مستجابة ، أو هكذا خيل له . وهكذا وجدنا سكان مجاط وبربر آيت يوسي وعرب أقرض وجيرانهم من أهالي تادلا يستسقون عادة بشيوخ زاوية الدلاء ولا سيما منهم أبو بكر الدلائي ، (25) بينما استسقى

بنو شجدال وورديفة وغيرهم بالشيخ أبي القاسم الزعري ، والد بوعبيد الشرقي (26) في حين اعتاد سكان أبي الجعد أن يجتمعوا كلما احتاجوا للغيث بضريح سيدي السايح . . . (27) وهكذا يكون دور الولي في هذا المقام ممثلاً موفقاً لرغبة جماعية وجامعة لتجاوز حالة خنوع ولو عن طريق الحلم وصنع عالم خيالي يظهر الولي من خلاله متصرفاً في قوى الطبيعة . (28)

أما عن مقاومة المجاعة بإطعام الطعام للمحتاجين ، فقد روت سير الصالحين روايات ، رددتها البحوث بعدها ، تشير في نفس القارئ الدهشة والاستغراب عن كرم أولياء تادلا ، وعلى رأسهم أولياء الدلاء ، (29) والصومعة ، (30) وأبي الجعد ، وغيرهم حتى ليذكر بأن الشيخ بوعبيد الشرقي " كان يلعب بين الصالحين بحاتم الطائي لشدة بذله وسخائه " ، حسب تعبير اليتيمة . (31) بل وجدنا من رفعه إلى مستوى أعلى من مقام حاتم الطائي نفسه ، كما في هذين البيتين من الشعر الملحون :

فت حاتم الطي تدايم ضيفك نارك فوق الهضاب تجلب فاقد الأوطان
أنت المدوح فالثنى سلطان سمك عم الأفق شرق وغرب السودان (32)

ويفهم مما أورد صاحب اليتيمة أن هذا الشيخ ورث تلك الحاتمية عن والده بلقاسم الزعري . (33)

وتجدر الإشارة هنا إلى قضية هامة مفادها أن المجهودات التي بذلها سائر الأولياء في إطعام الطعام بتادلا كان لها تأثير كبير على مدخرات زواياهم بفعل توالي سنوات طويلة من الجفاف والمجاعة ، وهو ما ظهر واضحا إبان أزمة 1596 - 1603م حيث أعطى أرباب الزوايا أهمية أكبر للتغذية الروحية على حساب التغذية المادية . صحيح أن التغذية الروحية تدخل في باب الزهد الصوفي ، لكن الذي لاشك فيه أن الزهد في هذه الفترة وصل إلى مستوى التقشف المفروض على الجائع ووليه في نفس الوقت . وحسبنا هنا الدلائل التالية :

1 - ظهور كرامات عديدة تفيد حصول البركة في الطعام ، وحصول الكفاية من القليل أو تفيد تكثير القليل وإحضار طعام في غير أوانه . كما حدث على يد بوعبيد الشرقي وأبي القاسم الصومعي وأبي بكر الدلائي ، وهم حاققو زمانهم . (34)

2 - نظم أولياء تادلا لأوراد جديدة في هذه الفترة بالذات ، مع الحرص على تلاوتها مرات ومرات وكلها لها علاقة وطيدة جدا بمقاومة الجوع ، نذكر منها :

* ورد الشيخ بوعبيد الشرقي ، وهو حزب الشيخ الكبير ، ويتكون من حزب الفلاح للإمام الجزولي وزيادات عليه من عند الشيخ . (35)

* ورد أبي بكر الدلائي ، وهو تكرار لا إله إلا الله ، وغيرها من الأدعية مائة ألف مرة . (36)

* ورد أحمد بن أبي القاسم الصومعي ، وهو دلائل الخيرات ، مائة ألف من الأسماء ، سورة الإخلاص أربعون ألف مرة ، البسملة والهيللة سبعون ألف مرة يوميا . (37)

هذه أوراد جعلها هؤلاء الأولياء ذيولا للأصول ، وعكفوا وعكف معهم رواد الزوايا على ترديدها إيمانا منهم بأهميتها في تفريج الكرب وإبدال الضيق والظنك سعة ، ولنسيان الجوع ولو مؤقتا .

والى جانب ذلك النوع من الكرامات وهذا الشكل من الأوراد ازدهر فن الملحون في تادلا خلال الفترة المذكورة بشكل ملفت للانتباه . وليس غريبا أن يكون أشهر ناظمي أشعاره من الأولياء وعلى رأسهم الشيخ بوعبيد الشرقي ، ومن ثم ليس غريبا أيضا أن تكون معظم أغراض هذا الفن زهدا وتصوفا وحكمة في ذم الدنيا الفانية . وبناء عليه ، ألا يكون أهالي تادلا قد وجدوا في معاني هذا الكلم البسيط ودلالات أنغامه وعدويتها مبررا للبحث عن عالم جديد ، ومسكنا مؤقتا لأوجاع أمعائهم ، وراحة نفسية وربما راحة نهائية ، وهم يلاقون ربهم راضين ، مثلما وجدوا كل ذلك أيضا في الأوراد والتراتيل . . . لا نستبعد ذلك ، (38) وحسبنا ظهور كرامات غريبة في هذا الإطار على يد الشيخ بوعبيد الشرقي مؤداها أنه لم يجد ما يرد به على أحدهم جاءه شاكية آلام الجوع سوى قوله إن الله سيخلصك منه ، فحدث ذلك وتوفي الجائع وهو راض كل الرضى . (39)

والمهم أن الأولياء نجحوا في توفير الغذاء لأتباعهم ، فكان خبزا وغير خبز أحيانا ، وكرامات ربانية لذيذة وأورادا وملحونا دسما ، أحيانا أخرى ، تماما كما فعلوا

في مكافحة العلل والأوبئة ، إذ قدموا لمن قصدهم وصفات طبية مباركة تارة ، وفروا بهم من الأمكنة الموبوءة تارة أخرى ، واستسلموا معهم للقدر وسموه مكتوبا ، في أكثر من مرة . (40)

هذه بعض الحلول ، وهي ، كما نرى حلول العاجز المتكل على الغيب لكنها كانت ضرورية في غياب البديل ، مما جعل فائدتها حاضرة في أذهان العامة . فماذا استفاد الأولياء في المقابل ؟

ثالثا : استفادة الأولياء من وظائفهم :

يمكن حصر وجوه استفادة الأولياء في العناصر التالية :

1 - الشراء المادي : ذكرنا آنفا أن المغربي في تادلا ، كما في غيرها طبعا ، أصبح متعلقا جدا بأوليائه ، نظرا لحاجاته الماسة إلى خدماته . ولما كان الاعتقاد السائد بأن هذه الوساطة لن تأتي أكلها إلا إذا تم تقديم النية وما يتبعها من فتوح أو هدايا أو زيارات أو ما شاكلها ، أصبح من العادات المألوفة عندما يحمل التادلي مشاكله لوليه أن يحمل معها شيئا من هذا أو ذاك ، كما تدل على ذلك النصوص التالية : فقد جاء في البدور الضاوية أن أهالي أقرض بتادلا أصابهم الجذب مرة ، حتى جف أم الربيع ، فنصحهم أحد أتباع الشيخ أبي بكر الدلائي بزيارة الشيخ في زاويته ، إذ أن دعوته مستجابة ، بشرط ألا ينسوا الوعدات وهي نوع من الفتوح " فبادروا إلى ذلك تعرضا للإغاثة والإسناد مما هم فيه من شدة الحال وجمعوا له غنما كثيرة . . . " (41)

ويذكر صاحب المرقبي من جهته أن أهالي الدير كانوا يقدمون هدايا وفتوحات ذات بال لوليهم محمد بلقاسم الزعري تيمنا وتبركا ، كان يقدم منها هذا الولي بدوره لشيخه عبد العزيز التباع كل شتاء عدة بقرات حلويا . . . (42) وكان أهالي دكالة يصلون شيخهم بوعبيد الشرقي بكميات مهمة من الفتوحات ، بلغت في مرة واحدة " سبعون قنطارا من السمن " (43) ، ناهيك عما كان يرد إلى زاويته من فتوحات تادلا والشاوية ، والتي لا يعلم عددها إلا الله ، حسب تعبير صاحب المرقبي . (44) دون أن نذكر الهدايا ، والتعريكية ، والدرسة الأخيرة والمد الأول . . .

وفي نفس السياق أهديَ إلى أحد حفدة الشيخ أبي يعزى ، وكان قد تولى مشيخة زاوية جده ، ثلاثمائة مثقال وأربعين غرارة من القمح وعشرة قناطير من السمن . (45)

أما الفقير الذي لا يملك شيئا يقدمه لوليه فكان يقدم نفسه ، ويتفانى في الخدمة . وقد فعل ذلك كثير من أبناء تادلا . ولذلك وجدنا لكل ولي راع أو رعاة لمواشيه ، وحارسا أو أكثر لبساتينه ، ومكلفا أو اثنين بحمل الماء والحطب للزاوية ، ووكلاء على مخازن الحبوب ، وتهيء الطعام . . . (46) هذا علاوة على مساهمة الأتباع والمحبين في خدمة وليهم ، كأن يحرقوا له الأرض مجانا ، في إبانها ، وأن يقوموا بجمع المحصول بعد نضجه ، زرا كان أو فاكهة . (47)

وبناء على هذا كله ، كان من الطبيعي أن يصبح الأولياء من الأثرياء الكبار في البلاد ، ومن الأغنياء في زمن الأزمة والخصاصة الشديدة . ومن أكثر الروايات طرافة وتعبيرا عن هذا الواقع ما رواه العبدوني في *اليعيمة* عن ولي تادلا الشيخ بلقاسم بن محمد الزعري ، حيث يقول : " كان ذا وفر في الدنيا وتوسعة من غنم وبقرة وإبل وأكثر ماله الغنم ، وكان له عزيب في بلد ورديفة وهو نازل مع أصحابه في موضع يقال له وادي الزم . . . وكان مدة حياته يخرج إلى عزيبه ، ويجلس في بعض الأحيان شهرا كاملا ، بأصحابه ومتاعه . ولا يأكل إلا مما تأكل النفساء مثل بركشوش بالحليب والسمن في الفطور والثريد بالمرق في وسط النهار ، والكسكسو باللحم والإبزار في الليل . . . حتى إن ثديه يسيل مثل ثدي المرأة " . (48)

وقد ظهر أثر هذا الغنى على زوجته المرأة الصالحة رحمة بنت حمزة التي اشتهرت بين نساء تادلا بكثرة ونفاة الحلبي الذهبية التي تتزين بها (49) . من جهة ، كما ظهرت على ابنهما الولي الشهير محمد بوعبيد الشرقي ، الذي عرف ، مثلا ، بين الأولياء بلباسه الشبيه بلباس السلاطين . (50) والأمثلة من هذا النوع كثيرة .

2 - النفوذ الاجتماعي : ونقصد بها توفر الأولياء على عصبية قوية ، وهي ثاني أهم فائدة اكتسبها الأولياء من خلال الخدمات التي قدموها . ويتجلى هذا النفوذ في مظاهر شتى من أهمها : كثرة المريدين المقيمين بالزوايا على الدوام ، والمصاحبين

لشييوخها ، إلى جانب القائمين على خدمة الولي وزاويته . فقد ذكر صاحب الممتع أن زاوية الشيخ أبي عثمان سعيد أمسنا وكانت تضم " نحو الثمانمائة أو عشرين مريد متجربين يعيشون دوما بالزاوية " . (51)

وعلاوة على المردين ، كان لكل زاوية وكل ولي أتباع ومحبون يخدمونهما في مقابل ما يوفره هذا الولي أو ذاك من خدمات اجتماعية ، وما تقدمه هاته الزاوية أو تلك من ضمانات مادية أو معنوية . (52) ولا تكمن أهمية الأتباع في كثرتهم فحسب ، إذ يشملون عادة قبائل عديدة ، وإنما فيما يوفره للزاوية ووليها من قوة بشرية واقتصادية ، الأمر الذي جعل الولي بمثابة سلطان جهوي . وقد تجرأ فعلا بعضهم وسمى نفسه سلطانا مفتخرا أو متحديا للسلطان الشرعي ، بلغة صوفية . وكان بعضهم يروقه المدح ويجزل للشاعر العطاء ، تماما كما تعودنا أن نسمع ونقرأ عن الملوك والأمراء . وهذا يجرنا للحديث عن الفائدة الثالثة التي جناها الأولياء من الأزمة ، ونقصد بها :

3 - النفوذ السياسي : وقد ترتب هذا النفوذ في الواقع عما اكتسبه الولي من نفوذ روحي واجتماعي ، الأمر الذي جعل للأولياء دالة على الحكم ، وأصبح رأيهم يحسب لهم ألف حساب فيما يتعلق بأمور الدولة السياسية . ودون أن نطيل الحديث في هذا الموضوع ، نشير فقط إلى أن أولياء تادلا كان هواهم السياسي وطاسيا ، قبل أن تقوم الدولة السعدية ، رغم عدم خضوع تادلا فعليا لمدينة فاس ، يشهد على ذلك ظواهر التوقير والاحترام الدالة على الود والتعاون ، التي خص بها بنو وطاس بعض أولياء تادلا . غير أن ظروفًا سياسية وعسكرية معروفة ، جعلت أولياء تادلا يميلون إلى مساندة السعديين ، بمجرد وصولهم إلى مراكش ، وإعلانهم الاستقلال عن بني وطاس ، على غرار أولياء مملكة الجنوب ، وساهموا بالتالي مساهمة فعالة في ضم منطقة تادلا إلى الإمارة السعدية الناشئة .

وقد مكنتهم هذا الدور من تحقيق جاه عظيم لدى المخزن السعدي ، نجد له ترجمة واضحة فيما خص به السلطان محمد الشيخ السعدي محمد الشرقي (53) وربما غيره ، من إنعامات ، وإعفاء هذا الأخير وربما غيره أيضا من ضريبة النابية . (54)

وإذا كنا لا نعلم مدى تأثير أولياء تادلا بسياسة الشرفاء السعديين منذ عهد محمد الشيخ ، الرامية إلى الانفراد بالسلطة والحد من نفوذ الأولياء بشكل عام ، فلا نؤكد

أن أولياء تادلا ككثير من أقرانهم في المغرب خرجوا منتصرين من هذا الصراع أقوى مما كانوا عليه قبل قيام الدولة السعدية . حتى إذا توفي المنصور ، ودخل أبنائه في الصراع حول العرش وجدنا لأولياء تادلا حضورا فعالا على المستوى السياسي ، بل حاول بعضهم - وأقصد أولياء الدلاء - إقامة دولة مرابطية ، ولم ينافسهم في تادلا إلا أولياء مثلهم ، وأعني بهم شيوخ شرقاوة بأبي الجعد .

الهوامش

- 1 - يوسف بن يحيى التادلي ، التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق ، طبعة الرباط ، 1404 هـ / 1984 م .
- 2 - عبد الرحمان الصومعي ، التشوف في رجال السادات أهل التصوف ، م . خ . ع . الرباط ، رقم 103 د .
- 3 - عبد اللطيف الشادلي ، التصوف والمجتمع ، لمّاذج من القرن العاشر الهجري ، منشورات جامعة الحسن الثاني ، مطابع سلا ، سلا ، 1989 م ، ص 72 . ويرى الأستاذ الشادلي أن القرن السادس الهجري / 12 م عرف " كثرة الصلحاء كثرة لم يشهد المغرب مثلهما إلى حدود القرن 11 هـ / 17 م " . ويعطي مثلاً من بين الأمثلة بتادلا ، مستشهداً بقول محمد التادلي المتوفى عام 608 هـ / 1211 م ، وهو من الصوفية ، مؤداه : " أدركت بتادلا ثلاثمائة وسبعين رجلاً من الصالحين ، كل منهم يزار " (نفس المرجع) .
- 4 - عبد الرحمن الصومعي ، التشوف . . . مخطوط سابق ، ص 77 . أ - ب .
- 5 - المهدي الفاسي ، مجتمع الاسماع في ذكر الجزولي والتجاع وما لهما من الأتباع ، طبعة حجرية بفاس ، 1313 هـ / 1986 م ، ص 110 .
- 6 - أحمد الوارث ، الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرن السادس عشر ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ، فاس ، 1988 م ، ص 139 وما بعدها .
- 7 - محمد بن عبد الكريم العبدوني ، بتممة العقود الوسطى . . . م . خ . ع . الرباط ، رقم 305 ك ، ص 136 .
- 8 - أحمد بوكاري ، الزاوية الشرقاوية ، زاوية أبي الجعد ، إشعاعها الديني والعلمي ، مطبعة النجاح الجديدة ، البيضاء ، 1985 م ، ج 1 ، ص 77 .
- 9 - المهدي الفاسي ، مجتمع . . . مصدر سابق ، ص 110 .
- 10 - محمد الوفراني ، صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي والثاني عشر ، طبعة حجرية بفاس ، دون تاريخ ، ص 22 .
- 11 - سليمان الحوات ، الهدوء والضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية ، م . خ . ع . الرباط ، رقم 1454 د ، ص 24 .
- 12 - راجع دراستنا في هذا الباب .
- 13 - أحمد بوكاري ، الزاوية . . . مرجع سابق ، ج 1 ، ص 55 - 56 .
- ويرى نفس الباحث أن هذه السلسلة تمتد على الأقل من زاوية سيدي رجال الكوش بأفغاي فزاوية سيدي علي بن إبراهيم بأقرض فزاوية الصومعة ، فالدلاء ، فزاوية إمبراك الزعري بتاغيا . . . (نفسه) .
- 14 - " كما تشهد على ذلك القباب والأضرحة التي تأوي رفات عدد من المجاهدين والشهداء والصلحاء ، المنتمين للزاوية الشرقاوية سواء في الشاوية أو دكالة " (أحمد بوكاري ، الزاوية الشرقاوية . . . ج 2 ، ص 38 ، 57 - 58) .
- 15 - ذهب الأستاذ بوكاري إلى القول بمشاركة بعض أبناء وأتباع الزاوية الشرقاوية في معركة وادي المخازن . (الزاوية الشرقاوية . . . مرجع سابق ، ج 2 ، ص 37) .
- 16 - لدينا المثل على ذلك في إشارة شيوخ أبي الجعد على بعض الخاصة من أصحابهم بالاستقرار بين ظهران خدامهم من ورديفة ، كلما ضايقتهم مملو المخزن أو جياة ضرائبه . راجع : أحمد بوكاري ، الزاوية . . . ج 2 ، ص 44 .

- 17 - كما هو حال الزاوية الشرفاوية التي أصبحت زمن المنصور السعدي ملجأ للناقمين والمتظلمين من تصرفات كبار موظفي المخزن . راجع أحمد بوكاري ، الزاوية . . . ج 2 ، ص 88 .
- 18 - كما فعل الشيخ بوعبيد الشرقي عندما بعث ابنه الغزواني مع وفد من قبيلة بني عمير التادلية للتدخل لدى المخزن أو بمثليه ، حتى يرفع عنهم سطوته ويمسك جنده . وكذا عندما بعث إلى أمير تادلا الشريف زيدان يبين له " بأن الجهات الأربع تيرأت منكم ، ولم يبق لك إلا ناحيتنا ، فاسلكوا نهج العرب أو أنا بريء منكم والسلام " . راجع : أحمد بوكاري ، الزاوية . . . ج 2 ، ص 45 ، 88 .
- 19 - أحمد الوارث ، الأولياء . . . مرجع سابق ، ص 429 .
- 20 - أحمد بوكاري ، الزاوية . . . مرجع سابق ، ج 2 ، ص 22 .
- 21 - نفس المرجع ، ج 1 ، ص 78 . وراجع أيضا :
- محمد حجي ، الزاوية الدلاتية ودورها الديني والعلمي والسياسي ، مطبعة النجاح الجديدة ، البيضاء ، 1988م ، ص 78 .
- 22 - أحمد بوكاري ، الزاوية . . . مرجع سابق ، ج 2 ، ص 22 .
- 23 - نفس المرجع ، ج 2 ، ص 43 .
- 24 - المحسن اليوسفي ، المحاضرات ، أعدها للطبع محمد حجي ، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، 1396هـ / 1976م ، ص 144 .
- 25 - سليمان الخوات ، الهدور . . . مخطوط سابق ، ص 56 .
- 26 - أحمد بوكاري ، الزاوية . . . مرجع سابق ، ج 2 ، ص 19 .
- 27 - نفس المرجع .
- 28 - عبد اللطيف الشاذلي ، التصوف . . . مرجع سابق ، ص 115 .
- 29 - محمد حجي ، الزاوية . . . مرجع سابق ، ص 48 .
- 30 - أحمد الوارث ، الأولياء . . . مرجع سابق ، ص 462 .
- 31 - محمد العبدوني ، يتيمة . . . مخطوط سابق ، ص 83 .
- 32 - نفس المصدر .
- 33 - نفسه ، ص 94 .
- 34 - محمد الوفراني ، صفوة . . . مصدر سابق ، ص 23 .
- عبد الخالق العروسي ، المرقبي في مناقب سيدي محمد الشرقي ، م . خ . ع . الرباط ، رقم 1911 ، ص 313 .
- 35 - محمد العبدوني ، يتيمة . . . مخطوط سابق ، ص 265 .
- أحمد بوكاري ، الزاوية . . . مرجع سابق ، ج 1 ، ص 130 - 131 .
- 36 - سليمان الخوات ، الهدور . . . مخطوط سابق ، ص 61 ، 67 .
- 37 - عبد الله الفاسي ، الأعلام بمن حضر وغيره من أهل القرن الحادي عشر ، م . خ . ع . الرباط ، رقم 1080 ك ، ص 314 .
- 38 - أحمد الوارث ، الأولياء . . . مرجع سابق ، ص 474 وما بعدها .
- 39 - محمد الوفراني ، صفوة . . . مصدر سابق ، ص 26 .

40 - يذكر أحمد بوكاري (الزاوية . . . ج 2 ، ص 85 - 86) لجوء عدد كبير من الميوثين إلى زاوية أبي الجعد " حتى ضاقت الزاوية بكثرة الإصابات وعدد الوافدين والمتجنين إليها التماسا للعافية ودفعاً للضرر ، مما زاد من حدة المرض ووطأته ، وما جعل عمليات الدفن تتحول من مقبرة سيدي الزعيمسي لبطع مئات من الأمتار إلى محل مقبرة رجال الميعاد كحل وقائي أولي . ولما لم يجد هذا الحل نفعا اضطر شيخ الزاوية سيدي بوعبيد الشرقي إلى الرحيل عن زاويته برجال الميعاد والتي عمرها مدة خمسين سنة أو يزيد فرارا من مطاردة الوباء له ولأتباعه ونزل بأبي الجعد الحالي متحميا أن يكون هذا المحل " محل ين وبركة . . . وسماء أبو السعد . . . ثم مكث ما يقرب من السنة وتوفي ، متأثرا بالوباء " .

41 - سليمان الخوات ، الهدور . . . مخطوط سابق ، ص 56 .

42 - عبد الخالق العروسي ، المرقى . . . مخطوط سابق ، ص 66 .

43 - نفس المصدر ، ص 304 .

44 - نفسه . وذكر أحد الباحثين أن الشيخ " محمد الحفيان الرتيبي السجلماسي ، أحد تلامذة الشيخ بوعبيد الشرقي ، قد حج أكثر من عشرين حجة ، وكان إذا قدم لزيارة شيخه يقدم بهدية عظيمة من كل ما يحتاج الشيخ وأهل داره حتى إنه يقدم بالمغازيل . . . " .

راجع أحمد بوكاري ، الزاوية . . . ج 2 ، ص 68 .

45 - عبد اللطيف الشاذلي ، التصوف . . . مرجع سابق ، ص 199 .

46 - أحمد بوكاري ، الزاوية . . . مرجع سابق ، ج 2 ، ص 65 .

47 - نفس المرجع ، ج 2 ، ص 67 - 72 .

48 - محمد العبدوني ، يتيمة . . . مخطوط سابق ، ص 94 .

49 - نفس المصدر ، ص 95 .

50 - عبد الخالق العروسي ، المرقى . . . مخطوط سابق ، ص 313 .

51 - المهدي الفاسي ، مجمع . . . مصدر سابق ، ص 44 .

52 - أحمد بوكاري ، الزاوية . . . مرجع سابق ، ج 2 ، ص 41 وما بعدها .

53 - أحمد الوارث ، الأولياء . . . مرجع سابق ، ص 589 .

54 - يذكر أحمد بوكاري " أن السلطان محمد الشيخ السعدي خص الشيخ بوعبيد الشرقي بجوائز ثلاثين بظنا من قبائل شتى يخدمونه ويدفعون له ما ناههم من أعشارهم وزكاتهم محبة لله وتعظيما له . . . " . راجع : الزاوية الشرقاوية . . . مرجع سابق ، ج 2 ، ص 71 .

تادلا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر "إشكالية الالتقاء والتمازج"

إدريس أبو إدريس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- مكناس -

قبل البدء

إن تهبيء ندوات تهتم بالتاريخ والثقافة لإقليم أو جهة معينة ، تعتبر من الضروريات المطروحة على الساحة الثقافية ، وذلك للإجابة على الكثير من التساؤلات المطروحة على الواقع المعاش .

لذا فالاهتمام بالتاريخ الجهوي يشكل مرحلة جديدة في البحث التاريخي ، فإضافة إلى التاريخ العام والمنوغيرافي المرتبط بقبيلة أو قرية أو مدينة ، نجد أنفسنا اليوم أمام شكل جديد من التاريخ ، إنه التاريخ الجهوي المربوط بإشكالية التشقيف والتنمية للجهة أو الإقليم .

لقد كان قصب السبق في هذا الميدان للكلديات الفتية التي نظمت ندوات خاصة بالجهة المتواجدة بها ، اهتمت بالثقافة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ ، وكذلك بتكوين مجموعات للبحث في ميدان التاريخ أو غيره من الميادين العلمية والثقافية ، فأعطت بذلك دفعا جديدا لعجلة التنمية ، ونفخت روحا في عروق الثقافة الجهوية المتجدرة في التاريخ الكلي للأمة والوطن .

بدء المقال

يقول مارمول حول إقليم تادلا :

[الموقع]

" يبدأ هذا الإقليم عند وادي العبيد غربا وينتهي من جهة الشرق عند أم الربيع ويحتل في الجنوب جبال الأطلس الكبير ، بينما يكون في اتجاه الشمال رأسا يلتقي فيه

هذان النهران ، شكله مثلث ويضم جميع البوادي الممتدة بين النهرين قبل التقائهما ،
لأنهما يفصلان بعد ذلك إقليم دكالة عن إقليم تامسنا إلى أن يصبأ في البحر تحت اسم
نهر أزموور " .

[السكان وغط العيش]

" هذا آخر أقاليم هذه المملكة [مملكة مراكش] وأكثرها اتجاها نحو الشرق
بالرغم من صفه فإنه كثير القمح والزيت والقطعان وأهله أغنياء ، سكان الجبال بربر من
قبيلة مصمودة ، لكن السهول أهلة بسلالتين من الأعراب [أولاد زعير ويني جابر] لكل
واحد منها أزيد من تسعة آلاف فارس ، يرحلون إلى الأقاليم المجاورة " ويضيف حول
حاضرة الإقليم تفرزة : " وهناك مائتي دار لليهود وهم الذين يقصدهم التجار
بالخصوص " .

[نقطة للالتقاء والتصادم السياسي]

" هذا الإقليم جزء من مملكة مراكش ولو أنه سبق أن كان بعض الوقت تابعا للملوك
فاس . كان بنومرين يملكونه عندما كانوا مسيطرين على موريطانيا الطنجية كلها ، لكن
لما انقرضت امبراطوريتهم وانفصلت مملكة فاس ومراكش استولى عليه عدد من المتسلطين
الصغار فأعطوا الفرصة بنزاعاتهم للملوك فاس ليحتلوا أهم المدن ، وكان إقليم تادلا في
ملكهم عندما تغلب الشرفاء على هذه المناطق " . (١)

ومن خلال نص مارمول يمكننا أن ننطلق في تحليل إشكاليتنا ، إشكالية الالتقاء
والتمازج بمنطقة تادلا ، وذلك بالاعتماد على مصادر متنوعة (عربية - أوربية) ،
تعرضت لها بصفة عارضة ودون تحديد لمواصفاتها .

لذا حصرنا الإشكالية في ثلاث محاور أساسية :

I / الالتقاء والتمازج بين حاضرتين

II / الالتقاء والتمازج بين فطين للعيش

III / الالتقاء والتمازج بين ثقافتين

١ / بين حاضرتين:

لقد كانت دائما منطقة تادلا الحد الفاصل بين الحاضرة الفاسية ، والحاضرة المراكشية ، وكان نهر أم الربيع الحد الفاصل بين الحاضرتين عند انهيار الدولة المركزية وانقسام المغرب إلى كتلتين سياسيتين متصارعتين واحدة بفاس وأخرى بمراكش .

لقد كانت المسافة بين الحاضرتين سبعون فرسخا أي سبعة أيام ، وكان اليوم يساوي عشرة فراسخ ، وكانت نقطة الالتقاء عند نصف المسافة على وادي العبيد .⁽²⁾ لقد كانت تادلا منطقة الأحداث الكبرى الفاصلة في تاريخ المغرب .

كان اللقاء / الصراع الأول عند قيام الدولة السعدية وتوسعها بالشمال لتصطدم بالوطاسيين ، فكانت وقعة بوعقبة 943 هـ / 1536 م - 37 ، على وادي العبيد المعركة الحاسمة بالنسبة للسعديين ، بانهزام الوطاسيين وما غنمه السعديون من مدفعية (35 مدفعا من البرونز) ،⁽³⁾ ويضيف ديبكودي طوريس أنه لدى مرور الأخوين السعديين المنتصرين بتادلا " جيبا خراج الإقليم بكامله وكان معظمه خاضعا لعدوهما " ،⁽⁴⁾ بعد ذلك رجع الأخوان إلى مراكش وتركوا حامية بإقليم تادلا .⁽⁵⁾

وفي إطار الصراع السعدي - الوطاسي ، كانت تادلا بالنسبة للسعديين بوابة الغرب كله ، بحيث يكفي الانتصار على القوة المواجهة ليتم اكتساح فاس وسائر الأقاليم . وقبل المعركة الحاسمة عقدت معاهدة للصالح بين أحمد الشيخ والوطاسي على أساس أن أم الربيع هو الحد الفاصل . وكان التجار يسافرون من فاس إلى مراكش ، وكانت تادلا نقطة اللقاء والاستراحة ، واتفق على شروط للأمن وضمان المرور ، فمن ضاع له شيء من وادي أم الربيع إلى مراكش فالضمان فيه على الشرفاء ، ومن ضاع له شيء من وادي أم الربيع إلى فاس وتازة فالضمان فيه على الوطاسيين⁽⁶⁾ .

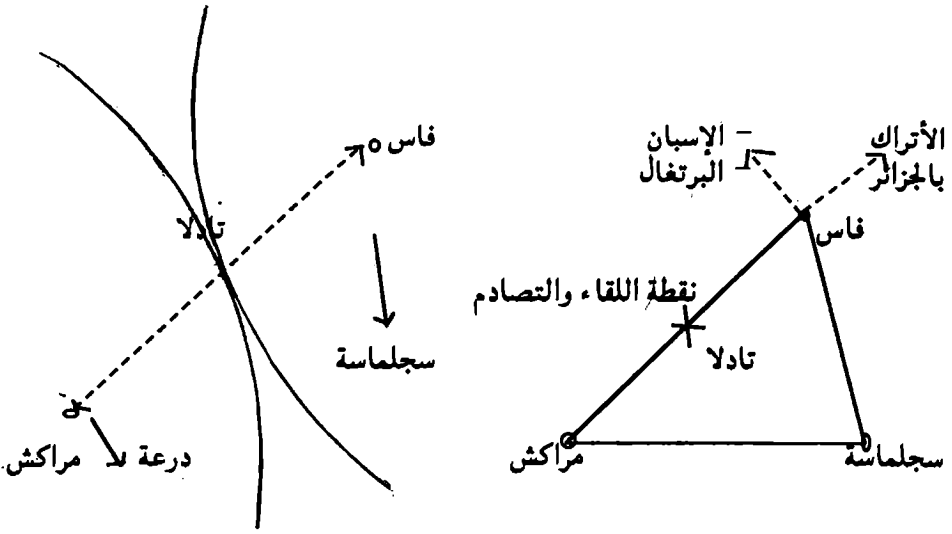
وكانت الطريق إلى مراكش تمر عبر ثلاثة طرق :

- عبر تافيلالت .
- عبر تادلا .
- عبر سلا .

وكانت الطريق الرئيسية في فترات الهدوء والسلام هي طريق تادالا . وما يدل على هذه الأهمية الاستراتيجية للمنطقة هو تعيين جميع الملوك المتعاقبين على المغرب في هذه الفترة ، أحد أبنائهم على المنطقة ، حدث هذا مع الوطاسيين والسعديين حيث عين أحمد المنصور ابنه زيدان عليها والذي بنى بها قصبة أصبحت تعرف باسمه (القصبة الزيدانية) (7) ، وكذلك المولى إسماعيل الذي عين ابنه أحمد على منطقة تادالا وذلك سنة 1699 . لقد كانت تادالا نقطة التوقف بين الحاضرتين مراكش وفاس ، يقول الأسير البرتغالي مندوسا Mendoça أن بين المدينتين مائة مرحلة ، وليس هناك أي مركز أو مكان أو مدينة للتوقف سوى مدينة تادالة ، وهذه المدينة توجد على بعد مرحلتين من الطريق ، ولهذا السبب كانت القوافل تضم مائة شخص على الأقل نظرا لوجود قطاع الطرق ، ويضيف ، إن السهل الذي أخذ اسمه من المدينة يمتد 15 مرحلة طولا و 10 مراحل عرضا ، تستغرق القافلة يومين لتجاوزه . (8) على عكس ماندوسا Mendoça ، فإن مارمول Marmol ، يؤكد أن مدينة أفزا أو فشتالة تقع على الطريق وعلى الممر الرئيسي لذلك فإنها أول مدينة اتجهت إليها أنظار الشرفاء . (9)

بعد أحمد المنصور وقع صراع بين الأبناء أدى إلى اقتسام الإمبراطورية بين زيدان وأبي فارس ، وكانت منطقة تادالا حدا فاصلا بين المملكتين ، من تادالا إلى تازة ونواحيها لزيدان ، ومن تادالا إلى سوس ونواحيها لأبي فارس " وجعلوا درعة من عمالة مراكش وسجلماسة من عمالة فاس " ، ويضيف المؤرخ المجهول معلقا على هذا الاقتسام : " واستقل كل واحد منهما بناحيته فكان ذلك سبب افتراق الكلمة والجماعة وابتداء المخالفة وعدم الطاعة وفتح أبواب الفتنة والشروع " (10) .

كانت تادالا دائما هي نقطة اللقاء والصراع ، وعليها يتحقق الانتصار أو الانهزام سواء تعلق الأمر بأخوين أو فريقين ينتميان لعصبيتين متنافرتين . وكان هناك ما يمكن تسميته بدورة الأمراء في الصراع على السلطة داخل مثلث ساخن ، كانت فيه تادالا نقطة التلاقي والتصادم .



" هلالي الحد الفاصل بين الحاضرتين "

في أواخر عهد السعديين عرفت المنطقة صراعا بين آخر السعديين والدلايين في نفس المكان الذي انتصر فيه السعديون من قبل ، لكن هذه المرة تذوقوا في المكان المعروف بأبي عقبة مرارة الا نهزام (1048هـ / 1638م) ، حيث تراجع محمد الشيخ [الصغير] أمام محمد الحاج الدلائي ، فبدأت سيادة الدلايين على المنطقة .

ومنذ أواخر القرن السابع عشر بدأت أهمية الطريق التجاري إلى مراكش عبر تادلا تتراجع أمام رواج الطريق الساحلي عبر آزموور والوليدية وآسفي ، فبدأت بذلك تتناقص أهمية الطريق الداخلية نحو مراكش . (11)

ولقد كان أحد الأسرى المسيحيين ينصح مواطنيه من الأسرى بالهروب من الأسر عبر تادلا ابتداء من نهر أم الربيع فإلى مازگان ، وسواء كان الفارون من مراكش أو فاس فعليهم أخذ هذه الطريق فهي الأكثر سلامة وقربا من مازگان [الجديدة] ، على عكس الطرق الأخرى التي كانت أكثر حراسة (12) .

عندما بدأت الدولة الجديدة تتوسع ، وبعد تحطيم المولى الرشيد للزاوية الدلائية والقضاء على نفوذها بالمنطقة (1079هـ / 1668م) ، في معركة "بطن الرمان" على الطريق المؤدية إلى تادلا . . .

ومع بداية دولة المولى إسماعيل قامت ثورة أحمد بن عبد الله الدلائي

سنة 1088هـ / 1677م فزحف إليه المولى إسماعيل (1678) بعد انهزامات جيشه المتتالية فكان اللقاء على وادي العبيد " فكانت الحرب بينهما سجالا وأظهر كل فريق قوته وما هو له مريد ، ووقعت حروب بين الفريقين لم يسمع بمثلها في المغرب " (13) ، كما قرر ذلك ابن حمدون الفاسي في الدر المنخب .

وقبل هذا أي في سنة 1085هـ / 1674م التقى المولى إسماعيل مع ابن أخيه ابن محرز الذي خرج عليه ، فالتقى الجمعان بتادلا ، وكان اللقاء على أبي عقبة من وادي العبيد حيث انهزم ابن محرز . (14)

وفي سنة 1111هـ / 1699م فرق المولى إسماعيل أبناءه على أقاليم المغرب وعقد لإبنه أحمد على تادلا ومعه ثلاثة آلاف من جيش العبيد . فبنى بها قصبة جديدة ومسجدا أعظم ، وبنى بها قصره . واستقر بها مدة طويلة ، حتى أنه عندما عزل المولى إسماعيل أبناءه من الأقاليم ترك أحمد بتادلا ، الذي بقي بها حتى موت أبيه . (15) فكان ولي العهد هو من كان على منطقة تادلا الغنية بشريا واقتصاديا .

II / بين نمطين للعيش :

يمكن التمييز في نمط العيش بين شكلين : السهلي والجبلي . ففي الوقت الذي يغلب طابع الزراعة على المنطقة السهلية ، نجد أن تربية الماشية هي الغالبة على المناطق الجبلية ومنطقة الدير ، حيث تمارس حياة الا نتجاع .

يقول مارمول حول فشتالة : " السكان أغنياء يزرعون السهل ولهم حدائق جميلة وكروم على الربوة الواقعة فوق المدينة " . (16) وفي آيت عياض هناك زراعة مسقية ، وكثرة شجر الزيتون ، " ويحصد الشعير بوفرة في الجبل والقمح الجيد في السهل " . (17)

وتكثر قطعان الماشية في المناطق الجبلية مثل جبل دادس حيث السكان " ليس لهم إيراد آخر غير قطعانهم التي يرحلون معها " ، وفي جبل مفران السكان يتنقلون بحثا عن المرعى ، ويملكون عددا كبيرا من " قطعان الماشية الكبيرة والصغيرة ، وهكذا فهم يرحلون الصيف كله عبر هذه الجبال ويقيمون في مكان يقضون فيه فصل الشتاء " . (18)

هذا النشاط الفلاحي المزدوج يقابله نشاط اقتصادي مزدوج يتمثل في الصناعة والتجارة ، حيث تشير المصادر إلى انتشار الصناعة النسيجية بالمنطقة . يذكر الحسن الوزان أن تفزة حاضرة تادلا يقصدها عدد وافر من التجار ليشتروا منها بعض المعاطف السود التي تنسج قطعة واحدة بغطاء الرأس ، ويسمى هذا اللباس البرنس .⁽¹⁹⁾ وفي أفزا (فشتالة) النساء " ماهرات في خدمة الصوف يصنعن منه البرانس والأكسية الفاخرة فيكسبن هكذا من المال أكثر مما يكسبه الرجال⁽²⁰⁾ " ويضيف مارمول حول الحاضرة تفزة أن السكان أغنياء حيث " يتجرون في الصوف الرفيع الذي تصنع منه زرابي كزرابي تركيا وبرانس جيدة للبادية ، تجتذب هذه البضاعة التجار من جميع النواحي " ⁽²¹⁾ ، وحول فشتالة : " إن سكان هذه المدينة أغنياء يصنعون أقمصا جميلة وثيابا أخرى تسمى فشتالة تحمل إلى فاس ومراكش " ⁽²²⁾ ، فكانت بذلك فشتالة عاصمة " لموضة " من اللباس .

ولقد كان هذا الرواج التجاري يعم كل مراكز الإقليم ، وكان اليهود يلعبون دورا مهما في هذه التجارة ، وفي بعض الصناعات .⁽²³⁾

وتجدر الإشارة ، إلى أنه بجانب هذا النشاط الإنتاجي ، فإن سكان المنطقة " قوم محاربون " ، " ورجال حرب أشاوس " .⁽²⁴⁾

لقد عرفت المنطقة فترات للتعيمير والإفراغ نتيجة لتوالي سنوات للجفاف والمجاعات ، وانتشار الأوبئة ، فكانت المناطق الجبلية بمثابة خزان بشري نظرا لعدم تأثرها بوطأة الأوبئة المنتشرة والمركزة بالسهول والمناطق الرطبة .

إن القرنين السادس عشر والسابع عشر شكلا فترة متميزة بأزمات ديمغرافية نتيجة الأوبئة والمجاعات 1521 - 1522 / 1557 - 1558 / 1597 - 1600 / 1602 - 1608 / 1625 - 1631 / 1661 - 1663 / 1678 - 1681 .⁽²⁵⁾

ولقد حدث في تادلا أثناء مجاعة صيف 1071 هـ / 1661 م ، أن مات خلق كثير وأخلت المنطقة من ساكنتها قاصدين الجنوب الصحراوي حيث ظهر أن هذه المناطق أقل ضرا .⁽²⁶⁾ ويصف هنا الحالة صاحب الإحياء والانتعاش ، حيث يذكر أن لا مكان

مسكون من زاوية الدلاء وهي مدينة الأزغار إلى مدينة أزمور، ولم تصب أية قرية في الصحراء .⁽²⁷⁾ وفي خريف نفس السنة (1072 هـ / 1661 م) سقطت أمطار بتادلة وفي الأزغار وظهرت بعض المراعي ، فبدأت القبائل التي هاجرت مناطقها إلى الجنوب ترجع إلى مواطنها الأصلية ، وهذه الحركة تفسر بالجفاف الذي أصاب المناطق الجنوبية .⁽²⁸⁾

وهكذا تتوالى سنوات الجفاف والمجاعات وانتشار الأوبئة وتستمر عملية تحرك القبائل في اتجاهات متنوعة ، إلى الجنوب ومن الجنوب إلى تادالا التي كانت فيها الخسارة السكانية أكثر فداحة ، فتحركت إليها قبائل من الصحراء والجبل لتعمير المناطق الفارغة ، حيث غيرت بعض الأنماط المعاشية فيها وحافظت على عاداتها وتقاليدها ونوعية سكنها .

ولقد كانت تصاحب هذه التحركات وعمليات الاستقرار لقبائل السفح الجنوبي من الأطلس الكبير بمنطقة تادالا اضطرابات وصراعات متعددة بين القبائل ، كانت منطقة تادالا مسرحا لها ، والتي أدت في كثير من الأحيان إلى تدخل الدولة المركزية التي أولت المنطقة أهمية كبرى نظرا لخطورتها الاستراتيجية في استقرار هذه الدولة .

||| / بين ثقافتين:

لقد كانت تادالا بوتقة للاتصهار الثقافي ، خاصة بين ثقافتين سهلية وجبلية / عربية وأمازيغية ، مما أدى إلى إعطاء المنطقة خصوصية متميزة عن باقي المناطق الأخرى ، وتجلبت في الكثير من الميادين الثقافية . ولقد كان الإسلام العروة الوثقى التي ربطت الثقافتين ، وجعل منطقة تادالا أكثر إنجذابا من غيرها للعلماء والشيوخ والصلحاء والزوايا ، فهي أرض 370 صالح ، يقول اليوسي في *المحاضرات* : " وحكي أيضا عن أبي جعفر الأسود صاحب تغزوت أنه كان يقول : أدركت ببلاد تادالا ثلاثمائة وسبعين رجلا صالحا كلهم يزارون " .⁽²⁹⁾

ومن أشهر شيوخها : محمد الشرقي شيخ تادالا الذي بعث له أحمد المنصور نفرا من خواصه ليختبرونه .⁽³⁰⁾ وأحمد بن أبي القاسم التادالي الذي لقيه المقري براكش وكانت

له زاوية بتادلة يطعم فيها أبناء السبيل ويلقن تعاليم الشريعة المحمدية ، وبعد استقراره بالحاضرة مراكش ترك أحد أبنائه بالزاوية .⁽³¹⁾ ويضيف المقرئ : " شاهدته وكثير من تأليفه يقرأ بين يديه وشاهدت من كثرة حفظه لحكايات الصالحين عجباً يذكر بكل محل ما يناسبه ومع ذلك يأتي أيضاً ببعض الحكايات التاريخية وله ولوع باقتناء الكتب والمطالعة . وقد قصد الناس زيارته . . . من البلاد الشاسعة ورأيت يوم الجمعة بجامع الكتبيين . . . والناس يزدحمون على تقبيل يده وطلب الدعاء منه حتى لا يخلص منهم إلا بعد جهد نفهمهم الله بنياتهم " .⁽³²⁾ وكانت له خزانة تحتوي على ألف وثمانين (1080) مجلداً .⁽³³⁾ (توفي سنة 1013 هـ / 1604 م) .

ومن صلحائها أيضاً يذكر صاحب **دوحة الناشر** :⁽³⁴⁾ علي بن إبراهيم التادلي " المشهور ببسط **تادلة من بلاد فشتالة** ، كان من مشاهير مشايخ الصوفية " ، والشيخ الصالح أبو عثمان سعيد أسناو نزيل أسردون من حوز تادلا " .

ومنهم أيضاً عبد الرحمان بن إسماعيل الصومعي صاحب **التشوف الصغير** : (التشوف في رجال السادات أهل التصوف) . ومحمد بن عبد الرحمان الصومعي الذي رجع لتادلة بعد تخريب الزاوية الدلائية وأقبل على نشر العلم فكثرت تلامذته والآخرون عنه . يقول عنه أحمد الولالي في **مباحث الأنوار** : " وهو وفقه الله تعالى إلى الآن مقبل على ما يعنيه من العلم والعمل تخرج عليه في العلم ناس من أصحابه وتهذبت بمصاحبته أخلاقهم وهو حسن العهد منقطع عن الولاة لا يرى غالباً إلا ذاكرة أو مشتغلاً بالعلم أو مطالعة أو مذاكرة " .⁽³⁵⁾

ولقد كانت قرية الصومعة المركز الرئيسي لكثير من هؤلاء العلماء والسيوخ ، وهي التي أنجبت الكثير منهم ، وأصبحت زاويتها هي المقصد بعد تخريب الزاوية الدلائية .

ويذكر عن محمد بن مسعود المراكشي أنه مكث مدة طويلة بالزاوية الدلائية ثم تم تغيير حاله إلى التصوف فقصده قرية تمجث بتادلة حيث عاش بجوار الصوفي علي بن عبد الرحمان الدرعي (دفين تادلة بتمجث ، توفي بالطاعون ، سنة 1090 هـ / 1679 م)⁽³⁶⁾ .

فكانت بذلك تادلا نقطة لتمرکز المريدین ومدرسة صوفية لتخريج الشيوخ

والصلحاء ، لذا عرفت في القرنين 10 و 11 هـ / 16 - 17 م ، نشاطا ثقافيا ودينيا كبيرا كانت فيه مدينة الصومعة المنارة التي أضاعت بشعاعها منطقة تادلا - بجبلها وسهلها بأعرابها وأمازيغيها - وكل مناطق وحوضر المغرب التي تواجد بها شيوخ وعلماء ومتصوفة تخرجوا منها .

ومن الطرائف التي تحكى في ميدان التصوف والكرامات ، والتميزة بدلالات تاريخية وسياسية ودينية ، يذكر أن مؤسس الزاوية الدلائية ولد يوم بوعقبة يوم انتصار السعديين على الوطاسيين ، وأن شيخ تادلا الصالح أبا علي ابن ابراهيم البوزيدي (ت 956 هـ / 1549) ، كان من الحاضرين في وليمة العقيقة التي أقامها محمد بن سعيد المجاطي لمولده " وأشار عليه بهذا الاسم " .⁽³⁷⁾ وهكذا يلتقي صلحاء تادلا بمولد أهل الدلاء الذين سيهزمون - فيما بعد - المنتصرين في يوم الميلاد .

ومما يحكى أيضا أنه عند ثورة الناصر على عمه أحمد المنصور ، قال أحمد بن أبي القاسم الصومعي : " إن الناصر يدخل تادلا بمعنى دخول الملك فلما بلغ الخبر إلى سيدي محمد الشرقي قال : مسكين بابا أحمد رأى رأس الناصر قد دخل تادلا فظنها الناصر يدخل ، فكان الأمر كذلك أنه هزم في نواحي تازا ثم قطع رأسه وجُلب إلى مراكش فدخل تادلا في طريقه " .⁽³⁸⁾

وهكذا ومن أعلى منارة الصومعة تعددت رؤى الأولياء والصلحين وتبددت سحابة كراماتهم لترش بقطراتها كل أولياء وصلحاء المغرب كله .

إن الانصهار والتمازج الثقافي الذي تم في المنطقة في ظل الإسلام جعل التعايش ممكنا بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة اليهودية ، حيث تشير المصادر أن المنطقة كانت من أهم المراكز لتجمع الأقلية اليهودية . ففي تفرزة نحو مائتي دار لليهود وفي فشتالة أزيد من مائة دار ، وفي آيت عباض تجار وصناع يهود يتجرون في الصوف ويملكون قطعانا من الماشية .⁽³⁹⁾ وهكذا تواجد اليهود في كثير من قرى ومدن تادلا واشتغلوا بالتجارة والصناعة وتربية المواشي ، فكانت المنطقة نموذجا للتعايش السلمي بين الأديان ، مثل ما كانت نموذجا للتمازج بين العناصر السكانية وبوثقة لصهر كفاءاتها المختلفة . هذا التعايش والتمازج هو الذي جعل المنطقة أكثر عطاء وإنجابا لرجال العلم

والتصوف في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مثل ما هي أكثر عطاء من الناحية الطبيعية مما جعل أحمد بن القاضي يقول في حقها :

ما أبصرت عيناي من منظر كتادلا في زيبها الأعجب
وما رأت أهلا كسلطانها الصدر في الشرق وفي المغرب⁽⁴⁰⁾

لكن هناك من لم يكن له حظ مع تادلا فكان كلما مر منها أصابته حمى حتى
قال :

وهل تعبرن نهر العبيد ركائبني وهل تتركن دايا وأدواؤها ورا⁽⁴¹⁾

الهوامش

- 1 - مارمول كارخال ، إفريقيا ، ج . ١١ ، ترجمة محمد حجي وآخرين ، 1988 - 1989 ، ص . 116 - 117 .
- 2 - ديبكو دي طويس ، تاريخ الشرفاء . ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، سلا 1988 ، ص . 61 .
- 3 - انظر تفاصيل المعركة عند ابن القاضي ، المنتقى ، تحقيق محمد رزوق ، ج . ١١ ، ص . 789 . والقادري محمد الطيب ، نشر المشائي ، تحقيق محمد حجي ، 1977 ، ج . ١ ، ص . 157 و ص . 369 . وعند :
- Dziubinski (A.), "L'Armée et la flotte de guerre marocaine à l'époque des sultans de la dynastie saadienne", Hespéris. 1972, p. 71 .
- 4 - ديبكو ، تاريخ الشرفاء ، ص . 66 .
- 5 - المصدر نفسه ، ص . 72 .
- 6 - المجهر ، تاريخ الدولة السعدية ، نشر جورج كولان ، الرباط ، 1934 ، ص . 9 .
- 7 - أحمد المقرئ ، روضة الآس ، المطبعة الملكية ، 1969 ، ص . 62 .
- 8 - Ricard (R.), "Le Maroc à la fin du XVIe S. d'après la jornada de Mendoça". Hespéris, 3ème et 4ème Trim. 1957, p. 187.
- 9 - مارمول ، إفريقيا ، ج . ١١ ، ص . 119 .
- 10 - المجهر ، تاريخ . . . ، ص . 97 .
- 11 - انظر رحلة الأسير مويت ، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر ، وزارة الثقافة ، 1990 ، ص . 43 - 44 .
- 12 - R. Ricard, Op. cit., p. 119.
- 13 - ابن حمدون الفاسي . الدر المنتخب ، ج . 6 ، ورقة 43 ، عند محمد حجي ، الزاوية الدلائية ، ط ١١ . 1988 ، ص . 262 - 263 . وكذلك الناصري ، الاستقصا ، ج . 7 ، ص . 53 - 54 .
- 14 - انظر الناصري ، الاستقصا ، ج . 7 ، ص . 50 .
- 15 - انظر المصدر نفسه ، ص . 89 و ص . 97 و ص . 100 و 126 .
- 16 - مارمول ، إفريقيا ، ج . ١١ ، ص . 118 .
- 17 - المصدر نفسه ، ص . 120 .
- 18 - المصدر نفسه ، ص . 122 - 123 .
- 19 - الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج . ١ ، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر ، 1988 ، ص . 139 .
- 20 - المصدر نفسه ، ص . 145 .
- 21 - مارمول ، إفريقيا ، ج . ١١ ، ص . 117 .
- 22 - المصدر نفسه ، ص . 119 .
- 23 - انظر مارمول ، إفريقيا ، ج . ١١ ، ص . 120 ، والحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج . ١ ، ص . 139 .
- 24 - مارمول ، إفريقيا ، ج . ١١ ، ص . 118 و 120 .
- 25 - انظر : Rosenberger et Triki, "Famines et Epidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe Siècles", Hespéris, Vol. XV, 1974. p. 68.

Ibid. p. 17. -26

Ibid. p.17. -27

- 29 - الحسن اليوسي ، المحاضرات ، أعدها للطبع محمد حجي ، 1976 ، ص . 160 .
- 30 - المصدر نفسه ، ص . 79 .
- 31 - أحمد المقرئ ، روضة الآس ، ص . 302 . يذكر التمنارتي أن المنصور نقله من تادلا لمراكش لبغضة بينه وبين أمير بلده زيدان بن المنصور فبقي بمراكش حتى مات ، انظر القوائد الجمعة . م . خ . ع ، رقم د 1420 ، ورقة 57 .
- 32 - المصدر نفسه ، ص . 300 .
- 33 - القادري محمد الطيب ، نشر الثاني ، ج . 1 ، ص . 113 .
- 34 - ابن عسكر محمد ، دوحة الناشر ، تحقيق محمد حجي ، 1977 ، ص . 95 .
- 35 - انظر محمد حجي ، الزاوية الدلائلية ، ط . 11 ، 1988 ، ص . 130 - 131 . وكذلك . القادري ، النشر . ج . 111 . ص . 211 .
- 36 - انظر محمد حجي ، الزاوية الدلائلية ، ط . 11 ، ص . 130 و 135 .
- 37 - المرجع نفسه ، ص . 45 - 46 .
- 38 - اليوسي ، المحاضرات ، ص . 119 .
- 39 - انظر مارمول ، إفريقيا ، ج . 11 ، ص . 117 ، 119 ، 120 .
- 40 - أحمد المقرئ ، روضة الآس ، ص . 255 .
- 41 - اليوسي ، المحاضرات ، ص . 142 : " ومدينة داي هي المعروفة بالصومعة / أدواؤها يعني أمراضها ، وبما أن المنطقة كانت سهلا منبسطة فهي كثيرة المروج ووطبة لذا كانت الأمراض سريعة الانتشار ، وكانت وطأة الوباء بها أكثر من المناطق الأخرى " .

ملاحع من تاريخ قصبة تادلة

أحمد عمالك
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- مراكش -

ترمي هذه المحاولة إلى النيش في تاريخ معلمة من معالم إقليم تادلا ، عبر الرجوع إلى المصادر التي أشارت صراحة أو تلويحا إليها ، ورصد أهم المحطات التي استوقفت بها الرحالة والمؤرخين والإخباريين وكتاب المناقب .

وقبل الدخول في صلب الموضوع يمكن الإدلاء بالملاحظة التالية :

إن كل من يتمعن اليوم في موضع قصبة تادلة وموقعها يدرك أنها بنيت وفق استراتيجية عمرانية منسجمة مع الفكر الإسلامي العمراني . فقد تم اختيار موضعها وموقعها حسب الشروط المرعية في بناء المدن الإسلامية في هذا الإطار يشير ابن الأزرقي إلى مراعاة أصليين مهمين في وضع المدن ، يلخصهما في دفع المضار وجلب المنافع .⁽¹⁾

فبصدد دفع المضار يشترط وضع التحصينات اللازمة ، حيث ينبغي اختيار موضع دفاعي ، كأن تكون المدينة على شرف من الأرض ، أو عند استدارة نهر بها ، ويكون ذلك الموضع طيب الهواء .

أما بالنسبة لجلب المنافع فإنه يلح على توفر الماء كأن تبني المدينة على نهر ، ويشترط كذلك وجود المرعى وقربة . والملاحظ أن الأصلين اللذين اشترطهما ابن الأزرقي قد توفرا لقصبة تادلة .

إن معنى اسم تادلا نفسه ينطوي على أحد الأصلين ، فيما يتعلق بجلب المنافع .

فما معنى هذا الاسم ؟

لفظة تادلا أمازيغية مكونة من ثلاثة أحرف : تَدَلْ ، لأن هذه اللهجة تقف على المتحرك ، ولا تستعمل المد .

إذن فاللفظة قديمة جدا ، حتى إن بعض الكتاب قد ذهب إلى أنها أصل لاشتقاق كلمة أطلس ، فبدلت التاء طاء . إلا أن هذا التأويل يمكن أن يدخل في باب التحمل . (2) واللفظة من جهة أخرى موجودة في المغرب والجزائر فهي معروفة في المغرب ، عند أهل الأطلس . وقد أحصى إميل لاوست مختلف القبائل التي تستعمل لفظة تادالا بنفس المعنى . (3)

وفي الجزائر ، في لهجة مزاب بالضبط ، توجد لفظتا " أدل " و " تدل " . وفي وركلا ؛ " دل " وكلها بمعان متقاربة .

إذن يتسع نطاق استعمالها وتتعدد مشتقاتها .

ومنها كذلك اشتقت لفظة " تدل " ، ومنها فعل " دل " بمعنى أسود أو أخضر أخضرارا داكنا . وهذا اللون بين الأسود والأخضر الداكن يميز المناطق ذات النبات الغزير ، مثلما هو الحال بالنسبة لمنطقة تدل - ن - قضاوكة ، غربي دمنات . (4)

وفي لهجة التوارك نجد لفظة " دلت " ، وتدلّت ، وتدلان على الخضرة ، والأخضر أو المصبوغ بهذا اللون .

ومن مشتقاتها أيضا " أدل " أي الأخضر في لهجة مزاب بالجزائر . وفي منطقة سوس تستعمل لفظة إدل للدلالة على الأسود أو المظلم ، وفي وركلا تدل لفظة دل ، على اللون الأسود . (5)

لكن لفظة تادالا تعني في معظم جهات الأطلس حزمة الزرع ، وتجمع على تدلّوين . (6)

ويرتبط هذا المعنى - كما هو شأن كثير من أسماء الأماكن - بمعطيات المنطقة وواقعها . فتادالا سهل خصب ، والخصب والنماء أشياء معتادة في هذا الإقليم منذ أقدم العصور . ومن ثم لا يخلو مصدر من ذكره والتنويه به . لذلك اهتم به المغاربة منذ فجر تأسيس الدولة المغربية .

أول من ذكر قسبة تادالة - حسب مصادرها - هو البيذق ، حيث عدها من بين حصون المرابطين . وأشار إلى أن أحد ولاة المرابطين كان متحصنا به في أثناء قيام دعوة

الموحدين ⁽⁷⁾ . وقد اكتسب هذا الحصن منذئذ طابعا عسكريا ، لأنه كان يأوي الخيل والرجال . وظل كذلك في العهد الموحيدي . فلما مر أمير الموحدين بتادلا "ميز فيها" ⁽⁸⁾ . أي أنه استعرض جنده وتفقد عدده وعدته .

ولعل الميز يستلزم وجود قاعدة ثابتة . وقد توفرت لهذه القاعدة معطيات استراتيجية ، إذ توجد على نهر ، حيث مشرعة الماء ، وغير بعيدة عن الجبل . . .

كما أن عبد المومن الموحيدي لما وزع حكم الأقاليم على أبنائه ، ولى أبا الربيع على تادلا ⁽⁹⁾ . واستقرار العامل يقتضي وجود مقر ثابت . لعل هذا المقر لم يكن سوى حصن تادلة .

وتدل شهادة الشريف الإدريسي على أن حصن تادلة مدينة مزدهرة ، ومحطة من بين أهم محطات الطريق الواصلة بين مراكش وفاس . يقول في نفس الإطار : " يُزرع فيها كثير من القطن ويُسافر به إلى كل الجهات . . . وبهاتين البلديتين [داي وحصن تادلة] أرزاق ومعاش وخصب ونعم شتى ، وأهلها أخلاط من البربر " ⁽¹⁰⁾ . يتأكد من كلام الإدريسي أنها بلدة لأنه عطفها على داي . إذن فهو يميزها عن الإقليم . بل إن صاحب الاستبصار قد عدها " من المدن التي بنى فيها الملثمون حصنا عظيما ، وشيدوا بها جامعا " ⁽¹¹⁾ . وإذا كان ابن الزيات وهو العارف بالإقليم لم يذكر هذا الحصن مثلما أفاض في ذكر داي ، فإن إشارته إلى " مسجد تادلا " تفيد أنه يقصد القصبية التي نحن بصدد البحث عنها ⁽¹²⁾ .

وتكاد هذه الإشارات تتطابق مع ما ذكره صاحب *الروض المعطار* فيما بعد . فقد أكد - من جهته - أن المدينة كانت عامرة في عصره ، فقال بعد ذلك : " وهي مدينة قديمة أزلية فيها آثار للأول ، بنى الملثمون فيها حصنا منيعا ، وهو الآن معمور ، وفيه الأسواق والجامع " . ⁽¹³⁾

نستنتج إذن أن قصبية تادلة كانت إحدى قواعد الإقليم القديمة ، استفادت من موقعها في أرض كثيرة الخيرات والأرزاق ، ومن موضعها في الطريق التجارية الرابطة بين مراكش وفاس ؛ كما يتضح من تعدد الأسواق . وتفيد الإشارات المتكررة إلى الجامع أنها كثيرة السكان ، أو أن السكان المترددين على أسواقها كانوا من الكثرة ما جعل

مسجدها جامعا . ⁽¹⁴⁾ إلا أن العمارة والازدهار والرواج التجاري قد أصبحت خبرا بعد عين في العصر الموالي ، حيث صار إقليم تادلا مقصدا للثوار والمنتفضين على الدولة ؛ الشيء الذي جعل ذكر قصبتها يختفي من المصادر . . . ربما يرجع ذلك إلى أنها آلت إلى الخراب نتيجة الصراعات السياسية وتداول الأيدي ؛ لاسيما في أثناء تدهور الدولة المرينية .

وقد يعضد ما ذهبنا إليه أن الحسن الوزان الذي زار مختلف مدن وقرى إقليم تادلا في بداية القرن 16 م / 10 هـ لم يذكرها مطلقا ، ⁽¹⁵⁾ وهو شيء يثير الاستغراب . فهل اختلط عليه الأمر ، خاصة وأنه ذكر نهر أم الربيع ، وأشار إلى أحد جسوره ؟ أم أن تلك القصة قد تخربت تماما ؟ أم أنه قد تنكب عنها فسلك في قدومه إلى المنطقة الطريق المحاذية للجبل ؟ يبدو أنه قد سلك طريق الدير كما يتضح من خلال مروره ببعض المواقع هنالك ، مثل فشتالة . وقد تحدث عنها مارمول بنفس الألفاظ . ⁽¹⁵⁾

ويظهر ذكر قصة تادلة من جديد مع صعود دولة السعديين ؛ فهي إما مثار نزاع بين الوطاسيين والسعديين كما في *جدوة الاقتباس* ⁽¹⁶⁾ ، وإما مقر سجن كما في *تاريخ الدولة السعدية* ⁽¹⁷⁾ . وهذا مؤشر على التراجع الذي اعتورها في الحقبة السابقة .

وهكذا تبدو مهمة في عهد أحمد المنصور الذهبي ؛ ذلك أن الأمير زيدان المعين من قبل والده على الإقليم سنة 992 هـ / 1584 ⁽¹⁸⁾ ، قد اتخذ الصومعة أولا ، ثم بعد ذلك القصة الزيدانية ؛ مقرا لإقامته ⁽¹⁹⁾ . مما يفيد بأن قاعدة الإقليم تحولت ؛ الأمر الذي قد يؤثر لا محالة على قصة تادلة ، فيزيد في تراجعها وخرابها . ذلك الخراب الذي تأكد فيما بعد . ففي أثناء المجاعة الكبرى التي ضربت المغرب سنة 1071 - 1072 (1660 - 1661) لم يرد ذكرها عند صاحب *الإحياء والانتعاش* ⁽²⁰⁾ ، في حين ذكر زاوية الدلاء ، وتستوت وبوجد وغيرها . وقد أشار إلى أن " القصور التي خربت من بلاد تادلا كثيرة ، ولكن لم أعرف منها إلا القصر المعروف ببوجد " ⁽²¹⁾ أي أن ابن جبل العياشي المتصوف لم يكن يعرف سوى أماكن التصوف .

ولعل تلك الأزمة قد عمقت تراجعها كمركز داخل الإقليم خاصة وأن ذلك العهد قد اتسم بالاضطراب والانقسام .

ولم تسترجع قصبة تادلة أهميتها إلا في عهد السلطان إسماعيل ، الذي استرعى انتباهه موقعها ، حين استولى عليها أحمد بن عبد الله الدلائي سنة 1677 ، وتعرض ما فضل عن عاديّات الزمان منها إلى التخریب على يد المتمردين⁽²²⁾ . لعل هذه الحادثة كانت من بين الدوافع التي جعلت السلطان يأمر بإعادة بنائها منذ 1090 / 1679 / 1680⁽²³⁾ ؛ وينزل بها حامية تتكون من ألف من فرسان العبيد⁽²⁴⁾ . فصارت قصبة تادلة حلقة من سلسلة قصبات الجبهة الرابعة التي أمر السلطان بتشييدها من أجل تطويق قبائل الجبل ومنعها من ارتياد مراعي السهل . وبذلك أصبحت قاعدة عسكرية تنطلق منها الحركات السلطانية لتطويع صنهاجة الأطلس ، وتحصيل الضرائب ؛ ونقيم بها حامية عسكرية دائمة تعمل على تأمين الطريق السلطانية . فكانت المحلات السلطانية تضرب بها من أجل الإستراحة ، ويتوقف بها السلطان لينظر في شؤون قبائل المنطقة⁽²⁵⁾ .

ولما وزع نفس السلطان حكم الأقاليم على أولاده في سنة 1111 / 1700 ، عمل ولي عهده أحمد الذهبي ، على تادلا ، وزوده بثلاثة آلاف جندي . فأقام بقصبتها وشرع في توسيعها⁽²⁶⁾ . مما يدل على الأهمية التي أولاها السلطان للمنطقة .

الشيء الذي دفع الأمير إلى بناء قصبة أكبر من قصبة والده ، كما تشير إلى ذلك مختلف المصادر . يقول الزباني " فبنى قصبة بجنيها أكبر منها وبنى داره فيها ومسجدا أكبر من مسجد والده " ⁽²⁷⁾ .

وهكذا اتسعت مرافق القصبة وصارت قاعدة عسكرية وإدارية للإقليم⁽²⁸⁾ ، بل تعززت وضعيتها من جديد بتعيين إدريس بن المهدي المشاط قاض بها ، بجانب ولي العهد⁽²⁹⁾ .

وتعزز تحصينها كذلك بتكوين حزام بشري أحاط بالقصبة من جهتي الجنوب والشرق ، حيث نقل السلطان إسماعيل عدة قبائل من الجبل وأنزلها بضواحيها ، كونت كيش آيت الربع .

فغدت القصبة التادلية مركزا لهذا الكيش . ولعل القصبات القريبة منها ، مثل إغرم العلام ، وفشتالة ، وربما حتى بني ملال وفم ودي وواوزغت قد بدت وكأنها شيدت لتدعيمها .

وقد اتضحت أهمية هذه القصبات مع الدرع البشري العازل في أثناء الثورة التي قادها يوسف الخنصالي ، حيث استنزفت قواته مبكرا ، في الاشتباكات مع آيت الربيع ، وحاقت به الهزيمة قبل أن يبلغ الثوار قسبة تادلة ⁽³⁰⁾ .

وظلت قسبة تادلا قاعدة للإقليم في عهد عبد الله بن إسماعيل . ⁽³¹⁾ وانطلاقا منها تمت الاستعدادات لمواجهة ثورة حنصالة المشار إليها ، وبها وقعت تصفية مدبريها ، ومن بينهم يوسف بن سعيد الخنصالي . سنة 1732 ⁽³²⁾ .

واتخذها نفيس السلطان نقطة ارتكاز كلما سعى لاسترجاع سلطته ، حين انتفاض إحدى العواصم ضده ؛ وبها تلقى البيعة عدة مرات ⁽³³⁾ . وبقيت قسبة تادلة تستأثر بهذا الدور طيلة الفترات الموالية ؛ بل لقد صارت نزلا ومستراحا للسلطين أنفسهم . فقد أقام بها السلطان محمد بن عبد الله حين ألجأه المرض إلى الركون إلى الراحة مدة في أثناء حركة سنة 1186 / 1772 ⁽³⁴⁾ .

ومكث بها السلطان سليمان حوالي أربعين يوما عام 1224 / 1809 ⁽³⁵⁾ . ومن أشهر ولاته عليها أبو القاسم الزياني الذي عُمِّل سنة 1215 / 1801 . ودخل قصبته ، مرة ، مقتفيا آثار عاملها السابق ولد الرازي الورديني ، حيث تم اعتقاله . ⁽³⁶⁾

ويتواتر ذكر قسبة تادلة في المصادر حتى سنة 1234 / 1818 ، حيث اتخذها السلطان سليمان منطلقا لجيوشه التي وجهها لإخماد ثورة أبي بكر أمهاوش ⁽³⁷⁾ .

وفي عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام تظهر قسبة تادلة وكأنها تنفرد بقائد خاص بها ، دعي قائد آيت الربيع ⁽³⁸⁾ .

أما خلفه السلطان محمد بن عبد الرحمان فقد مر بها في أواسط عهده ⁽³⁹⁾ .

وعلى الرغم من الحركات المتعددة التي قام بها السلطان الحسن الأول فإنه لم يتوقف بها إلا أربع مرات ⁽⁴⁰⁾ .

وتشير الوثائق الرسمية إلى أن قسبة تادلة ظلت تكتسي أهمية على المستوى القضائي في ذلك العهد . فكانت ترفع القضايا إلى قاضيه من بني ملال ونواحيها .

كما كان القاضي المقيم بها نائبا عن قاضي مراكش ، كما يستفاد من رسالتين مؤرختين تبعاً ، في 24 حجة 1297 و فاتح رجب 1308 ⁽⁴¹⁾ . مما قد يدل على أن ذلك القاضي كان أعلى مرتبة من سائر قضاة الإقليم .

وتفيد رسالة مؤرخة في 24 ربيع الثاني 1306 / 1888 أن قائد كيش أيت الربع ، المدعو الجيلالي بن يعقوب البخاري كان مقيماً بقصبة تادلة آنذاك . ⁽⁴²⁾ واقترب اسمها في الوثائق بكيش أيت الربع . فدعيت بالقصبة الربعية ، وبالقصبة السعيدة ، والقصبة التادلية أيضاً .

واعتبر قائدها نفسه " خليفة للسلطان بتادلا " . وقد استمد ذلك من كونه وسيطاً بين السلطان وبين مختلف قواد المنطقة ⁽⁴³⁾ . وإذا لم تكن بها أدلة دائمة ، في القرن 13 / 19 ، فمنها كانت تستنفر القبائل للمشاركة في الحركات الموجهة ضد قبائل الجبل . ومنها تصدر الأوامر المخزنية لقواد الإقليم ؛ مما يدعو إلى الاعتقاد بأن قائدها كان أعلى درجة من باقي قواد المنطقة ، ومما يدل على ذلك أنه هو الذي كان يتوسط في الإنعامات على أولئك القواد وعلى باقي موظفي المخزن هنالك ؛ وعلى يديه تقدم الشفاعات وطلبات العفو ، وقضاء المآرب وتقديم الهدايا . ⁽⁴⁴⁾

لكن شارل دو فوكو الذي زار قصبة تادلة يوم 17 شتنبر 1883 ، ومكث بها يومين يمنحنا صورة أكثر دقة . ⁽⁴⁵⁾

فقد أعجب بأسوارها وأبراجها وشرفاتها ، وعدد أبوابها ، وذكر مسجدها . وأفاض في إعطاء تفاصيل عن هندستها المعمارية . وأشار إلى أنه يحيط بها سوران مائزان في حالة جيدة : سور خارجي يبلغ سمكه 1.20م ويناهز ارتفاعه 12م ، و سور داخلي أقل ارتفاعاً ؛ حوالي 6م ، لكنه أكثر سمكاً من الأول : 1.50م ، ويفصل بينهما عمر يناهز عرضه 6م .

وتخترق أسوارها ثلاثة أبواب : يابان في الجهة الشمالية ، وباب ثالث في الجهة الشرقية . أما في الناحية الجنوبية فقد بني بستيون حصين يفضي إلى النهر ، قد تدعو الضرورة إلى استعماله كمنفذ ، في الأوقات الحرجة .

وتنقسم القصبة إلى قسمين ؛ في الشرق ينتصب المسجد الجامع بجوار دار

المخزن . وفي الغرب تمتد منطقة سكنية ، حيث تبدو المنازل آيلة إلى الخراب . أي أنها كانت خالية ماعدا من القائد الذي وجده دوفوكو قابعا بإزاء باب " دار المخزن " (46) واعتبره بدون وظيفة : In Partibus .

ومع ذلك فقد عد دوفوكو قصبة تادلة أجمل قصبة شاهدها في المغرب آنذاك . يبدو من هذا الوصف أنها ظلت مقرا لسكنى ممثلي المخزن فقط ، في حين انتقل عامة السكان إلى ضواحيها ؛ التي يقسمها دوفوكو إلى ريشين : ريش الضفة اليمنى ، ويوجد شرقي القصبة ؛ حيث تنتشر مساكن مبنية بالطابية ، وتتكون من طابقين . وتقتطنها عائلات ثرية واليهود . وتقتطن بربض الضفة اليسرى عائلات فقيرة تتكون مساكنها من الخيام والأخصاص . وقد لاحظ أن المجالات الخضراء والأشجار منعدمة . وهو شيء فريد في بلاد المغرب آنذاك . وقد قدر سكانها بحوالي 1400 نسمة من بينهم 150 يهوديا . (47) والغالب على الظن أن القائد الذي رآه دوفوكو بقصبة تادلة ، هو قائد كيش أيت الربع ، الذي أشارت إليه الرسالة المؤرخة في 24 ربيع الثاني سنة 1888/1306 كما أسلفنا .

وعلى الرغم من التناقض الظاهري بين وصف دوفوكو وبين ما ترشح به الوثائق المخزنية ، فإن من يتمعن في المصدرين يدرك نوعا من التكامل فيما بينهما . فإذا كانت المراسلات تفيد أن قصبة تادلة كانت في القرن التاسع عشر بمثابة عاصمة مخزنية مصغرة تتوفر على إدالة مكلفة بالأمن ، ودار المخزن "بمشورها" وأمراسها وغيرها من المرافق والمظاهر المخزنية ، يدير شؤونها قائد بمثابة خليفة للسلطان ؛ وإذا كان دوفوكو يتحدث عن قصبة خاوية على عروشها ، فإن هذا الأخير يميز بين القصبة المخزنية وبين التجمع السكاني الذي نشأ خارج الأسوار ، في حين أن المراسلات السلطانية تنطلق من التعميم ، لذلك جعلت اسم قصبة تادلة ينصرف إلى المدينة ككل ؛ ومن ثم صار اسم قصبة تادلة علما على المدينة العامرة والقلعة الخالية معا .

وظل الأمر كذلك حتى استولت عليها الجيوش الفرنسية بزعامة الكولونيل مانجان يوم سابع أبريل 1913 (48) . فاسترعى موقعها انتباه الفرنسيين كما عبر عن ذلك القبطان سبيلمان فيما بعد (49) . ومن ثم اتخذها المحتلون قاعدة للاستيلاء على باقي الإقليم ، وإخضاع القبائل الجبلية المجاورة . ومنها تصدوا للاتفاضة القبلية التي

انطلقت من بني ملال يوم 15 مايو 1915 . وانطلاقا منها أيضا زحفت القوات الغازية في اتجاه بني ملال التي تم احتلالها في سنة 1916⁽⁵⁰⁾ .

وعلى الرغم من تحول مركز الثقل عن قصبة تادلة بعد 1922 ، فإنها احتفظت بوظيفتها اللتين استأثرت بهما منذ ما ينيف عن 250 سنة ، حيث ظلت قاعدة إدارية وعسكرية للإقليم . وشهدت ساكنتها نموا ملحوظا إذ لم تحل سنة 1936 حتى صُنفت ضمن المدن المغربية ب 7409 نسمة⁽⁵¹⁾ ، كما أن قصبة تادلة قد شكلت باستمرار ، ومنذ استحداثها ، رمزا للحضور المخزني . واضطلعت بهذا الدور بسبب موقعها الوسط داخل الإقليم ، وكونها محطة رئيسية في الطريق الواصلة بين فاس ومراكش ، وبعيدة نسبيا عن الجبل ؛ الشيء الذي جعلها مرصدا هاما يتم عبره مراقبة تحركات القبائل الجبلية . . .

وفي الأخير قد يغمط كل متحدث عن تاريخ قصبة تادلة هذه المدينة حقها إذا لم يشر ، ولو على سبيل التعريض ، إلى أنه ينبغي الالتفات إلى هذه القصبة التي انصرف اسمها كعلم للمدينة ككل . فقد طمست معالمها ودمر كثير من مغانيها ، وسيؤول ما بقي منها كالمسجد ودار المخزن إلى الزوال ؛ الأمر الذي يقتضي التدخل العاجل لإنقاذ هذه المعلمة ، ووضع مخطط للتنقيب الأثري لإمطة النقاب عن خباياها ، وبناء تاريخها بناء علميا .

الهوامش

- 1 - ابن الأزرق ، هدايت السلك في طبائع الملك ، تحقيق محمد عبد الكريم ، نشر الدار العربية للكتاب ، 1977 ، الجزء الثاني ، ص . 764 - 766 .
- 2 - Laoust (Emile), Mots et choses berbères. . . Paris, Ed. Augustin Challamel, 1920, pp. 356 - 357.
- 3 - نفس المصدر السابق والصحيفة .
- 4 - Laoust (Emile), Contribution à une étude de la toponymie du Haut Atlas, Paris, Ed. Geuthner, 1942, p. 143.
- 5 - 6 - نفس المصدر السابق والصحيفة .
- 7 - البينقي ، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة المرعدين ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1971 .
- 8 - نفس المصدر السابق ، ص . 63 .
- 9 - نفس المصدر السابق ، ص . 76 - 77 .
- 10 - الإدريسي ، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق . بلجيكا 1983 ، ص . 93 .
- 11 - مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار . نشرة سعد زغلول عبد الحميد الإسكندرية ، 1958 .
- 12 - ابن الزيات التادلي ، العشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق ، منشورات كلية الآداب ، الرباط ، 1984 ، ص . 255 .
- 13 - ابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ، 1984 ، ص . 127 .
- 14 - نفس المصدر السابق والصحيفة .
- 15 - الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، الرباط ، 1980 ، (1 ، 139 - 143) .
- 15م - مارمول كريخال ، إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومجموعة من الأساتذة ، الرباط ، 1989 ، (2 ، 118 - 119) .
- 16 - ابن القاضي ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1973 ، (1 ، 321) .
- 17 - مجهول ، تاريخ الدولة السعدية ، نشرة جورج كولان ، المطبعة الجديدة ، الرباط ، 1934 ، ص . 43 - 44 .
- 18 - أحمد الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، 1956 ، (5 ، 117) .
- 19 - محمد حجي ، الحركة الفكرية في عهد الدولة السعدية ، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، الرباط ، 1976 ، (2 ، 504) .
- 20 - عبد الله بن عمر العياشي ، الإحياء والانتعاش في تراجم سادات آيت عياش ، مخطوط مصور ، الخزنة العامة د 1433 . و 257 .
- 21 - نفس المصدر ، نفس الصحيفة .
- 22 - أبو القاسم الزياتي ، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف ، مخطوط الخزنة العامة ، الرباط ، د 1577 ، ص . 30 .

la Chapelle (F. de), "Le Sultan Moulay Ismaïl et les berbères Sanhaja", Archives Marocaines n° 27, 1927, p. 53, Note 27.

Mouette (G.), Histoire des Conquêtes de Moulay Archy, 1683, p. 124. -23

Morsy (M.), La relation de Thomas Pellow, une lecture du Maroc au XVIIIe siècle, Paris, Ed. Recherche sur les civilisations, 1983 - p. 189.

24 - أبو القاسم الزياتي ، الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب ، نشرة هوداس ، 1888 ، ص . 22 .

25 - الاستقصا ، 7 ، 80 .

26 - البستان الطريف ، ص . 41 .

27 - نفس المصدر السابق .

28 - محمد بن البشير بوسلام ، قبيلة بني ملال : واقعها وعلاقتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، 1854 - 1916 ، جوانب من تاريخ دهر الأطلس المتوسط وتخوم تادلا ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ، الرباط 1990 - 1991 ، ص . 204 .

29 - محمد بن الطيب القادري ، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، مكتبة الطالب ، الرباط ، 1986 ، (3 ، 325) ، والاستقصا ، (7 ، 126) .

La Relation de Thomas Pellow, p. 166. - 30

31 - نفس المصدر السابق .

32 - محمد بن الطيب القادري ، نشر المثاني ، (3 ، 355) . التقاط الدرر : 358 .

33 - محمد بن عبد السلام الرباطي ، المعروف بالضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة . . . تحقيق أحمد العماري ، 115 وما بعدها .

34 - الاستقصا ، (8 ، 41 - 43) .

35 - تاريخ الضعيف ، ص . 147 .

36 - محمد بن عبد السلام المعروف بالضعيف ، مصدر سابق ، ص . 320 .

عبد الرحمن بن زيدان ، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس . . . (3 ، 175) .

37 - تاريخ الضعيف ، ص . 318 .

38 - قبيلة بني ملال ، ص . 311 .

39 - الاستقصا ، (9 ، 123) .

40 - إتحاف أعلام الناس ، (2 ، 122 وما بعدها) .

41 - قبيلة بني ملال ، ص . 169 . من وثائق الخزنة الحسينية .

42 - نفس المصدر السابق ، ص . 204 .

43 - نفس المصدر السابق .

44 - نفس المصدر السابق ، ص . 280 .

Foucauld (Charles de), Reconnaissance au Maroc, 1883 - 84, Paris, Société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, 1888, p. 57. - 45

46 - نفس المصدر ، ص . 58 .

47 - نفس المصدر .

48 - قبيلة بني ملال ، 296 .

Drague (G.), *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc*, Paris, Larose, 1952, p. 145. - 49

50 - قبيلة بني ملال ، ص . 221 و 304 .

Répertoire Alphabétique des agglomérations de la zone Française de l'Empire Chérifien. . . , - 51
Rabat, 1939, p. 67 .

ملاحظات حول كتابة تاريخ منطقة تادلة

أحمد بركاري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- مراكش -

تمهيد:

يجب الاعتراف بقيمة وأهمية تنظيم هذا الملتقى العلمي البالغ الدلالة . ومن حسن الحظ أن تقترن هذه المبادرة الطيبة بانطلاق عمل نواة جامعية بالمنطقة كتكريس لخيار اللامركزية على مستوى البحث العلمي ؛ لما لهذا الخيار من تطابق منطقي وواقعي مع الماضي الحضاري للمنطقة ، ومع أحد أبرز خصوصيات الحياة الثقافية للمغرب عموما .

لقد أثرت أن تكون مساهمتي تسير في هذا السياق ، ذلك أن " ندوة تادلا " تؤنس بالفعل لانطلاق مشاريع علمية متكاملة تهتم المجال والإنسان والتاريخ . وإذا كانت بعض العروض قد أعفتني من تحليل أبعاد ودلالة " تادلة " جغرافيا وتاريخيا ، فإنني سأعتمد إلى بسط إشكاليات وقضايا منهجية تتعلق أساسا ب :

- مصادر تاريخ منطقة تادلة : حدود الاستفادة منها .
- العناصر الأساسية الفاعلة في تاريخ المنطقة .
- خلاصات واقتراحات عملية .

المحور الأول : مصادر تاريخ منطقة تادلة وحدود الاستفادة منها .

أ - كلمة حول المصادر والكتابات الأجنبية :

استعرض الأستاذ الباحثة (ج . ل . مبيج) في مداخلته لائحة هامة وشاملة لأهم هذه المصادر والكتابات المرتبطة بتاريخ المغرب في علاقاته مع العالم الأوربي خصوصا منذ القرن 15 م وما بعده وصولا إلى القرن 19 م الذي كان موضع دراسة هامة من طرف (مبيج) ⁽¹⁾ .

وأهم ما يلاحظ في هذا الإطار :

- اقتصر الباحث على إبراز نوعية هذه الكتابات الأجنبية كوثائق أو كتب الرحالة أو تقارير تجارية أو دبلوماسية وما إلى ذلك دون الاهتمام بالمصادر المغربية انطلاقا من خيار مسبق تاركا المسألة لمن يعينهم الأمر .

- خصص حيزا واسعا للمذكرات والتقارير التي كتبها الرحالة والمستكشفون وأسرى البلاط المخزني ، وهي كتابات تحتاج إلى تعامل خاص وحذر كبير من طرف المؤرخ والاجتماعي والاقتصادي على السواء بالنظر إلى كون هذه الكتابات تمثل نظرة خارجية مثقلة بمكونات ثقافية وإيديولوجية موجهة من طرف مراكز القرار المعادية للمغرب ، سواء كانت دينية (الكنيسة) أو سياسية أو عسكرية وإمبريالية .

- إن استحضار منجزات المدرسة التاريخية الوطنية ، بما في ذلك إسهامات باقي التخصصات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، له أكثر من معنى في هذا الإطار بدءا بالمجهودات الببليوغرافية والمصدرية التي أصبحت شديدة الالتصاق بأعمال الأستاذ البحاث محمد المنوني . وبالمناسبة فإن معظم هذه الأبحاث ركزت على تاريخ المغرب القريب أو المغرب ما قبل المرحلة الاستعمارية (1912) انطلاقا من تساؤلات وقضايا جديدة في محاولة لرصد المكونات الفاعلة والمؤثرة داخل الحركة التاريخية لمغرب بلغ فيه الحصار أشده ، وحتى في مثل هذه الظروف المتأزمة والخاصة ؛ فإن المغرب ظل يدافع عن هويته واستقلاله إلى آخر لحظة دون أن تثنيه المؤامرات والدسائس عن تعلقه العميق بكيانه ، بل كان لهذه الظروف بالغ الأثر في بلورة ردود فعل جد متطورة ومتنوعة اضطلع بتمثيلها والتعبير عنها نخبة متميزة من الساسة والمفكرين المصلحين والمجددين⁽²⁾ .

ب - المصادر الوطنية : وهي متعددة ومتنوعة من أهمها :

1 . كتب الحوليات أو تاريخ الأسر الحاكمة :

وقد ركز مؤلفوها على الجانب السياسي المرتبط بحياة الأسر والسلالات الحاكمة ، مسجلين مختلف أعمال ومنجزات ملوكها عسكريا وسياسيا ، ومتتبعين تطور أحوال هذه الممالك في الزمان والمكان وفق رؤيا خلدونية تجعل لكل بداية نهاية ولكل اكتمال اضمحلال . متمثلين قول الشاعر :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرب بطيب العيش إنسان .

في هذا الأفق تظهر منطقة تادلا كواحدة من أقاليم المملكة أو الإمبراطورية الإسلامية في جناحها الغربي ، شكلت في مرحلة أولى قسما من الأقاليم التي توزعها أفراد البيت الإدريسي الشريف ، ومرة أخرى موطننا ومجالا لتنفيذ الإمارة البورغواطية المتمركزة وسط البلاد ، كنموذج لحالات التفكك السياسي والانحطاط الفكري والعقائدي الذي بلغ درجة الارتداد . وكان على الحكم المرابطي المجاهد السني أن يتعامل مع هذا الواقع بمنتهى الصرامة والتصميم وهو ما دفع بالإقليم مرة أخرى كباقي الأقاليم إلى الانتظام داخل النسق العام للحكم المغربي الجديد وما تلاه من سلالات شأن الموحدين والمرينيين الذين جعلوا من توحيد البلاد قاعدة انطلاقهم للاضطلاع بمسؤولية جسيمة وخطيرة في كل القسم أو الجناح الغربي من العالم الإسلامي بما في ذلك بلدان ما وراء الصحراء وكذلك بلاد الأندلس .

وعندما آل الأمر إلى التراجع زمن السعديين والعلويين (حكم الأشراف) شكلت تادلا واحدا من أهم الإيالات الشريفة بالنظر إلى موقعها الوسط والرابط بين عاصمة الجنوب " مراكش " وعاصمة الشمال مدينة " فاس " . وكان تعيين أمراء من البيت الحاكم وأحيانا المرشحين لولاية العهد له أكثر من دلالة وبذلك اكتسبت كل من القصبة الزيدانية (نسبة إلى زيدان بن أحمد المنصور الذهبي) ثم القصبة التادلية الإسماعيلية ، أهمية خاصة عبر تاريخ المنطقة الحديث والمعاصر . وعند حدوث نزاع أو صراع سياسي كما حصل مع بداية القرن 10 هـ / 16م بين إمارة السعديين في مراكش وإمارة الوطاسيين في فاس أو أثناء تنافس أفراد البيت الحاكم على السلطة (بعد وفاة المولى إسماعيل كمثال) تصبح منطقة تادلة منطقة التقاء وفصل بين المتصارعين كمرحلة أولى اختبارية ومتى تمكن تجاوز هذا الحاجز ، فإن توحيد البلاد برمتها يصبح مسألة وقت وظرف ليس إلا (3) .

وبالرغم مما يمكن أن نوجهه لهذه الكتابات ذات الطابع التقليدي (الحوليات) من انتقادات ، إلا أنه وجب الإقرار لها بأهميتها وقيمتها ككرونيولوجيا للأحداث في صيرورتها وتطورها والتي بدونها نسقط في ما وراء التاريخ ، هذا عدا ما تبرزه هذه المؤلفات من إمكانيات لتقييم الرؤيا المركزية للهيئة المخزنية تجاه المحيط أو الأطراف . وفي كل الأحوال فإنه لا يمكن كتابة تاريخ ما دون الاطمئنان إلى معالمة ومرتكزاته في

2 . الرحلات وكتب الجغرافيين :

أظهرت لنا العروض القيمة للأساتذة محمد حجي ومحمد زنيبر مدى الأهمية التي يستفيد منها المؤرخ من كتب الرحالة والجغرافيين ، بالرغم مما يمكن أن يشوب بعضها من اضطراب أو تعارض له علاقة بمصادر معلومات هؤلاء الجغرافيين ومستويات ملاحظاتهم ودقة تقاريرهم⁽⁴⁾ .

إن ما كتبه كل من البكري والإدريسي ومن جاء بعدهما يعتبر مغنما علميا بالغ الأهمية ، ذلك أنه يضع الباحث أمام معطيات حضارية قلما تجود بها كتب الحوليات ، فاشتهرت المنطقة بغنى ثرواتها ومواردها فلاحيا ومعدنيا (النحاس) وصناعيا وتجاريا لتشكل بذلك منطقة اقتصادية متكاملة مع محيطها المحلي من جهة ومع محيطها الوطني والقاري أحيانا أخرى (التجارة الإفريقية والمتوسطية) .

ويحتل كتاب وصف إفريقيا للوزان (ليون الإفريقي)⁽⁵⁾ مكانة خاصة من بين هذه الكتابات بالنظر إلى :

- تأخره الزمني (ق . 15 ، 16 م) ، ذلك أن معلوماته ظلت منجما للعديد من الباحثين على اختلاف تخصصاتهم وإلى وقت متأخر⁽⁶⁾ .

- شمولية معلوماته التي جمعت بين التأريخ للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما إليها ، بارتباط مع ظرفية وطنية خاصة تميزت بالاضطراب والتراجع أمام قوات الغزو والاحتلال المسيحي الإيبيري ، فكان له أكبر الفضل في رصد خصوصيات عهد الانحطاط الذي قلما يلتفت إليه بل يدخل في خانة الحلقات المفقودة ، ومن ثم فهو مكمل من أوجه عدة للرؤيا الخلدونية حول مفهوم دورة الحضارة في مرحلة الهرم والشيخوخة .

3 . كتب ذات منحنى ثقافي :

وتحتل من بينها كتب التراجم والمناقب مكانة خاصة . ذلك أنها تقرنا من شريحة هامة داخل الهرم السياسي والاجتماعي على المستوى الجهوي ونعني بهم طبقة العلماء والأولياء ودور المراكز العلمية والثقافية في بلورة أنشطتهم المتعددة والمتداخلة ،

كما مثلت ذلك زوايا منطقة تادلة وحواضرها شأن : مدينة داي ، وزاوية الصومعة وزاوية دلاء والزاوية الشرقاوية . بل إن أعلام المنطقة ساهموا بإنتاجاتهم الفكرية في بلورة هذه المهام والأدوار والتعريف بها ، كما هو الشأن من خلال المؤلفات التالية :

- **التشوف إلى رجال التصوف** : ليوسف التادلي المعروف بابن الزيات (ق . 13 م) .

- **التشوف الصغير** : لعبد الرحمان الصومعي (ق . 12 هـ / 18 م) .

- **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى** من تأليف أحمد بن أبي القاسم الصومعي .

- **الهدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية** : لسليمان الحوات .

- **المرقى في مناقب الشيخ الشرقي** من تأليف عبد الخالق العروسي (ق . 12 هـ / 18 م) .

- **يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطي** : لمحمد بن عبد الكريم العبدوني (المتوفى في 1189 هـ / 1775) .

وتكمن قيمة هذه المصادر والمؤلفات في :

- أنها إقرار بعباءات المنطقة وإسهاماتها الثقافية والدينية بارتباط مع الإطار العام للبلاد دينيا وفكريا بما في ذلك التصوف .

- أن بعض هذه المصادر شكلت نقطة انطلاق مركزية لفهم جوانب هامة من تاريخ المغرب دينيا وثقافيا وسياسيا ، كما هو الشأن بالنسبة لبحث الأستاذ محمد حجي حول الزاوية الدلائية الذي يعتبر باكورة عطاءات المدرسة الوطنية⁽⁷⁾ .

- لقد ساهمت كتب التراجم في توسيع مجال اهتمام المؤرخ الباحث من قمة هرم المجتمع إلى قاعدته بحكم دور الصلحاء في لحم المجتمع بمختلف رموزه ومقوماته الحضارية ، وعلى المستوى الأفقي ساهمت الزوايا ومدارسها في توسيع دائرة المشاركة الصوفية إلى أكبر عدد من المناطق متجاوزة كل المعوقات الجغرافية والبشرية أو الأزمت

السياسية .

- وعلى العموم ؛ فإن إبراز دور هؤلاء الصلحاء جهويا ووطنيا كان أكبر طعنة لمقولات المدرسة " الكولونيالية " التي عملت جهدها لإضفاء صبغة الانقسامية والتجزئة على التاريخ المغربي وكيانه في محاولة لسلبه هويته الحضارية كشرط لتمرير المشروع " التمديني " الاستعماري الذي لا يمكن أن تضمن بقاء واستمراره الجيوش والفيالق العسكرية .

وحتى إذا وقف البعض من مضمون كتب التراجم والمناقب ، موقف المتشكك في جدوى فعالية مضامينها التي تكرر لمنطق الهيمنة الروحية كجزء لا يتجزأ من هيمنة النخبة السائدة ، فإننا نتساءل عن جانب الجبرية والقهرية داخل إطار هذه الممارسة . ذلك أن الزوايا بقدر حرصها على بث الثقافة والسلوك الإسلامي السني المعتدل ومحاربة الانحراف ، بقدر حرصها على تمثيل قضايا وهموم المجتمع الذي وجدت فيه وتعاملت معه وتشربت بهومومه إلى درجة الذوبان في هذا الواقع بشكل أصبح فيه من الصعب فك تشابك خيوط وعقد هذا التلاحم .

- بل يمكن القول إن الزاوية المغربية من خلال أدوارها ومهامها المتشعبة لهي أكبر شاهد على إبداعات الواقع المغربي وفتحه . فقامت تبعا لذلك بدور عنصر توازن وتوفيق . وفي حالات تأزم كثيرة ؛ اضطلعت بمهام سياسية في غاية الدقة والخطورة وهو ما أفرز قيام ممالك وأسر حاكمة انطلاقا من رباطات وزوايا . كما أبانت عن حيوية خارقة في تجاوز حالات الانهيار واليأس العام عندما نذبت نفسها وأتباعها وخلاياها للقيام بالجهد لمواجهة مخاطر توسع أجنبي استعماري صليبي لا يبقى ولا يذر . فكان لها شرف إنقاذ الكيان المغربي من وهدة سقوط محقق (ق . 15 م) وهي المسؤولية التي اضطلعت بها خلال القرن 19م بالرغم من شروط عدم التكافؤ الصارخة .

وقد أحاط كتاب **الزاوية الدلائية** ثم كتاب **الزاوية الشرفاوية** ⁽⁸⁾ في وقت لاحق بجوانب هامة من هذا الموضوع بالنسبة لتاريخ منطقة تادلة .

4 . المخلفات الحضارية :

ذلك أن منطقة تادلة تشمل شبكة أو منظومة هامة من المآثر والمعالم الحضارية

شأن القلاع والحصون والقصبات العديدة وكذلك الزوايا والأضرحة والمزارات ، بل إن بعض هذه المعالم استمر إلى وقتنا الحاضر يواصل مهامه وأدواره . في حين أن البعض الآخر غني بالدلالات والتعابير والمعاني التي قاومت عوادي الزمن كشاهد إثبات عنيد ، إلا أن هذه المعالم في أمس الحاجة إلى العناية والصيانة والدراسة والتوثيق حتى تساهم في إغناء المعرفة بتاريخ المنطقة بالنظر إلى اندماج أدوارها ومهامها مع خصوصيات المنطقة ومتطلبات العيش والعمران . بيد أن ادعاء بعض الباحثين الربط العضوي بين القلاع والقصبات وبين أسلوب القهر المخزني يحتاج إلى التمهيد العلمي والموضوعي ، ذلك أنها وجدت عبر تاريخ المغرب الطويل وفي فترات القوة والضعف على السواء كجزء لا يتجزأ من التقسيم الإداري والعسكري وفق متطلبات المنطقة وخصوصياتها التي لم تكن تتعارض شكلا ومضمونا مع متطلبات سكان المنطقة وتطلعاتهم إلى سيادة جو الأمن والاستقرار حتى تستمر الحياة وتنتعش وتتطور .

5 . الوثائق والسجلات المكتوبة :

ونعني بها المراسلات والظواهر المخزنية وكذلك مختلف العقود والاتفاقيات بين الأفراد والجماعات ، وهي شواهد ثابتة عملت على تمكين وتوثيق العلاقات والأنشطة إداريا وسياسيا واقتصاديا . وتحفل خزائن كبار الأسر القبلية والمخزنية والصوفية والعلمية بالعديد من هذه الوثائق والمحفوظات ، هذا عدا ما تحتويه الخزانات المركزية من نفائس وذخائر في الموضوع . وتعكس هذه المصادر والوثائق بكل صدق وأمانة حقيقة الروابط الاجتماعية والسياسية أفقيا وعموديا ، مركزيا وجهويا مما يسهل على الباحث العديد من القضايا والمهام وهو يروم الكشف عن الماضي القريب بكل دقائقه وجزئياته وكواقع مستمر في العديد من الممارسات والتشكيلات الاجتماعية والقبلية . لقد سمح لنا الاطلاع الأولي على جملة من هذه الوثائق التي تتضمن مراسلات وعقود تتعلق بالممارسة السياسية وتطبيقاتها الجهوية ، بتقدير القيمة العلمية الفائقة لها خصوصا وأنها تهتم بمسائل أساسية في علاقات المجتمع مع حاكميه مثل الضرائب والإعانات وعلاقات القبائل الداخلية مثل اتفاقيات الرعي والاستغلال التكافلي والتكامل لمجال المجموعات المتساكنة حتى تحافظ على أجواء التعايش ، وهو ما تعبر عنه أصدق تعبير اتفاقيات " طاظا " أو " طاظا " ، حسب المناطق والقبائل .

6 . جانب تراثي عام :

ونعني به كل أشكال التعبير والحوار والمشاركة الكلامية أو الوجدانية أو الإيحائية أو مختلف الطقوس الاحتفالية والتي كثيرا ما يكون موطنها الذاكرة الشعبية ومجالها التعبيرات الشفوية فرديا أو جماعيا .

لقد سمح لنا بحث أحد طلبة الإجازة حول " قبيلة بني عيسى " بتادلا العليا المحيط بأبي الجعد ، بإدراك أبعاد وأهمية هذا المخزون التراثي الذي يتطلب تعاملًا خاصًا وتظافرا لجهود باحثين متعددي الاختصاص حتى يتيسر استكناه خفاياه وفك رموزه وسبر أغواره . ذلك أنه يضم من جملة ما يضم :

- طقوس الاحتفالات الدينية والاجتماعية .

- المنظومات والأشعار المواكبة لهذه الطقوس وارتباط مع مناسبات معينة مثل الختان ، الزواج ، المآثم ، موسم الحصاد إلخ . . .

- الملاحم الدينية والاجتماعية ، التي تسجل لصراع قبلي بارتباط مع أزمة من الأزمات محليا ووطنيا كما هو الشأن بالنسبة لصراع العاهلين المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ ، ثم صراع المجاهدين الأسطوري مع النصاري الكفار ، وتحمل أحداث 20 غشت مكانا خاصا داخل هذه الذاكرة بالنظر إلى دلالتها وقربها الزمني .

وإجمالا فإن المرء يكاد يشعر من حدة وحجم هذا التراث المتشعب والمتكامل ، بأن عطاءات الأجداد والأسلاف ستظل أكبر تحدي لمجهودات وقريحة الخلف وهو يروم الكشف عن معالم ماضي بقدر ما هو في متناول اليد ، بقدر ما هو سريع الذوبان في هموم الحاضر وتطلعات المستقبل .

المحور الثاني : نحو مشروع بلورة العناصر الفاعلة في تاريخ المنطقة .

لن يتعلق الأمر هنا ببسط مستفيض لتاريخ المنطقة وأحداثها ، بقدر ما هو وضع علامات استفهام وتأكيده على بعض خصوصيات المنطقة ، التي نظن أنها عملت على توجيه تاريخ المنطقة وطبعت مسيرته بظابعها دون ادعاء الإحاطة الشاملة بمختلف هذه العناصر ، فالمسألة تتجاوز مجهودات فرد أو أفراد بل هي مشروع فعاليات عديدة متنوعة

المشارب إلا أنها متكاملة الأهداف والغايات .

أ - مسألة التمدين في المنطقة :

ذلك أن مخلفات الكتابة الجغرافية والرحلات وكذلك المخلفات الأثرية ، تشهد جميعها على أهمية حواضر منطقة تادلة مثل : داي ، تافزا ، قصبة تادلة ، القصبة الزيدانية ، قصبة بلكوش ، قصبة بني ملال ، فشتالة ، دلاء ، أبو الجعد ، الصومعة إلخ . . . كلها معالم حضارية تعبر عن مجهودات الأسلاف في تثبيت الحياة البشرية وخلق قواعد ومراكز للنشاط الزراعي . وهذا الواقع يدفع الباحث إلى الإحاطة ب :

- خط مسيرة الحياة العمرانية بالمنطقة بارتباط مع فترات الازدهار والاستقرار وفترات التراجع والضمور ، مع البحث عن ديناميكية هذا التطور والعناصر الفاعلة فيه سلبا أو إيجابيا .

- دور خط التجارة الداخلي الرابط بين مراكش وفاس وبين الجبال وحواضر السهل في تدعيم هذا الخيار التمديني إن لم يكن محصلة منطقية لأدواره البالغة الحيوية .

- دلالة تمركز وتعدد نموذج القصبات والقلاع والحصون في المنطقة بارتباط مع المحددات الجغرافية الرئيسية (أم الربيع ، الدير) والبشرية (تكامل الرعي والاستقرار) ذلك أن منطقة داي وقصبة تادلة والقصبة الزيدانية ؛ تعتبر في مجملها بداية انفتاح الجبل أو الممر الجبلي (الفاغاز) نحو السهل بارتباط مع خط سير نهر أم الربيع ، وبصفة عكسية بداية انغلاق السهل . وهو الوضع الذي أعطى في منطقة حول تانسيفت اختيار " مراكش " وقبلها " أغمات " كمقر لحكم الدولة المرابطية ثم الموحدية ، وفي تادلة كانت زاوية دلاء مقرا محصنا لحكم الإمارة الدلالية في بداية انطلاقها . وفي الحالات العادية ؛ فإن المخزن المركزي عمل على تدعيم التوازن والاستقرار بدفع العديد من القبائل الكيشية (الكيش) لحط عصا الترحال بالمنطقة ثم دعم هذا الوجود بمرتكزات وقواعد مادية مثل القصبات والحصون والقلاع ، كما اختار سكان المنطقة نوعا متميزا من هذه الدعائم وهو ما يمكن تسميته ب " القصبات المعنوية والروحية " شأن زاوية " دلاء " وزاوية الصومعة وزاوية أبي الجعد .

فإلى أي حد كان لهذا الواقع التادلي مسؤوليته وتأثيره البالغ في نوعية وحجم

النشاط العمراني في المنطقة ، وكيف حالت هذه الأوضاع دون ظهور قطب تركز رئيسي كما هو الشأن بالنسبة لمراكش وفاس .

ب - أهمية طريق التجارة في تاريخ المنطقة :

لقد اعتبرت سلامة المرور عبر تادلة دليل قوة السلطة المركزية وعنوان بسطها لسيطرتها وسيادتها التامة على البلاد . وعلى سبيل المثال فإن قيام الدولة السعدية الشريفة لم يعد فعليا واقعا إلا بعد هزائم الوطاسيين في " أنفاي " و " أبي عقبة " وتوقيع الصلح (943 هـ) على اقتسام البلاد انطلاقا من منطقة تادلا التي أصبحت خالصة للسعديين ومنها فتح الطريق نحو احتواء حواضر الشمال خصوصا مكناسة ثم فاس في نهاية المطاف ، ليربط بذلك بين خط التجارة من باب الصحراء (وادي نول) إلى حاضرة الشمال مرورا بتادلا . وقد تكرر نفس الوضع أكثر من مرة في تاريخ المغرب وفي تاريخ المنطقة مما يدفعنا إلى التساؤل عن :

- دور خط التجارة الداخلي والحيوي في بلورة جانب هام من تاريخ المنطقة خصوصا أنشطتها الاقتصادية وتنوع تشكيلاتها الاجتماعية بارتباط مع ذلك .

فمن خلال كتاب وصف إفريقيا للوزان ، نلاحظ تأكيد هذا الأخير على جملة من المعطيات بالغة الدلالة ؛ مثل نوعية المصنوعات التقليدية وجودتها الفائقة ذات الشهرة الوطنية (خصوصا المنسوجات) ⁽⁹⁾ وكذلك شهرة قطيعها من الأغنام الذي كان يدفع بالعديد من المستثمرين من فاس ومراكش إلى التهافت على المنطقة ذلك أن هدايا شيخ زاوية أبي الجعد إلى السلطان كانت تتكون أساسا من أغنام المنطقة . هذا عدا ما اشتهرت به المنطقة من خيرات فلاحية ومعدينية (النحاس) .

- لقد دفع خط التجارة الرئيسي والأوسط سكان المنطقة إلى الاستفادة الإيجابية من هذا المعطى ، فلم تكن حواضر الإقليم نقطة استراحة وعبور وخدمات بقدر ما كانت نقط تبادل وتفاعل مع الحياة الاقتصادية في عموميتها ، فاستفادت من هذا الوضع في تنمية إمكانياتها المحلية وتنويع منتوجاتها حتى لا تبقى مجرد مستهلك ولكن كعنصر مشارك وفعال لا غنى عنه .

- وقد يكون من الفائدة الكبرى رصد أصداء النشاط الاقتصادي الشامل من

خلال حجم تواجد الجاليات اليهودية (أهل الذمة) في حواضر المنطقة ؛ ذلك أن صاحب وصف إفريقيا أكد على أهميتهم العددية والتنوع من خلال تراكم ثروات هائلة بين أيديهم فاقت ما هو متوفر في صندوق خزانة ملك فاس الوطاسي . وهذا راجع إلى حيوية أنشطتهم التجارة المستمدة من حيوية الطريق العابرة للمنطقة كذلك إلى دورهم في استغلال مناجم المنطقة وتضييعها بالنظر إلى الطلب على المصكوكات والمجوهرات والحلي من طرف سكان المنطقة المستقرين أو العابرين لها ⁽¹⁰⁾ .

- بيد أن النشاط التجاري للمنطقة لم يقف في المستوى العمودي بل توسع ليشمل محاور ومستويات أخرى ، كما هو الشأن بالنسبة لعمليات تبادل المصالح بين سكان الجبال والسهول بالنظر إلى تكامل منتوجاتها ، كما دفع تشجيع التفتح التجاري على أوربا من طرف السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله (ق . 12 هـ / ق . 18 م) إلى فتح آفاق جديدة للمنطقة من خلال تصريف فائض إنتاجها عبر الطريق المتوجه نحو الساحل الغربي خصوصا ميناءي أزموور والجديدة (البريجة) . وقد أشارت مصادر زاوية أبي الجعد (كتب تراجم ومناقب) في أكثر من موضع إلى قوافل التجارة العابرة للمجال القبلي لورديفة والشاوية ودكالة ، جاعلة من الزوايا الشرقاوية الفرعية المنبثقة في هذه المجالات نقط استراحة و ربط وتزود ، وأن من جملة ما كان يصدر المصنوعات الخشبية والحيوانية وبعض المعادن . وفي فترات انعدام الأمن واضطراب الأحوال ؛ تتراجع أهمية خط الوسط العابر لبلاد البربر نحو خط فرعي واحتياطي يعبر أم الربيع نحو زاوية أبي الجعد ومنها إلى مكناس عبر قبائل زعير .

وفي نهاية القرن 19 م ، وفي فترات تميزت بانقلاب الأحوال وتأزمها ؛ نجد الرحالة الجاسوس (شارل دو فوكو Ch. De Foucauld) يستعمل نفس الخط الاحتياطي طلبا للأمن والسلامة .

ج - العلاقة بين الجبل والسهل : تكامل أم تعارض ؟

لن نحتاج إلى التأكيد على دور الجبال في تاريخ المغرب كملجأ بشري واقتصادي وخزان طبيعي لجملة من الخيرات المائية والنباتية والفلاحية ، بيد أن أدوار هذه المناطق تجدد امتدادها التكاملي والطبيعي في السهول مرورا بمنطقة " الدير " . وهذا الواقع المادي

والمصلحي والمعاشي أفضى إلى بلورة تقاليد قبلية تقوم أساسا على التعايش والتفاهم والتعاقد والتكافل انطلاقا من ظرفية وواقع الحياة اليومية الملح . ومن شأن دراسة عقود الأخلاق القبلية الثنائية والجماعية من نوع " تاظا " أو " طاظا " (حسب المناطق والقبائل) أن تكشف عن العديد من هذه الحقائق الدامغة . ذلك أن الكتابات " الكولونيالية " ركزت على حالات شاذة وغير سوية من الصراع القبلي ارتباطا مع أزمات مناخية أو سياسية أو وبائية ، لتجعل منه قاعدة أساسية لبناء أحكامها حول مفهوم " القبيلة " و " المخزن " وحول مدلول وأبعاد الكيان المغربي ككل . وهو خيار له ما يبرره في ذهنية الكتاب الاستعماريين كأداة فعالة لإضفاء صبغة " المشروعية " على ما اعتبروه " تمدينا لشعوب متبربرة = غير متحضرة " .

وللإشارة ، فإن الصراع القبلي لا يمكن ربطه إجباريا داخل معادلة تعاضدية بين الرجل والمستقرين (والإشارة هنا عند الاستعماريين لتعارض عرقي بين العرب والبربر) ذلك أن حالات الصراع بين الرجل أنفسهم والمستقرين فيما بينهم كثيرة وعديدة إما تحت ضغط العامل الاقتصادي أو لأسباب تتعلق بتنافس بين الفرق والجماعات وما يفرض ذلك من تحالفات ، وهي أوضاع لازالت إلى الآن سبب مشاكل ذات بعد دولي وكانت بالأمس وراء صراعات دموية مروعة في إطار حروب كونية .

لقد تأسست علاقات الجبل بالسهل على قواعد مصلحية ومنفعة بالدرجة الأولى تقوم أساسا على التكامل والتعايش كما هو الشأن داخل قبائل السهل وداخل قبائل الجبل ، وأن حالات الصراع جزء لا يتجزأ من حالات الخلل وانعدام التوازن داخل محددات هذه العلاقات ، وما أكثرها في تاريخ المناطق والمغرب عموما على المستوى السياسي والوطني والمجاعات والقحوط وتنقل القبائل والسكان بل كم تعددت حالات اقتسام مجالات الرعي والانتجاع بارتباط مع الأزمات السالفة ، وإلا كيف نفسر انعدام نظام تمليك عقاري في هذه المجالات عكس ما ظهر في مناطق أخرى ، لصالح نوع خاص من الممتلكات الرعوية التي اشتهرت بـ " العزيب " وهو واقع استمر إلى وقت متأخر .

ماذا يمكن أن نستخلص من الأفكار والتساؤلات السالفة ؟

- ضرورة اعتبار المصادر السالفة جزء لا يتجزأ من تراث حضاري متكامل ،

وكلما أمكن الاستفادة منها في شموليتها إلا وكانت معرفتنا وإبرازنا لهذا الماضي أكثر عمقا وتكاملا .

- أهمية الاستفادة من الوثائق والسجلات والمذكرات ذات الصبغة الرسمية خصوصا في الميادين الاقتصادية والتي يحتويها الأرشيف الأجنبي كجزء لا يتجزأ من تاريخ وطني وعالمي مشترك ، حتى نتبين موقع ومكانة منطقة تادلة داخل إطار هذه العلاقات في محاولة لإبراز إسهاماتها وأهميتها التجارية والتبادلية سواء تعلق الأمر بالقرن 19م وما قبله حسب ما تسمح به هذه المصادر .

- وحتى تكون نظرتنا متكاملة داخليا وخارجيا ، فإن المراسلات الوطنية التي تبادلتها المخزن مع موظفيه أو مع رموز النخبة الاجتماعية تكتسي صبغة خاصة في الكشف عن قضايا المنطقة محليا أو على مستوى روابطها مع المخزن المركزي . وتتكامل هذه المعطيات مع السجلات والعقود والاتفاقيات بين القبائل أو بين الأفراد .

- لقد أظهرت لنا عروض تادلة في العصر الوسيط مدى النضوب في المعلومات التي أوردتها المصادر على اختلافها ، وهو واقع يمكن التغلب عليه مؤقتا من خلال التركيز على الفترات الغنية بالمصادر والمعلومات المكتوبة أو الشفوية أو المستمرة أشبه شيء بنوع من التاريخ التراجمي أو الارتدادي .

- وما أن الواقع القبلي والاجتماعي لم يعرف " ثورة " انقلابية حقيقية بالنظر إلى طابع التحول الهادئ والتدريجي ، ومن ثم فإن إخراج مشروع " خريطة بشرية " داخل إطار طبيعى متداخل ، سيدفع بالبحث التاريخي من آفاق المجهول إلى مجالات المعلوم المعائن والمعاش حتى نكسب لتاريخ منطقة تادلة والمهتمين بماضيها وحاضرها بعدا معرفيا جديدا يصب في صميم اهتمامات وتوجهات الحاضر القريب والمستقبل البعيد .

- في هذا الأفق تصبح مناظرة أو " ندوة كلية بني ملال " بداية لمشروع يؤسس لنهضة علمية وثقافية واجتماعية متكاملة ، على اعتبار أن هذه النواة الجامعية وريث شرعي لمراكز إشعاع حضاري سابقة مثل " الصومعة " و " دلاء " و " أبي الجعد " .

الهوامش

- 1 - وعنوان بحثه الهام : Miège(J- L.), *Le Maroc et l'Europe 1830 - 1894*, 4 Vol. Paris, P.U.F., 1961 - 1963 .
- انظر أيضا : Documents d'histoire économique et sociale marocaine au XIXe siècle, Paris, Centre National de Recherche Scientifique, 1969.
- 2 - نشير بالمناسبة إلى أن معظم الأبحاث الجامعية ركزت على تاريخ المغرب المعاصر وهي نفس الاهتمام الجديد في تخصصات أخرى اقتصادية وسياسية واجتماعية بالنظر إلى أهمية هذه المرحلة في تاريخ المغرب وهي تدخل مرحلة من التصارع والتصادم الحضاري الإجباري التي أفضت به إلى عهود جديدة من التحديث واليقظة .
انظر على سبيل المثال :
- أعمال ندوة المجتمع والإصلاح (كلية الآداب - الرباط) .
- أعمال ندوة المحمدية الصليبية : المغرب في العهد العزيمي ، والتي ركزت على مجمل تاريخ المغرب طوال القرن 19 م وإلى بداية القرن 20 م .
- أطروحة الأستاذ العروبي : Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1930 - 1912), Paris, Ed. Maspero, 1980.
- وحول منجزات تاريخية أخرى : انظر :
- محمد زنيبر ، " البحث التاريخي عن الدولة العلوية في الجامعة المغربية " ، ضمن أعمال ندوة جامعة مولاي علي الشريف (الدورة الأولى ، 1989) ص . 54 - 66 .
- 3 - الافراني ، نزهة الحادي ، هوداس ، ص . 20 - 21 ثم 27 - 28 .
- 4 - راجع العروض المذكورة وغيرها ضمن أعمال هذه الندوة .
- 5 - الحسن الوزان (1552/959) ، وصف إفريقيا ، تعريب الأستاذين محمد حجي ، محمد الأخضر (الرباط 1980/ 1400) .
- 6 - Massignon (L.), *Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle*, Alger, Ed. Adolphe Jourdan, - 1906.
- 7 - نشر كتاب الزاوية الدلائمية في طبعته الأولى عام 1964 ثم أعيد طبعه مؤخرا 1409 = 1988 .
- 8 - نشر كتاب الزاوية الشرفاوية في جزئين : الأول عن الإشعاع الديني والعلمي (1984) ، والثاني عن دورها الاجتماعي والسياسي (1989) .
- 9 - وصف إفريقيا ، ج . 1 ، ص . 176 ، 177 ثم 183 .
- 10 - المصدر السابق ، ص . 178 - 183 .

التدخل العسكري بتادلا والمناطق الجبالية المجاورة (1912 - 1916)

محمد العروصي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

منذ بداية القرن العشرين صدرت مجموعة من الدراسات والأبحاث تناولت بالدرس والتحليل ظواهر ووقائع تاريخية متنوعة . وهي تنقسم بين أطروحات مفكري الفترة الاستعمارية التي هيمنت على الساحة الثقافية بدون منازع منذ أوائل القرن العشرين وإلى غاية الحصول على الاستقلال ، وبين بحوث مغاربة وأجانب ابتداء من الستينات . وتهدف هذه البحوث إلى إعادة قراءة التاريخ المغربي أو كشف بعض جوانبه المغفورة .

ورغم اختلاف النتائج لاختلاف طبيعة الهدف ، فمجمل هذه الدراسات ساهمت في إلقاء مزيد من الأضواء على الماضي ، وعمقت النقاش حول كثير من الإشكاليات التاريخية .

وعلى الرغم من التقدم المعرفي الحاصل ، مازال تاريخ كثير من المناطق يشوبه الغموض . ومن بينه تاريخ منطقة تادلا التي لعبت أدوارا اقتصادية وسياسية هامة عبر مختلف الفترات ⁽¹⁾ .

فقد كانت منطقة عبور بين العاصمتين التقليديتين : فاس ومراكش ، كما ورد ذكرها في المصادر التاريخية وكتب الرحلات . إلا أنها لم تحظ بعناية واهتمام الباحثين ⁽²⁾ .

تادلا - كغيرها من المناطق المغربية - ساهمت في مختلف الأحداث . وكانت لها علاقات مستمرة مع المخزن وسلطات الاحتلال الفرنسية .

ومنذ توقيع عقد الحماية من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ سنة 1912م ، أصبح احتلال المنطقة ضرورة ملحة لاستكمال السيطرة على مجموع المغرب ولاستغلال

خبراتها الاقتصادية وتأمين المواصلات الداخلية بين المناطق الساحلية ومكناس وبين مراكش وفاس⁽³⁾ .

ولتحقيق هذا الغرض سخرت السلطات الاستعمارية وسائل سياسية وعسكرية لإخضاع السكان والتحكم في المنطقة . وبما أن القبائل التادلية كانت لها علاقات متنوعة مع القبائل الأمازيغية المجاورة ، حيث شكلت جبهة شبه موحدة على الأقل إلى غاية 1916م - تاريخ احتلال مدينة بني ملال - لجأ الفرنسيون إلى استعمال عدد كبير من الجنود والأسلحة الحديثة . كما تبنا خططا استراتيجية وسياسية لزعزعة وحدة القبائل وضرب اقتصادها . ومن هنا تبدو الضرورة الملحة للتساؤل حول طبيعة الوسائل المستعملة وما كان لها من نتائج مباشرة .

1 - الجنود والثكنات :

فيما بين 1912م و 1925م كانت جميع السلطات مركزة بيد الجنرال البيوتي الذي كان يجمع بين مهام المقيم العام والرئيس الأعلى للقوات . ولهذا كان حرا في تبني التصور الاستراتيجي الملائم لحل إشكالية السيطرة على المغرب . ومع اندلاع الثورات وتساعد المقاومة المسلحة بمختلف المناطق المغربية وخاصة الجبلية منها ، لم يعد إخضاع المغرب يتطلب بضعة شهور ولكن تاريخا غير محدد كما صرح بذلك البيوتي ، فالعملية يمكن أن تستغرق سنة أو سنتين أو أكثر⁽⁴⁾ . مما دفع بالإقامة العامة إلى الرفع من عدد الجنود بطريقة سريعة ، فارتفع العدد من 43.000 إلى 72.000 خلال سنة 1912م ، واستمر في الارتفاع حيث وصل إلى 90.000 في شهر غشت سنة 1914م . ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى والتحاق عدد من الجنود بالجبهة الأوربية انخفض العدد إلى 71.000 سنة 1915م . إلا أنه ارتفع من جديد إلى 84.000 خلال يناير 1916م ووصل إلى 100.000 في صيف 1919م⁽⁵⁾ .

وانطلاقا من المعطيات الإحصائية فإن عدد الجنود كان يفوق عدد المعمرين . فالوجود الفرنسي في هذه الفترة اتخذ طابعا عسكريا محضا ، حيث انتشرت الثكنات العسكرية بمختلف المناطق المغربية⁽⁶⁾ .

بمجرد احتلال منطقة يتم إقرار حامية عسكرية للدفاع عن ماتم احتلاله ،

ومراقبة تحركات السكان غير الخاضعين ، والتقدم لاحتلال مناطق جديدة وضرب اقتصاد القبائل وزعزعة وحدتها عن طريق الهجوم المباغت وشراء ذمم بعض المغاربة . وفيما بين 1912م و 1914م تمكن الفرنسيون من خلق مجموعة من الثكنات العسكرية بتادالا والمناطق الجبلية المجاورة ، فبعد احتلال وادي زم سنة 1912م ، صرح اللواء كيدون ديفيس Geydon Deviss أن " احتلال وادي زم التي لا تبعد عن أبي الجعد إلا بأقل من 16 كلم يعتبر خطوة متقدمة في سبيل الاحتلال النهائي لتادالا وواجهة لا غنى عنها لحماية المصالح الاستعمارية في الشاوية " (7) . كما تم إقرار حاميات أخرى في كل من البروج ودار ولد زيدوح وقصبة تادالا وغرم لعلام ويني ملال فيما بعد ، وكذلك بالمناطق الجبلية المجاورة ، وبهذا الحزام العسكري تمكن الفرنسيون من محاصرة القبائل وتوجيه ضربة إلى اقتصادها ، فقد جاء في التقرير الشهري للحماية المؤرخ بدجنبر 1920م ما يلي : " المنشقون زايان واشقرن وآيت إسحاق بعد منعهم من مراعيهم العادية الموجودة بالضفة اليمنى لأم الربيع بواسطة القلاع : تاقا إشعان ، وواد أمسين وخنيفرة وزاوية إسحاق لم يجدوا ملجأ ، ضد قساوة فصل الشتاء ، غير قدم الجبل ، فأصبحوا في متناول مدافعنا وليس لماشيتهم ما يكفيها من العشب إضافة إلى أنهم معرضون للنهب من طرف حلفائنا المساندين بالجنود والطيران " (8) .

وإذا كان من الصعب تحديد عدد القوات التي استعملت بالمنطقة يمكن القول إن هذا العدد كان هاما نظرا للعلاقات المتينة بين القبائل التادالية والقبائل الأمازيغية المجاورة (آيت عتاب وآيت عطا نومالو وآيت سخمان وآيت اسري وزايان (9)) ، ونظرا للارتباط بين السكان التاداليين وزعماء المقاومة بالأطلس المتوسط ، وخاصة محا أوسعيد اليرايوي ومحا أو حمو الزباني .

ولإظهار أهمية الوجود العسكري الفرنسي نورد بعض الأمثلة :

- في سنة 1912م وأثناء محاولة الفرنسيين لإخضاع بعض فصائل قبيلتي بني موسى ويني عمير ، كان اللواء كيدون ديفيس يترأس 2.000 جندي مسلحين بالرشاشات والبنادق الحديثة والمدفعية (10) .

- في 21 مارس 1913م أقرت الإقامة العامة حامية عسكرية مخصصة لاحتلال تادالا تحت قيادة مونجان Mangin ، وكانت مكونة من ست كتائب وثلاث سرايا

ومجموعتين من الكوم .

- في معركة القصيبة سنة 1913م ترأس مونجان Mangin 130 ضابطا و 4.200 جنديا أجنبيا دون تعداد المغاربة ⁽¹¹⁾ .

ولابد من الإشارة إلى مشاركة المغاربة إلى جانب الجيوش الفرنسية . بعد الاستيلاء على قصبة تادلا ، استمال الفرنسيون فصائل آيت الريع الذين ساعدوهم أثناء مختلف العمليات العسكرية .

وكانت القوات الاستعمارية تستعمل أسلحة حديثة ومتنوعة : فما هي أنواع الأسلحة المستعملة ؟

2 - الأسلحة :

أمام المقاومة التي أبدتها سكان تادلا والمناطق الجبلية ، استعملت القوات الفرنسية آلات حربية حديثة ومتطورة : فالرشاشات أصبحت تستعمل بطريقة منتظمة ابتداء من سنة 1914م . واستعملت كذلك المدفعية الخفيفة والثقيلة . كما أن الاستعمال الكثيف للمدفعية أدخل الرعب في قلوب السكان ، وفي هذا الصدد يقول الشاعر الأمازيغي :

سيحطمون شعيركم يا قبيلة آيت بوزيد
في اليوم الخامس عشر من مارس سيظهرون على ترابكم
وسوف ترى يا أخي ميمون كيف هي طلقات المدفع
المدفع الذي لا تستطيع أن تحتمي من طلقاته في منزلك
لو تختفي في الأحراش البعيدة وبين الصخور
تسقط عليك القنابل وكأنها ضربة يد
آيت عتاب لم يتمكنوا من الصمود
ماذا يمكن أن يفعله آيت بوزيد ⁽¹²⁾

وباستعمال هذه الأسلحة كانت الجيوش الفرنسية متفوقة في العدة ، وكانت قوات الاحتلال تستعمل كذلك وسائل الاتصال ، الراديو والتلغراف ووسائل النقل : الشاحنات .

ولكن الوسيلة الفعالة التي رجحت كفة المستعمر ، وأصبحت الوسيلة الفعالة للغزو كانت هي الطائرة . وقد استعملت لأول مرة في تادلا سنة 1913م ⁽¹³⁾ ، ففي سنة 1916م كان يوجد بالمغرب 100 طائرة و1580 مختص . بل إن المغرب أصبح مدرسة لتجربة الطائرات الجديدة .

في هذا الصدد يقول المارشال فايول Fayolle : " يشكل المغرب حالياً أحسن مدرسة لتدريب الطيارين " ⁽¹⁴⁾ . واستعمال الطائرات أدخل الرعب بل اليأس إلى قلوب المقاومين ، فظهر المسيحي وكأنه مخلوق ذو قوة خارقة كما يظهر ذلك من خلال القصيدة التالية :

للغلق طار من تنانت ومنقاره مليء بالنار
الأعالي أصبحت في خدمته فهي بدورها تقصف
آه " تريكراف " (أي الطائرة) إلى أين تحملين التغير ؟
سرت للطنائر جناحيه وللأسد صوته
فأنت تحملين النار والقنابل
عندما نسمع صوتها الرعب يملأ قلوبنا
الطائرة قصفتني قرب المنزل أنا وماشيتي وكلامي
عندما أخرج القطيع والماشية
تظهر الطائرة والرشاشة القاتلة
فالطائرة في أعالي السماء القنابل لا تصيبها
فهي بعيدة عن يدي لا يمكنني حجزها ⁽¹⁵⁾ .

وباستعمال هذه الأسلحة تمكنت القوات الفرنسية من إخضاع جميع المناطق التبادلية فيما بين 1912م و 1916م . ومع استمرار المقاومة بالجبال استعمل الفرنسيون الطائرات وتمكنوا بواسطتها من مراقبة الجبهة الممتدة من غرم لعلام إلى بني ملال ، ونسف كل التجمعات المعادية وعزل مواطن المقاومة .

3 - الوسائل الاقتصادية والسياسية :

ولإجبار قبائل المنطقة على الخضوع لجأت قوات الاحتلال إلى وضع خطط استراتيجية لضرب اقتصاد القبائل كاحتلال أراضي المستقرين ونهب البهائم ومخازن الحبوب ومنع المراعي على الرحل وشبه الرحل ، أي بعبارة أخرى وضع اليد على وسائل عيش القبائل . وهكذا غالبا ما كانت قوات الاحتلال تهاجم القبائل في وقت الحرث أو الحصاد لإجبارها على الدخول في مفاوضات للاستسلام أو منع عملية الحرث وتجميع المحاصيل .

وإذا مكنت هذه الوسائل من التقدم وإخضاع القبائل فقد طرح لقوات الاحتلال الإشكالية الناتجة عن التداخل بين القبائل الخاضعة والمقاومة والمتردة .

في سنة 1913م أخضع الجنرال فرانشي ديسبري Franchet d'Esperey قبائل تادالا الشمالية : السماعلة وبني زمور ، ولكنهم ثاروا بعد وقت قليل وأخذوا يهاجمون وادي زم .

وقام كل من محا أوسعيد ومحا أوحمو بالتحالف مع القبائل ونزلوا إلى السهل ، فاستقر محا أوسعيد عند السماعلة ومحا أوحمو بين أبي الجعد وأم الربيع ، وكان الهدف هو منع قوات الاحتلال من التقدم ومساندة القبائل التادلية . ولم تتمكن القوات الفرنسية من السيطرة على هذه القبائل إلا بعد إجبار القائدين على التراجع ⁽¹⁶⁾ .

ولجأت قوات الاستعمار إلى فرض الدعائر وأخذ الرهائن وفرض الأعمال الإجبارية للتحكم في القبائل وفصلها عن الأخرى ، فبعد أخذ مدينة خنيفرة ، فرض الجنرال Henrys على قبائل زايان : خمسة ريالات لكل خيمة وفرس لكل عشرة خيام ، وبنديقة لكل أربعة خيام . هل كانت القبيلة قادرة فعلا على تأدية هذه الغرامة بعدما وجهت الحرب ضربة قاضية لاقتصادها . الإجابة على لسان Henrys وتتمثل في عدم الأخذ بعين الاعتبار أن القبيلة بقدرتها تأدية الغرامة ولكن عليها تأديتها إذا كانت فعلا تريد الخضوع ⁽¹⁷⁾ . وفعلا فرض الفرنسيون غرامات باهضة على القبائل مما أدى إلى إفلاسها ، وبعد استسلامها تصبح تحت تسلط قواد الاستعمار .

وكانت السلطات الفرنسية تسخر وسائل سياسية أخرى تمهد الطريق للتدخل

العسكري ، فقد كانت سلطات الاحتلال تسعى إلى استمالة الزعماء والقواد والشيوخ . إذ دخلت في مفاوضات مع محا أوسعيد اليراي بواسطة المنبهي⁽¹⁸⁾ ، وكذلك مع محا أوحمو الزاياني . وإذا فشلت في استقطاب أي واحد منهما ، فقد نجحت في استمالة شيخ الزاوية الشرقاوية منذ سنة 1912م⁽¹⁹⁾ . وبعد احتلال قصبة تادلا في 7 أبريل 1913م من طرف العقيد Mangin ، استمال قواد كيش آيت الربيع الذين ساعدوا الفرنسيين في مختلف العمليات العسكرية .

* * *

من هنا يظهر بوضوح أن عملية الغزو كانت عبارة عن حرب حقيقية . ولا بد من التمييز إذا بين الخطاب الإيديولوجي ومجريات التاريخ . إذ لا غرابة أن نجد تناقضا واضحا بين المصطلحات المستعملة من طرف السلطات الاستعمارية والواقع التاريخي ، فقد ظل المستعمر يستعمل مصطلح التهدئة " Pacification " عوض جبهة " Front " لإعطاء صورة مخالفة عما كان يجري فعلا في الساحة واعتبار الحرب المخاضة للسيطرة على التراب الوطني مجرد عمليات شرطة لإخضاع القبائل " السائبة " . إن عملية الغزو ليست بمنزلة عسكرية ، ففي إحدى تقاريره لوزارة الحربية الفرنسية صرح اليوطي : " إننا في المغرب نقاتل كل يوم وبشدة . . . فالمغرب ليس بإمكان راحة للجنود " . وبالفعل فإن المقاومين استطاعوا ولمرات عديدة إلحاق هزائم بالعدو ، وقد استغلوا الظروف الطبيعية والأخطاء الاستراتيجية لتحقيق مجموعة من الانتصارات ؛ رغم الوسائل الحربية البسيطة ، كانتصار محا أوسعيد في معركة القصيبة سنة 1913م وانتصار محا أوحمو في معركة الهري سنة 1914م .

إذا فعملية الغزو كانت عبارة عن حرب شرسة سببت كثيرا من الخسائر البشرية ، ولكن من الصعب إعطاء تحديد دقيق لهذه الخسائر . فهناك بعض الإحصائيات تجعل أن قوات الاحتلال فقدت 8.622 جنديا فيما بين 1907م و 1934م ، ولكن هذا الرقم غير مطابق للواقع ، ف Daniel Rivet في دراسته قدر عدد الموتى ب 12.583 فيما بين 1907م و 1925م⁽²⁰⁾ .

أما الخسائر البشرية في صفوف المقاومين فيصعب تحديدها ولو بطريقة إجمالية ، فبالإضافة إلى الشهداء في المعارك ، هناك ضحايا الحصار والجوع والأمراض ، فالحصار الذي نشته فرنسا خلخل نمط حياة القبائل ، وخاصة القبائل المتنقلة بين الجبل والسهل .

وإذا كنا لا نستطيع أن نعطي رقما تقريبا عن عدد ضحايا التوسع الفرنسي بالمنطقة ، فإنه يمكن إعطاء صورة عن هذا الواقع من خلال بعض المعلومات . إذ أن قبائل آيت اسري واشقرن وآيت إسحاق التي كانت تحت قيادة محا أوسعيد فقدوا خلال معركة القصيبة سنة 1913م ، 930 شهيدا وطوال فترة المواجهة مع الفرنسيين وباستعمال هؤلاء لأسلحة متطورة (الطائرات والمدفعية والرشاشات) ارتفع عدد الضحايا في صفوف المغاربة مما يفند الفكرة القائلة إن الحرب الاستعمارية تولد الحياة .

الهوامش

- 1- في الآونة الأخيرة صدرت مجموعة من الدراسات الجغرافية تناولت بالدرس بعض المناطق المغربية ، انظر :
التوفيق أحمد ، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر : إينولتسان (1850م - 1912م) ،
الدار البيضاء ، 1978 ؛ كنينج العربي ، آثار التدخل الأجنبي في المغرب على علاقات المخزن بقبيلة بني مطير
(1873م - 1912م) ، د . د . ع . كلية الآداب بالرباط ، 1983 . المحمدي علي ، مساهمة في دراسة المجتمع
المغربي في القرن التاسع عشر : المجتمع الباعمراني وعلاقته بالمخزن (1786م - 1894م) ، د . د . ع . كلية
الآداب بالرباط ، 1985 . المودن عبد الرحمان ، إسهام في دراسة العلاقة بين المجتمع القروي والدولة في مغرب القرن
التاسع عشر : قبائل إيناون والمخزن (1873م - 1902م) ، د . د . ع . كلية الآداب بالرباط ، 1984 .
- 2- لابد من الإشارة إلى بعض البحوث التي تناولت بعض الجوانب من تاريخ المنطقة كدراسة الأستاذ حجي محمد ، الزاوية
الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي ، الرباط ، 1964 ، ودراسة الأستاذ بوكاري أحمد ، الزاوية الشرفانية ،
زاوية أبي الجعد ، إشعاعها الديني والعلمي ، الدار البيضاء ، 1985 ، ودراسة الأستاذ بوسلام محمد
البشير ، تاريخ قبيلة بني ملال (1854 - 1916) . جوانب من تاريخ دير الأطلس المتوسط ومنطقة تادلا ،
الرباط ، 1991 .
- 3- " تعتبر سهول مكناس وتادلا من أغنى سهول المغرب ، ولا يمكن استغلالها مادامت محط أطماع القبائل البربرية المستعدة
دائما للنهب . كما أن المواصلات الداخلية الأساسية بين الساحل ومكناس وبين مراكش وفاس عبر تادلا لا يمكن تأمينها
ما دامت تحت التهديد المباشر لهذه القبائل " .
Guillaume (Général. A.), Les Berbères marocains et la pacification de l'Atlas Central (1912 -
1933), Paris, Ed. Julliard, 1946, p. 75.
- 4- Rivet (Daniel), Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc : 1912 - 1925, V. 2, - 4
Paris, Harmattan, 1988, p. 65.
- 5- Ibid, p. 7-9.
- 6- Ibid.
- 7- بوسلام محمد البشير ، تاريخ قبيلة بني ملال (1854 - 1916) جوانب من تاريخ دير الأطلس المتوسط ومنطقة
تادلا ، الرباط ، 1991 ، ص . 222 .
- 8- Rivet (D.), op. cit, p. 165.
- 9- انظر : بوسلام محمد البشير ، المرجع السابق ، ص . 166 - 178 .
- 10- Guillaume, op. cit, p. 127.
- 11- Ibid, p. 137.
- 12- Berger (François), Moha Ou Hammou le Zaïani, Marrakech, Ed. de l'Atlas, 1929, p. 124.
- 13- Guillaume, op. cit, p. 134 sq.
- 14- Rivet (D.), op. cit, p. 72.
- 15- Berger (F.), op. cit, p. 135.
- 16- Guillaume, op. cit, p. 135.
- 17- Rivet (D.), op. cit, p. 77.

Guillaume, op. cit, p. 138. -18

Ibid, p. 134. -19

Rivet, op. cit, p. 67. -20

مساهمة منطقة تادلا في مناهضة الاستعمار الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى

محمد بكراري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- فاس -

مدخل :

منذ بداية التدخل الفرنسي بالمغرب تجند أبناء منطقة تادلا في صفوف المقاومة الشعبية على غرار باقي المناطق المغربية للدفاع عن استقلال ووحدة البلاد .

ولقد أنجبت هذه المنطقة أبطالاً تزعموا الكفاح المسلح ضد الغزو الأجنبي ، نذكر من بينهم على سبيل المثال البطل موحى أوسعيد الذي هزم الجيش الفرنسي بقيادة الكولونيل ماجان (C¹ Mangin) في معركة القصيبة سنة 1913 . ولم تتمكن القوات الفرنسية من الاستيلاء على القصيبة ، مركز مقاومته إلا بعد عشر سنوات من المعارك الطاحنة كبد فيها المجاهدون الفزاة خسائر فادحة وهزائم شنيعة .

ومن بين القبائل التي ساهمت في هذه المعارك قبيلة آيت عتاب المجاهدة التي ستشارك أيضا في معارك أزيلال سنة 1916 تحت زعامة مقاومين نذكر من بينهم مثلا : علي نايت ابراهيم أبوعدي وينسعيد ويوستة نايت بوعدي وآيت جابا محمد (آيت طوطس) ، وغيرهم كثير . . . ⁽¹⁾ وفي موازاة هؤلاء المقاومين الذين حملوا السلاح للدفاع عن بلادهم في الداخل ، أنجبت منطقة تادلا مجاهدين من صنف آخر اختاروا أسلوب الكفاح السياسي والصحفي بالخارج :

1) للتعريف بالمقاومة المغربية على الصعيد الدولي .

2) للتنسيق بين المقاومين في الداخل .

3) وكسب الدعم والمساندة الدولية للكفاح الوطني .

ومن أبرز هؤلاء الوطنيين الذين تحملوا عبء هذه الرسالة أحد أبناء منطقة

تادلا .

تري :

(1) من هو هذا الوطني ؟

(2) وما هو الدور السياسي والصحفي الذي قام به في المهجر للدفاع عن القضية

الوطنية ؟

(3) ما مدلول ومغزى نشاطه هذا ؟

I- من هو محمد العتابي ؟

هذه الشخصية مغمورة . فعلى الرغم من الدور الهام الذي لعبه من أجل القضية الوطنية المغربية في الخارج ، أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى ، لم ينل حظا من طرف الباحثين . فالمصادر المغربية والأوربية على السواء لا تتحدث عنه إلا نادرا ، فقد خصص له علال الفاسي في مؤلفه : **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي** صفتين ⁽²⁾ ، بينما خصص له محمد حسن الوزاني ثلاث صفحات ⁽³⁾ .

ينتسب محمد العتابي إلى قبيلة آيت عتاب القاطنة في منطقة تادلا والتي خاضت مقاومة عنيفة وبأسلة ضد المستعمر الفرنسي . تابع دراسته بالقرويين ، وأصبح أحد أبرز علمائها المتبحرين في المعارف ، كما أنه كان متطلعا ومتفتحا على الثقافة العصرية . ولقد شغل منصب كاتب في المخزن الشريف ، إلا أنه تخلى عن هذا المنصب بسبب : " مشادة وقعت بين الشيخ أبي شعيب الدكالي وزير العدل إذ ذاك وأحد بعض كبار الموظفين الفرنسيين أهان فيها هذا الأخير الوزير . . . " ، كما يذكر علال الفاسي ⁽⁴⁾ .

فتأثر محمد العتابي بهذه الحادثة ، وقرر على إثرها مغادرة المغرب . وهكذا هاجر أول الأمر إلى الحجاز سنة 1913 ، ثم استقر بعد ذلك باسطنبول بتركيا سنة 1915 ، حيث استقبل بحفاوة من قبل :

(1) أبناء المغرب العربي المقيمين في القسطنطينية وفي مقدمتهم التونسي علي

باش حامي .

2) ثم من طرف المسؤولين الأتراك كالحليفة محمد رشاد الخامس وكذا أنور باشا وزير الدفاع العثماني . . . (5) فأطلعهم الشيخ العتابي على الوضع بالمغرب آنذاك والنظام الاستعماري المفروض على الشعب المغربي بالقوة . وقد كان موضع ترحاب وتكريم من طرف الزعماء الأتراك .

II- نشاطه :

1) في الميدان السياسي :

ناضل الشيخ العتابي في أحضان الجامعة الإسلامية مدافعا عن القضية المغربية أمام المحافل الدولية ، حيث قام بسلسلة من الندوات ونشر مقالات في الجرائد والصحف العربية يفضح فيها حقيقة نظام الحماية المزعوم ومعاناة الشعب المغربي .

ثم انتقل بعد ذلك إلى ألمانيا ، إذ كان أمل الوطنيين المغاربة اللاجئين إليها معقودا على الاستفادة من انتصارها في الحرب .

غير أن المسؤولين الألمان كانوا يطمحون إلى تسخير خدمته أغراض استراتيجيتهم الحربية . لكن الشيخ العتابي رفض ذلك . ويقول محمد حسن الوزاني في هذا الصدد ما يلي :

" . . . إنه رفض كل ما لا يتفق وخطته الوطنية التحررية الهادفة إلى الاستعانة بألمانيا لصالح المعارضة والمقاومة بالمغرب . . . " (6)

وبعد ذلك رجع إلى اسطنبول لحضور المؤتمر الإسلامي الذي كان يضم ممثلين عن جميع الدول الإسلامية المستعمرة آنذاك . وبفضل المجهودات التي بذلها مع رفاقه اعترفت الخلافة العثمانية وحزب " الاتحاد والترقي " باستقلال المغرب التام .

فقرر المؤتمر توجيه وفد من زعمائه لزيارة الدول الأوربية المحايدة في الحرب : كالسويد والدايمارك والنرويج . . . للتعريف بقضايا العالم الإسلامي التي كان يدافع عنها المؤتمر . وقد مثل الشيخ العتابي المغرب في هذا الوفد إلى جانب شكيب أرسلان ومحمد فريد وعلي باش حاميه . . . وغيرهم من رجال الحركة الإسلامية آنذاك .

وقد ألقى العتابي عدة محاضرات وخطب في مختلف الأندية والاجتماعات التي عقدها الوفد مدافعا عن القضية المغربية .

وكانت مقالاته تترجم إلى لغات أجنبية وتنشر في الصحف الأوربية وتوزع على نطاق واسع ، وخاصة في المناطق المغربية التي كانت تحت نير الاستعمار الفرنسي .

ولقد كتبت عنه الجريدة الفرنسية " الزمن " (Le Temps) كما نشرت مقالاته سنة

. 1917

فأقلق ذلك النشاط المكثف السلطات الفرنسية التي حكمت عليه محاكمها العسكرية حكما غيايبا بمنعه من الدخول إلى المغرب ومصادرة أملاكه ⁽⁷⁾ .

وخلال سنة 1917 عقد الوفد الإسلامي مؤتمرا باستوكهلم بالسويد ، مثل فيه الشيخ العتابي بلاده مرة أخرى .

وبهذه المناسبة ألقى خطابا تحت عنوان " صوت /المغرب " ⁽⁸⁾ ، ناشد فيه العتابي الشعوب الأوربية ، وكذا " دعاة الحرية والديمقراطية " العمل على مساندة المغرب في نضاله ضد المستعمر الفرنسي وطالب باستقلال المغرب التام . وبذلك يعتبر الشيخ محمد العتابي من المناضلين المغاربة الأوائل الذين رفعوا شعار استقلال المغرب أمام المحافل الدولية .

(2) في الميدان الصحفي : ⁽⁹⁾ .

كان يكتب في الجرائد والمجلات الصادرة في ألمانيا وسويسرا ويشن حملات عنيفة ضد القهر والاستعباد المسلط على بلده ، ويفضح أساليب الاستعمار الفرنسي والإسباني ، ويحث السكان على المقاومة . ومن بين هذه الجرائد والمجلات نذكر على سبيل المثال :

- مجلة المغرب ، التي أسسها محمد باش حاميه بجنييف سنة 1916 ، والتي كانت تصدر باللغة الفرنسية .

- مجلة الجهاد ، وقد ظهرت لأول مرة في برلين خلال شهر مارس 1915 ، وطبعت في 15 ألف نسخة وصدرت بلغات مختلفة من بينها اللغة العربية ،

وكانت توزع على الأسرى المسلمين .

- ونشر كذلك مقالات في *مجلة الشرق الجديد* ، للتأثير على الأسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضة الألمان . وكانت الكتابات توقع بأسماء مستعارة : كالمغربي مثلا .

- ونشر مقالاته في *مجلة العالم الإسلامي* التي كانت تصدر باللغة العربية في اسطنبول بتركيا ابتداء من ماي سنة 1916 .

ولقد نشرت هذه المجلة مقالات عديدة لأشهر الوطنيين العرب ، والأتراك والإيرانيين والهنود .

وقد عمل العتابي في نفس الوقت على الاتصال بالوطنيين وزعماء المقاومة المسلحة داخل المغرب ، وكان يزودهم بالأسلحة والذخيرة وبالمساعدات المادية المختلفة ⁽¹⁰⁾ . كما كان يحثهم على الاستمرار في المقاومة حتى يتم طرد المحتل من البلاد .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى غادر الشيخ العتابي الآستانة والتجأ إلى مصر حيث استقبله الملك فؤاد الأول بحفاوة ، فاستقر بالقاهرة إلى أن وافته المنية خلال الخمسينات كما يذكر ذلك علال الفاسي ⁽¹¹⁾ .

الخلاصة العامة :

يعتبر الشيخ العتابي ، بدون شك ، رائد الحركة الوطنية العقلانية المغربية ، إذ كان السباق للمطالبة بالاستقلال التام للمغرب . ويقول محمد بن حسن الوزاني في هذا الصدد : " خلد ذكره في سجل التاريخ ، واستحق تقدير وطنه والأجيال المغربية التي عاصرتة أو جاءت من بعده ، ذلك أنه كان من السابقين الأولين في الوطنية . . . " ⁽¹²⁾

غير أن الملفت للانتباه هو السكوت عن دوره ونشاطه المكثف . هل يرجع ذلك

إلى :

(1) المنافسة حول ريادة الحركة الوطنية المغربية ؟

(2) أم لقلة المعلومات والحصار المضروب حوله من قبل السلطات الاستعمارية ؟

الهوامش

- 1 - انظر : محمد المعروزي وهاشم بن الحسن العابدي العلوي : الكفاح المغربي المسلح في حلقات ، الجزء الأول ، من 1900 إلى 1935 ، مطبعة الأتباء ، الرباط ، 1987 ، ص . 56 .
 - 2 - علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، نشر عبد السلام جسوس ، طنجة ، 1948 ، ص . 129 و 130 .
 - 3 - محمد حسن الوزاني ، مذكرات حياة وجهاد ، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية ، الجزء 1 ، طور المخاض والنشوء ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1982 ، ص . 227 وما بعدها .
 - 4 - علال الفاسي ، المرجع السالف الذكر ، ص . 129 .
 - 5 - نفس المرجع ، نفس الصفحة .
 - 6 - محمد حسن الوزاني ، المرجع السابق ، ص . 228 .
 - 7 - علال الفاسي ، المرجع السابق ، ص . 130 .
 - 8 - لقد تمكنت من العثور على نسخة من هذا الخطاب بالأرشيف الوطني الفرنسي بمدينة إيكس إنبروفانس : Archives Nationales, Section Outre-Mer, Gouvernement Général de l'Algérie, Aix-En-Provence, 30H64, du Ministre des Affaires Etrangères, à Lutaud, Gouverneur Général de l'Algérie, Paris, le 24 décembre 1917.
- ويركز هذا الخطاب على جملة من الأفكار القيمة أهمها : مبدأ تقرير مصير الشعوب ، والديمقراطية ، والحرية التي كانت قضية الساعة في العالم العربي والإسلامي شرقا وغربا . وللمزيد من التفاصيل حول خطاب الشيخ العتايبي يمكن الرجوع إلى أطروحتنا التي تحمل عنوان : المغرب والحرب العالمية الأولى ، بالفرنسية ، غير منشورة ، ج . 1 ، ص . 411 وما بعدها ، وج . 2 ، ص . 118 وما يليها .
- 9 - انظر : د . فرنر أندو ود . بيتر هاينه : " الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحفي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى " ، بالمجلة التاريخية المصرية ، 1975 ، ص . 203 وما بعد .
 - 10 - علال الفاسي ، المرجع السالف الذكر ، ص . 130 ؛ وأيضا محمد حسن الوزاني ، المرجع السابق ، ص . 230 .
 - 11 - علال الفاسي ، المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى ، مطبعة دار أمل ، طنجة ، بدون تاريخ ، ص . 37 .
 - 12 - محمد حسن الوزاني ، المرجع السابق ، ص . 232 .

علاقات بني ملال مع القبائل الأمازيغية المجاورة (نموذج قبيلة آيت سخمان)

محمد بوسلام
مفتش بناية وزارة التربية الوطنية
- سلا -

مقدمة:

لقد ساد الاعتقاد لدى المؤرخين الاستعماريين والرواة المغاربة ومازال بأن سكان السهول كانوا يندرجون عادة ضمن مجال بلاد المخزن في حين ينتمي جل سكان الجبال إلى البلاد التي " لا تنالها الأحكام السلطانية " . إلا أنه على الرغم من اختلاف الموقع الجغرافي وعناصر السكان بين قبيلة بني ملال العربية وقبيلة آيت سخمان الأمازيغية فإن المستندات والشواهد التاريخية التي أتاحت لنا فرصة الاطلاع عليها تسير في عكس هذا الاتجاه . ذلك أننا اكتشفنا ونحن بصدد دراسة العلاقات بين قبائل السهول والتدلية والجبال المجاورة لها بأن طبيعة العلاقات بين المخزن والقبائل هي التي كانت تحدد انتماءهم إما إلى بلاد المخزن أو بلاد السببة . كما وقفنا بما فيه الكفاية على أن التعاون والتكامل بين سكان السهول والجبال هو الذي كان سائدا بينهما من عدة قرون وليس العكس . وقد استمر ذلك على طول القرن 19 وتأكد أكثر مع مطلع القرن 20 وحلول الاستعمار الفرنسي بمنطقة تادلا . لكن هذا لا يلغي أبدا قيام نزاعات بينهما عندما تتوفر دواعيها . وعليه فإن البحث في علاقات بني ملال بآيت سخمان ليس إلا نموذجا يمكن الاستعانة به مستقبلا لفهم العلاقات الصحيحة التي كانت تربط بين بعض القبائل الجبلية والمخزن من جهة وبين سكان السهول وسكان الجبال المجاورة لها ، من جهة أخرى . فما هي جذور هذه العلاقات وما هي مراحلها من خلال نموذج قبيلتي بني ملال وآيت سخمان خلال ق . 19 وبداية ق . 20 ؟

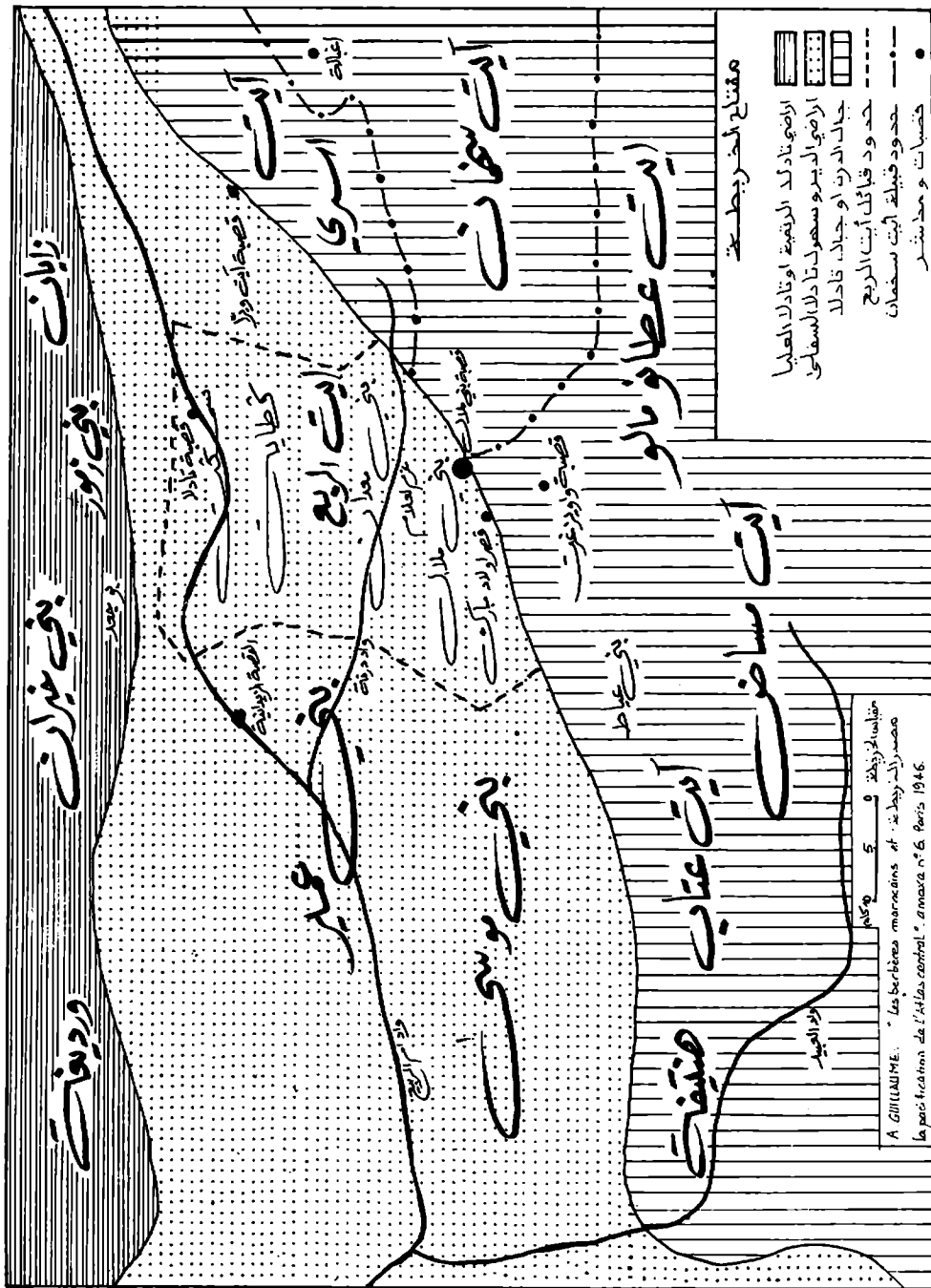
1 - الجذور التاريخية للعلاقات الملالية السخمانية :

أ . التوطن الجغرافي لقبيلة آيت سخمان :

توجد قبيلة بني ملال بحكم موقعها في دير الأطلس المتوسط في منطقة يحيط بها نوعان من القبائل : قبائل عربية الأصل تقطن السهول وهي بني موسى وبني عمير وبني معدان وقبائل أمازيغية تسكن الجبال المشرفة مباشرة على هذه السهول وهي آيت عطا نوماو وآيت سخمان . وقد لعب هذا الجوار المزدوج دورا رئيسيا في تحديد العلاقات بين القبائل العربية في السهول والقبائل الأمازيغية الجبلية وخاصة منها قبيلة آيت سخمان . وتمتد هذه القبيلة من سهول بني ملال إلى إيفيل ن إمد غاس مما يجعل مجالها الجغرافي يشغل جزءا كبيرا من الأراضي الجبلية الموجودة في السفوح الغربية من الأطلس المتوسط وبعض الأجزاء الوسطى من الأطلس الكبير . وهي تتكون من ثلاثة فصائل كبرى هي آيت عبيدي وآيت داود وأعلى وآيت سعيد وأعلي (سكان قم العنصر) . وعليه فالقبيلة توجد فوق مجال جغرافي واسع يمتد من تخوم سهول تادلا إلى الأجزاء الوسطى من الأطلس الكبير (انظر الخريطة) . وهذا الموقع نفسه هو الذي لعب الدور الأساسي في تحديد علاقاتها بجيرانها ومن بينهم قبيلة بني ملال .

ب . دور الموقع الجغرافي في تأسيس علاقات آيت سخمان بجيرانها :

كانت العلاقات بين القبيلة المالكية والسخمانية قائمة من عدة قرون وكان التنقل بين القبيلتين موردا لا غنى عنه من موارد العيش على الرغم من أن المخزن على مر العصور كان لا ينظر إلى ذلك بعين الرضى بحيث كان يعتبر بأن " العجم لا مدخل له في بلاد السهل والعرب لا مدخل لهم في بلاد الوعر " ⁽¹⁾ . وهذا ما أكد عكسه معظم المؤرخين المغاربة والأجانب على السواء إذ أشاروا إلى أن الحياة في مثل هذه المناطق لا تستقيم إلا بالتكامل بين موارد السهول والجبال . يقول مارمول مثلا في هذا الصدد : " والأرض صالحة جدا [في الجبال] لرعي الماشية لأن الكلا ينبت فيها بغزارة . وهناك أيضا عدة أماكن للوقاية من حرارة الشمس في الصيف . لكن الثلج يسقط فيها أثناء الشتاء بمقدار عظيم حتى إن القطعان تموت أحيانا من جراء ذلك إن لم تسحب باكرا إلى السهول . لذلك فإن القطعان تساق إليها في الصيف من أجل الكلا الكثير الذي ينبت فيها . إلا أن هذه القطعان تخرج منها قبل تساقط الثلوج لأن البرد يكون إذاك قارسا إلى حد أنه يتسبب في هلاك الماشية ورعاتها . . . " ⁽²⁾ . وقد أشار أحمد بن قاسم الزباني ، وهو مؤرخ معاصر إلى ذلك بدوره حيث قال بأن سكان الجبال لن يستطيعوا العيش في



الجبال ، إن منعوا من ارتياد السهول إلا في ضيق وشدة .

وإذا علمنا بأن الحياة الاقتصادية في القبيلتين كلتيهما كانت تتركز أساسا على الزراعة وتربية الماشية وعلى هامش ضئيل من المبادلات التجارية المحدودة الآفاق تأكدنا من الدور الكبير الذي تلعبه مثل هذه العلاقات التكاملية بينهما . وإذا كانت بعض القبائل العربية السهلية ، ومن بينها ، بني ملال تستطيع في حدود معينة أن تستغني عن هذه العلاقات أو عن جزء منها إذا طرأت بعض الطوارئ ، فإن القبائل الجبلية الأمازيغية وعلى رأسها قبيلة آيت سخمان لم يكن بوسعها على الإطلاق أن تعيش بدونها ⁽³⁾ . وهنا لابد من الوقوف للإشارة إلى أن علاقات بني ملال بقبيلة آيت سخمان كانت قائمة على تناقض مزدوج ، ولا يمكن فهم العلاقات بينهما دون توضيح هذا التناقض ذي الوجهين .

يعود الوجه الأول لهذا التناقض إلى حتمية الموقع الجغرافي الذي يجبر قبيلة آيت سخمان على رأس كل سنة أن تتحرك في اتجاه أراضي الدير وخاصة نحو سهول بني ملال المجاورة لها للتخفيف من حدة ضيق المجال الاقتصادي الذي تزداد وطأته تطرفا في فصل الشتاء بسبب قسوة المناخ الجبلي الناتج بدوره عن اشتداد البرودة وتساقط الثلوج .

أما الوجه الثاني للتناقض فهو ناتج عن طبيعة قبيلة بني ملال التي كانت جزءا من كيش آيت الربيع وكان المخزن يكلفها بحماية الجزء المجاور لها من سهول تادلا من اكتساحات سكان الجبال وعلى رأسهم قبيلة آيت عطانو مالو وآيت سخمان على وجه الخصوص ⁽⁴⁾ .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن قبيلة بني ملال كانت تعلم يقينا ، بحكم الجوار والاطلاع على الأحوال ، بأن جارتها قبيلة آيت سخمان لم يكن بوسعها بأي حال من الأحوال أن تضمن العيش لسكانها في المرتفعات الجبلية على امتداد السنة كلها فكانت تدرك بأن جارتها في حاجة ماسة إلى استمرار العلاقات بينهما لأنها كانت تشكل جزءا من مجالها الحيوي .

وبالفعل كانت قبيلة آيت سخمان تدافع عن استمرار هذه العلاقات وتتصدى لكل من قد يسعى إلى إيقافها فكانت تحافظ على هذا الاستمرار بوسائل متعددة أهمها إقامة

الأحلاف والأوفاق مع الجيران ورمي العار وشراء الذمم وبذل الرشاوي واللجوء إلى العنف عند الاقتضاء .

هذا هو الإطار الصحيح الذي يجب أن توضع فيه العلاقات الماللية السخمانية خلال القرن 19 وبداية العشرين . ورغم ما في ذلك من تناقض فإن قبيلة بني ملال كانت ترتبط بالطرفين كليهما . كانت ترتبط بآيت سخمان بحكم الجوار وتبادل المصالح كما ترتبط بالمخزن بحكم أنها كانت تشكل ربعا واحدا من كيش آيت الربيع ، وعليه فقد كانت قبيلة بني ملال توجد في الحقيقة بين المطرقة والسندان : بين إصرار آيت سخمان على ضرورة التنقل نحو الدير في فترات البرودة القاسية (قد تصل أحيانا إلى حوالي ستة أشهر في السنة) بحثا عن سبل أخرى لتنويع مصادر عيشها من مراعي ومجالات للزراعة من جهة وأوامر المخزن التي كانت تصدر إليها بضرورة " التضيق بفُسَاد آيت سخمان " ⁽⁵⁾ وإحكام الحصار عليهم و " عدم معاملتهم في كل ما يتوقفون عليه " من جهة أخرى ⁽⁶⁾ . ولما حل الفرنسيون بمنطقة الدير واستولوا على قبيلة بني ملال وقصبتها تصدى لهم السخمانيون بكل ما أوتوا من قوة لطردهم منها وفكها من أسرهم لأن الاستيلاء عليها من لدنهم يعني القضاء على آيت سخمان ومصادرة مجالهم الحيوي . وعلى الرغم من أن السخمانيين لم يفلحوا في ذلك فإنهم لم يتخلوا عنها إلا بقوة الحديد والنار .

هذه باختصار هي الخطوط العريضة لجذور العلاقات بين قبيلتي بني ملال وآيت سخمان كما وقفنا عليها من خلال الوثائق والمستندات ، فما هي المراحل الكبرى لهذه العلاقات خلال القرن 19 وبداية العشرين ؟

11 - مراحل العلاقات الماللية السخمانية :

يمكن تقسيم هذه العلاقات إلى ثلاث مراحل تاريخية كبرى هي :

أ . من نهاية القرن 18 إلى منتصف القرن 19 :

ذكر الناصري بأن محمد أو ناصر ، أحد أعيان وكبار مرابطي آيت إْمْهَوَاشْ ، قد خرج في نهاية القرن 18 عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله فوجه إليه هذا الأخير من يشتت أتباعه لكنه فر إلى أعالي الجبال الأطلسية واحتفى بقبيلة آيت سخمان التي أجارته

وآوته . ولم يكن للسرخمانيين أن يضمّنوا لأنفسهم ولمن أجازوا سبل العيش الكافية في تلك الجبال لولا اعتمادهم على جيرانهم سكان الدير والسهول المجاورة ومن بينهم سكان سهول بني ملال .

وفي بداية القرن 19 شاركت قبيلة آيت سخمان في التصدي لجيوش السلطان سليمان في وقعة ظيان سنة 1819 حينما أرادت هذه الأخيرة منعهم من ارتياد السهول المجاورة لهم ، " على عادة أسلافهم في ذلك " (7) ومن بينها سهول بني ملال .

وكم حاول خلفه السلطان عبد الرحمان بن هشام حصرهم في جبالهم فلم يستطع فاكتفى بإصدار الأوامر لعماله في تادلا بمراقبة تحركاتهم ومنعهم من التوغل بعيدا في اكتساحهم للسهول التادلة فكانوا يفلحون في ذلك أحيانا ويفشلون أحيانا أخرى . وقد أخبره أحد قواده في تادلا سنة 1837 بأنه استطاع أن يقاتلهم ويمنعهم من الاستقرار في الأراضي الواطئة المجاورة للقصبة الكوشية لكنهم عادوا في فصل شتاء السنة التالية إلى ممارسة الرعي والزراعة فيها (8) . وقد استمر حالهم في التنقل من سنة إلى أخرى على هذا المنوال إلى بداية النصف الثاني من القرن 19 .

ب . علاقات النصف الثاني من القرن 19 :

في 1854 عين المخزن المعطي بن سعيد المبارك الملاللي قائدا على قبيلة بني ملال كما عين بوعبيد بن الساهل الملاللي قائدا أعلى لكيش آيت الربع وكلفهما معا ، كل في إطار مسؤولياته ، بالتعاون على مراقبة السرخمانيين ورصد تحركاتهم ومنعهم من النزول إلى سهول بني ملال وما جاورها .

وقد حاول القواد الملاليون الذين عينوا في القبيلة فيما بعد القيام بنفس هذا الدور لكن الأمر صعب عليهم ، وخاصة في النصف الثاني من القرن 19 ، رغم أن المخزن جدد اعتناؤه بكيش آيت الربع فأمر أمناء مراكش بصرف المؤونة إليه وأنعم عليه بالخيول واللباس والخيام ومختلف أنواع السلاح والعتاد . كما أنه دعم هذا الكيش بالقائدين محمد أوسعيد اليراي ومحمد أوحمو الزباني وأنعم عليهما " بالعدة لضرب البرابر " وحرر أولاد حسون وأولاد نجاع وأولاد عبد الله من بني عمير من سائر الكلف المخزنية والمغارم ليؤازروه كلما دعت الضرورة إلى ذلك (9) . لكن هذا الاعتناء لم يستمر

طويلا بسبب الصعوبات الداخلية والسياسية المتنوعة التي تعرض لها المخزن نتيجة التدخل الأجنبي وبذلك تلاشت مراقبة السخمانيين من لدن جيش آيت الربيع . هذا إضافة إلى أن المسألة كانت أكبر من أن تحل بمجرد تطويق عسكري أو حصار اقتصادي مهما طال أمده . إن القضية كانت قضية حياة أو موت بالنسبة للسخمانيين ، لأن حياتهم كانت مزدوجة الذات : نصفها شتوي في السهول والأراضي الواطنة ونصفها صيفي في الجبال . ولم يكن هذا الازدواج اختياريا بل كان نتيجة إجبار ، وقد أُلّفه سكان الجبال والسهول على حد سواء وأصبح جزءا من واقعهم ووسيلة لضمان عيشهم منذ عدة قرون خلت . وهذا شيء معروف وكثيرا ما أشارت إليه الوثائق والمستندات الخاصة بدير بني ملال⁽¹⁰⁾ .

تشير بعض هذه الوثائق إلى أن قبيلة آيت سخمان كانت تتحرك نحو السهول التالدية المجاورة في فصل كل شتاء إن لم يكن ابتداء من أوسط فصل كل خريف . ومعلوم أن هذه الفترة من السنة هي أشد الأوقات برودة في الجبال وبذلك كانت تشتد الحاجة إلى المزيد من وسائل العيش من حبوب وثمار وأخشاب للتدفئة وكلّا للمواشي ، بل إن السكان والمواشي في الجبال السخمانية كانوا يحتاجون أكثر من هذا وذاك إلى تغيير المكان البارد نفسه بمكان أكثر دفئا واعتدالا .

وتشير وثائق أخرى إلى أن المخزن نفسه لم يكن قادرا على التحرك في هذه الربوع " في إبان المطر وبلاد تادلا وما بعدها يصعب المرور فيها " [في وقت الشتاء] مع قلة العلف [بها] وفقد الكثير من المرافق " (11) . وكان السخمانيون وجيرانهم على علم بذلك كما كانوا يعلمون بأن معظم السكان العرب والأمازيغيين كانوا لا يجهلون ذلك بدورهم بحكم الجوار والاطلاع على الأحوال فكان الكل لا يرفض التعايش الذي يفرضه هذا الواقع مع الاحتراز من إظهار ذلك للمخزن مخافة التعرض لعقابه أو لومه .

ولم يكن المخزن يشرع في توجيه حملاته التأديبية إلى آيت سخمان إلا بعد انصرام فصل الشتاء أو النصف الأول من فصل الربيع ، وهذا هو الوقت الذي كان السخمانيون يتأهبون فيه للرحيل إلى مرتفعاتهم خاصة إذا وصلتهم تهديدات المخزن . أما إذا علموا بأن حملاته قد توجهت إلى مناطق أخرى فإنهم كانوا لا يغادرون السهول إلا بعد جمع المحاصيل ، وبذلك كانت قبيلة آيت سخمان لا تتعرض لحساب المخزن وعقابه . وما

أن القبيلة كانت تحتفظ بذكواتها وأعشارها فإن المخزن كان يعتبر السخمانيين من الممتنعين عن دفع " ما حرم الله " ويضعهم في درجة واحدة مع الكفار الذين يصبح الجهاد في حقهم واجبا⁽¹²⁾ ويطلب من المجاورين لهم الهجوم عليهم وقطع رؤوسهم وتخريب حصونهم ومداشرهم⁽¹³⁾ . لكن قتال السخمانيين وحصارهم لم يكن ينجح إلا نادرا إلى درجة أن عددا من قواد كيش آيت الربع قد قتلوا في مواجهتهم مثل القائد حدو الركيك الأخطاي والقائد الجيلالي بن الحسن الملاي وغيرهما . فما هي أسباب ذلك ولماذا لا تقوم قبائل آيت الربع بتنفيذ الأوامر المخزنية الصادرة إليها بتأديب آيت سخمان وحصارهم في مرتفعاتهم ؟

أخبر القائد بن المعطي الشجدالي العميري المخزن في 1891 بأن " البرابر آيت سخمان وآيت ويرا أهبطهم الثلج من الجبال بأولادهم وأموالهم ونزلوا عند آيت الربع " (14) كما أخبره بأنهم " جددوا معهم الخاوة ونزلوا معهم ببهائمهم وأولادهم وخيامهم " (15) بل إن القائد علال بن عبد النبي العميري قد أكد للمخزن بأن ما يقع من تعامل بين الطرفين هو " كله باتفاق مع قواد آيت الربع وأمرهم " (16) . لذلك أرسل السلطان في 1892 حركة إلى تادلا بقيادة وزيره في الحربية سي محمد الصغير وكلفه بتأديب آيت سخمان تأديبا قاسيا لكن المحلة السلطانية انهزمت أمام السخمانيين وحلفائهم وأجبرت على التراجع مخلقة العديد من القتلى والجرحى " وعادت إلى فاس دون أن تنال المنال من هؤلاء الجليلين الشرسين " (17) . وفي 1893 حاول السلطان استدراجهم إلى الطاعة فأرسل إليهم أخاه مولاي سرور ليجمع ما عليهم من واجبات ويشرف على تعيين قائد جديد على بعض منهم ، وهو القائد زايد أوباسو الذي اختاره المخزن لكنهم رفضوا أداء الواجبات ورفضوا القائد الجديد ف وقعت بين الطرفين عدة اصطدامات مسلحة كان من نتائجها قتل مولاي سرور في زاوية أغباله وتشتيت أتباعه وفرار القائد (18) مما أثار حنق السلطان مولاي الحسن عليهم . لذلك بارح هذا الأخير مراكش في اتجاه تادلا في 22 ماي 1894 على رأس حركة جهزها للتنكيل بالسخمانيين لكن المرض اشتد به فتوفي بدار ولد زيدوح دون أن يصل إليهم . فلماذا أصبح المخزن لا يتكل على كيش آيت الربع المرباط في تادلا لوقف السخمانيين وغذا لا يجد بدا من التوجه مباشرة إليهم لتأديبهم بنفسه ؟

لاشك أن قبائل آيت الريع كانت تسير في علاقاتها مع جيرانها الأمازيغيين ما جرت به الأعراف التي كانت سائدة في المنطقة ، هذه الأعراف التي كانت تؤكد بأن الانتجاع الشتائي في أراضي الأزغار كان ضرورة لا بد منها للقبائل الجبلية ومن " منع منها فلا يستطيع التعيش بالأراضي الجبلية وحدها إلا في ضيق وشدة " (19) . لذلك كانت كل قبائل المنطقة متأكدة من هذا الواقع ، سواء كانت قبائل جيش أو قبائل نائبة . وهذا هو ما يفسر سلوك قبائل كيش آيت الريع التي كانت تتأرجح بين الولاء للمخزن من جهة وضرورة احترام الأعراف السائدة بالتعاون مع القبائل الجبلية المجاورة لها من جهة أخرى .

وفي حالة ما إذا اشتدت ضغوط المخزن على قبائل كيش آيت الريع من أجل تطبيق الحصار على السخمانيين ، فإن هؤلاء كانوا يلجأون إلى أساليب متنوعة من ترهيب وترغيب وتآمر وعنف لشل تحركات قواد الكيش المتشددين ضدهم ، فقد أخبر القائد محمد أو هريمو الكطايي والقائد سعيد المعداني السلطان حين استفسرهما عن سبب " التراخي الحاصل في تطبيق أوامر المخزن " بأن تنفيذ هذه الأوامر قد تعطل في ربوع تادلا لأن الفُساد السخمانيين قد أغروا بعض قواد المنطقة " بالرشوة وبذل الدراهم " فأووا الوافدين عليهم من الجبال عوض أن يطردوهم وبذلك " فسدت خطة المخزن وتحزب على الفساد أهل الجبال وأهل الوطا " (20) . وقد هال هذا الأمر المخزن فأصدر على الفور أمره باستعجال إلى قائد كيش آيت الريع المقيم بقصبة تادلا لتدارك الموقف لكنه أكد له بأن الأحكام المخزنية لم تعد تسير في مجاريها مشيرا إلى أنه بدوره لا حول له وقوة في ذلك مما يشهد على أن واقع الأعراف التعايشية كان أقوى من الأوامر المخزنية .

كانت هذه بعض الإشارات وهنالك عوامل أخرى تفسر توطيد هذا التعايش بين الجيران الأمازيغيين والعرب خاصة في نهاية القرن 19 ومطلع القرن العشرين .

من بين هذه العوامل أن قبائل كيش آيت الريع قد آل التطور بها إلى التلاشي التدريجي من كتلة عسكرية كانت تستفيد من عدة امتيازات مخزنية إلى قبائل منفردة استقلت كل واحدة منها بذاتها وتخلت عن القيام بمهامها العسكرية . وقد نتج ذلك عن الصعوبات التي كان يعاني منها المخزن بسبب شدة التكاليف الأجنبية عليه مما أدى إلى عجزه عن تسديد رواتب الجيش وقواده وتوقيف إرسال المؤن والدخيرة والعتاد إليه .

وكانت النتيجة الطبيعية أن اتجهت قبائل كيش آيت الربيع ، لضمان عيش سكانها إلى ممارسة الزراعة والرعي والاشتغال بالتجارة والحرف بل ومنها من انحرف إلى تعاطي السلب والنهب⁽²¹⁾ . وقد استمر هذا الوضع على طول عهد السلطان مولاي الحسن ولم يوضع له حد بعد وفاته .

في هذا السياق أصبحت قبيلة بني ملال أكثر من أي وقت مضى منفصلة عن غيرها من قبائل كيش آيت الربيع كما وجدت نفسها لا تستغني عن التعامل العرفي مع جيرانها السخمانيين في إطار من التعايش وتبادل المصالح في مجال جغرافي مشترك كان يستفيد منه الأسلاف من عدة قرون خلت رغم أنها ظلت تحافظ على انتمائها للكيش (اسما) .

لكن واقع التعايش هذا لم يدم طويلا إذ سرعان ما حطت سلطات الاحتلال الفرنسي رحالها بأراضي تادالا وشرعت تتدخل ابتداء من 1913 بكل ثقلها لتكسير توازناتها الاقتصادية والاجتماعية مع جيرانها . وقد أدى بها ذلك إلى محاولة قطع العلاقات التي كانت قائمة بين سكانها العرب والأمازيغيين ، لكن هؤلاء تصدوا لها لضرب مخططاتها ، وخاصة قبيلة آيت سخمان التي استماتت في دفاعها عن جيرانها الملاليين بشكل منقطع النظير .

ج . علاقات بني ملال بآيت سخمان في فترة الاحتلال الفرنسي :

لما احتلت فرنسا قصبه تادالا في 1914 وبدأت تتطلع لاحتلال بني ملال اجتمع زعماء قبائل الجبال المشرفة على قصبه بني ملال في مستهل 1915 لتنسيق هجوم مشترك على المحتلين . وقد انطلق هذا الهجوم الذي ضم حوالي 5000 مقاتل من بينهم حشود كبيرة من السخمانيين من قصبه بني ملال⁽²²⁾ . لكن القوات الفرنسية استعملت المدفعية الثقيلة وفرسان الكوم واعتمدت على بعض فرق كيش آيت الربيع بقيادة باشا قصبه تادالا لإيقاف هذا الهجوم .

وعندما تجاوزت قوات الاحتلال في 1916 واد درنة في اتجاه بني ملال لتهييء السيطرة عليها قامت أعداد وفيرة من السخمانيين والعطاويين بتقديم المساعدة لسكان قصبه بني ملال للوقوف في وجه المحتلين . لكن ذلك لم يمنع القوات الفرنسية من

الانتشار في ضواحي بني ملال مما دفع السخمانيين إلى التنسيق مع جيرانهم العطاويين والملايين من أولاد عياد لاعتراض سبيل القوات الفرنسية وإجبارها على الجلاء عن بني ملال . لذلك لم تستطع هذه القوات احتلال بني ملال إلا بعد معارك ضارية بين الطرفين . وبعد احتلالها لم يتوقف السخمانيون عن السعي إلى طرد الغزاة منها ، وقع ذلك في يوم 12 نونبر 1916 عندما رفعت السلطات الفرنسية العلم الفرنسي فوق المركز الجديد الذي أقامته في بني ملال فأغار عليها المقاتلون السخمانيون والعطاويون من كل حذب وصوب (23) .

وبعدما احتلت السلطات الفرنسية بني ملال وضواحيها حاولت نشر التفرقة بين سكانها وجيرانهم المعدانيين والسخمانيين . تجلّى ذلك واضحا حينما كلفت بأشأ بني ملال بمهادنة الزواير وأولاد يعيش وأولاد عياد الذين وفدوا لتقديم الولاء للفرنسيين مقابل التزامهم بحماية شرق بني ملال وغربها من هجومات الأمازيغيين العطاويين والسخمانيين ومساعدة قوات الاحتلال على ذلك . عندئذ لم تجد الفصائل المقاتلة السخمانية بدا من مغادرة السفوح المشرفة على بني ملال بعدما فقدت حلفاءها التقليديين من ملايين ومعدانيين وموساويين واتجهت مجبرة نحو الجبال العليا بحثا عن حلفاء جدد . من هناك شنت قبائل آيت سخمان وآيت عطا انطلاقا من واويزغت هجوما مشتركا على بني عياط وأولاد مبارك في يونيو 1917 لإجبارهم على مقاومة الفرنسيين . وقد لجأت القوات الفرنسية لأول مرة إلى ضرب هذه التكتلات بسلاح الطيران وبذلك طردت المهاجمين واستطاعت أن " تراقب الجبهة الممتدة من غرم العلام إلى بني ملال " (24) .

لكن دفاع السخمانيين عن بني ملال لم يتوقف . ففي 1919 هاجموا مركز سمرّ هجوما عنيفا بقيادة الم رابط سي الحسين أوقمكا السخماني ثم أعادوا الهجوم عليه مرة ثانية في 1920 . وعلى الرغم من عواقب الحصار الاقتصادي الذي تعرض له السخمانيون وشدة البرودة واستمرار القصف بالطيران فإن هؤلاء لم يهادنوا المحتلين ببني ملال إلى درجة أن بعض القادة العسكريين في المنطقة صرحوا بأنهم فقدوا كل مبادرة في مواجهة السخمانيين ، كما صرح غيرهم بأن العمل السياسي في صفوف هؤلاء المقاتلين الأشاوس لاجدوى منه على الإطلاق فظلوا يترقبون هجوماتهم .

وفعلا في بداية 1921 شنت قبيلة آيت سخمان بقيادة زعيمها الحسين أوقمكا

المذكور بالتعاون مع قبيلة آيت عطا نومانو بقيادة قائدها العسكري الشاب كَشُوم المازغي هجوماً محكماً على المراكز الفرنسية في كل من بني ملال وتيزكّي وتاگموت . لكن هذا الهجوم ، وإن كبد الفرنسيين خسائر بشرية ومادية فادحة ، فإنه لم يجبرهم على التخلي عن مشاريعهم الاستعمارية بل على العكس من ذلك دفعهم إلى التوغل في قلب الجبال الأطلسية لمحاصرة آيت سخمان وآيت عطا ومنعهم من التحالف والهجوم المشترك على سهول تادلّا وعلى قبائل بني ملال وبني موسى وغيرهما من القبائل التي خضعت للفرنسيين . في هذا الإطار احتل الغزاة وأوزغت (في 26 شتنبر 1922) قاعدة آيت عطانومانو كما احتلوا القصيبة (في أبريل 1922) وتوغلوا في قلب مجال آيت سخمان لاحتلال مركزها الرئيسيين تيزي ن إسلي وأغبالة (تم احتلالها فيما بين 1928 و 1931) . وبوفاة القائد محمد أوسعيد اليرايو حليف السخمانيين الأكبر في نهاية 1922 وانتقال ابنه علي أوموفا أوسعيد إلى صفوف الفرنسيين الذين عينوه قائداً مكان أبيه تأكدت السيطرة الفرنسية على مناطق دير الأطلس المتوسط وفقد السخمانيون قدرتهم على المبادرة فصعب عليهم التنسيق مع جيرانهم اليرايوين الذين بدأت فرقهم الواحدة تلو الأخرى تستسلم للفرنسيين (25) .

ورغم ذلك لم تتوقف هجومات السخمانيين على المراكز الفرنسية الممتدة بين بني ملال وفم العنصر وظلوا يرفضون كل أشكال التعاون مع الفرنسيين ولم يقبلوا أبداً الدخول معهم في أي نوع من أنواع العلاقات الودية (26) . وفي 1924 ، لبى السخمانيون نداء قائدهم الحسين أومتكا الذي ظل ينسق الهجومات من أعالي الجبال وهاجموا قصر أگنوس نوسيوان من جديد (على بعد 12 كلم شمال شرق بني ملال) الذي كانت تحتله القوات الفرنسية . وكانت هذه هي آخر معركة ضارية ضد الفرنسيين الذين لم يتمكنوا من فك الحصار الذي ضربه السخمانيون على هذا المركز إلا بالاعتماد على قوات الكوم الرابعة والعشرين والمدفعية الثقيلة وسلاح الطيران (27) . وفي نهاية هذه المعركة التحق أومتكا من جديد بأعالي الجبال حيث ظل يقاوم إلى وفاته دون أن يلقي السلاح ودون أن يأبه بإغراءات الفرنسيين ودون أن يعلن السخمانيون عن مهادنتهم للمحتلين (28) .

وباختصار فإن حرص السخمانيين على العلاقات مع جيرانهم الملايين وتمسكهم

بالحفاظ على استمرارها في القرن 19 ودفاعهم المستميت عنها أثناء الاحتلال الفرنسي لا يفسر إلا بالحاجة المستمرة لهذه العلاقات ، وقد أوضحنا جليا فيما سلف بأن حياة السخمانيين لا تستقيم أبدا بدونها . لذلك كان الدفاع عن هذه العلاقات في حقيقة أمره نوعا من أنواع الدفاع عن الذات وشكلا من أشكال التمسك بالحياة ، هذه الحياة التي تتكون من شقين : حياة في الجبال في فصل الربيع والصيف وحياة في السهول في فصل الخريف والشتاء .

لذلك فلا بد من إعادة النظر في تصنيف المغرب بشكل غير سليم إلى بلاد مخزن وبلاد سببة لأن القول بأن قبائل الجبال والسهول كانت في قتال مستمر لا محل له من الصحة . وعليه فلا بد من البحث في هذه العلاقات وفق توجه تاريخي أصيل ومنهج علمي ثاقب ينفذ إلى الأسباب الباطنية ويدرس الأعماق الدفينة وراء الظواهر التاريخية . ولن يتطلب ذلك أكثر من التسليح بحد أدنى من المنطق السليم في التعامل مع المستندات والشواهد التاريخية .

الهوامش

- 1- مقتطف من رسالة موجهة من القائد الشرقي بن البداوي الكروزي المرساوي إلى السلطان مولاي الحسن بتاريخ 10 جمادى الأولى 1308 - 22 يناير 1891 . يوجد النص الكامل للرسالة في محفظة رقم 394 بالخزانة الحسنية بالرباط .
- 2- پارمول كريخال ، إفريقيا ، الجزء الأول ، ص . 28 ، الرباط ، 1984 . ترجمة محمد حجي ، محمد زنيهر ، محمد الأخضر ، أحمد التوفيق ، أحمد بن جلون .
- 3- PEYRONNET (R.), Tadla, Pays Zaïan, Moyen Atlas, Alger, Imprimerie Algerienne, 1923, p. 274.
- 4- من رسالة سلطانية إلى قواد بني ملال الجياشة الأربعة وهم " القائد صالح بن إدريس والقائد جابر بن فارحة بالقصة والقائد الجيلالي بن الحسن الهوكراوي والقائد محمد بن المعطي المبارك بالغبابة ، وهي بتاريخ 16 رمضان 1302 - 30 يونيو 1885 ، محفوظة في كناش الخزانة الحسنية بالرباط ، رقم 364 ، ص . 46 .
- 5- محفظة الخزانة الحسنية رقم 538 ، رسالة من القائد المعطي بن الحسن الملالي إلى السلطان مولاي الحسن بتاريخ 1 جمادى الأولى 1306 - 3 يناير 1889 تخبره بامتثال هذا القائد للأوامر الصادرة إليه بمحاصرة آيت سخمان ومنعهم من ارتياد سهول بني ملال .
- 6- نفسه .
- 7- محمد بن خالد الناصري ، الاستقصا ، الجزء 8 ، الدار البيضاء ، 1956 ، ص . 138 .
- 8- محفظة الخزانة الحسنية رقم 6 / 1 ، رسالة من القائد بوعبيد بن محمد بن أحمد إلى السلطان عبد الرحمان بن هشام بتاريخ 6 شوال 1253 / 3 يناير 1838 .
- 9- كناش الخزانة الحسنية رقم 639 ، ص . 27 ، ملخص رسالة سلطانية إلى كافة عمال تادلا بتاريخ 11 جمادى الثانية 1308 - 31 يناير 1891 .
- 10- كناش الخزانة الحسنية رقم 175 غير مرقم ، رسالة ملخصة من القائد علال بن عبد النبي العميري بتاريخ 29 رجب 1308 - 11 مارس 1891 تخبر المخزن باستغلال المجال بكيفية مشتركة بين الوافدين من الأمازيغين وفصائل كيش آيت الربيع .
- 11- أحمد بن حمدون بن الحاج ، الدرر الموهوبة في مدح الخلافة الحسنية ، الجزء الأول ، ص . 53 ، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 512 .
- 12- عبد الرحمان بن زيدان ، إتحاف أهلام الناس ، الجزء الثاني ، ص . 257 ، الرباط 1931 .
- 13- كناش الخزانة الحسنية رقم 162 ، ص . 56 ، ملخص رسالة سلطانية موجهة إلى القائد مروحي أو مبارك السخماني بتاريخ 6 رمضان 1308 - 16 أبريل 1891 تدعوه إلى الرضوخ إلى أوامر المخزن الصادرة إليه .
- 14- كناش الخزانة الحسنية رقم 172 ، صفحاته غير مرقمة ، رسالة إلى السلطان من القائد بن المعطي الشجدالي بتاريخ 25 جمادى الثانية 1308 - 15 يناير 1891 تخبره بأن " البرابر آيت سخمان وآيت ويرا أهبطهم الثلج من الجبال . . . " .
- 15- نفس المصدر السابق .
- 16- رسالة من القائد علال بن عبد النبي العميري إلى السلطان بتاريخ 22 رجب 1308 - 3 مارس 1891 ، وهي محفوظة في الخزانة الحسنية بالرباط في المحفظة رقم 376 .

ARNAUD (Louis), *Au temps des mehallas, ou le Maroc de 1860 à 1912*, Casablanca, Ed. Atlantides, 1952, p. 72. - 17

SEGONZAC (Marquis de), *Au cœur de l'Atlas*, Paris, 1910, p. 53. - 18

19- أحمد بن قاسم الزباني ، تاريخ خنيفرة ، ص . 5 ، مخطوط الخزانة الحسنية ، رقم 12037 .

20- كناش الخزانة رقم 154 ، ص . 67 ، ملخص رسالة من القائد محمد وجدات السمكتي إلى السلطان بتاريخ 12 شعبان 1306 - 14 أبريل 1889 .

21- محفظة الخزانة الحسنية رقم 364 ، رسالة من القائد الجبلاي بن يعقوب البخاري ، قائد جيش آيت الربيع بتادلا إلى السلطان مولاي الحسن بتاريخ 17 شعبان 1310 - 6 مارس 1893 .

22- المريدة الرسمية رقم 135 بتاريخ 24 ماي 1915 ، تقرير يخبر الدوائر الإستعمارية العليا بتشكيل لجمعيات أمازيغية ضخمة بمناسبة انعقاد موسم سيدي عيسى بن ادريس في ضواحي بني ملال .

23- المريدة الرسمية رقم 214 بتاريخ 27 . 11 . 1916 .

24- " " رقم 265 بتاريخ 19 . 11 . 1917 .

25- المريدة الرسمية رقم 596 بتاريخ 25 مارس 1924 .

26- " " رقم 634 بتاريخ 8 دجنبر 1924 .

27- " " رقم 635 بتاريخ 15 دجنبر 1924 .

28- " " رقم 639 بتاريخ 20 يناير 1925 .

المحور الثاني
المجال الريفي الحضري
وحركة التمدين والتنمية بتادلا .

بعض المشاكل البيئية بمنطقة تادلا

عبد الرحيم بنعلي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

مدخل:

يشكل موضوع البيئة إحدى الانشغالات الأساسية في القرن الأخير ، نظرا للمشاكل التي أصبحت تهدد البشرية في شتى أنحاء العالم .

فالبيئة تتأثر بما يدخل عليها الإنسان من تحولات ، وخطورة ذلك ترتبط بمدى قدرة الإنسان والتجمعات البشرية على التحكم في القوى التي ينتجها تدخل هذه التجمعات ، يعني هل هي متطورة ما يكفي لتنتج الوسائل الوقائية المتكيفة مع القوى الطبيعية المستحدثة ، أم أنها تكتفي بالتخريب ولا تملك السلاح الكافي للحفاظ والإصلاح .

هذه المشاكل البيئية لا تهم البحار والسواحل والمدن الصناعية والمناطق الجبلية فحسب ، بل نجدها مطروحة بحدة كبيرة خلال النصف الثاني من هذا العقد في المجالات السهلية المسقية . لهذه الأسباب سيركز المقال على منطقة تادلا التي تعاني بحدة من هذه المشاكل . وقبل التطرق إلى هذا سوف نعرض أولا الإطار الطبيعي للمنطقة .

I- الإطار الطبيعي لمنطقة تادلا :

يقع سهل تادلا ما بين أطلس بني ملال جنوبا وهضبة الفوسفاط شمالا ، إذ ينتمي إلى الحوض الهيدروغرافي لنهر أم الربيع ، الذي يخترقه من الوسط مكونا قطاعين متغايرين هما :

بني موسى جنوبا وبني عمير شمالا . ويمتد هذا السهل على شكل حوض ، مساحته حوالي 3600 كلم² ومتوسط علوه يتراوح ما بين 350 م و500 م .

(1)الوضعية المناخية :

تصنف منطقة تادلا ضمن النطاق المتوسطي الشبه الجاف أو الجاف ، نظرا للوضعية القارية التي يمتاز بها . فالتوسط السنوي للتساقطات 350 ملم أما الحرارة فتعرف تغييرات فصلية مهمة ، 18° وتصل كعمدل إلى 40° في فصل الصيف و 10° في فصل الخريف .

(2)الوضعية الجيولوجية :

يمكن القول بإيجاز إن المنطقة عرفت تطورا جيولوجيا معقدا . ففي فترة أولى حدث التواء المناطق الجبلية وتكوين منخفض بحيري عند قدم الجبل دام كل الميوسين ، بعد ذلك وقع رفع جديد للجبل في حين استمر السهل في التهدل . وتراكت فيه باستمرار رواسب بحيرية ، فعلى سمك هام نجد طبقات سميكة تتكون من رصيص وصلصال وكلس بحيري الذي يكون المستوى الأعلى من هذه الرواسب . ثم انفتحت البحيرة فأصبحت المنطقة قارية وعرفت فترة تفسخ مهم خلال البليوسين ، حيث تكونت الأتربة الطينية الحمراء التي تسببت في ثروة المنطقة الفلاحية . ويمكن إجمال هذه الأتربة في الأنواع التالية :

- التربة السيدبالية الطينية (Isohunique Argileuse) .

- التربة الكلس مغنيزية السمراء (Calcimagnésique brun) .

- التربة المتحدسلة (Fersiallitique) .

إن وضعية المنطقة الجيولوجية سمحت بتخزين عدة مستويات مائية داخل هذا الحوض ونذكرها تباعا من الأسفل إلى الأعلى :

- الفرشة التورونية : (Nappe Toronienne) وتجري عند مستوى الطبقات الكلسية التورونية .

- الفرشة الأيوسينية (Nappe éocène) وتجري في الطبقات الحثية الأيوسينية .

- السديمة المائية (Nappe phréatique) وتجري في مركب بليوراعي يتكون أساسا من الكلس البحيري والصلصال والرصيص .

3) انعكاس المعطيات الطبيعية على منطقة تادلا :

وقد مكنت هذه المؤهلات الطبيعية المنطقة في البداية من استغلالها للرعي ولتكميل بعض الموارد الزراعية بالنسبة لسكان الجبل . وخلال هذه المرحلة ، كانت تادلا تعيش في إطار توازن نسبي من الناحية البيئية ، لكن مع مجيء الاستعمار تبين بأن المنطقة تتواجد من جهة بالقرب من مجالات تغذية مائية مهمة يمكن الاستفادة منها ، ومن جهة ثانية تربتها وطبوغرافيتها يوفران مجالا ملائما للاستقرار والاستغلال الفلاحي . لذا يعتبر سهل تادلا من أقدم السهول المغربية التي عرفت الإصلاح الفلاحي وتجهيز الأراضي بقنوات السقي . فإن السقي قد تم تمديده على مسافة 104 000 هكتار ، منها 34.500 هكتار في قطاع بني عمير الذي يُسقى بمياه نهر أم الربيع انطلاقا من سد الزيدانية ، و69.500 هكتار في قطاع بني موسى يتم ريها اعتمادا على سد بين الوردان .

فتحويل المجال من بوري إلى دائرة سقوية سمح بظهور نمو اقتصادي واجتماعي جديد . وقد تجلت مظاهر السقي في تطوير وسائل الإنتاج الزراعية مثل المكننة والأسمدة والمبيدات . . . ، وكذا الأنشطة الصناعية التي تحول المنتجات الفلاحية كالشمندر والقطن وقد أدى هذا إلى تزايد عدد السكان بشكل مهول عن طريق الهجرة المكثفة والتكاثر الطبيعي الذي أدى بدوره إلى ظهور مدن ومراكز حضرية ناشئة .

إن هذه الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بدخول السقي ، ساهمت في تعميق المشاكل البيئية بالمنطقة . فالسقي أدى إلى انتشار زراعات متخصصة إلى جانب عدة وحدات صناعية مثلما يعتبر المسؤول الرئيسي عن الظاهرة السكنية الآخذة في التضخم بشكل ملحوظ دون توفر أدنى الشروط الضرورية للاستقرار .

هكذا بدأت تظهر وتتطور المشاكل البيئية بالمنطقة . ويمكن حصرها في تلوث السدime المائية بالنترات وتدهور الأثرية انطلاقا من تكثيف الأعمال الفلاحية وتساقط الأملاح وبعض المحلولات الأخرى كالكاليوم .

II- تلوث السدime المائية بالنترات :

تعرض السدime المائية الموجودة في الطبقة البليورباعية إلى شتى مظاهر

التلوث . وقد ساعد على ذلك التركيب الجيومورفولوجي الهش والتغيرات المستمرة لصعود المياه قرب السطح ونزولها . وتعتبر ملوثات مياه الفرشة عديدة ، وسوف نقتصر فقط على عنصر النتрат الذي يمثل الخطر الأساسي لمستقبل هذه الفرشة وبالتالي الساكنة التادلية .

1) مصادر تلوث المياه بالنترات :

إن زيادة تركيز النترات في مياه الفرشة بتادلا يعود إلى العوامل التالية :

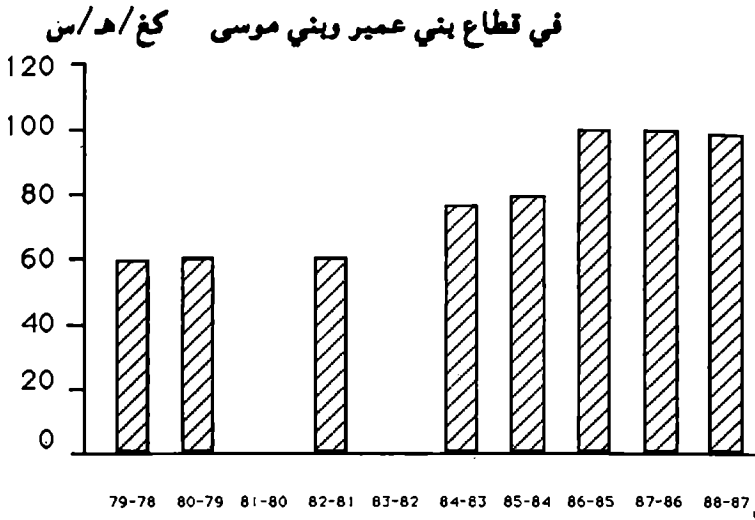
- الاستعمال المكثف للأسمدة الآزوتية في التربة .
- النفايات المنزلية الملقاة في الفرشة أو بالقرب منها .
- النفايات الصناعية الغنية بالمواد العضوية الآزوتية خاصة .

أ - الملوثات الفلاحية :

تنتج بالأساس عن الاستعمال اللاعقلاني والمفرط للأسمدة الكيماوية والمبيدات . فكثير من المزارعين يلجؤون إلى استخدام أنواع مختلفة من المخصبات الزراعية . مثل مركبات الفوسفات ومركبات النترات ، قصد تخصيب التربة وزيادة في الإنتاج . فاستعمال الأسمدة الآزوتية مثلاً زاد من 64 كلغ / هـ سنة 78 - 1979 إلى 104 كلغ / هـ سنة 87 - 1988 . أي بنسبة 63 % .

إن استخدام المخصبات الزراعية بكمية كبيرة وبطريقة عشوائية ينتج عنه إبقاء المواد الكيماوية في التربة التي تتعرض بعد ذلك لعملية الغسل والتصويل (Lessivage) بفعل مياه السقي والتساقطات المطرية ، لتصل في نهاية الأمر إلى السديمة المائية التي تصبح قريبة من السطح ، وترتفع بذلك نسبة مركبات النترات في مياهها ، هناك بعض التقديرات حول التلوث بالنترات ، أظهرت أن حوالي 4000 طن من الآزوت تصل لتضاف إلى مياه السديمة .

استعمال الأسمدة الأزوتية⁽¹⁾



ب - الملوثات المنزلية :

ونعني بها المياه الوسخة الناتجة عن أنشطة المنازل من غسيل ونظافة وغيرها ، حيث احتواؤها على بعض الملوثات المجهريّة في تصاعد دائم وهو ملفت للانتباه بسبب تزايد عدد السكان .

وتعتبر النفايات المنزلية من بين الأسباب الأساسية المؤدية إلى تزايد مادة الفوسفور في المياه الملقاة . فهي تعتبر مادة مسؤولة إلى جانب النترات في هذا الصدد . ويمكن القول إن الفائض في مساحيق الغسيل والسوائل الدسمة يمكن أن يصبح خطرا حقيقيا . خصوصا إذا علمنا بقلّة التجهيزات مثل شبكة التصريف وانعدام وجود محطات المعالجة .

جدول رقم 1: النفايات المنزلية الملقاة في سهل تادلا (2)

المراكز الحضرية	عدد السكان لسنة 1985	٪ السكان المستفيدين من المجاري	كمية الماء المستهلكة / 3م ³ / س	كمية النفايات / 3م ³ / س	الملوثات الملقاة				
					DBO ط/س	DCO ط/س	MES ط/س	آزوت ط/س	فوسفور ط/س
بني ملال	110.000	70	3323	2658	1516	3388	1540	254	31
الفقيه بن صالح	55.000	75	1008	806	813	1818	825	137	17
سوق السبت	2.900	52	900	720	297	664	302	50	6

يوضح الجدول عدد سكان المراكز الحضرية الثلاثة : بني ملال والفقيه بن صالح وسوق السبت لسنة 1985 ، ونسبة السكان المرتبطين بالمجاري . وتعتبر هذه النسبة ضعيفة ، لأن انعدام التجهيزات المرتبطة بالشبكة جعل السكان يلجأون بالنفايات إما مباشرة في نهر أم الربيع ، وإما في بعض الآبار ، وإما في مجاميع سطحية وإما في حفر . إلا أن التجمعات السكنية المتفرقة تبقى نفاياتها عبارة عن نقط متناثرة في السهل لكن عندما تتجمع أو تلقى بطريقة جماعية فهي تؤثر بشكل كبير . فالجدول يوضح كمية النفايات بالتر المكعب $\times 10^3$ وهذه نسبة مهمة . وتجدر الإشارة إلى أن نسبتها تتصاعد سنة بعد أخرى الشيء الذي يسمح بارتفاع نسبة الآزوت وبالتالي تركيز عنصر النترات داخل الفرشة .

ج - الملوثات الصناعية :

تشكل المخلفات الصناعية السائلة بمعامل السكر أخطر مصدر للتلوث ، لأنها تحتوي في نفاياتها على مواد عضوية مثل الآزوت . فمثلا معمل السكر بسوق السبت تجمع نفايات الغنية بالمواد العضوية الم معدنة في مصارف وتصحب عبر خندق العريش إلى نهر أم الربيع دون أدنى معالجة . فهذا المعمل يفرده يلقي من النفايات ما يعادل نفايات 565.500 من السكان . إذ تصل فيها كمية الآزوت إلى 70.62 كغ/يوم . وهذا خطير ، بحيث يوفر يوميا كميات مهمة من شأنها التحول إلى نترات وبشكل مهم ،

حيث أن نسبته تصل إلى 46 مغ/ل . وهذه تعتبر نسبة عالية .

جدول رقم : 2 الملوثات الصناعية ⁽³⁾ .

معامل السكر	متوسط المياه الملوثة		عدد يعادل السكان
	DBO كغ/ط	DCO كغ/ط	
SUBM	3.21	3.35	242000 ن
SUNAT	2.54	3.44	268000 ن
SUTA	17.20	9.74	565500 ن

نخلص إذن إلى أن نفايات معامل السكر الموجودة بالمنطقة غنية بالمواد العضوية خصوصا الآزوت الذي يشكل المصدر الأساسي للتلوث بالنترات ..

من هنا نلاحظ أن نسبة الملوثات ذات الأصل الآزوتي تعرف تصاعدا مهما داخل الفرشة . ويطرح هذا مشكلا خطيرا خاصة إذا علمنا أحيانا أن تركيز النترات يتعدى العتبة الدولية للماء الصالح للشرب ، والمحدد ما بين 45 - 50 مغ/ل في فرشة بني عمير ناحية الفقيه بن صاح (جدول رقم 3)، وعند السافلة الهيدرولوجية لقطاع بني موسى . فالارتفاع السنوي لهذه المادة يقدر ب 5 مغ/ل إذ يزداد بسرعة فائقة ومن سنة لأخرى .

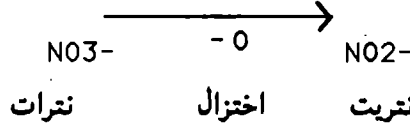
جدول رقم : 3 المقاربة المستقبلية لكمية

النترات بالمغ/ل في فرشة بني عمير ⁽⁴⁾ .

السنة	نسبة النترات مغ/ل
1991	49.7
1992	52.9
1993	55.1
1994	56.6
1995	57.7
1996	58.4
1997	58.9
1998	59.2
1999	59.3
2000	59.7

2 ، الآثار الناجمة عن هذا التلوث :

على الرغم من أهمية النتريت أبونا ضروريا لغذاء النبات ، فإنه يعد أهم مادة ملوثة للبيئة . فخطورته الحقيقية تكمن في أن جزءا من مركباته يتحول إلى نتريت عن طريق عملية الاختزال وذلك بفقدانه أحد درات الأوكسجين . وهذا ما توضحه الصيغة الكيماوية التالية :



ويتسبب أيون النتريت في أمراض عدة ويفتك بصحة الإنسان والحيوان .

أظهرت الأبحاث والدراسات أن أيون النتريت يؤثر في الدم بطريقة مباشرة ، فيغير من طبيعته وبالتالي يمنع من القيام بنقل الأوكسجين من الرئتين ، إلى جميع خلايا الجسم . وأشار هنا إلى أن أطفال الرضاعة هم الأكثر عرضة لهذا الميكانيزم . كما يتفاعل أيون النتريت مع الأمينات (Amines) الموجودة في جسم الإنسان والحيوان ، ويعطي مركبات تحتوي على النتروجين تعرف باسم النتروزامين ، تتصف بكونها مواد سامة وأحد الأسباب الرئيسية في إصابة الجسم بالسرطان .

وهناك أمراض أخرى يؤدي إليها التلوث بالنتريت مثل ضغط الدم وأمراض الجهاز التنفسي . ونظرا لهذه الآفة الصحية التي أصبحت تهدد المنطقة ، يلزم إيجاد الحلول الفعالة للحد منها خاصة بالنسبة لمنطقة سوق السبت والفقير بن صالح ، حيث أن أعلى نسب موت الأطفال توجد بهما .

III - تدهور الأتربة بمنطقة تادالا :

تعتبر التربة عنصرا أساسيا داخل المجال الزراعي . وتدهورها ليس دائما مرتبطا بالظروف الطبيعية ، وإنما بسبب الثقل البشري ونوعية الأنظمة المتبعة في استعمال الأرض ، وكذلك عامل الكثافة والضغط السكاني . ويسهم هذا الأخير في تفكير التربة وتعريتها .

فتدخل الإنسان في الوسط الطبيعي يعكس مدى فهمه للقوانين الطبيعية . فقد

يكون واعيا عندما يتم الاستغلال بشكل منظم ومعقلن ، حيث يضبط العلاقات التي تتم بينه وبين وسطه الطبيعي . وأحيانا أخرى ترتبط درجات التحول ولو جزئيا بنجاعة التدخل التقني أو فشله . وهذا ما يقع في سهل تادلا الذي يعتبر من أقدم السهول المغربية التي عرفت الإصلاح الفلاحي وتجهيز الأراضي وإدخال التقنيات الجديدة . إن هذه العمليات غيرت وضعية السهل وغيرت كذلك نشاط الإنسان التادلي ، مما طرح مشكل إنهاك الأتربة بفعل عملية التمليح وتكثيف المجهود الفلاحي .

1) مشكل تمليح التربة :

إن مشكل الأملاح يرتبط بمصادر متعددة ، من جهة بمياه السقي سواء كانت سطحية من نهر أم الربيع الذي يتغذى من عدة عيون مالحة أو باطنية لها علاقة بالتساقطات المطرية ومياه السقي ، ومن جهة ثانية بالنشاط الفلاحي . فالاستعمال المكثف للأسمدة والمبيدات والمبالغ فيه بكميات كبيرة في كل هكتار يتسبب في إبقاء كميات إضافية على سطح التربة . وتتعرض هذه الكميات بعد ذلك إلى عملية غسل وتصويل (Lessivage) داخل القطاع الترابي بفعل مياه السقي والتساقطات المطرية . ثم تتركز في إحدى المسكات الترابية " ب " مثلا أو تصل إلى الفرشة فتساهم بعد ذلك في ارتفاع درجة الملوحة بها . وفي أوقات الرطوبة تقترب المياه من سطح التربة ، وكلما زاد المناخ جفافا إلا وتزداد وضعية الأملاح ويتم تركيزها ارتباطا بأهمية التبخر .

فالأملاح من نوع الصوديوم (Na^+) لا تتراكم ، يعني أن قابليتها في التحليل جد مرتفعة . وبما أن التصريف متوفر فإنها تتحرك . لكن هناك أملاح أخرى لها قابلية أقل ، هذه بخلاف الأولى فهي تتراكم وتسمى بالسulfates (So_4^{2-}) .

فالملوحة تعم هذه المنطقة السهلية بالمقارنة مع الجوانب ، لأن المياه تغسل العالية فتحلل الأملاح والكاربونات وتزود السافلة بالمحلولات ، ثم هناك إضافة مستمرة للأملاح ناتجة عن النشاط الفلاحي . وإن تركيز الأملاح يمكن أن يؤدي بالتربة إلى وضعية التمليح ، وهذه وضعية سلبية بالنسبة للتربة وللفرشة أيضا .

هذه الأملاح تختلف في قطاعي السهل فمثلا :

- بني موسى الشرقية : النسبة ضعيفة ما بين 0.5 غ/ل و 1 غ/ل .

- بني موسى الغربية : النسبة مرتفعة ما بين 1.5 غ/ل و 3.5 غ/ل .

فتركيز الملوحة هنا يزداد في اتجاه الغرب حيث مستوى الفرشة يصبح قريبا من سطح التربة .

- بني عمير : إن تركيز الأملاح في مياه فرشة هذا القطاع جد مرتفعة تتراوح ما بين 1.5 غ/ل إلى أزيد من 4.5 غ/ل . ويجب أن يأخذ بعين الاعتبار أن قطاع بني عمير يسقى من مياه أم الربيع المالحة أصلا .

نستخلص أن المشاكل الهيدرودينامية المتمثلة في احتقان التربة وملوحتها وفي الصعود العام لمستوى الفرشة المائية يمثل أخطارا تهدد المجال المنبسط من منطقة تادلا ، خاصة المناطق الموجودة في حدود القطاع السقوي . وهذه المشاكل تزداد خطورة إذا علمنا أنها تسبب انخفاضا ملحوظا في المردودية ، وذلك حسب الجدول التالي :

انخفاض الإنتاجية⁽⁵⁾ .

المزروع	0 % غ/ل الملوحة غ/ل	1 % غ/ل الملوحة غ/ل	25 % غ/ل الملوحة غ/ل	50 % غ/ل الملوحة غ/ل
الشمندر	2.8	3.4	4.5	6.0
القطن	3.1	3.8	5.0	7.2
القمح	2.4	2.9	3.8	5.2
الذرة	0.7	1.0	1.5	2.3

2) مشكل الإجهاد الفلاحي :

إن عملية تغيير وضعية السهل بفعل تجهيز الأراضي السقوية جعلت الفلاح التادلي يمارس زراعات كثيفة ومتخصصة بصفة دائمة دون استراحة الأرض أو إقامة دورة زراعية مستعينا في ذلك بمجموعة من التقنيات مثل استعمال الآلات ، وخصوصا الجرار الذي يتسبب في مشكل اندكاك التربة بسبب تكرار مروره فوقها .

فالفلاح لا يملك القرار كله سواء في اختيار المزروع أو فترته الزمنية ، إذ نجد هناك صراعا دائما بين الفلاح والإدارة المؤطرة . فينعكس ذلك سلبا على المجال بما يدخله من مواد مستعملة (أسمدة مبيدات . . .) ، تستخدم بطرق عشوائية تكتسي عدوانية قد تؤدي إلى تدهور التربة . فالفلاح بإمكانه الحفاظ على التربة وإنعاشها أو بالعكس إنهاكها . وهنا قد يكون انعدام الوعي بالمشكل ، لأن همه الوحيد هو الصراع والتنافس على الربح عن طريق استغلال الرأسمال الطبيعي .

كل هذا طرح مشاكل التعرية بفعل الإجهاد الفلاحي على التربة وهي تعرية غير محسوسة لها نتائج على الأمد الطويل .

حاليا التربة في هذه المنطقة السقوية أصبحت عنصر ناتج عن العمل البشري لا على الطبيعة بفعل تصريف الماء في خنادق وتنوع الأسمدة الكيماوية واستعمال المبيدات وعدم استراحة الأرض . . .

IV - بعض الاقتراحات للحد من المشكل البيئي بالمنطقة :

إن أهم مصادر تدهور التربة وتلوث الفرشة ناجمة عن العمل الفلاحي ، وذلك بسبب تكثيف الإنتاج والاستعمال العشوائي والمفرط في التسميد . لذا يجب على الجهات المسؤولة التدخل بحث الفلاحين على الالتزام بما تفتيه عليهم المراكز الفلاحية الجهوية ، عن طريق إقامة حملات إعلامية في أرياف المنطقة قصد التوعية ، توضح لهم الخطورة الناجمة عن الإكثار من المبيدات والتسميد . إضافة إلى أن نقايات المنازل والمصانع تلعب دورا في تلوث الفرشة . وعليه ، يجب إقامة محطات المعالجة ، قصد التخفيف من حدتها .

ونقترح كذلك الاستغناء التام عن مياه السدّية المائية البليورباعية فيما يخص الحاجيات الغذائية للسكان . ومحاولة تعريضها بمياه الفرشة الباطنية التورونية التي توجد في مستوى أعرق .

خاتمة:

انطلاقا من هذه الملاحظات والمعطيات ، نستخلص أن تادلا تعيش اختلالا بيئيا ، ولا يكفي الإصلاح التقني للحد من خطر هذا الاختلال ، وإنما يلزم أن يكون

التدخل شموليا . فالمنشآت التي تقام والتطورات التي تقع يجب أن يراعى فيها حذر كبير ، لأن كل خطأ وسوء اعتبار قد يؤدي إلى تقوية أخطار التعرية :

فالمحافظة على البيئة الطبيعية انشغال يجب أن ينقلب إلى سلوك يوجه كل التدخلات وأن يكون بمثابة القاسم المشترك بين كل العمليات .

وأخيرا يجب على الجمعيات المتخصصة أن تضغط على المسؤولين لاتخاذ الإجراءات الضرورية في جميع الميادين من توفير الإمكانيات للبحث العلمي في مجال البيئة .

بعبارة أخرى يجب على هذه الجمعيات أن تعمل على تحقيق المقاصد التي انشئت من أجلها دون إغفال ظاهرة الترابط بين الظواهر ، ويجب عليها رصد كل المبادرات لتظهر ضرورة الأخذ بعين الاعتبار بعد البيئة كعامل أساسي من عوامل التنمية .

الهوامش

1- المصدر : المجلة المغربية للماء والتنمية ، عدد 10 دجنبر 1990 .

2- المصدر : المجلة المغربية للماء والتنمية ، عدد 10 - 1990 .

MES : Matière en suspension.

DCO : Demande chimique en oxygène mg/l.

DBO : Demande biochimique en oxygène dans 5 jours mg/l.

3- المصدر : المجلة المغربية للماء والتنمية ، عدد 10 - 1990 .

4- المصدر : O. R. M. V. A. T. :

5- المصدر : O. R. M. V. A. T. - 1991 .

المصادر

- EL HAIBA (M.), EL GHACHTOUL (Y.), LANDREAU (A.) : "Pollution des Eaux souterraines par les Nitrates : le Cas du Tadla", *Revue Marocaine de l'eau*, n° 10, 1990.
- ETIENNE (H.) & GESSAB (D.) : "La plaine du Tadla", *Ressources en eau du Maroc*, Tome 2, Rabat, Editions du Service Géologique du Maroc, 1975.
- NACIRI (M.) : "Le droit de l'environnement : dimension internationale et réglementations locales". *Revue Marocaine de Droit et D'économie du développement*, n°15, 1987.
- *Problématique de la Nappe phréatique du Tadla. - Causes et remèdes*, (archives de l'O.R.M.V.A.T. - 1991).

بعض الجوانب الديموغرافية لظاهرة التمدين في منطقة تادلة

محمد الفوثر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الرباط -

تتجلى التحولات الكمية والنوعية التي عرفتتها ظاهرة التمدين في المغرب في مظهرين أساسيين هما :

أ) ارتفاع نسبة التمدين إلى ما يناهز الخمسين بالمائة على الصعيد الوطني .
ولهذه النسبة دلالة هامة ذلك أنه لأول مرة في تاريخ المغرب تكافأ عدد السكان الحضريين مع عدد السكان القاطنين بالمناطق الريفية ، مع العلم أنه من الآن فصاعدا ستتسع الهوة الإحصائية لفائدة الصنف الأول من المغاربة .

ب) ارتفاع نسبة التزايد الطبيعي للسكان الحضريين خصوصا سكان كبريات المدن ، بعدما كان العامل الأساسي في النمو الديموغرافي لهذه الحواضر هو الهجرة القروية .
وهذا تحول مهم كذلك يجب أن يوليه الباحث ما يستحقه من أهمية وأن يستخلص منه ما يمكن استخلاصه من انعكاسات نوعية على المجتمع المغربي المعاصر .

هاتان الملاحظتان إن كانتا تعبران عن واقع المغرب ككل لاتنطبقان على بعض المدن وبعض المناطق نذكر من بينها على سبيل المثال مدينة بني ملال ومنطقة تادلة اللتين نحن بصدد دراستها ، انظر النسب التالية :

السنة	نسبة التمدين (%) في إقليم بني ملال	نسبة التمدين (%) على الصعيد الوطني
1960	19	29
1971	23	34
1982	38	42
1990	55	50

إذا استثنينا مدينة بني ملال من خلال هذه الإحصاءات ، نلاحظ أن نسبة التمدين في منطقة تادلة أقل من المعدل الوطني ولكنها في تزايد سريع ومستمر (10 ٪ سنة 1960 ، 13 ٪ سنة 1973 و 24 ٪ سنة 1982) . ونتيجة لهذا التزايد يتقلص الوزن الديموغرافي لمدينة بني ملال في المنطقة ، ذلك أن نسبتها من مجموع السكان الحضريين في الإقليم تراجع من 46 ٪ سنة 1960 إلى 37 ٪ في سنة 1982 وإلى أقل من هذا بدون شك اليوم . هذا في الوقت الذي يتسع فيه نصيب هذا الإقليم على الصعيد الوطني ، الذي يقدر الآن بأكثر من 3 ٪ بعدما كان لا يتعدى 1.87 ٪ في سنة 1960 .

كل هذه المؤشرات متظافرة للتعبير عن ظاهرة أساسية ألا وهي أن النمو الحضري لمنطقة تادلة قوي وسريع ساهمت فيه مدينة بني ملال بقسط مهم وتساهم فيه مدن ومراكز حضرية أخرى بنصيب لا يقل أهمية .

تعتبر مدينة بني ملال من أسرع الحواضر المغربية نموا في العقود الثلاثة الأخيرة ، ذلك أن عدد سكانها تضاعف أكثر من ثلاث مرات (من 29.000 نسمة سنة 1960 إلى 95.000 نسمة سنة 1982) ، بوثيرة سنوية تفوق 5 ٪ ، وهي وثيرة تنفرد بها من بين المدن التي كانت لها أحجام متماثلة في بداية الستينات . انظر المقارنة في الجدول التالي :

المدينة	عدد السكان سنة 1960	عدد السكان سنة 1982	التزايد السنوي (٪) 1982 - 1960
بني ملال	29.000	95.000	4.90
سطات	29.617	65.203	3.40
العرائش	30.763	63.893	3.18
تازة	31.667	77.216	3.80

عما لا شك فيه أن القفزة الديموغرافية التي سجلتها بني ملال لم تتحقق لو لم تكن هذه المدينة قطبا قويا للهجرة القروية التي كانت نسبتها تفوق نسبة الزيادة الطبيعية كما تدل على ذلك الأرقام التالية :

المدينة	نسبة الهجرة في النمو الديموغرافي (% سنويا)		نسبة الهجرة (%) من التزايد السكاني
	1971 - 1960	1982 - 1971	1982 - 1971
بني ملال	3.1	3.1	61
سطات	1.2	0.7	24
العرائش	1.2	0.7	24
تازة	2.6	1.0	33

يتضح من خلال أرقام هذا الجدول أن جاذبية مدينة بني ملال إزاء المهاجرين قوية جدا ، بالمقارنة مع إشعاع المدن المتوسطة مثلها ، الشيء الذي دفعها بسرعة للارتفاع إلى درجة المدن الكبرى في ظرف وجيز ، خلافا لكثير من الحواضر التي تتميز ببطء نموها الديموغرافي .

خلال فحص إحصائي قمنا به شخصا على أساس معطيات إحصاء 1982 ، تبين أن الأسر المهاجرة المقيمة بمدينة بني ملال في ذلك التاريخ تتكون بنصيب 75 % من أصل ريفي وب 25 % الباقية من أصل حضري . بالنسبة لمجموع السكان يتبين أن أكثر من نصف هؤلاء هم من أصل ريفي وهذه نسبة لا تسجلها عادة إلا كبريات الحواضر المغربية .

عندما نتساءل عن الأصول الجغرافية لهؤلاء المهاجرين الريفيين نلاحظ أن أغليبتهم (62 %) قادمون من إقليم أزيلال وبني ملال ، تأتي بعدهما بالترتيب أقاليم قلعة السراغنة (8 %) ، مراكش (6 %) ، خريبكة (4 %) ، سطات (3 %) ، ويتوزع الباقي (17 %) على باقي أجزاء التراب الوطني . فاستقطاب مدينة بني ملال للمهاجرين الريفيين هو استقطاب جهوي بالدرجة الأولى يتميز بنوع من التمرکز وينوع من الامتداد المجالي . مما لاشك فيه أن موقع مدينة بني ملال في دير الأطلس المتوسط في ملتقى منطقة جبلية فقيرة وسهل انتشرت فيه الأساليب الفلاحية العصرية بشكل واسع ، هو الذي يفسر هذه الجاذبية كما ونوعا . المهاجرون الريفيون المنحدرون من إقليم أزيلال أكثر عددا من أولئك الذين

ينزحون من إقليم بني ملال . فحاجة السكان إلى الخدمات الحضرية أكثر إلحاحا في المنطقة الأولى التي لا تتعدى نسبة قديميها 8 ٪ منها في المنطقة الثانية التي تحضى بنصيب وافر من هذه الخدمات في مدينة بني ملال نفسها وخارجها .

لا يمكن فصل وضعية بني ملال إذن في ميدان الاستقطاب الهجروي عن الوضعية الحضرية لإقليمها الذي يحتوي على مراكز متعددة ونشطة كلها مرتبطة من حيث نموها الاقتصادي بالاستغلال الفلاحي العصري وبالتزايد السكاني الناتج عن هذا الاستغلال . لنأخذ على سبيل المثال بعض النماذج من هذه المراكز ولنقارن بينها لمعرفة مدى ارتباطها بهذا النشاط .

المراكز	الزيادة الديموغرافية (٪)		نسبة الهجرة في النمو العام (٪)	
	1971-1960	1982-1971	1971-1960	1982-1971
الفقيه بن صالح	6	5	62	61
سوق السبت	5.6	10.4	59	81
قصة تادلة	2.6	5.1	13	62
زاوية الشيخ	4.3	3.8	47	49

كل هذه المراكز ، وخصوصا منها تلك التي تحضى بموقع جيد داخل القطاع الفلاحي السقوي لتادلة تسجل حصيلة هجرية إيجابية إشعاعها لا ينحصر في هذه المنطقة فقط ، بل يتعداها ليشمل أجزاء من الشاوية والسراغنة وزعير وغيرها .

فالتيارات الهجرية التي تربطها بعاصمة الإقليم ضعيفة وغير منتظمة ، ذلك أن أغلبية المهاجرين الحضريين الذين يقطنون مدينة بني ملال ينتمون أصلا إلى كبريات الحواضر تأتي في مقدمتها مدينة الدار البيضاء (28 ٪) ، الرباط (12 ٪) ، مراكش (8 ٪) ، مكناس (7 ٪) ، إلخ . . .

من الملاحظ كذلك أن خريطة الهجرة الحضرية إلى بني ملال تنطبق إلى حد كبير وخريطة الهجرة منها إلى المدن الأخرى . أكثر من 1/3 المهاجرين الذين غادروا مدينة بني ملال في الفترة ما بين 1971 و 1982 توجهوا إلى العاصمة الاقتصادية . ترتفع

هذه النسبة إلى 61 ٪ إذا أضفنا إليها مدينة الرباط . ثم تأتي في الدرجة الثانية المدن المجاورة كمراكش ، خريبكة ، آسفي ، سطات إلخ . . .

- هذه بعض الملامح الكبرى للدينامية الديموغرافية التي تطبع ظاهرة التمددين في منطقة تادلة . نستخلص منها أن مدينة بني ملال استفادت ومازالت تستفيد من موقعها الجغرافي في منطقة ديرية متميزة ، وكذلك من أقدميتها التاريخية بالمقارنة مع المراكز المستحدثة المحيطة بها .

كما نستنتج من المعطيات المشار إليها باختصار أن عامل الهجرة (الريفية والحضرية) يعبر في رأينا بنوع من المصادقية العلمية عن الدور الجهوي الذي تلعبه مدينة بني ملال وكذلك عن وثيرة نموها الاقتصادي الذي ينسجم مع المعطيات الطبيعية للمنطقة ومواردها الأساسية .

العلاقات الريفية الحضرية بسهل تادلة (منطقة بني عمير نموذجا)

الحسين أوزيز
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- مكناس -

في الواقع ان الموضوع المقترح في إطار هذه المداخلة المتواضعة ، جد معقد ومتشعب المظاهر . فمهما حاولنا التعمق فيه فلن نستوفيه حقه من الدراسة ، وذلك لاعتبارين أساسيين : أولهما تشعب وتداخل مظاهر العلاقات الريفية الحضرية في أي مجال كان موضوع مثل هذه الدراسة، إذ يستحيل على أي باحث في إطار تخصصه الضيق أن يلم بها كلها ، وثانيهما مرتبط باتساع المجال الجغرافي الذي يمتد عليه سهل تادلا من جهة ، ومن جهة أخرى تعدد المراكز الحضرية بهذا السهل والتي ينضاف إليها تباين المجالات التي يتشكل منها هذا السهل .

ونظرا لهذه الاعتبارات فإننا سنحاول في إطار هذا العرض الوجيز أن نقتصر فقط على إبراز بعض مظاهر هذه العلاقات في جزء من هذا السهل ألا وهو منطقة بني عمير وانطلاقا من مركز الفقيه بن صالح ⁽¹⁾ ، وتتلخص فيما يلي :

- التأطير الإداري والمالي .

- الإشعاع التجاري .

- وأخيرا الحركات السكانية .

لكن قبل تناول هذه النقاط الثلاثة بالعرض ، أرى أنه من الضروري إعطاء نبذة موجزة عن تطور ظاهرة التمدين بسهل تادلة حتى نتمكن من أخذ فكرة ، ولو كانت تقريبية عن مكانة كل جسم حضري من حيث حجمه السكاني وموقعه في الشبكة الحضرية التادلوية ، والتي تعتبر وليدة التطورات الحديثة التي عرفها المجال الريفي التادلوي ، ألا وهي إدخال الري العصري إلى المنطقة والذي عرف توسعا مجاليا عبر عدة مراحل كما يتبين من خلال الخريطة رقم - 1 - .

1- تطور الشبكة الحضرية بتادلة : (انظر الخريطة رقم -2) .

يعرف سهل تادلة حاليا شبكة حضرية متواضعة تتكون من 11 مركزا ، أغلبها حديث النشأة بالمنطقة ، بعدما كان يعيش شبه فراغ مُدنى خلال بداية هذا القرن . وبكيفية موازية مع تطور عدد المراكز الحضرية ، انتقل عدد السكان الحضريين من حوالي 7500 نسمة سنة 1926 إلى 236 700 نسمة حسب إحصاء 1982 ، ويقدر هذا العدد حاليا بحوالي 400 000 نسمة كما يتضح ذلك من خلال الجدول أسفله .

جدول رقم -1- : تطور عدد سكان المراكز الحضرية بتادلة

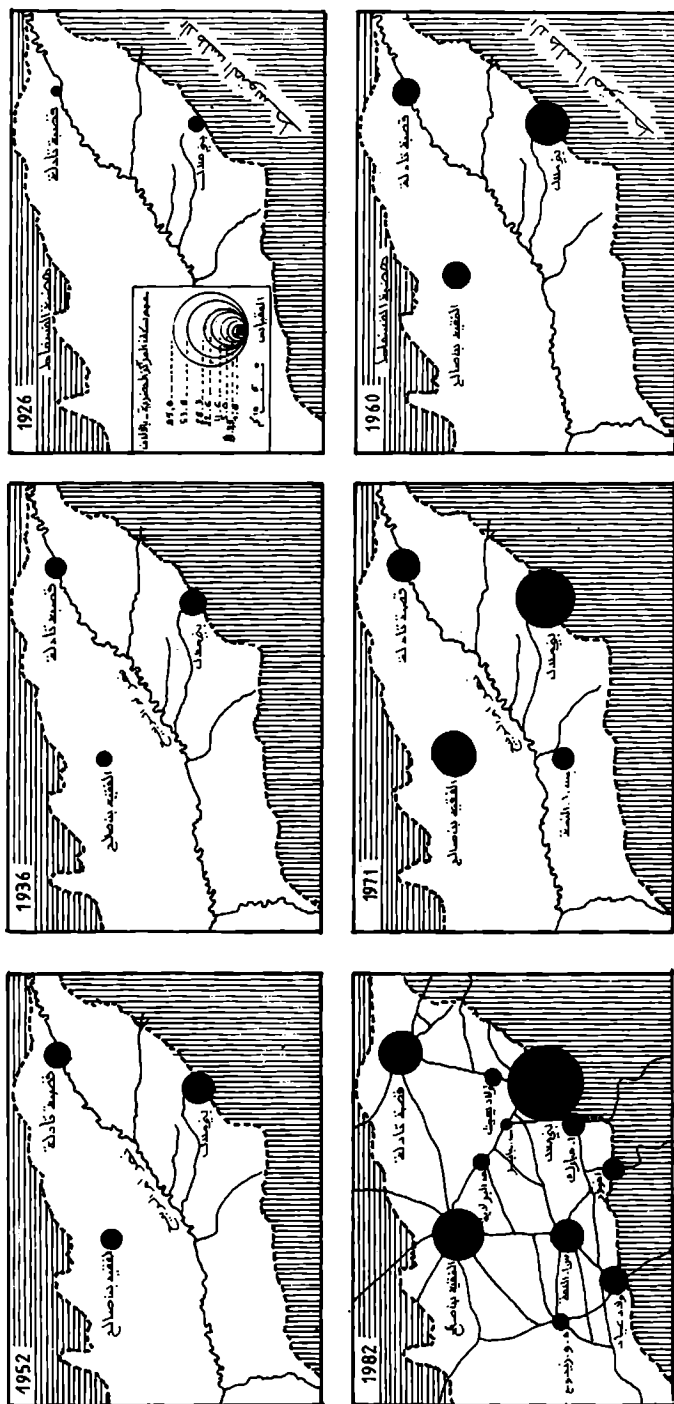
بين 1926 و 1988 (2) .

1988	1982	1971	1960	1952	1936	1926	المراكز الحضرية
130000	95003	53826	28933	15968	10471	5126	بني ملال
70000	50933	28655	14036	6654	3187	-	الفيقيه بن صالح
35000	28332	19276	13793	8789	7049	2430	قصة تادلة
47000	22687	6080	-	-	-	-	سبت أولاد النمة
19000	11687	-	-	-	-	-	أولاد عياد
15000	7630	-	-	-	-	-	أولاد أمبارك
10000	5318	-	-	-	-	-	دار ولد زيدوح
7800	5018	-	-	-	-	-	أفورار
3700	4715	-	-	-	-	-	أولاد يعيش
6600	3715	-	-	-	-	-	حد البرادية
2400	1662	-	-	-	-	-	سيدي جابر
35050	236700	107837	56762	31431	20807	7550	المجموع

بالإضافة إلى هذه المجموعة من المراكز ، ينتظر أن تزيد كثافة هذه الشبكة إذا علمنا أن مجموعة من المراكز القروية قد ارتفع عدد سكانها وتضخمت وتنوعت وظائفها بحيث أنه من الممكن أن ترقى إلى عداد المراكز الحضرية خلال الإحصاء المقبل وبذلك سيناهز هذا العدد 20 مركزا .

إن أغلبية المراكز الموجودة حاليا بالسهل ، باستثناء بعض القديمة منها (يعني السابقة لإدخال الري العصري إلى المنطقة وهي قصة تادلة وبني ملال) ظهرت في بداية

2 التطور الحضري بسهل تادلة ما بين 1926 و 1982



أمرها كمراكز خدمات مرتبطة بالدرجة الأولى بأنشطة القطاع الفلاحي ، وتعززت فيما بعد ببعض الوظائف الإدارية والاجتماعية (من مقر جماعة قروية إلى مقر قيادة ، إلى مقر دائرة . . .) ، كما أنها أصبحت تربط بالمجالات الريفية المجاورة ، علاقات متنوعة ومتشابكة على عدة مستويات ، سنحاول إبراز بعض مظاهرها من خلال المثال الذي اخترناه ، ألا وهو مركز الفقيه بن صالح ، الذي يعتبر بحق العاصمة الإدارية والمالية للقطاع السقوي ، ويشكل محورا تجاريا مهما بمنطقة بني عمير (الضفة اليمنى الغربية لنهر أم الربيع) كما أنه يعتبر قطبا هجريا محليا قويا إن لم نقل إقليميا .

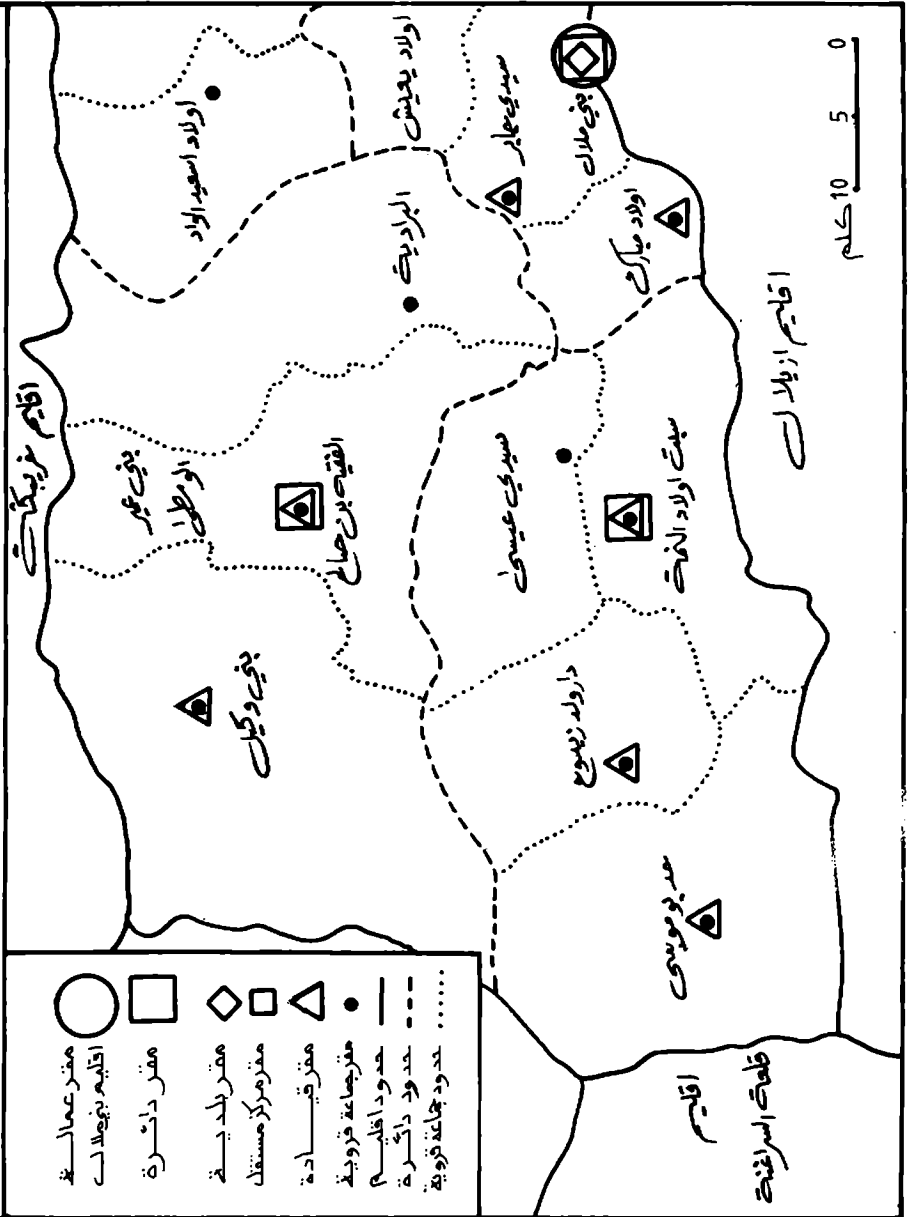
2- الفقيه بن صالح مركز التسيير الإداري والمالي للقطاع السقوي :

1.2 . إلى غاية سنة 1931 لم يكن مركز الفقيه بن صالح يضطلع بأية مهمة إدارية لتأطير السكان ومراقبتهم ، لكن بعد أن تأكد ظهور مشروع إدخال السقي العصري إلى منطقة سهل تادلة ، وبعد أن اتضحت مركزية سوق أريعاء الفقيه بن صالح الذي كان مجرد تجمع قروي آنذاك ، يكتفي المراقب المدني الفرنسي بزيارته يوم انعقاد السوق الأسبوعية للبت في بعض قضايا سكان قبيلة بني عمير ، فقد تمت ترقيته في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات من هذا القرن وأصبح يحتضن بصفة دائمة مركز المراقب المدني وقيادة قبيلتي بني عمير وبني موسى التي كانت تابعة لدائرة بني ملال قبل أن يحتضن في بداية الأربعينات مقر دائرة هاتين القبيلتين التي ستصبح تابعة مباشرة لعمالة الدار البيضاء ، وذلك بعد أن وقع عليه الاختيار لبناء مقر الجهاز الإداري (أو العقل المحرك Cerveau-moteur كما يسميه البعض) للقطاع السقوي ألا وهو مكتب الري الذي سيتغير اسمه إلى الاسم الحالي : المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بتادلة . O.R.M.V.A.T.

إلى غاية سنة 1971 ، ظل مجال النفوذ الإداري لهذا المركز يشمل 7 جماعات قروية تشكل حاليا دائرتي بني عمير وبني موسى تمتد على حوالي 2400 كلم² وتضم كتلة بشرية تقدر بحوالي 219 400 نسمة حسب إحصاء 1971 تمثل آنذاك حوالي 40 ٪ من مجموع سكان إقليمي بني ملال وأزيلال حاليا .

بعد هذا التاريخ (1971) ، تقلص مجال النفوذ الإداري لهذا المركز ليشمل فقط 3 جماعات قروية (هي بني عمير الوسطى ، والبرادية وبني وكيل) تمتد على حوالي

3. التقسيم الإداري يسهل تادئة الفـري



1200 كلم² وتضم كتلة بشرية تناهز 162 000 نسمة حسب إحصاء 1982 ، وذلك بعد خلق دائرة بني موسى التي يوجد مقرها بمركز سبت أولاد النمة . (انظر الخريطة رقم -3 -)

2.2. لكن إذا كان مجال النفوذ الإداري لمركز الفقيه بن صالح قد تقلص وسيؤثر نسبيا على بعض التيارات البشرية والاقتصادية التي تنطلق من المركز أو تتجه نحوه، فإن احتضانه لبعض المصالح الإدارية والتقنية أو ذات الطابع المالي قد جعل منه قطب نمو اقتصادي حقيقي في الجزء الغربي من سهل تادلة ، يتعدى نفوذ حدود دائرة الفقيه بن صالح ليشمل كل القطاع السقوي ، ويتعلق الأمر هنا بمصالح المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي وصندوقي القرض الفلاحي (المحلي والجهوي) إذ يشكلان بحق المحرك الأساسي لعصرنة المجال الريفي بسهل تادلة الغربي :

1.2.2. المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي :

يمتد مجال تدخل هذا الجهاز الإداري على حوالي 320 000 هكتار ، ويضم كتلة بشرية تقدر بحوالي 319 000 نسمة ، منها حوالي 54 000 فلاح . ويتم تدخل هذه المؤسسة الإدارية في المجال لتأطير الفلاحين على مستويين :

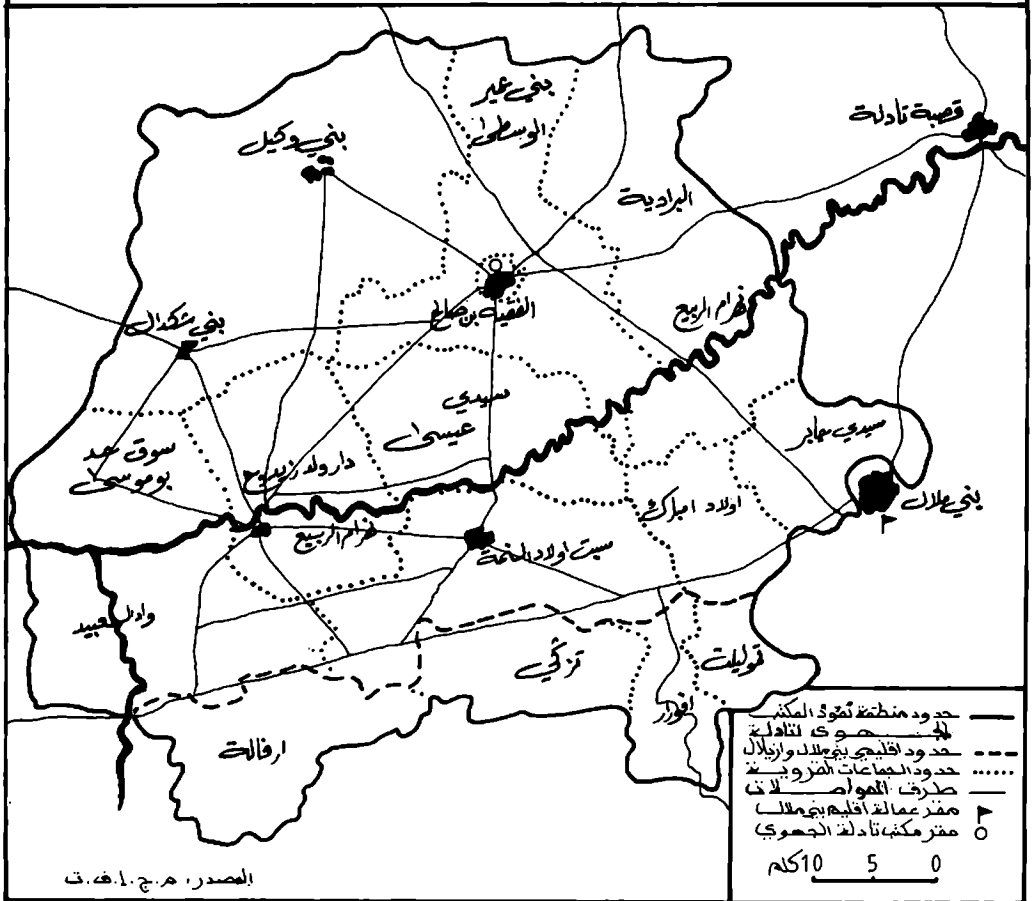
- المستوى الأول : المقاطعات وعددها أربعة : مقر الأولى بالفقيه بن صالح ، والثانية بسبت أولاد النمة ، والثالثة بأولاد امبارك ، والرابعة ببني وكيل . (انظر الخريطة رقم -4 -)

- المستوى الثاني : مراكز الاستثمار الفلاحي وعددها 28 مركزا ، أغلبها يوجد بدائرتي الفقيه بن صالح وسبت أولاد النمة ، توظف حوالي 28 000 فلاح وتضطلع هذه المراكز بثلاث مهام أساسية وهي :

* تأمين مختلف الخدمات للفلاحين من حرث وبيع الأسمدة والبذور ومبيدات الحشرات ، وضمان تضريف بعض المنتوجات الفلاحية كالقطن والشمندر ، والحليب بالنسبة للتعاونيات .

* تأطير الفلاحين وإرشادهم في مختلف الأمور التي تتعلق بالإنتاج الزراعي والحيواني .

4. منطقة نفوذ المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي لنادلة



* وأخيرا مراقبة الفلاح في تطبيقه للدورات الزراعية المفروضة من طرف المكتب الجهوي .

2.2.2. مؤسسة القرض الفلاحي أو بنك الفلاح :

يتم تدخل هذه المؤسسة في المجال على مستويين :

* مستوى الصندوق المحلي : الذي أحدث بالمركز منذ سنة 1969 ، ويشمل مجال نفوذه دائرة الفقيه بن صالح .

* مستوى الصندوق الجهوي ، الذي أحدث بالمركز 3 سنوات فقط بعد الأول أي سنة 1972 ، ويمتد مجال نفوذه على دائرتي الفقيه بن صالح ، وسبت أولاد النمة .

تتلخص مهمة هذه المؤسسة المالية في كونها تقوم بالمساعدة المادية لحركة عصرنه القطاع الفلاحي ، وذلك بمنح الفلاحين والتعاونيات الفلاحية ، مجموعة من القروض القصيرة الأمد (القروض التي تهم مختلف العمليات الزراعية الموسمية وكذلك قوين عمليات شراء الماشية قصد التسمين والمواد العلفية) أو الطويلة الأمد (قروض التجهيز والاستصلاح وشراء الأبقار الحلوب) .

وللوقوف على أهمية الدور الذي تلعبه هذه المؤسسة ومدى متانة العلاقات التي يربطها مركز الفقيه بن صالح مع المجال الريفي المجاور له من خلال هذه المؤسسة ، يكفي أن نذكر بأن مبلغ قيمة القروض التي تم توزيعها على الفلاحين خلال 5 سنوات (79 - 84) من الصندوق المحلي وصل 3.1 مليار سنتيم ، ومن الصندوق الجهوي 26.4 مليار سنتيم ، أي بمعدل 6 ملايين سنتيم تقريبا كل سنة .

وتجدر الإشارة إلى أن أهمية هذه المؤسسة البنكية لا تتجلى فحسب في كونها خلقت دائرة نفوذ مالي واسعة للمركز ، بل تتجلى كذلك في تكثيف حركة التيارات البشرية التي تحدثها نحو المركز على طول السنة . وبصفة خاصة قبيل أهم العمليات الفلاحية ، أو أثناء حلول تواريخ تسديد هذه القروض من طرف المستفيدين منها : الشيء الذي سينعكس بكل وضوح على الحركية التي يعرفها هذا المركز من جراء هذا النوع من التيارات التي تحدث بدورها تيارات تابعة : كقضاء بعض المآرب ذات الطابع التجاري أو

الاجتماعي كالتأمين من المحلات التجارية أو زيارة الطبيب . . . إلخ .

فإذا كان مجال نفوذ التأطير الإداري والمالي للمركز يحدد بقرارات سياسية أو إدارية مدققة ومحددة ، فإن هناك ميادين لا تخضع لهذه التقسيمات التقنية ، أهمها ميدان العلاقات التجارية والاستقطاب البشري ، وهذان المظهران سيحددان بكل وضوح مدى متانة علاقات هذا المركز بمجاله الريفي .

3- الفقيه بن صالح محور تجاري مهم يسهل تادلة الغري :

نميز في هذه العلاقات التجارية التي تربط المركز بمجاله الريفي بين ظاهرتين أساسيتين : الأولى تتمثل في الدور الذي يلعبه في جمع المنتوجات الريفية ، والثانية في إعادة توزيع المنتوجات الحضرية .

1.3. مركز جمع المنتوجات الريفية :

بحكم موقع المركز وسط سهل تادلة ، فإنه كان يقوم بهذه الوظيفة قبل امتداد السقي إلى المنطقة بل وقبل ظهوره كمركز حضري وذلك عبر سوقه الأسبوعية . وقد تعززت هذه الوظيفة مباشرة بعد الدخول الاستعماري إلى المنطقة واختياره كمركز خدمات القطاع السقوي الحديث ، وذلك بعد أن أنشأت به بعض المؤسسات التجارية الكبرى التي كانت تقوم بجمع أهم المنتوجات الفلاحية بالمنطقة قبل تصديرها إلى الخارج أو إلى أماكن معالجتها أو استهلاكها .

أما خلال مرحلة الاستقلال ، فقد رافق التطور الحضري للمركز تضخم جهازه التجاري الذي أصبح يضم عددا مهما من المحلات التجارية الخاصة والمؤسسات شبه العمومية المختصة في عملية جمع هذه المنتوجات الفلاحية من المنطقة ، بالإضافة إلى الدور الكبير الذي أصبحت تلعبه السوق الأسبوعية في هذا المجال .

1.1.3. بالنسبة لعملية جمع المنتوجات الفلاحية عن طريق المحلات التجارية الخاصة المستقرة بالمركز ، فإن أهميتها تتجلى في عدد المحلات المخصصة لهذا الغرض ، والتي تم إحصاؤها سنة 1987 ، حيث بلغ عددها 91 محلا ، محتملة بذلك المرتبة الثانية

بعد تجارة المواد الغذائية بحوالي 11.5 ٪ من مجموع المحلات التجارية الموجودة بالمركز . لكن إذا كانت هذه المحلات الخاصة (Locaux privés) تعمل على جمع أنواع مختلفة ومختلطة من المنتجات الريفية ، فإن الكميات التي يتم جمعها تبقى دون مستوى الكميات التي تجمعها بعض المؤسسات شبه العمومية المختصة الموجودة بالمركز وعددها ثلاثة وهي : الشركة التعاونية الفلاحية المغربية (S.C.A.M.) والشركة الوطنية لتسويق البذور (SO.NA.CO.S.) وأخيرا الشركة المغربية للمنتوجات الفلاحية (CO.MA.PR.A.) .

فبالنسبة للشركة الأولى (S.C.A.M.) فقد ظهرت بالفقيه بن صالح منذ سنة 1962 ، وهي مؤسسة مختصة في جمع وخزن الحبوب وإعادة توزيعها . كان نطاق تدخلها يشمل دائرتي الفقيه بن صالح وسبت أولاد النمة ، قبل ظهور بعض فروعها بكل من مراكز سبت أولاد النمة وبني وكيل وكذلك حد البرادية . أما فيما يخص الكميات التي تجمعها هذه المؤسسة ، فيكفي أن نعطي آخر رقم في سلسلة الإحصائيات التي حصلنا عليها ، لنبرز مدى أهمية الدور الذي يلعبه المركز في هذا المجال (21 136 طنا من الحبوب أغلبها من القمح الطري والصلب . . .) .

أما فيما يخص الشركة الثانية (SO.NA.CO.S.) فقد ظهرت بالمركز منذ سنة 1978 ، تقوم بنفس دور الشركة الأولى وتزيد عنها لا من حيث مجال نفوذها (أقاليم بني ملال وأزيلال وخريبكة) ولا من حيث تنوع المحاصيل الزراعية التي تهتم بجمعها وإعادة توزيعها (الحبوب المختارة ، الفصة والبطاطس . . .) . وبالرغم من أن مجال نفوذها الرسمي يشمل 3 أقاليم ، فإن مجال جمعها لهذه المنتوجات الفعلي والأساسي ، يقتصر على القطاع السقوي من السهل بحوالي 90 إلى 95 ٪ من الكميات الإجمالية التي تجمعها من الأقاليم الثلاثة : (10 300 طنا خلال سنة 1986) .

إذا كانت هاتان المؤسستان السالفتي الذكر تهتمان بجمع الحبوب ولهما طابع تجاري محض ، فإن المؤسسة الثالثة (CO.MA.PR.A.) تهتم بجمع منتج زراعي آخر ألا وهو القطن وهي ذات طابع تجاري وصناعي في آن واحد . أحدثت هذه الشركة بالفقيه بن صالح منذ سنة 1952 ، وقد كانت هذه المؤسسة تهتم بجمع محصول القطن من السهل السقوي كله قبل إحداث وحدتي بني ملال سنة 1958 وسبت أولاد النمة سنة 1965 .

تعالج هذه المؤسسة الصناعية حوالي 50 ٪ من مجموع إنتاج السهل كله من هذه المادة ، ويمتد مجال جمعها على كل الضفة اليمنى لنهر أم الربيع من القطاع السقوي على مساحة يصل معدلها سنويا 6 000 هكتار من أصل 12 000 هكتار المخصصة لزراعة هذا المنتج بالقطاع السقوي وذلك حسب البرنامج الذي يفرضه المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بتادلة . أما فيما يخص معدل حجم الكمية التي تعالجها هذه المؤسسة سنويا فإنها تصل إلى حوالي 9130 طنا من القطن الخام (معدل مواسم 81 إلى 86) .

2.1.3. إذا كانت المحلات والمؤسسات الآتفة الذكر بعددها القليل تعمل على جمع جزء مهم من الإنتاج الفلاحي بالمنطقة فإن الجمع الذي يتم عبر السوق الأسبوعية التي تتعقد بهذا المركز لا يقل أهمية ، سواء من حيث تنوع المنتجات الفلاحية أو من حيث مجال جمعها الذي لا يخضع للتقسيمات الإدارية .

تجلى أهمية هذه العملية أولا في ارتفاع النسبة التي تمثلها نقط عرض المنتجات الريفية الخام في تجارة السوق الأسبوعية : 36.4 ٪ من أصل 4600 نقطة عرض المحصاة بتاريخ 1986/08/27 ، وكذلك في أهمية عدد رؤوس الماشية التي أدخلت إلى هذه السوق بنفس التاريخ إذ وصل أزيد من 5 000 رأسا .

2.3. الفقيه بن صالح مركز إعادة توزيع المنتجات الحضرية :

يتجلى المظهر الثاني من العلاقات التجارية بين المركز ومجاله الريفي في إعادة توزيع جزء من المنتجات الحضرية في الوسط الريفي ، وتتم هذه العملية عبر قناتين أساسيتين وهما : المحلات التجارية المستقرة بالمركز ، وكذلك عن طريق السوق الأسبوعية .

بالنسبة للتجارة المستقرة ، فقد تبين من خلال دراسة بنيتها أنه باستثناء بعض محلات تجارة المواد الغذائية التي يقتصر نطاق خدمتها على الأحياء التي توجد بها ، فمن المفروض أن كل أو جل المحلات التجارية الأخرى المختلفة المواد تقوم بتوفير حاجيات سكان المركز ، وفي نفس الوقت حاجيات سكان المناطق الريفية المجاورة الذين يترددون إلى المركز بصفة منتظمة أو متقطعة لقضاء هذه الحاجيات التجارية خصيصا ، أو بمناسبة

زيارتهم للمركز لأغراض أخرى (سبق أن أشرنا أن قضاء بعض الحاجيات الإدارية أو الاجتماعية يعمل على تحريك نسبة مهمة من سكان هذه الأرياف نحو المركز) . ومن بين هذه المحلات التجارية نجد عددا مهما يهتم بصفة أساسية بتوفير حاجيات سكان الوسط الريفي بالدرجة الأولى ، وهي تلك المختصة في تجارة المواد والآلات الفلاحية : 57 محلا سنة 1987 تمثل 32.5 ٪ من مجموع محلات تجارة كبيرة مختصة في بيع العتاد الفلاحي (جرارات ، آلات الحصاد ، محركات ضخ المياه من الآبار . . . وغيرها) . ويمتد مجال نفوذ هذه المؤسسات على كل إقليم بني ملال ، ويحتل مركز الفقيه بن صالح في هذا المجال الصف الأول في مجموع الإقليم قبل العاصمة الإقليمية بني ملال التي لا يوجد بها إلا 5 مؤسسات من هذا الصنف .

أما فيما يخص تجارة المواد الغذائية المصنعة ، فبالرغم من أن نسبة من المحلات التجارية الخاصة بها تعمل على خدمة سكان المركز فقط ، فإن قدرة إشعاع المركز على الأرياف المجاورة له تكمن في مرتبة بعض محلات هذه التجارة ، بحيث كانت توجد بالمركز آنذاك (1987) حوالي 14 محلا من تجارة الجملة أو نصف الجملة تتمون منها في نفس الوقت المحلات المستقرة بالمركز الحضري ، والمحلات التجارية الأخرى المتفرقة في باقي المجال الريفي وكذلك الباعة المتجولون في الأسواق الأسبوعية بالمنطقة .

أما فيما يخص القناة الثانية التي تتم عبرها إعادة توزيع جزء كبير من المواد الحضرية على الأرياف المجاورة فإنها تتمثل في تجارة السوق الأسبوعية : فإذا اعتبرنا أن هذه الأخيرة تعتبر في حد ذاتها تظاهرة اقتصادية ريفية أكثر مما هي حضرية ، تخدم سكان الأرياف بالدرجة الأولى ، باعتبار أن أغلبية سكان المدن يتزودون من محلات التجارة المستقرة ، فيكفي أن نذكر بحجم وأهمية سوق الفقيه بن صالح لتتصور مدى حجم الكتلة البشرية التي يستقطبها هذا المركز أسبوعيا من المجال الريفي (4600 نقطة عرض بتاريخ 1986/08/27 دون اعتبار سوق الماشية) الشيء الذي يجعلنا نصنف هذه السوق ضمن أهم الأسواق ليس فحسب على المستوى الإقليمي ، بل قد يتعداه إلى المستوى الوطني .

أما أهم مظاهر توزيع المنتوجات الحضرية على الأرياف عبر هذه السوق فإنها تشمل 3 أنواع من التجارة المعروضة ، ألا وهي تجارة المواد الغذائية (854 نقطة عرض

دون اعتبار نقط عرض تجارة الفواكه والخضر التي نعتبرها بالأساس مواد ريفية ، وإن كان بعضها يصل إلى المركز من مدن أخرى) ، وتجارة الألبسة والأحذية (856 نقطة عرض) وأخيرا تجارة مواد التجهيز المنزلي والفلاحي (300 نقطة عرض) .

من خلال ما تقدم يتضح لنا أن حجم وتنوع الأنشطة المتوفرة بمركز الفقيه بن صالح (تجارية ، خدماتية أو صناعية) قد جعلت منه مركز استقطاب بشري قوي ، سواء من المناطق المجاورة أو من المناطق البعيدة ساهمت وماتزال تساهم في تغذية حركة نموه الديمغرافي وتضخمه البشري .

3.3. الفقيه بن صالح قطب هجري إقليمي قوي . (انظر الخريطة رقم-5)

في هذه النقطة سأكون جد موجزا حيث سأقتصر فقط على مجموعة من الأرقام بالنسب المئوية سيتبين من خلالها مدى قوة ارتباط هذا المركز بمجاله الريفي .

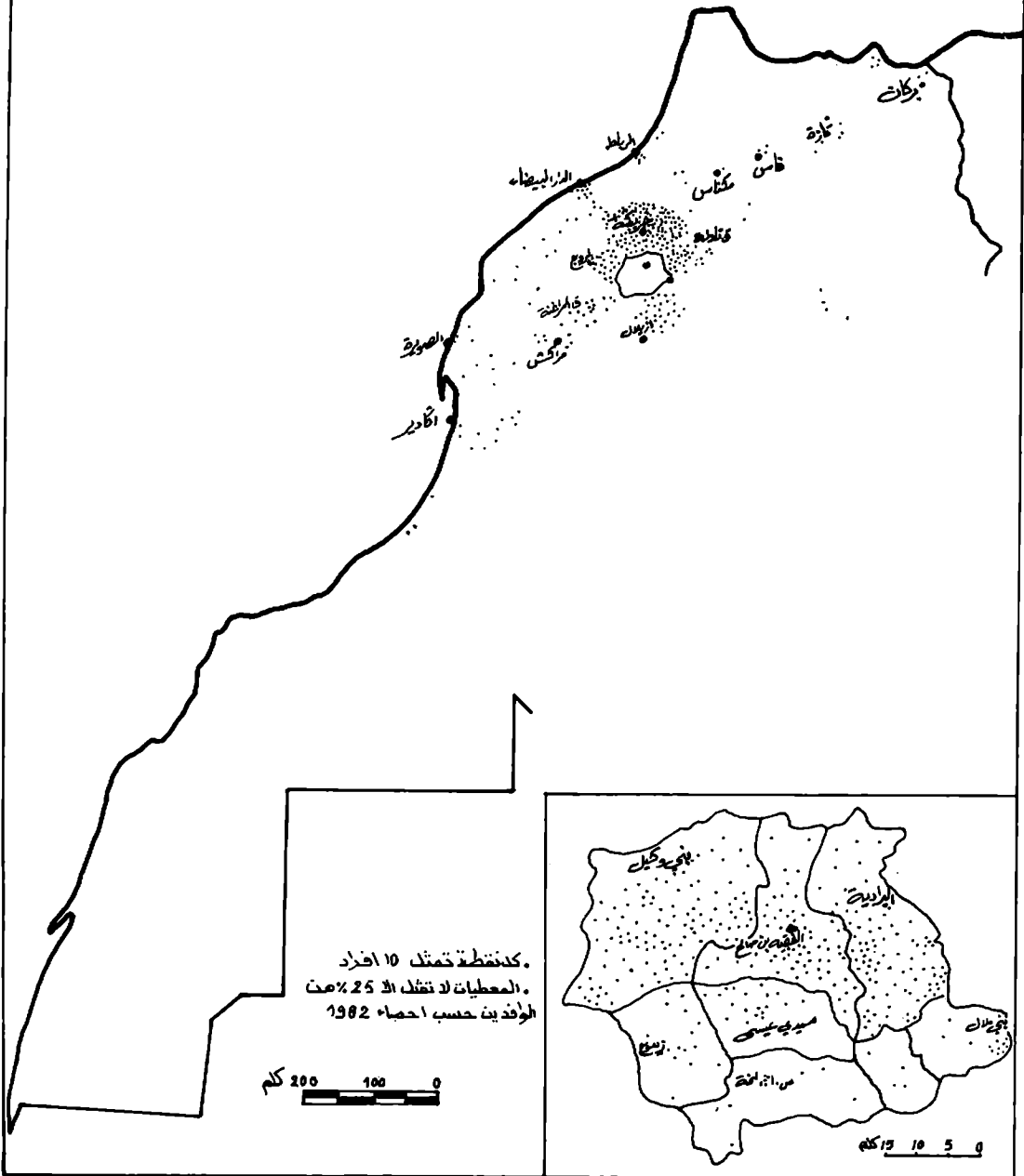
جدول رقم -2- : توزيع سكان مركز الفقيه بن صالح حسب وسط ازديادهم انطلاقا من إحصاء 1982 (%) .

وسط الإزدياد	عين المكان	أرياف	مدن	المجموع
أرياب الأسر	15.70	66.80	17.50	100 %
مجموع السكان	47.98	39.47	12.55	100 %

من خلال أرقام الجدول أعلاه ، يتضح جليا أن مساهمة حركة التوافد في تكوين سكان المركز الحضري للفقيه بن صالح جد مهمة ، شأنه في ذلك شأن سائر المراكز الحضرية التي استفادت من الدينامية الاقتصادية التي نتجت عن الدخول الاستعماري إلى المغرب .

وللوقوف على واقع هذه الظاهرة في مظاهرها الدينامية ، يكفي أن نذكر بنسبة توافد أرياب الأسر ، باعتبارهم العنصر الأساسي في اتخاذ قرار الهجرة . لكن إذا كانت معرفة نسبة الوافدين (أرياب الأسر أو مجموع السكان) قد مكنتنا من الوقوف على مستوى قوة استقطاب المركز المرتبط بديناميته الاقتصادية ، فإن ما يهمنا في هذا الباب ،

5. **السكان الوافدون الى الفقيه بن صالح حسب محلات ازديادهم**



هو التعرف على مدى مساهمة مختلف المناطق الجغرافية المجاورة في هذه الظاهرة نحو المركز إذ ستمكننا من معرفة قوة العلاقة التي تربطه بالوسط الريفي المجاور له بالدرجة الأولى . وفي هذا الباب سنقتصر على إدراج الأرقام التي تهتم فقط السكان الوافدين من الأرياف القريبة جغرافيا من المركز ، كما يتضح من الجدول أسفله .

جدول رقم -3- : مساهمة التوافد الإقليمي الريفي إلى الفقيه بن صالح
من خلال إحصاء 1982 (%) .

المنطقة	أرياب الأسر	مجموع الوافدين
دائرة الفقيه بن صالح	52.97 %	52.80 %
دائرة سبت أولاد النمة	6.75 %	7.80 %
دائرتي قصبة تادلة وبني ملال	2.45 %	2.75 %
المجموع (1)	62.17 %	63.75 %
هضبة الفوسفاط	15.93 %	16.04 %
الأطلس المتوسط الجنوبي الغربي	3.80 %	4.75 %
السراغنة	1.50 %	2.07 %
المجموع (2)	21.20 %	22.86 %
المجموع العام (1+2)	83.37 %	86.61 %

من خلال الجدول أعلاه يتضح جيدا مدى متانة علاقات المركز بمجاله الريفي في هذا المستوى ، إذ أن دائرة الفقيه بن صالح التي تتكون من 3 جماعات قروية فقط قد ساهمت لوحدها بأزيد من نصف الوافدين الأرياف إلى المركز سواء تعلق الأمر بأرياب الأسر فقط ، أو بمجموع السكان الوافدين من الأرياف ، وقد ترتفع هذه النسبة إذا لم نعتبر الحدود الإدارية وأضفنا إلى هذه النسبة مساهمة هضبة الفوسفاط التي لا تبعد كثيرا عن المركز ، إذ تساهم لوحدها بحوالي 16 % من الوافدين الأرياف إلى هذا المركز ، وكذلك باقي المناطق الأخرى من السهل بحوالي 10 % (دوائر قصبة تادلة وسبت أولاد النمة وبني ملال) .

من خلال المظاهر الثلاثة التي تطرقنا إليها في هذا العرض ، يمكن القول بأن

أغلبية المراكز الحضرية بسهل تادلة وبصفة خاصة في الجزء المسقي منه ، وإن كانت بدرجات نسبيا متفاوتة ، لا تعيش في معزل عما يدور حولها في المجال الريفي . فحالة مركز الفقيه بن صالح يمكن اعتبارها مثالا حيا في هذا الباب ، لذلك فإن أي إعداد للمجال يجب أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الأمر ، وأن ينظر إلى هاتين المكونتين للمجال الجغرافي (المراكز الحضرية والمجال الريفي المجاور له) كوحدة متكاملة ، يجب أن يحضى بنفس العناية من طرف جميع الأطراف المدبرة في المجال من سلطات وجماعات محلية وأجهزة إدارية وتقنية متنوعة .

الهوامش

- 1 - المعلومات التي سترد في هذا المرض هي نتائج لبحث ميداني أجهزناه سنة 1987 ، في إطار تحضير رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا تحت عنوان : أثر السكتي المصري على العمدين بسهل تادلة ؛ حالة الفقيه بن صالح . كلية الآداب ، الرباط ، يونيو 1988 .
- 2 - المصدر : التعدادات والإحصاءات الرسمية ، 1988 تقديرات شخصية .

بني ملال ، قطب غير مكتمل

عبد الفتاح أبو العز
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

0 - مقدمة :

1.0 - مداخلات الموضوع : إن أي بحث علمي لا يستحق أي اهتمام إلا إذا ارتبط بهم الحاضر والمستقبل ، وابتعد عن أي هدف تجديري متماه في الماضي .

لذلك فإن أهداف كلمتي هاته التي هي عصارة بحث ميداني استغرق ثلاث سنوات بين 1987 و 1990 ، انطلقت من ذلك الهم وارتبطت بحقائق الحاضر الآتية :

أولا : رغم القدم النسبي لتجربة التخطيط ببلادنا ، فإن الانتباه لأهم مشكل جغرافي ، مشكل الجهوية ، لم يتبلور إلا عبر مخطط 73 - 1977 .

وانطلاقا من هذا المخطط صدر عن دوائر التخطيط منذ سبع سنوات كتيب يحمل عنوان " انبثاق عمالة بني ملال كقطب مستقبلي للتنمية " .

ثانيا : إذا كانت تادلا قد عرفت التخطيط للمجال الريفي منذ ما يزيد عن ستين سنة ، مما سمح بتجهيز وسقي ما يقارب اليوم 120.000 هكتارا ، وإذا اتسم هذا التخطيط بطابعه التوقعي القصدي بهذا المجال ؛ فإنه على العكس من ذلك ظل غائبا بالنسبة للمجال الحضري ، الذي انفجر بشكل فوضوي مسجلا أعلى نسبة تزايد ببلادنا ، هذا الانفجار المرتبط بقوة بما حصل بأرياف تادلا إذ انتقلت ساكنة بني ملال من 4500 نسمة سنة 1920 إلى 130.000 نسمة حاليا ⁽¹⁾ دون أن تعرف وضع تصميم مديري إلا ابتداء من 1978 .

ثالثا : ابتداء من سنة 1976 دخل المغرب التجربة الديمقراطية التي خولت عبر ظهير 1976 للمجالس المنتخبة مهمة تحويل أهداف المخططات من طابعها العام إلى طابعها الإجرائي .

وانطلاقا من هذه الاعتبارات نصوغ الأسئلة التي نرمي إلى الإجابة عنها

بالكيفية الآتية :

2.0 - تحديد الموضوع :

1.2.0 - تحديد الإشكالية : هل تفاعل التخطيط الوطني ، الجهوي

والمحلي مع الواقع الجغرافي بشكل يسمح وبالسريعة المطلوبة لبني ملال باستكمال وظيفة القطب المنوطة بها ؟ وبعبارة أدق هل استطاعت بني ملال داخل صيرورتها أن تبقى ذلك الآخر المنشود ؟

لكن قبل ذلك ماذا نقصد بالقطب الجهوي ؟

2.2.0 - مفهوم القطب : يعتبر القطب في معظم الكتابات التي تناولت

الموضوع ، تلك المدينة التي تحتل الرتبة الأولى في جهتها كما ونوعا مما يخولها دورا قياديا داخل حمة متماسكة من العلاقات التي تربطها بمدن الجهة ، وتربطها وتلك المدن بالمجال الريفي مع خضوع نسبي لأقطاب أكبر.

ونحن إذ نتبنى هذا المفهوم نحتويه ونتجاوزه بفتحه أمام الواقع ليشمل بالإضافة إلى المعايير الوظيفية ، معايير بنيوية وتطورية ليصبح التحديد البديل هو: القطب الجهوي هو تلك المدينة التي تقود جهتها في إطار حمة علاقات متماسكة مع مدن وأرياف الجهة مع خضوع نسبي لعواصم أكبر ، هذه الوظيفة لن تتبلور إلا داخل تحولات بنيوية مكتملة لا تتم إلا في إطار تخطيط مجالي يخضع لصيرورة تاريخانية .

وهكذا ، وطبقا لاستمارة أجريت على 632 أسرة سحبت وفق أسلوب العينة

الاحتمالية⁽²⁾ بفسحة ثقة تصل (2.6) 2 واحتمال للخطأ يصل 15 ٪ ، واستمارة ثانية مع أرباب الأنشطة . سأجيب عن الإشكال المطروح من خلال ثلاثة محاور رئيسية :

1 - تركيبة وظيفية مبتورة . . .

2 - . . . وتركيبية بنيوية غير مكتملة التحول . . .

3 - . . . صيرورة بطيئة ، غائية ولا تاريخانية .⁽³⁾

1 - تركيبة وظيفية مبتورة . . . : وسيتم تحليلها على المستوى الجهوي والوطني :

1.1 - علاقة محدودة مع مدن وأرياف تادالا : باستثناء الطب العام حيث إن

52 ٪ من خدماته تقدم لأسر تادلية خارج بني ملال ، والمحامة ذلك أن 70 ٪ من الموكلين يقطنون بتادلا خارج بني ملال ، والخدمات الإدارية عبر توزيع وتنفيذ القرارات ، والبريد والمواصلات والنقل والتعليم العالي إذ أن 85.5 ٪ من الطلبة تقطن أسرهم بتادلا خارج بني ملال .

أقول باستثناء هذه الخدمات ، فإن علاقة المدينة بمحيطها الجهوي محدودة ، الشيء الذي يؤكد جرد الأنشطة الموجودة بالمدينة . ومعالجتنا لهذه المسألة تنبني على الخطوات التالية :

- تجاوز تصنيفات الأنشطة المعروفة ⁽⁴⁾ باقتراح تصنيف لها حسب نفوذها المجالي وهي أنشطة النفوذ الكبير ، أنشطة النفوذ المتوسط وأنشطة النفوذ الصغير .

- بناء على هذا التصنيف المقترح نلاحظ أن أنشطة النفوذ الكبير والتي من شأنها تقوية وظيفية القطب لم تتزايد إلا بنسبة 2.1 ٪ بين 1982 و 1989 . كما أن أنشطة النفوذ المتوسط التي لها علاقة متوسطة بالجهة تراجع تزايدها من 8.4 ٪ سنويا إلى 1.7 ٪ سنويا بين 1982 و 1989 . بل حتى الأنشطة الضعيفة النفوذ تناقصت بنسبة 1.1 ٪ - سنويا بين التاريخين المذكورين .

- ضعف الأنشطة المرتبطة بالفلاحة من خدمات ميكانيكية ومختبرات وبيع الآلات والمخصبات والبذور ذلك أن عددها الإجمالي دون المائة وهذا ضئيل جدا داخل دائرة سقوية تبلغ مساحتها 120.000 هكتارا ، على عكس ما يحصل بالقطاع الإداري لأن أرياب الضيعات الكبرى يقطنون البيضاء والرباط ويقتنون حاجياتهم منها ⁽⁵⁾ ويتناغم مع ذلك النفوذ العقاري الضعيف للمدينة حيث إن 14.8 ٪ من أسرها ملكيتها بالأرياف ، لا تتجاوز في معظمها 5 هكتارات ، الثلثين منها بورية . . . مع أن النسبة المتبقية لا نفوذ عقاري لها .

2.1 - استقطاب متعدد : ونلمس ذلك عبر مستويين اثنين :

1.2.1 - إن 91 ٪ من أنشطة النفوذ الكبير تقتني بضائعها من المدن الكبرى الأطلننتيكية بالأساس وبعض المدن الداخلية كفاس ومراكش ، زيادة على 41.2 ٪ من أنشطة النفوذ المتوسط مع ضعف قدرتها على غزو مدن وأرياف تادلا

الشيء الذي ستوضحه المداخلات المالية حول الفقيه بن صالح ، قصبة تادلا ، زاوية الشيخ والقصبة . . .

2.1. 2 - إن بني ملال عاجزة عن تزويد حاجيات أسرها ذلك أن 7.5 ٪ من الأسر تشتري لباسها من خارج تادلا ، و 16.5 ٪ تشتري الأثاث المنزلي من خارج المدينة وخارج تادلا ، و 31.5 ٪ من الأسر تجري الفحوص الطبية المتخصصة خارج بني ملال . بل إن هذه النسب سيرتفع وزنها أكثر إذا علمنا أن معظمها يشمل الأسر ذات الدخل المرتفع .

وهكذا ومقارنتنا لمدخلات ومخرجات المنظومة المالية نسجل بكثير من التجاوز أنها منظومة نصف مفتوحة لصالح المدخلات فقط ، بل عاجزة حتى عن لعب وظيفة المنظومة الوسيط فأحرى أن تلعب وظيفة القطب المكتمل الشيء الذي تدعمه بنيتها الضعيفة .

2 - . . . وتركيبه بنيوية غير مكتملة التحول . . . : لا يمكن لأي جسم أن يمارس نفوذا داخل أية بقعة مجالية بواسطة بنية داخلية ضعيفة إذ لا وظيفة مكتملة بدون بنية مكتملة التحول والعكس بالعكس .

لذلك فإن المجال المالي لا زال في بداية التحول ونبرز ذلك عبر نقطتين :

1.2 - طريقة التشخيص : لقد شخصنا البنى المجالية المالية وضبطنا القانون المتحكم فيها عبر تحليل علائقي لسلسلة من المعايير المادية والمعنوية تتمثل في أصول السكان ، درجة تسكانهم ، صفة حيازة المسكن ، التجهيز ، نوع البناء ، حجم المسكن ، الاستهلاك ، التمدرس ، الأمية ، التكوين المهني ، التجهيزات العمومية ، التنظيم الاجتماعي ، التشغيل ووسيلة التنقل ... واتضح أن التباينات المجالية متفاوتة حسب كل واحد من المعايير المذكورة مما طرح صعوبات كبرى في التصنيف ، واضطررنا إلى اللجوء للتوزين الإحصائي ⁽⁶⁾ عن طريق التنقيط ، هذا الأخير الذي سمح بتعيين البنى الآتية :

2.2 - البنى المجالية المالية : وهي ثلاثة :

- بنية عليا تعرف تمثيلا موجبا لمعظم المعايير المذكورة ، مجموع نقاطها بين

142 و 170 نقطة .

- بنية وسطى تعرف تمثيلا متوسط الجودة لمعظم المعايير تلك ، مجموع نقطها بين 108 و 130 نقطة .

- بنية ضعيفة وتعرف تمثيلا سالباً لكل المعايير المذكورة ، نقطها بين 74 و 102 نقطة .

ومن خلال هذا التوزيع نستقرئ نوعين من القطاعات :

* قطيعة كبرى بين البنية العليا والضعيفة .

* قطيعتين صغيرتين بين البنية العليا والوسطى ، وبين هذه والضعيفة الشيء الذي يسمح لنا بالحكم بأن التركيبة المجالية ببني ملال لم تعكس بعد المجتمع الطبقي ولم تفرز نمط المجال الرأسمالي الذي من شأنه قيادة الجهة نحو وظيفة القطب المكتمل لذلك اقترحنا إلحاق صفة البنية شبه المتطورة بالنمط الأول ، وصفة المركبة بالنمط الثاني ، وصفة الضعيفة بالنمط الثالث .

وبجمعنا للبتر الوظيفي الذي اختبرناه في المحور الأول ، مع عدم اكتمال التحول البنيوي الذي عالجناه عبر هذا المحور نطرح سؤالاً متبقياً حول الآليات المفسرة لكل ذلك ؟

3 - صيرورة بطيئة ، غائية ولا تاريخانية : وسنحاول عبر هذا المحور رصد البنى الزمنية للمجال الملالي داخل إطاره الخاص والعام لرصد مراحل القطيعة والاستمرارية خلال هذا التطور ، والتي أثبت البحث الميداني أنها تتمرحل كالاتي :

3.1 - مرحلة ما قبل 1930 ، ظل المجال الملالي يعرف قدينا موروثاً متبقياً عن الأزمنة السالفة معتمداً على النفوذ الديني ، الاقتصادى لزواية أحمد بن قاسم الصومعي ، والدور العسكري بجانب قصبات تادلا الأخرى . وبلغ تأثير المدينة السراغنة والشاوية ، واكتسبت تادلا شخصيتها لدرجة أصبحت تنعت معها من طرف المخزن بالقطر التادلي . (7)

3.2 - مرحلة ما بعد 1930 ، انطلاقاً من هذا التاريخ سيبدأ رد الفعل المجالي أمام المنبهات السياسية / القانونية / الاقتصادية . . . التي حصلت قبل ذلك

عقب دخول الاستعمار والتي استمرت بعد خروجه واتسمت بما يلي :

- الاستيلاء على الأراضي وتجهيزها وعند استرجاعها في فترة الاستقلال وزعت على الأطر العليا وأصحاب القدرة القاطنين بالمدن الكبرى الأطلنكية ، الشيء الذي فسر بدوره احتدام الهجرة نحو المدينة ، إذ لا نتعجب عندما نجد تطابقا بين مراحل الهجرة والسقي . وهذا بدوره ساهم في ظهور سكن الصفيح ابتداء من سنة 1960 .

- بني ملال ، حضور بالقوة وغياب بالفعل ؛ إذا أصبح المجال الريفي بواسطة التخطيط يحى داخل التاريخ سيما الدائرة السقية ، فإن المجال البوري والمجال الحضري ظل خارجه إذ لا وجود لفقرة داخل مخططاتنا تحمل عنوان التمدين ؛ كما أن الكتيب الجهوي الذي أشرنا إليه متناقض مع الأهداف المعلنة للجهوية والتي تؤكد على ضرورة إشراك السكان في التخطيط والتنمية والحال أنه أنجز بالدار البيضاء ويصرح في الصفحة الأولى ضمن أهدافه أنه وضع للتخفيف عن مشاكل الدار البيضاء .

وحتى التصميم المديرى الموضوع سنة 1978⁽⁸⁾ انطلق من عينة ذاتية لا علاقة لها بالواقع . مقابل ذلك خصصت المجالس البلدية 10 ٪ من المواضيع المطروحة للنقاش بجلساتها للسكن الهزيل ، 47.5 ٪ لتجميل المدينة ، 8.1 ٪ من المواضيع للاحتجاج على عدم احترام التصاميم ، 4.5 ٪ للسجال الكلامي مع غياب لثلث (1/3) الأعضاء طيلة نصف الجلسات ما عدا جلسات مناقشة الميزانية ؛ التي ظلت إلى حدود سنة 1989 دون مستوى ميزانية 1982 بأكثر من الثلث .

وهكذا لم تخصص ولو جلسة واحدة لمناقشة نوعية المشاريع التي يجب اقتراحها لتأهيل بني ملال لوظيفة القطب المنشودة .

خلاصة:

لا شك أن الصورة قد اكتملت الآن حول العوائق المعرقله لممارسة بني ملال وظيفة قطب التنمية الجهوي ، هذه المنظومة التي وصفناها بالغائية واللاتاريخانية نظرا للمبررات الآتية :

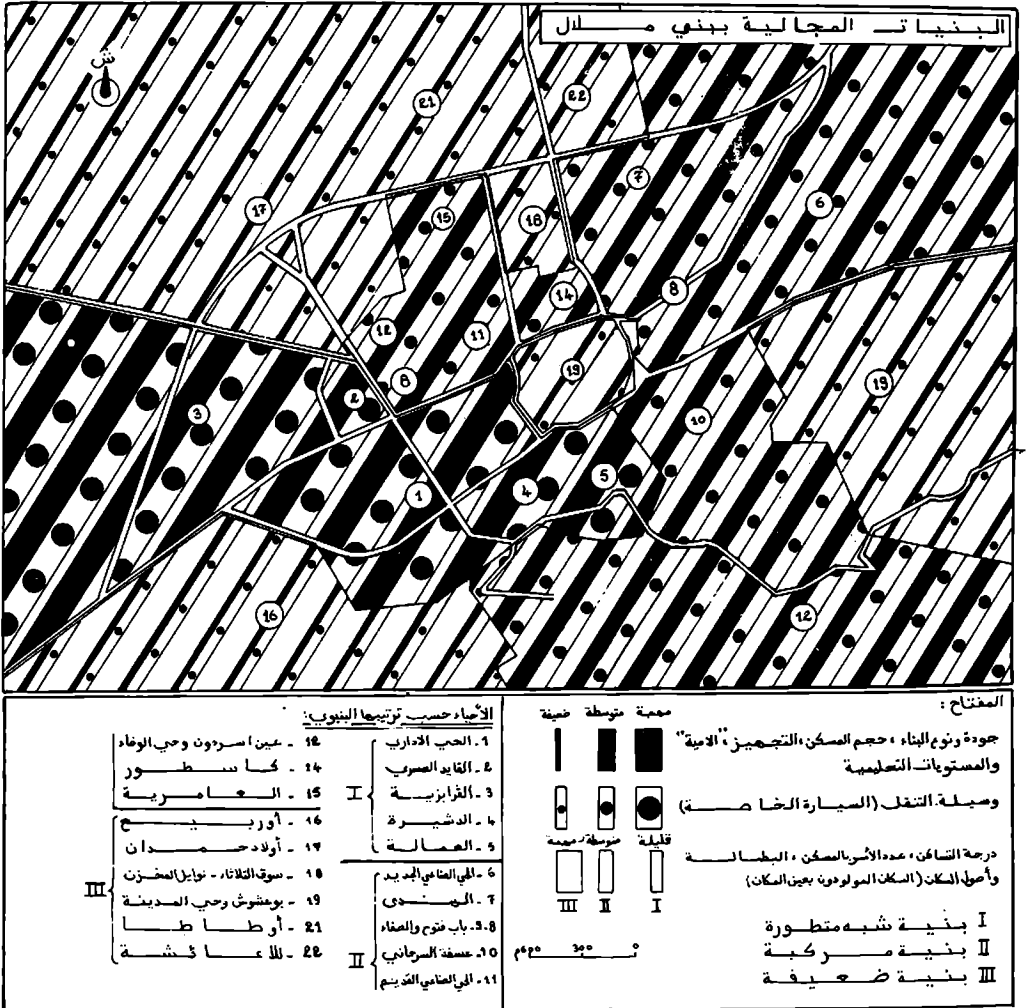
أولا : إن خلق أقطاب جهوية فكرة مستوحاة من النماذج الغربية التي لها تصور

بل نظرية واضحة للدولة . ويقدر ما نومن بعالمية الثقافة كركيزة تاريخانية ، فإن العالمية تعني تأصيل المفاهيم المستوردة تلك بالاختبار ، بفتحها وإعادة تعيينها تعيينا جديدا حسب خصوصيات الميدان وبواسطة مقارنة أكثر نظامية وهذا ما حاولنا القيام به خلال هذه الدراسة .

ثانيا : إن مراحل التحول تحتم في البداية القيام بتشخيص شمولي للواقع على ضوء المستجدات العلمية المتسمة بالتداخل بين التخصصات شريطة إعقال شروط وضوابط التداخل هذا ، مع وضع سياسة الأقطاب الجهوية داخل إطارها الوطني حتى لا تصطدم أهدافها مع أهداف المدن الكبرى التي لم تغز بضائعها بالشكل الكافي السوق الدولية ، مما يجعلها عاجزة عن التخلي " للأقطاب " المنشودة على أدوار فاعلة .

ثالثا : إن تناقض وقصور وتجزئية التخطيط الوطني ، الجهوي والمحلي لن يمكن المدينة من اقتصاد الزمن والتطور السريع ؛ إذ لا يعقل أن يصدر الظهير المنظم للجهوية سنة 1971 ، وأول مخطط وطني منظم لها سنة 1973 مع أن أول " مخطط " جهوي لم ير النور إلا سنة 1985 . أي بعد انتهاء مدة المخطط الوطني 1973 - 1977 ، في حين أن المجالس البلدية لم تناقش الموضوع قط !

وهكذا ، وفي نهاية هذه المداخلة التي ليست نهاية أين بني ملال من وظيفة القطب التي من شأنها إعادتها إلى صناعة الأحداث المجالية ؟ وكجواب أقول إن الذي يحلم أن تصير بني ملال قطبا مكتملا ، سيركب في ظل ظروفها المحلية ، الجهوية ، الوطنية والدولية مركبا وعرا . ولكن المحاولات المجالية تفكيكا وعملا لا تقف وإن في إطار لا يشبع الحلم الكبير ، حلم القطب المكتمل .⁽⁹⁾



الهوامش

1- أعلى نسبة تزايد سجلت بسوق السبوت الموجود بقلب الدائرة السقوية بتادلا والتي تفوق 12 ٪ سنويا .

2- الصيغ الرياضية :

- إن العينة تم سحبها بواسطة تطبيق الصيغة :

$$\left. \begin{array}{l} \text{ن : حجم العينة} \\ \text{ن : الطبقة الإحصائية} \\ \text{2 (2.6) : فسخة الشقة} \\ \text{2 (0.15) : احتمال الخطاء} \\ \text{تج/تب : التجانس والتباين} \end{array} \right\} \begin{array}{l} \hat{A} = \frac{2(2.6) \times \text{تج} \times \text{تب}}{2(0.15)} \\ \text{ن} = \frac{\hat{A} \times 1 + 1}{\text{نو}} \end{array}$$

إن جميع نسب التزايد الواردة تم التوصل إليها عن طريق تطبيق الصيغة الرياضية الآتية :

$$\left\{ \begin{array}{l} \text{ن : السنوات الفاصلة بين} \\ \text{الإحصائيين} \end{array} \right\} \begin{array}{l} \text{ن : إحصاء سابق} \\ \text{ن : إحصاء لاحق} \end{array} \quad \sqrt{\frac{\text{ن}}{\text{ن} - 1}}$$

3- المنظومة الغائية هي التي تكتشف صدفة غايتها عكس المنظومة القصدية التي تكون توقعية (Waliser B) . أما التاريخية فهي فلسفة الباحث إذ يبحث / أو فلسفة المؤرخ إذ يؤرخ . . . / (عبد الله المروني ، أزمة المشققين العرب) .

4- تصنيف القطاعات الثلاثة للأمريكي C. Clarck ، والتصنيف الثنائي قطاع تقليدي / قطاع عصري ، وتصنيف M. Santos : دورة عليا / دورة سفلى (انظر المصادر) .

5- ويشمل ذلك الجرار ، البذور المخصبات ، المبيدات والتحليلات المخبرية وقطع الغيار وغير ذلك من الآلات الفلاحية ...

6- كلما كان المعيار ممثلا بكيفية موجبة بحي ما ، حصل ذلك الحي على نقطة 6/6 ، وكلما كان سالبا حصل على نقطة 2/6 ، وكلما كان ممثلا بشكل متوسط الجودة حصل الحي على نقطة 4/6 .

7- محمد بوسلام ، تاريخ قبيلة بني ملال (1854 - 1916) ، مطبعة المعارف الجديدة ، 1991 .

8- Schema directeur de la ville de Beni-Mellal, Document de Synthèse.

9- عبد الفتاح أبو العز ، بني ملال قطب غير مكتمل ، أطروحة السلك الثالث / كلية الآداب ، الرباط 1989 - 1990 .

المصادر

- . Clarck (C.), **Les conditions du progrès économique**, Paris, P.U.F., 1960.
- . Santos (M.), **L'espace partagé**, Paris, Ed. M.T. H. Genin, Librairies techniques, 1975.
- . **Schema directeur de la ville de Beni Mellal**, Document de Synthèse, office Allemand de la cooperation technique S. A. R. L. Plance consulting. G. M. B. H. Essen - Hambourg - London 1978.
- . Waliser (B.), **Systèmes et Modèles, Introduction critique à l'analyse de systèmes**, Paris, Ed. du Seuil 1977.
- . Bachelard (G.), **La philosophie du non**, Paris, P. U. F. 1988.
- محمد بوسلام ، تاريخ قبيلة بني ملال (1854 - 1916) ، مطبعة المعارف الجديدة 1991 .
- محاضر المجالس البلدية بين سنة 1976 و 1989 .
- المخططات الوطنية والمخطط الجهوي " انبثاق عمالة بني ملال كقطب مستقبلي للتنمية " عن دوائر التخطيط .

السقي والتمدين : حالة مدينة الفقيه بن صالح

محمد مداد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

مقدمة:

السقي والتمدين ثنائية يرتبط طرفاها بعلاقة وثيقة في تادلة . فبعد أن اكتسب كل منهما شروط ديناميته الخاصة أصبح لكل طرف كيانه ومساره ومصيره ، علما بأنه لا يستقيم لأحد منهما كيانه على الوجه الصحيح بغير الطرف الآخر .

كيف تطورت المدن وما نمط التمدين بالدائرة السقوية العصرية لتادلة ؟

سأحاول الإجابة عن السؤال بعرض سياق تطور المجال السقي ، والبحث في أبعاد العلاقة العنقوية بين التمدين والفلاحة العصرية بتادلة ، والنظر في نمط التمدين ووظيفته وقيمته وبنيته ، والتعرف من خلال كل ذلك على ضعف التكامل بين مجال ريفي منظم ومعد بشكل متطور ومجال حضري يتطور بتلقائية .

وباختيار دراسة الفقيه بن صالح ، أريد أن أقدم حالة للتمدنين في الدوائر السقوية العصرية ، والذي لا يواكب من حيث قيمته وبنيته ودوره مايشهده ريفه من ثروات وإنجازات اقتصادية ومجالية كبرى .

وهذه الحالة قد لا تكون قابلة للتعميم بالنسبة لدوائر سقوية أخرى ، إلا أن كثيرا من أسس ومظاهر التمدين الضعيف بتادلة مشكل يتشابه في جل المدن المتوسطة والصغرى . بل إن دراسة تطور مدينة الفقيه بن صالح وأسسها الاقتصادية والاجتماعية والمجالية تؤكد أن وضعيتها وقيمة تمدينها أدنى وأقل جودة من مثيلاتها في مناطق أخرى أقل موارد وأقل ثروة .

1 - التحديث الفلاحي ساهم في نمو الهجرة وانتشار المدن بقطاع تادلة :

انتشار السقي العصري بتادلة مرتبط بالمرحلة الاستعمارية ، إذ بدأت أولى

عمليات التحديث بقطاع بني عمير منذ 1929 ، في وقت لم يستأنف فيه تجهيز ونشر الزراعات العصرية بقطاع بني موسى إلا بعد بناء سد بين الودان على واد العبيد سنة 1953 . وقد غير هذا التوجه الهياكل الفلاحية بإدخاله تقنيات إنتاج حديثة عقلانية ، وغير أيضا الوضع الاجتماعي ونوعية الأنشطة الاقتصادية . وبفضل التجهيزات المائية الضخمة وما صاحبها من انتشار الزراعة الحديثة (القطن ، الشمندر ، الحوامض . . .) انطلقت تادلة تنتج من أجل السوق ووفقا لقوانين نط الإنتاج الرأسمالي .

وقد استمرت خصائص وأسس هذه السياسة الفلاحية بعد الاستقلال ويتجلى ذلك في الاهتمام بالسقي العصري وإحلال مجموعة من المزروعات الصناعية أو القابلة للتصدير محل الحبوب . فامتلكت هذه الدائرة من تادلة مقومات " المنطقة المحظوظة " التي استفادت من الاستثمارات المالية والتقنية والقانونية ، وتلت بذلك حوافز التطور والتحول الاقتصادي والاجتماعي . وبلغت المساحات المجهزة حاليا حوالي 115 ألف هكتار ⁽¹⁾ .

من سلبيات هذه السياسة وهذا التحديث أنه تم في وقت بقيت فيه الأرياف المحيطة بالدائرة المسقية تسخر وسائل استغلالها " التقليدية " ، وتعيش بها كتلة ديموغرافية تنمو بسرعة في إطار ما يشهده المغرب من نمو ديموغرافي عام . فظهرت تادلة داخل هذا الوضع غنية وذات قوة استقطاب عالية على ساكنة الأقاليم البورية الفقيرة التي تحيط بها والتي لم تشهد مثل هذا التحديث أو أنهكتها سنوات الجفاف .

في الواقع ، أفكار الإنسان لما تتحقق على المجال ويمر عليها قليل من الزمن ، تصبح لها دينامية ومميزات وقواعد خاصة تكتسبها نتيجة لدخول عناصر خارجية . ويفقد معها الإنسان ، صاحب الفكرة ، القدرة على التحكم فيها وفي مسار تطورها . وهذا حال فكرة التحديث التي أدت ، بالإضافة إلى ما يشهده قطاع بني موسى وبني عمير من تحولات ، إلى عدة نتائج جانبية غير متوقعة أو على الأقل بلغت أبعادها حدا لم يكن متوقعا ، ستنشأ عنها شروط ومميزات جديدة لدينامية ذاتية بقطاعي تادلة .

ويمكن أن نجمل بعض هذه النتائج فيما يلي :

* ميز مجالي واضح بين الدوائر المسقية ومحيطها البوري ، إذ اتسعت الفجوة

بين قطاعي بني عمير وبني موسى المتقدمين نسبيا وحزام الأقاليم المجاورة الذي لم يعرف تغييرا مهما نحو تحسين مستوى العيش .

* أصبحت تادلة مقصد المهاجرين ، فقد استقر جزء منهم للعمل في المجال الريفي ، في حين استقر الجزء الآخر بالمراكز الحضرية الناشئة باعتبارها مجالات ترتفع بها حظوظ الحصول على شغل سواء بالمجال الريفي انطلاقا من هذه المراكز ، أو بالمراكز نفسها لما أصبحت تحظى به من خدمات وأنشطة اقتصادية أو إدارية أو اجتماعية جاءت مرافقة للتحديث الفلاحي (إدارات ، خدمات ، معامل . . .) .

* نشوء وتضخم الظاهرة الحضرية لا على مستوى عدد المدن فحسب (7 مراكز حضرية داخل القطاع المسمي) ولكن أيضا على مستوى حجم السكان داخل كل مدينة (الفقيه بن صالح 60 ألف نسمة تقريبا) وتطورها (سوق السبت 12.7 ٪ كزيادة سنوية) . وهذا في حد ذاته تغيير محلي هام ، إذ تعزز القطب الجهوي بظهور مدن متوسطة أو صغرى مكونة بذلك جهازا حضريا لم يرق بعد إلى مستوى الشبكة الحضرية . وأكبر مدينة بين هذه المراكز الناشئة هي الفقيه بن صالح .

2 - التمدن بالقطاع المسمي يشبه مثيله خارج القطاع :

كيف تكون مركز الفقيه بن صالح ؟

ساهمت الهجرة في نمو السكان ، والهجرة بهذه المراكز أقدم منها في مراكز القطاع المسمي . في البداية كانت توافق تطور المجال المسمي ، لكن في السنوات الأخيرة شهد المركز تزايدا في حجم السكان المهاجرين نتيجة لديناميته الذاتية .

من خلال نتائج الإحصاءات الرسمية وبحوث حديثة تبين أن 2/3 أسر المركز هم مهاجرون كما نرى من خلال النسب التالية :

68.3 ٪	من السكان سنة 1971	هم مهاجرون .
72.1 ٪	" " " 1982	" " " " " " " " " " " "
67 ٪	" " " 1989	" " " " " " " " " " " "

ظاهرة الهجرة تميز جميع المجالات الحضرية بالمغرب ، لكن دلالتها وآثارها

بالقطاع المسقي أكبر بسبب حداثة وسرعة التمددين الناتج أساسا عن امتصاص المهاجرين من سكان الأرياف المحلية وأيضاً من سكان المناطق الحضرية والريفية القريبة . ويستنتج من دراسة حديثة أن تيار الهجرة قد تقوى خلال العقد الأخيرين .

15 ٪ من المهاجرين حلوا بالمدينة مع خروج المعمر .

20 ٪ من كل المهاجرين أقبلوا بين الاستقلال وسنة 1971 .

30 ٪ قدموا خلال عقد السبعينيات .

35 ٪ قدموا خلال عقد الثمانينيات .⁽²⁾

لهذا تزايد عدد سكان المدينة بوثيرة أسرع خلال العقد الأخير .

1960 بلغ عدد السكان 13484 نسمة .

1982 " " " 50933 نسمة .

1990 قدر عدد السكان 60000 نسمة .

ولكل مرحلة من تاريخ الهجرة عامل أو عوامل أساسية لطرد السكان ، كما أنها تتباين من حيث مصادر الهجرة . لكن عموماً فمصادر الهجرة إما محلية ، أو من أرياف الزراعات البورية المحادية للقطاع المسقي كقلعة السراغنة ، خريبكة ، أزيلال ، الشاوية . . .

خلال العقود الأخيرة أعطت الأسس الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للمركز صورة " المدينة المحظوظة " ، فاشتد الإقبال عليها تحت ضغط الحاجة إلى ظروف عيش أفضل والأمل في الاستفادة من إمكانات الشغل ومن المصالح الإدارية والاجتماعية . ومن ثم فالمضمون الاجتماعي للهجرة إلى الفقيه بن صالح مضمون فقير . لذلك ترتب عنها أساساً أمران سيكون لهما أبعاد الأثر على جودة التمددين .

* فالخصائص الاجتماعية لهؤلاء المهاجرين لها أثر في دينامية المدينة على مستوى أنشطة السكان .

* انعكاساتها السوسيوإقليمية واضحة ، فهي التي تخلق شبكة الإنتاج الذاتي وخصوصاً السكن العشوائي .

1 - دينامية المدينة على مستوى أنشطة السكان :

قليل هم سكان المدينة النشطون اقتصاديا من بإمكانهم إيجاد مصادر رزق كافية وثابتة الوظائف في الأعمال المستقرة أو أجهزة الخدمات الحكومية ، أما أغلبية السكان النشطين فقد تعين عليهم إيجاد مصادر دخلهم الخاصة . وهذه الوضعية أسفرت على نمو متسارع لأنشطة مؤقتة أو هامشية . لهذا فحوالي 45 ٪ من النشطين هم في العمل المؤقت ، ويشغلون إما في الحقول بالأرياف أو يعملون داخل المركز في أعمال متدنية أو غير ماهرة . وتزيد هذه النسبة في الأحياء الواقعة على الأطراف . إلى جانب ذلك فحوالي 17 إلى 20 ٪ ممن هم في سن العمل لا يشتغلون . وهذا يؤكد على أن موارد كثير من السكان غير كافية أو غير دائمة .

وإذا ما تناولنا حجم الأنشطة بالمدينة ، نلاحظ بأنه انتقل من 200 نشاطا سنة 1960 إلى حوالي 824 نشاطا سنة 1971 لـ يبلغ 1500 نشاطا في 1990 . هذه الأرقام تخفي ضعف نفوذ هذه الأنشطة وهشاشتها . ويمكن ملاحظة ذلك من خلال المعطيات التالية :

44 ٪ منها أنشطة تجارية دون نفوذ كبير .

41 ٪ خدمات حرة هزيلة .

15 ٪ أنشطة أخرى . (3)

ويلعب السوق الأسبوعي بالمدينة دورا هاما لحضوره القوي في بنية الاقتصاد المحلي ونفوذه الجهوي والوطني . نستخرج من هذه المؤشرات أن أغلب السكان بالمدينة لهم مداخيل منخفضة ، باعتبار ضعف الموارد في القطاعات التي تستقبل هؤلاء السكان (العمل المؤقت ، تجارة بسيطة ، خدمات كالإصلاح والصيانة ، العمل في السوق . . .) . وبالتالي يجدون أنفسهم في وضعية مادية تحد من قدراتهم الاستهلاكية ، وتطبع ممارساتهم الحضرية بطابع ريفي .

فساكنة المدن من الناحية النظرية كثيرة عوائد الترف والحاجات . وتعتمد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتتقلب ضرورات ، فتكثر لذلك نفقات السكان ، ويحتاج الإنسان إلى موارد كثيرة للنفقة على نفسه وأسرته في ضرورات عيشهم . الأمر الذي يخلق آثارا

جانبية كثيرة .

على مستوى الواقع فساكنة المركز تعدد مصادر دخلها بالعمل المستمر ويتعدد النشطين داخل كل أسرة والتعاون كبديل لمواجهة ضرورات العيش . إلا أنه نادرا ما يحصل لدى أغلبية السكان ما فوق الحاجة من المال لتسعى به إلى غايات أخرى كالأهتمام بنوعية بناء المسكن ، وضرورة احترام قوانين البناء ، وتجهيز المسكن بضرورات الحياة

2 - الانعكاسات السوسيو مجالية :

استقر جل المهاجرين في الأحياء الواقعة على الأطراف ، ولعل المسألة العقارية ، وضعف مداخل السكان ، وعدم تدخل السلطات المحلية ، عناصر جعلت المركز يتوسع دون أن يتم التحكم في نوع التمدين وترشيد البناء .

ونتج عن ذلك تباين اجتماعي يعكسه المجال الحضري في التناقض الموجود بين أحياء منظمة ومجهزة (كالحلي الإداري ، وجزء من القواسم ، وحي جميلة . . .) ، وأحياء هامشية غير قانونية من إنتاج الفئات الفقيرة من السكان كحل ذاتي لوضعيتهم في جزء من الجسم الحضري . وهذا السكن العشوائي الذاتي انتشر واسعا نتيجة للفصل الاجتماعي وفي كل جهات المدينة ، إذ أصبحت أحياء (" سيدي أحمد الضاوي " ، " لارمود " ، " سيدي شنان " ، " الشمندر " ، " دراغو " ، " آيت الراضي ") تأوي اليوم تقريبا نصف سكان الفقيه بن صالح ، وتساهم في التوسع الحضري العشوائي . وسكن ذوي الدخول المنخفضة أيا كان شكله بالفقيه بن صالح يشترك في الخصائص التالية :

- يفتقد إلى الهياكل الارتكازية والخدمات الكافية (الصحة ، التعليم ، المرافق العمومية . . .) .

- يعيش السكان داخلها في ظروف مكتظة نظرا لسيادة الأسر ذات الأحجام المتوسطة والكبرى ، والتي تعيش داخل مساكن صغيرة المساحة .

- مساكن في أغلبها ضعيفة الجودة على مستوى البناء . ففي هذه الأحياء ينتشر نمط المساكن العادية (الدور) التي تتميز بتواضع وبساطة بنيتها وملاحها

الجمالية والهندسية . ورغم كون البناء الصلب هو السائد إلا أنه لم يرق إلى مستوى لائق من الجودة .

خاتمة:

إنطلاقاً من هذه الملاحظات والمعطيات نستنتج أن التمدين الحديث بالقطاع المسقي لتادلة ليس متوقعا ومخططا له ، كما أنه لم يأت بعد حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه المرتبطة بتنمية المجال الريفي . أي لم يأت كانتقال متدرج لساكنة سهل تادلة من الريف إلى المدينة كغاية لتطورها من مرحلة إلى أخرى أفضل . بل هو تمدين تطور بشكل تلقائي ، فأفرز بذلك أجساما حضرية لا يختلف واقعها عن المدن خارج القطاع المسقي . إزاء هذا الاتجاه من التمدين ، والذي رسمنا بعض معالمه ، ليس في الوقت متسع لانتظار برنامج إعداد بطيء . إذ يجب تنظيم التمدين بسرعة وفعالية قصوى لكون أي تأخير سيعقد مظاهر التمدين العشوائي ويعقد آلياته ويبعد الحلول . كما أن هذا التناقض ، بين مجال حضري ينتشر دون إعداد ومجال ريفي معد ومنظم ، لا يمكن حله دون إرادة وتنسيق بين المؤسسات المنظمة لكل مجال . وأي اختلاف بينها يفسح المجال لمشاكل أخطر كاحتدام الفوارق الاجتماعية داخل المدن ، والصراع على الأراضي المحيطة بالمدن ، ومشاكل الشغل والسكن ، وغيرها . . .

الهوامش .

- 1- المصدر : متون جغرافيات المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بتادلة (1992) .
- 2- المصدر : عمل ميداني أنجز سنة 1989 .
- 3- المصدر : عمل ميداني أنجز سنة 1989 .

المصادر

- .Couvreur (G.), "Note sur l'économie Marocaine", R. G.M. n° 10, 1966.
- .Couvreur (G.), "Note sur l'économie marocaine en 1977", R. G. M. n° 2, 1967.
- كربوط (محمد) ، " سياسة الإعدادات الهيدروفلحية العصرية بالمغرب : المنجزات الكبرى وحدود نجاحها " ، مجلة جغرافية المغرب ، عدد 9 ، السلسلة الجديدة ، 1985 .
- مذاد (محمد) ، الجهاز الحضري بتادلة : الفقيه بن صالح وسوق السبت مدينتان في توسع مفرط ، دبلوم الدراسات العليا ، كلية الآداب ، الرباط ، 1990 .

الجهاز الحضري بتادلا : قصة تادلة ، القصيبة (1) وزاوية الشيخ ، مراكز قديمة في تحول .

محمد ميوسي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

نريد في البداية ، الإشارة إلى صعوبة تقديم موضوع من هذا الحجم في حيز زمني ضيق كالذي يسمح به برنامج الندوة . ولا نخفي انشغالنا البالغ بسؤال محير ، وهو كيف يمكن إفادة المستمع وإشباع فضوله العلمي في هذا الحيز الضيق ؟ ولكن ما لا يدرك كله يدرك بعضه ، وعملا بهذا سنحاول الوقوف على أهم الأمور التي توضح التحول الذي عرفته المراكز الثلاثة على مستوى بنيتها خصوصا ، ثم على مستوى وظائفها .

قبل الشروع في تقديم نتائج العمل ، نود في البداية تسليط الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بالعنوان المقترح : خاصة منها مفهوم المراكز القديمة ومفهوم التحول . أما مفهوم الجهاز الحضري ، فإن الوقت المخصص لا يسمح ولا يسع للحديث عنه .

بالنسبة لنعتنا للمراكز الثلاثة بكونها قديمة ، فإن ذلك يرجع إلى الطبيعة الحياضية لهذا المفهوم ؛ فمفهوم القدم يعطي دلالات زمانية أكثر منها مجالية . كما أن مفهوم القدم ، لا ينزّم المراكز الثلاثة بالتحلي بصفات التمدين الذي عرفت به المدن التقليدية بالمغرب . من هذا المنطلق ، يتضح أننا لسنا أمام حواضر تقليدية بالمعنى الذي ساد في بعض حواضر مغرب ما قبل الحماية ، وإنما نحن أمام مستوطنات بشرية تفاوت مستوى التمدين بها من مستوى المركز الهجين التنظيم ، إلى الحصن أو القلعة العسكرية ، مرورا بمستوى الزاوية .

أما مفهوم التحول ، فإننا نقصد به التحول الذي طرأ على ثلاثة جوانب أساسية في المعالجة الجغرافية ؛ وتشمل التحول الذي طرأ على البنية ثم على الوظيفة ثم على مستوى الآليات المنتجة للمجال . إلا أننا في هذا العرض سنركز على التحول الذي طرأ على المستوى الأول والثاني ، دون إقصاء ضمني للمستوى الثالث ، أي الآليات باعتباره المستوى المحدد للمستويات الأخرى .

تبقى الإشارة إلى ملاحظة منهجية لها تأثير كبير على طبيعة الموضوع ، وهي أن الجغرافي عندما يتحدث عن مفهوم البنية أو مفهوم الوظيفة ، فإنه يكون أكثر إجرائية عندما يعالج معطيات حديثة ، لكن عند رجوعه إلى فترات قديمة ، فإنه يعتمد على أدوات من إنتاج غيره من الباحثين . انطلاقاً من هاته الملاحظة نقول إن حديثنا عن مفهومي الوظيفة والبنية خلال مرحلتي ما قبل الحماية ، والحماية ، يجب أن نأخذ فيه بعين الاعتبار اعتمادنا على مصادر متباينة ، منها ما هو مستمد من الكتابات التاريخية ، وجزء أساسي منها مأخوذ من الرواية الشفوية ، خاصة ما يتعلق بتنظيم المراكز خلال نهاية القرن التاسع عشر وحتى عشية الحماية .

أما حديثنا عن مفهومي البنية والوظيفة خلال فترة الاستقلال ، فيأتي من استغلالنا لبنوك المعلومات - الإحصاءات العامة للسكان والسكنى - وكذلك للعمل الميداني .

١ - محولات بنيوية هامة :

١ - ١ . ثمدين ضعيف خلال مرحلة ما قبل الحماية :

دون الرجوع إلى مشاكل التأسيس والتسميات ، فمركز قصبة تادلة بدأ يؤكد حضوره الفعلي خلال عهد السلطان المولى إسماعيل الذي بنى القصبة حيث أقام فيها فحله مع حوالي 3000 من جيش البخاري⁽²⁾ . وباستثناء هاته القلعة العسكرية ، ليس في علمنا وجود حاضرة من الحجم الذي يستدعي البحث عن أشكال التنظيم . ومع نهاية القرن 19 وبداية القرن العشرين ، عرفت قصبة تادلة توسعاً خارج القصبة الإسماعيلية ، قتل في حي الزرايب . وما يؤكد هذا الطرح عشورنا على صور فتوغرافية التقطت خلال الفترة الاستعمارية لهذا الجزء من المدينة ، تحمل عنوان مدينة الأهالي Ville des indigènes .

إن مقارنة التنظيم الذي وجد في قصبة تادلة وبالضبط في حي الزرايب ، مع بعض الأشكال التي وجدت في بعض المدن التقليدية بالمغرب ، يجعلنا نخرج بالنتائج الآتية :

* إذا كانت معظم المدن التقليدية بالمغرب محاطة بسور ، فإن حي الزرايب

بقصبة تادلة لم يكن يتوفر على هذا السور ، وحتى البقايا الأثرية التي يمكن الاعتماد عليها غير موجودة .

* غياب السور جعل الأزقة تفتح مباشرة على الخارج ، مما حتم وضع باب لكل زقاق ولكل درب .

* إذا كانت الكثير من الدراسات تشير إلى أن دروب المدينة المغربية التقليدية كانت في كثير من الأحيان ذات مساكن منتظمة حول بيوت الشرفاء والأعيان ، فإن الدروب في قصبة تادلة كانت تنتظم حول بيوت أعيان القبائل ، حيث لوحظ أن توزيعها يتم حسب تعدد القبائل من جهة وحسب تعدد فخذات كل قبيلة من جهة ثانية .

* على مستوى المؤسسات المنظمة للمجال سواء مالية أو إدارية أو اقتصادية ، فهناك صعوبة تحديدها . فعلى سبيل المثال هناك بعض الشخصيات التي لم يتأكد لنا ممارسة مهامها داخل هاته المدينة ، على الرغم من تواجد العديد منها بالمنطقة . ونعتقد أن هذا يرجع إلى صعوبة التمييز بين الكثير من شخصيات تادلا بالمعنى العام ، وشخصيات قصبة تادلة . (من بين هاته الشخصيات - الباشا - المحتسب - الأمناء إلخ) .

* على مستوى التوزيع الوظيفي لأجزاء المدينة ، لم يكن هناك تقسيم على شاكلة المدن التقليدية حيث الفصل بين المجالات السكنية والمجالات الاقتصادية واضحا .

أما في زاوية الشيخ ، فإن الوضعية تختلف نسبيا . فالزاوية كفرع من الزاوية الناصرية ، جعل المولى إسماعيل يشجع ظهورها وذلك للحد من نفوذ الزاوية الشراقوية ، حيث ستكتسب خصوصية يجعل تنظيمها أقرب إلى تنظيم الزوايا منه إلى المدن التقليدية . إلا أنه ورغم تواجد هاته المؤسسة ، فإن ذلك لم يمنع من تواجد بعض المؤسسات المعروفة في مجالات أخرى .

على مستوى المورفولوجيا :

* تواجد سور يحيط بالزاوية وتوفر أبواب تغلق ليلا .

* تواجد دروب مستقلة بعضها عن البعض واحتضانها في ذات الوقت للعديد من الأنشطة .

* محور تنظيم الزاوية على بيت أحد أحفاد الناصريين ، على عكس الكثير من المدن التقليدية حيث كان التنظيم متمركزا حول المسجد الكبير .

على المستوى الاجتماعي :

* هناك فصل بين أهل الزاوية والأسر النبيلة ، وخدم الزاوية .

* توفر الزاوية على نظام تعليمي هام ، حيث كانت تحتضن العديد من الطلبة الذين كانوا يدعون لمُساوَرين . وكانت هناك ملاحق في كل من دشر الواد وأوعبيد الله .

* توفر نظام لحراسة الزاوية تقوم به الأسر بالتناوب .

أما في القصيبة ، فإن مستوى التمدن كان أقل . بل يمكن القول إنه كان منعزلا ، حيث اقتصر الأمر خلال هاته المرحلة على تواجد قصر في ملك موحى وسعيد قائد قبيلة آيت ويرة .

1 - 2. فترة الحماية والتحويلات الكبرى :

ففي قصبة تادلة حيث كان الاحتلال مبكرا (1913/04/07) ظهر تحول كبير على مورفولوجية المدينة وعلى مضمونها الاجتماعي . فالتواجد الفرنسي حتم إقامة مساكن المعمرين إلى جانب الإدارة . وهكذا ظهر الحي الإداري ، المعروف لدى سكان قصبة تادلة بالكانتينات . وبدأ الفصل بين مجالين : مجال المغاربة في الجزء القديم ، والإقامات الجديدة للمعمرين . ونعتقد أن جمالية هذا الحي ، على الرغم من صغر حجم المدينة ، تتماشى مع روح الجمالية التي سادت خلال الفترة الأولى من التواجد الاستعماري في المغرب ؛ خاصة في الوقت الذي كان فيه بروس مهندس ليوطي يضع تصاميم المدن الكبرى في المغرب⁽³⁾ .

إلا أن التحويلات التي طرأت على المدينة طوال الفترة الاستعمارية ، لا يمكن فصلها عما يجري بالأرياف . فمسلسل الاستيلاء على الأراضي كان وراء تزايد تيار الهجرة نحو المدينة . وأمام عجز المعمرين عن إيجاد حلول للمسألة ، كما هو الشأن في باقي أجزاء البلاد ، كان لابد من ظهور سكن صفيحي نظم على شكل شبكات استقبال كما هو في حي بودراع .

عند نهاية الحماية ، كانت المدينة تنتظم في ثلاث بنيات - على الرغم من التعميم المستعمل - الحي القديم ، الحي الإداري - شبكات الاستقبال .

أما في القصيبة وزاوية الشيخ ، فإن وقع الحماية لم يكن من نفس المستوى الذي سجل في قصبة تادلة ، وهذا يرجع بالطبع إلى اختلاف حجم المعمرين بين المراكز الثلاثة . إلا أن هذا لم يمنع من تسجيل توسع ملحوظ نذكر منه على سبيل المثال ، ظهور حي المطالب في زاوية الشيخ وحي العين في القصيبة .

الخلاصة هي أنه عشية الاستقلال ، كانت الوضعية في قصبة تادلة أكثر وضوحا ، حيث الفصل بين ثلاث مستويات مجالية واجتماعية ، بينما في زاوية الشيخ والقصيبة لم يكن الفصل واضحا .

1 - 3. فترة الاستقلال ومستويان من التمدين :

سبقت الإشارة إلى أن الجغرافي يكون أكثر إجرائية عندما يعالج معطيات حديثة ، إلا أن الإطار الذي نقدم فيه العمل لا يسمح باستعمال أداة أساسية لدى الجغرافي وهي الخريطة . ولتفادي إثقال القارئ بالجوانب التقنية ، سنحاول تقديم المؤشرات التي نراها أساسية لبلوغ الهدف .

على مستوى المؤشرات التي تضم بعض جوانب المورفولوجيا :

بالنسبة لمواد البناء ، لوحظ أن نسبة السكن الصلب وصلت في قصبة تادلة إلى 79 ٪ سنة 1971 ونزلت إلى 70 ٪ سنة 1989 ، وهذا بسبب تراجع بعض أشكال البناء التي كانت سائدة . بينما ارتفعت النسبة في زاوية الشيخ من 28 ٪ إلى 75 ٪ ومن 80 ٪ إلى 90 ٪ في القصيبة . وهذا راجع إلى خصوصية البيئة المحلية المطيرة . هاته الأرقام العامة ، تخفي تباينات محلية ، حيث تصل نسبة السكن الصلب في بعض أحياء قصبة تادلة 100 ٪ ، بينما تسجل نسبة 0 ٪ كما هو الشأن في حي المرس الصفيحي .

على مستوى حجم المسكن ، انتقل متوسط الغرف بالمسكن في قصبة تادلة من 2.1 سنة 71 إلى 2.7 غرفة سنة 89 وانتقل في زاوية الشيخ والقصيبة على التوالي من

1.8 و 1.9 إلى 2.7 و 2.6 . وعلى مستوى الارتباط بين متغيرتي حجم الأسرة وحجم المسكن ، فقد انتقل في قصبة تادلة من 0.45 إلى 0.38 بين 1971 و 1989 وب 0.22 إلى 0.62 في زاوية الشيخ وب 0.25 إلى 0.48 في القصيبة .

على مستوى التجهيز بالماء الشروب ، ففي قصبة تادلة هناك 70 ٪ من المساكن مزودة بماء الأنابيب ، بعدما كانت فقط 42 ٪ سنة 82 و 36 ٪ سنة 71 . أما في الزاوية ، فالنسبة تصل إلى 91 ٪ سنة 89 بعدما كانت سنة 82 تصل إلى 69 ٪ وانعدمت سنة 71 . أما في القصيبة ، فإن النسبة وصلت إلى 55 ٪ بعدما كانت 3.3 ٪ فقط سنة 71 . وهذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف كلفة التجهيز بالماء الشروب بين المراكز الثلاثة ، ذلك أن عدم تواجد الوكالة المستقلة في كل من القصيبة وزاوية الشيخ ، جعل النسبة تتطور بشكل واضح . هاته الأرقام ، هي الأخرى ، لا تعكس التباينات المجالية ، فهناك أحياء حيث ينعدم الماء كما هو الشأن بالنسبة لحي المرس بقصبة تادلة .

أما فيما يخص المؤشرات التي تسلط الضوء على بعض الجوانب الاجتماعية ، فعلى مستوى أحجام الأسر يلاحظ أنها لا تبتعد عن المعدلات الوطنية ، فبين 1971 - 1989 انتقل متوسط حجم الأسر في قصبة تادلة من 5.1 إلى 5.6 ، وفي زاوية الشيخ من 4.2 إلى 5.2 وفي القصيبة من 4.2 إلى 5.6 فرد للأسرة .

على مستوى الأمية ، عبر مؤشر القراءة والكتابة ، فإن نسبتها وصلت سنة 1989 إلى 43 ٪ في قصبة تادلة و 48 ٪ في القصيبة و 53 ٪ في الزاوية ، مع العلم أن هناك بعض الأحياء التي تصل فيها النسبة إلى 70 ٪ وأخرى تصل فيها إلى مستويات أدنى .

على مستوى المهن الممارسة من طرف السكان النشيطين ، يلاحظ وجود علاقة وطيدة بين حجم سكان المركز ، وطبيعة المهن السائدة فيه . ففي قصبة تادلة حيث وصل عدد السكان سنة 89 ، 33767 ن بلغت نسبة العاملين في قطاع الوظيفة العمومية 20.7 ٪ ، وتنزل إلى 11.4 ٪ في مركز زاوية الشيخ حيث عدد السكان سنة 89 ، 17100 ن ، لتصل إلى 9.9 ٪ في القصيبة حيث عدد السكان لا يتعدى 14009 ن . وعلى العموم فإن العاملين في قطاع الجندية والمياومين يشكلون نسبة 46 ٪ في قصبة

تادلة و 54 ٪ في زاوية الشيخ و 52.7 ٪ في القصيبة وذلك من مجموع النشيطين المشتغلين سنة 1989 .

من بين المؤشرات التي لها علاقة بالتحول ، هناك حيازة المسكن . ولنأخذ على سبيل المثال أهمية السكن المجاني حيث نسبة الساكنين مجانا وصلت 4.8 ٪ في قصبة تادلة و 12.8 ٪ في القصيبة و 17 ٪ في زاوية الشيخ وأعتقد أن هذا قادر على تلخيص مستوى تحول المراكز الثلاثة .

إذا انتقلنا إلى مستوى الأنشطة الحضرية ، ودون الدخول في إشكالية تصنيفها ، نعتقد أن الأرقام العامة بإمكانها تقديم صورة عن التحول الذي وقع في هذا الجانب :

تطور عدد الأنشطة من 1960 إلى 1989 (4)

1989	1982	1971	1960	
776	761	526	56	قصبة تادلة
570	550	457	0	زاوية الشيخ
384	416	250	63	القصيبة

لتوضيح ضعف هاته الأنشطة وعدم قدرتها على تقديم ريع إضافي يساهم في سرعة تحول المجال ، نقدم الملاحظات التالية : فخلال سنة 89 شكلت أنشطة التجارة 48 ٪ في القصيبة و 50 ٪ في قصبة تادلة و 51 ٪ في زاوية الشيخ من مجموع الأنشطة ، تحتل فيها تجارة المواد الغذائية نسبة قد تصل إلى 70 ٪ .

أما على مستوى التوزيع فالمراكز الثلاثة لازالت لم تتعد مستوى المركز الوحيد : الزرايب في قصبة تادلة ، بويمجان في الزاوية ، وآيت بن يوسف في القصيبة .

إن الجمع بين معايير المورفولوجيا ومعايير المضمون الاجتماعي والأنشطة الحضرية ، والتي لم نقدم منها سوى الشيء القليل ، سمح لنا في النهاية بالخروج بتصنيف بنية المراكز الثلاثة :

* مركز ثلاثي البنية وهو مركز قصبة تادلة .

* ثم ثنائية التنظيم في كل من القصيبة وزاوية الشيخ .

II - تضارب في التحول الوظيفي :

II - 1 . فترة ما قبل الحماية : إشعاع مختلف :

نسبت الإشارة إلى صعوبة الحديث عن مفهوم الوظيفة في فترات سابقة ، ونظرا لغياب المادة التي تسمح ببناء الموضوع بناء منهجيا ، فإننا نقتصر على بعض الجوانب التي تساعد في تحديد الوظيفة ، ومنها إشعاع بعض القطاعات الاقتصادية أو الاجتماعية أو المؤسساتية .

فقصبة تادلة كان نفوذها العسكري واضحاً مع المخزن التقليدي ، وعلى هذا المستوى يمكن القول إن المجال الذي كان يمتد عليه القرار الصادر من قصبة تادلة ، يتقلص أو يتمدد حسب الفترات التاريخية . نفس النفوذ العسكري يسري على القصيبة كقلعة للقائد موحى وسعيد .

في زاوية الشيخ ، كان النفوذ الديني حاضرا ولو أنه كان يتوقف في بعض الاتجاهات خاصة عندما يصطدم بقوة رادعة أو نفوذ زاوية منافسة (أبي الجعد) ولكن على مستوى الاستقطاب فمن المؤكد وجود ارتباط وثيق بينها وبين الزاوية الناصرية في الجنوب حتى على المستوى الاقتصادي ، حيث كانت الزاوية ترسل فائض منتوجها إلى الزاوية الأم .

II - 2 . فترة الحماية : تعزيز أدوار واختفاء أخرى .

من بين الأدوار التي تعززت نجد الدور العسكري لقصبة تادلة التي احتضنت الثكنات العسكرية من النوع الحديث ، حيث أصبحت المؤسسة العسكرية تراقب مجال تادلا . أضف إلى ذلك الدور الإداري الذي جعل قصبة تادلة تحتل مكانة عاصمة الإقليم . ونفس الشيء يقال عن القصيبة ، حيث أصبح نفوذها أوسع مما كان عليه ، وذلك بفعل تركيز معالم المراقبة بها والتي وصلت مجالات نفوذها حتى مركز أبي الجعد ، كما

ورد في أرشيف القصيبة .

أما في زاوية الشيخ ، فقد أصبح من المؤكد تراجع نفوذها الديني ، وغياب الدور الإداري ، وذلك لغياب الموقع الاستراتيجي للزاوية .

|| - 3 . فترة الاستقلال : تحول هام في نفوذ المراكز الثلاثة .

* ظهور تقسيم إداري جديد ، حيث أصبحت بني ملال عاصمة الإقليم .

* تعزيز ظاهرة السقي بظهور قطاع بني موسى .

* ظهور مراكز جديدة بالقطاع المسقي .

* تحول الأنظار عن هاته المراكز القديمة .

على العموم يمكن القول إن النفوذ أصبح محددًا في كثير من الجوانب ، الإدارية منها بالخصوص ، حيث أصبح نفوذ المركز يمتد على تراب دائرته . وما عدا هذا فإن مجالات النفوذ والاستقطاب تخضع للميكانيزمات العامة المتحركة في تنظيم المجال المغربي ، والمتمثلة في تواجد قطب وطني هو البيضاء ، وتواجد جهات تجدد صعوبة في خلق تلاحم فعلي بين جميع مكوناتها . في هذا الإطار فإن الوظيفة الحالية للمراكز الثلاثة : تتحدد كالآتي :

- مركز قصبة تادلة والذي نعتبره مركزا شبه جهوي ⁽⁵⁾ .

- زاوية الشيخ والقصيبة وهي مراكز محلية النفوذ ⁽⁶⁾ .

خلاصة:

إن التحولات الوظيفية والبنوية التي عرفت مراكز قصبة تادلة ، زاوية الشيخ والقصيبة ، تستدعي تدخلا لتقويم حالات الخلل المسجلة على مستوى جمالية العمران وعدم التكافؤ الاجتماعي ، خاصة في مركز قصبة تادلة حيث الميز المجالي واضح . أما في القصيبة وزاوية الشيخ ، فإن ترقيتهما إلى درجة مراكز حضرية متمتعة بتصميم للتهيئة عوض تصميم للنمو ، من شأنه أن يقلل من درجة عشوائية التنظيم .

الهوامش

- 1- المداخلات مقتطفة من رسالة جامعية ناقشها المتدخل سنة 1990 ، تحت عنوان : الجهاز الحضري بتادلا : مراكز قديمة في تحول ، وذلك لنيل دبلوم الدراسات العليا ، تخصص جغرافيا بشرية ، كلية الآداب ، الرباط .
- 2- بوكاري (أحمد) ، الزاوية الشراوية : زاوية أبي الجعد دوهو الاجتماعي والسياسي . مطبعة النجاة الجديدة ، البيضاء ، الجزء الثاني ، ص . 125 ، 1989 .
- 3- بروس ، هو رجل المعمار الذي استقدمه ليوطي لوضع تصاميم المدن المغربية واتسمت فترته بجمالية المعمار الموجه للأجانب .
- 4- معطيات 1960 - 1971 - 1982 حصلنا عليها عن طريق استغلالنا لدفاتر الجولة بمديرية الإحصاء . أما معطيات 1989 فهي نتائج عمل ميداني .
- 5-6- تصنيف المراكز هو نتيجة لاستغلال مجموعة من المعايير المحددة للنمو والاستقطاب ، وهي معايير تلخص علاقة المراكز بالعالم الخارجي .

المراكز " الحضريّة " الناشئة (المدين الصغرى) عرض لبعض الاستنتاجات نموذج تادال

محمد / حبشان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

1. البحث الجغرافي بين أوليات المنهاج ونسبية النتائج :

نرى أن الحقيقة العلمية تقتضي منا " كباحثين جغرافيين " القول بأن عملية رصد الواقع عبر المجال الجغرافي ستظل مسألة جد نسبية ، بل وحتى الحقيقة النسبية هي بدورها لن تكون سهلة المثال ، لأن ذلك في نظرنا مرتبط بمجموعة من الاعتبارات منها ما هو متعلق بـ " الباحث " من جهة ، ومنها ماله علاقة بالمجال الذي هو موضوع البحث من جهة أخرى .

فقراءة الواقع عبر المجال الجغرافي ، قراءة مطابقة لما هو كائن فعلا ، تقتضي منا أولا ، الإدراك العميق للمنطق الذي يهيكل هذا الواقع المجالي الذي نحن بصده . أي إذا جاز هذا التعبير (حقيقة الفعل والفاعل والتفاعل) أي بعبارة أخرى ، ماذا يحدث عبر المجال ؟ من يحدث ذلك ؟ تأثير الحدث ؟ إنها تساؤلات في اعتقادي يجب أن تلازم كل بحث علمي .

إن الإجابات عن التساؤلات السالفة الذكر ، لن تتأتى فعلا ، إلا بعد استمثال كاف لأسس فلسفية ، بل وإبستمولوجية (معرفية) أساسا ، إضافة لعملية استيعاب خطوات منهجية عبر أدوات تقنية جد إجرائية تكيف مع تخصصنا الجغرافي ، وفي الوقت نفسه تحرص على عدم انسلاخه عن هويته كعلم ملتصق بالمجتمع ، أي بالإنسان في بعده المجالي .

ذلك أن استمثال التصورات لا يمكن أن يتم إلا بتفاعل مع الميدان ، أي عبر احتكاك ومراس في أحضانه . وعليه فنحن نرى أنفسنا ملزمين أن نقول بنسبية نتائج البحث الذي قمنا به حول إشكالية المراكز الحضريّة الناشئة ، مادام هذا البحث يعد أول

محك لنا مع الظاهرة المبحوثة ، أو بالأحرى أول تمرين حقيقي للممارسة العلمية بشقيها النظري والتطبيقي .

إنه من جملة العوامل التي جعلت مهمتنا في هذا البحث تبدو مشوبة بالاستعصاء ، كوننا اخترنا التعامل مع ظاهرة لازالت حديثة العهد بمجالنا الوطني ، ظاهرة رغم اكتساحها للمجال الوطني ، فهي لم تأخذ بعد مأخذ جد ، لا من طرف الباحثين الجغرافيين من جهة أولى ، أو المسؤولين عن التخطيط من جهة ثانية . كما أن حالة اللامبالاة هاته ، بظاهرة المراكز الناشئة ، قد تسببت في حرماننا مما يمكن نعتة بـ " الذاكرة " أي (أبحاث منجزة حول الموضوع ، وثائق . . .) وجعلتنا أمام اختيار واحد هو ضرورة التعامل مع الميدان ، كوضعية ذلك الجندي الذي وجد في ميدان وظرف ليستدعيان منه أن يكون مدججا بأسلحة متطورة ، في وقت هو فيه مجرد من كل ذلك ، أي أعزل .

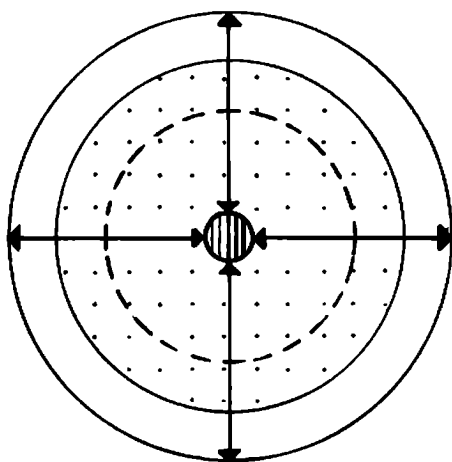
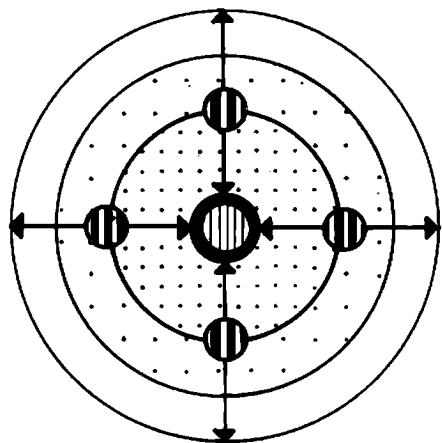
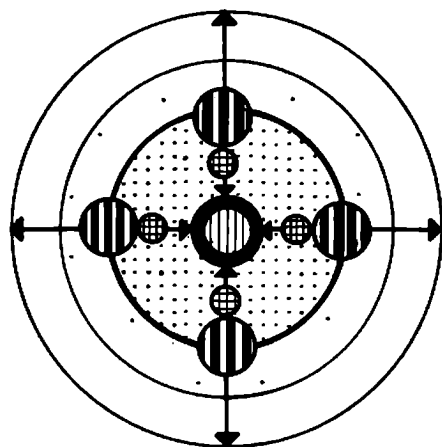
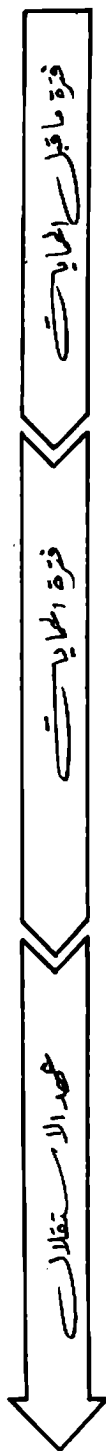
إن كل هذه الحيشيات المشار إليها أعلاه لا تعني أن معالجتنا للإشكالية استعصت بالمرة ، بل الهدف من ذكرها هو تحسيس القارئ لعملنا بنسبية استنتاجاتنا ، ووضع ذلكم العمل في الإطار المعرفي والميداني الذي أنجز فيه ، نقول هذا ونحن نتوخى أن لا يفهم منه أننا نلتمس اعتذارات ، بل فقط إثبات حقيقة لازمنا ونحن ننجز هذا البحث خطوة خطوة .

2. المراكز الحضرية الناشئة بتادلة : نتاج لتفكيك تنظيم موروث للمجال .

بعد التذكير بملابسات البحث النظرية والتطبيقية ، نحاول في هذه المساهمة المتواضعة تلخيصه في شكل تركيبية لاستنتاجات مزيجية يتفاعل فيها المنهجي والمعرفي إلى حد يصعب معه الفصل بينهما . ذلك أنه قد تبين لنا بعد إنجاز هذا العمل أن منطلقاتنا التصورية والمنهجية - وهي على ما هي عليه في كونها جنينية النشأة - قد مكنتنا من إدراك منطق تطور التمدين بتادلة ، وبالتالي موقعة نشأة المراكز التي نشتغل عليها وفق ما حاولنا تلخيصه بتركيز في الشكل الموالي رقم 1- .

إن محاولتنا المتواضعة هذه ، التي لا ندرى مدى مصداقية نعتها بـ " نمذجة " قد توخينا عبرها احتواء الخطوط العريضة لتطور تنظيم المجال التادلي ، وفق الصيرورة

1. صيرورة تنظيم المجال بتداولية



المجال الحضري

- الحاضرة الموروثة
- المدنية الحد
- مركز المراقبة مع الحماية
- مركز وقاية مع الاستقلال

- حدود مجالية غير واضحة
- حدود مجالية واضحة
- حدود مجالية جمة واضحة
- تباينات العلاقات والتفاعلات

المجال الريفي

1. التنظيم الموروث للمجال : فترة ما قبل الحماية .
2. التنظيم المستحدث للمجال : فترة الحماية .
3. التنظيم المستحدث المكثف للمجال : عهد الاستقلال .

- الريف النادلي المسقي
- الريف البورجوازي هوامش نادلي
- الريف المجال الوط

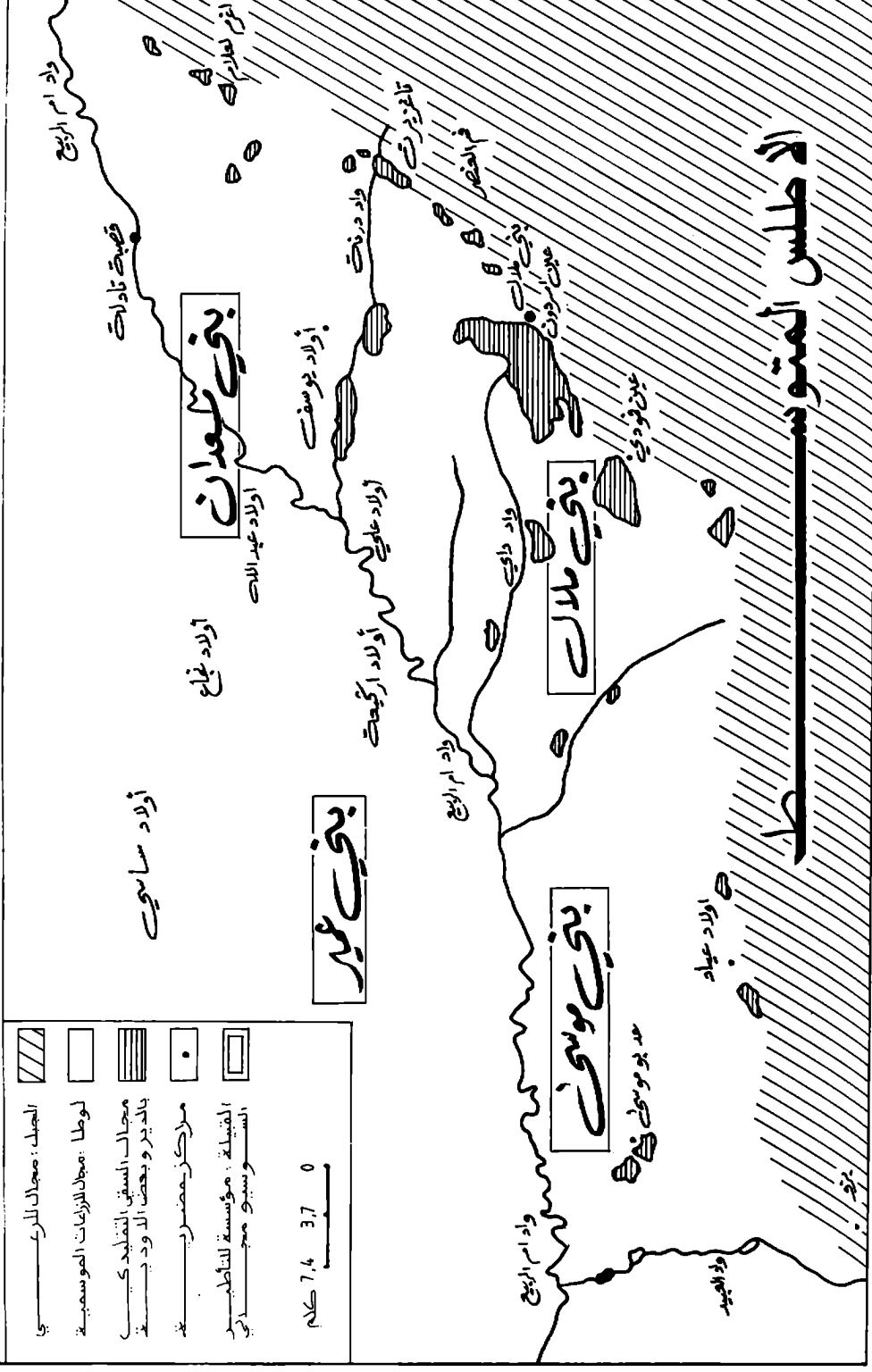
التالية :

1.2. إنه في الفترة التي سبقت تدخل الحماية بتادلة ، كان المجال يخضع لنمط من التنظيم الموروث (انظر الخريطة رقم -1 -) ميزته التجانس في أشكال الإعداد والتدخل مع منطق للتنظيم ؛ متكيف مع خصائص المجتمع بكل أبعادها الاقتصادية ، المتمثلة في نشاط رعي- زراعي وكذا الاجتماعية التي تجعل خدمة المجتمع في مركز اهتمام هذا التنظيم . بحيث لاحظنا كيف ظل هناك الحرص على ضمان علاقات ومبادلات ما بين المجال الحضري والريفي متداخلة ومتوازنة . بل وحتى مع العالم الخارجي كانت العلاقات مفتوحة ومتكافئة .

2.2. في فترة الحماية ، انقلبت الأمور رأسا على عقب ، نتيجة لإقحام المجال التادلي في مسلسل لتنظيم المجال ، مغاير ومتمحور حول تقنية السقي الحديث (انظر الخريطة -2-) . هذا التدخل أحدث تصدعا بل وتفككا انعكس أولا على المورفولوجية المبنية للمجال عبر ذلك الميز بين مجال بوري يزداد قحولة ، ومجال مسقي تراجعت قحولته ليحل محلها " الاخضرار " . بل إن هذا الميز المجالي له امتدادات سوسيو مجالية من أهمها تفكيك مؤسسات موروثية في شخص القبيلة ، وخلق اقتصاده الرعي-زراعي ، وكذا ضرب حصار على حواضره التقليدية بالعمل تدريجيا على تحويلها من وظيفتها الاجتماعية إلى شبه ثكنات لمراقبة السكان ومراكز تجارية تمر عبرها سلوكات استهلاكية لها عدة أبعاد . . .

3.2. فترة الاستقلال لم تشهد إقلاعا على نمط التنظيم الذي جاء به المعمر ، بل على العكس من ذلك تم تعزيزه بتوسيع السقي (انظر الخريطة رقم -2-) وبالتالي تكريس الميز السوسيو مجالي ؛ الذي أثر على توازن الريف التادلي وكذا هوامشه البورية . الشيء الذي تبلور من خلال آلية الهجرة الريفية (انظر الجدول رقم -1-) ، التي كانت وراء نمو التمدين بتادلة ، وبالاخص الخلق الحديث للمراكز الحضرية الناشئة .

1. خريطة استعمال الأراضي والتخطيط للمجال



2. خريطة استعمال الارض بناءً على في اطار تطور السقي الحديث

جدول رقم 1- : أصول أرباب الأسر (%)

الأصول المراكز	مدن	أرباب			المجموع
		أرباب تأدلة	أرباب الهوامش البورية	أرباب أخرى	
	%	%	%	%	%
البرادية	18.8	70.5	9.4	1.3	100.0
أولاد عباد	21.1	33.6	44.2	1.1	100.0
ولد زيدوح	8.6	79.3	12.1	0.0	100.0
أولاد امبارك	0.0	53	42.6	4.4	100.0
أولاد يعيش	4.0	68	26	2.0	100.0
سيدي جابر	1.4	71.8	25.4	1.4	100.0

المصدر : الميدان 89 .

3. المراكز الحضرية الناشئة بتأدلة : مجال مُستقطب بشريا ومُستقطب اقتصاديا .

لقد توصلنا انطلاقا من مجال مراكزنا الناشئة - وخاصة عبر تقاطع قمنا به بين مؤشرين أساسيين (أصول أرباب الأسر والأحياء التي تتموقع بها مساكنهم) - إلى أن نفهم لماذا هناك لا تجانس في المجال الحضري المنتوج بهذه المراكز . ذلك أن الأسر النازحة من داخل الدائرة المسقية لتأدلة تتطابق أحيائها السكنية مع مجالات يسودها نوع من التنظيم (مساكن شيدت على تجهيزات جهرها الخواص أو مساكن أنجزتها الأسر بتجهيزات تعرف محليا بـ " پام " أي برنامج التغذية العالمي " الذي انطلق فعليا بتأدلة مع بداية السبعينات بدعم من منظمة التغذية العالمية) .

لقد نعتنا هذا الصنف من المجال بمجال غط الإنتاج الذاتي الموجه ، بينما الأحياء التي توجد خارج هذا النطاق أي بمجال غير مهين لا قانونيا ولا تقنيا لعملية البناء

فقد نعتناه بمجال نمط الإنتاج الذاتي العشوائي . ذلك أن النمط الأول ساهمت في إنتاجه أرياف تادلة المسقية بالأساس بينما النمط الثاني فهو من إنتاج أرياف هوامش تادلة البورية . إلا أنه يجب الإشارة إلى أن التطابق نسبي فقط ، لأنه غالبا ما نجد لأرياف تادلة المسقية مساهمة في إنتاج المجالات العشوائية . والعكس صحيح كذلك . (انظر الشكل رقم -2)

فمن خلال ربطنا لهذه العلاقات بين الأرياف والمراكز الناشئة من جهة ، وبين نمط المجال المنتج وأصول منتجه من جهة أخرى خلصنا إلى استنتاجين أساسيين هما :

- إن العلاقة وطيدة بين المراكز الناشئة والأرياف ، بل إن هذه المراكز أساسا هي من إفراز الأرياف وأن تمايز المجال المنتج مرده إلى طبيعة الريف الطارد ، بمعنى أن الأرياف الفقيرة تنتج المجال العشوائي الفقير ، ولو أن العكس ليس بصحيح ، ذلك أن مساهمة أرياف تادلة في إنتاج مجال المراكز العشوائي هي جد مهمة . كما يظهر ذلك الشكل رقم -2- .

- إن المراكز الناشئة ما هي إلا نتاج لوضع تأزمي تعيشه الأرياف ، سواء المسقية أو البورية .

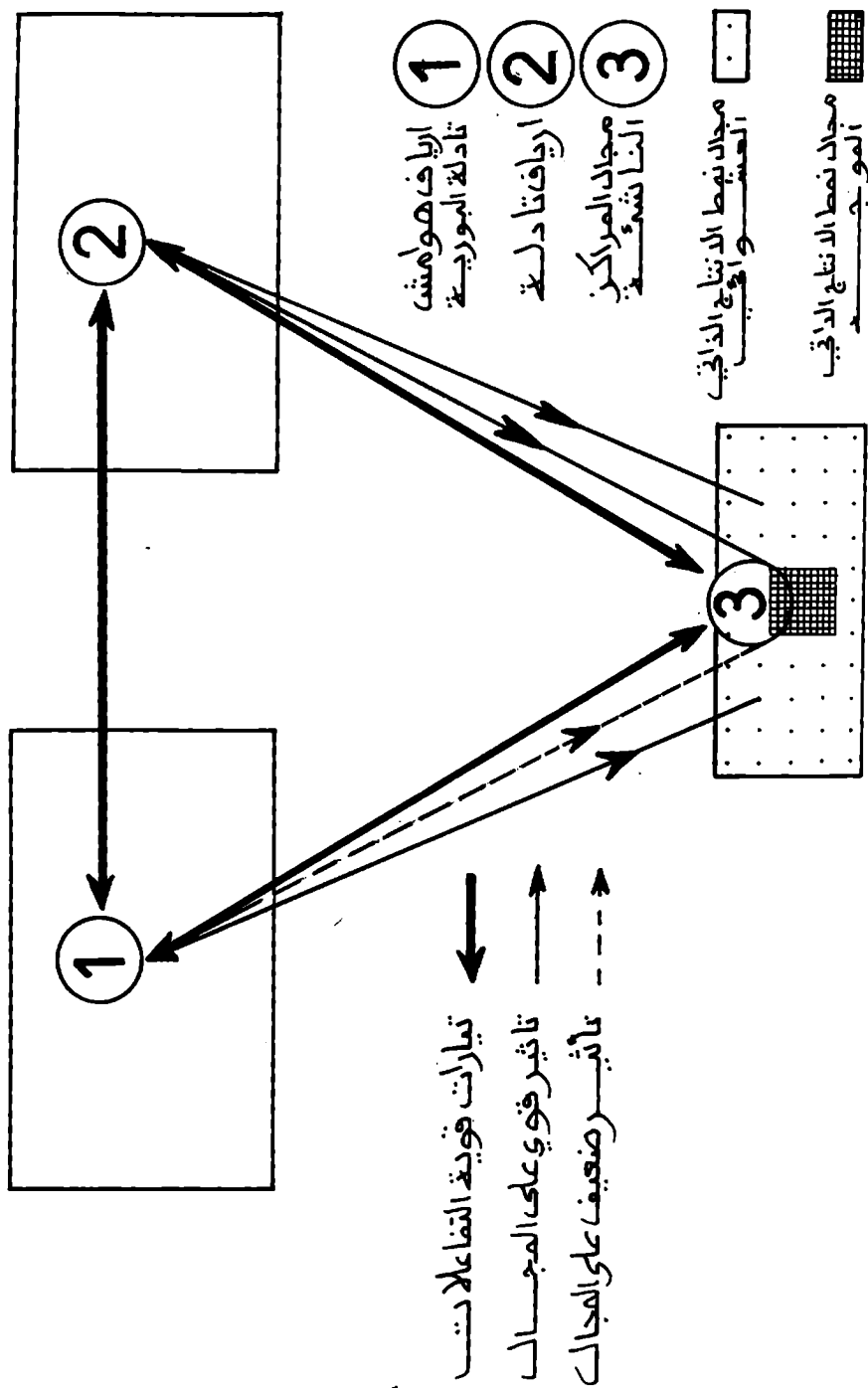
تطور الأنشطة من 1982 إلى 1989

جدول -2-

أنشطة حرة																									
المجموع				أنشطة صناعية				خدمات وحرف				أنشطة تجارية				تجهيزات عمومية									
1989		1982		النسبة %		1989		1982		النسبة %		1989		1982		النسبة %		1989		1982		النسبة %			
%	عدد	%	عدد		%	عدد	%	عدد		%	عدد	%	عدد		%	عدد	%	عدد		%	عدد	%	عدد		
26.2	310	23.3	230		2.0	27.4	6	21.7	5	34.4	28	160	21.4	119	35.8	24.4	144	25.8	106	12.5	12.7	9	15.6	8	
19.3	227	21.7	215	-75	4.5	1	17.4	4	-21.5	16.6	95	21.8	121	45.5	22.2	131	21.8	90	7.7	19.7	14	25.4	13		
14.5	172	17.5	173	0	45.4	10	43.4	10	-11.1	14	80	16.2	90	12.3	13.9	82	17.8	73	44.4	18.3	13	17.6	9		
16.2	191	15.7	156	0	9.1	2	8.6	2	17.6	17.5	100	15.3	85	29	15.1	89	16.7	69	20	16.9	12	19.6	10		
11.6	138	13.7	136	50	13.6	3	8.6	2	20	13.6	76	17.1	95	51.3	10	59	9.4	39	11.1	14.1	10	17.9	9		
12.2	145	8.1	80	0	0	0	0	0	33.3	10.5	60	8.2	45	142.8	14.4	85	8.5	35	550	18.3	13	3.9	2		
100	1153	100.0	990		100	22	100	23		100	571	100	555		100.0	98.5	100	412		100	17	1000	51		
% 19.5				% -4.3				% 29				% 43				% 40								% النسبة العامة	

المصدر : مديرية الإحصاء ، والعمل الميداني 1989 .

2- رسم نظري لآلية الهجرة الريفيه



إذا كنا لحد الآن قد خلصنا إلى أن المراكز الناشئة هي نتاج لوضع تآزمي تعيشه الأرياف ، فنحن بذلك نكون ضمنيا قد قررنا نشأتها بآلية الهجرة الريفية التي عرفت منعطفا خطيرا منذ بداية عقد السبعينات . وعليه نجد أنفسنا ملزمين بذكر - ولو بشكل سريع - الوظائف التي تلعبها هذه المراكز ، وكذا ما نسجته من علاقات محليا ، وجهويا ، ووطنيا . كل ذلك يهدف إلى استنباط المنطق المؤطر لكل الأدوار والعلاقات .

ففي هذا الصدد ومن خلال بنية أنشطة المراكز الثابتة - الأنشطة الدائمة - (انظر الجدول رقم -2-) تبين لنا كم هي قاصرة فيما يخص تزويد الساكنة بالضروريات الاستهلاكية والخدمات ، مما جعلنا نقف على ذلكم الدور البارز الذي تلعبه الأسواق الأسبوعية أي الأنشطة غير الثابتة محليا ، كما اتضح أنه بالرغم من دعم الأنشطة غير الثابتة للأنشطة الثابتة فالكل لا يلبي إلا جزءا مما تلح الساكنة في طلبه ، كالتغذية والألبسة العادية والتجهيز المنزلي البسيط . فوضعية كهاته أفرزت ترددا أي استقطابا للساكنة بالمراكز الناشئة وكذا لأرياب أنشطتها من قبل مراكز حضرية أهم منها على الصعيد الجهوي أي ضرورة تردد ساكنة وأرياب أنشطة مراكزنا الناشئة على مراكز من الجهاز الحضري لتادلة وعلى مدن خارج تادلة من أجل التزود . مما جعلنا نخلصُ عبر مؤشر الاستقطاب إلى تصنيف للمراكز الناشئة كالتالي :

- المراكز الناشئة المستقطبة الثنائية القطب الاستقطابي (بني ملال ، الدار البيضاء) ، أي تردد للأسر وأرياب الأنشطة (تجار . . .) على بني ملال والدار البيضاء . فهذه الوضعية الاستقطابية تطابق حالة المراكز التالية :

أولاد امبارك وسيدي جابر وأولاد يعيش .

- المراكز الناشئة المستقطبة الثلاثية القطب الاستقطابي (بني ملال ، الدار البيضاء إضافة للفقيه بن صالح وسوق السبت) . فهذه الوضعية الاستقطابية تطابق حالة مركزي حد برادية وخميس أولاد عياد .

- المراكز الناشئة المستقطبة المتعددة القطب الاستقطابي (بني ملال ، الدار البيضاء ، الفقيه بن صالح أو سوق السبت ومن قبل بعض المراكز الناشئة ومدن أخرى) . فهذه الوضعية الاستقطابية تطابق حالة مركز دار ولد زيدوح .

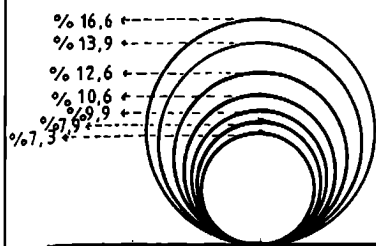
هكذا يستنتج من الحالة المشخصة أعلاه الطابع النازل لعلاقات مراكزنا الناشئة مع الخارج مما يؤكد أنها مستقطبة . هذا الخارج الذي تشكل البيضاء - عاصمة البلاد الاقتصادية - قطبه الرئيسي بينما باقي المراكز الأخرى لا تلعب إلا دور الوسيط : دور الوسيط هذا الذي نرى أنه ستتنافس عليه مستقبلا بني ملال من جهة ومركز الفقيه بن صالح وسوق السبت من جهة أخرى .

إن كل المعطيات التي وقفنا عليها ، لا يمكنها إلا أن تصب في حقيقة أساسية وهي وجود مراكزنا الناشئة اقتصاديا ، في وضعية خضوع وتبعية للخارج ، أي أنها مجرد مراكز ناشئة ، مهيم عليها من الخارج (أي من مراكز حضرية أهم منها) . فهذه المراكز الناشئة إذا استثنينا دور ساكنتها كيد عاملة فلاحية بالريف المسقي المباشر فيمكن نعتها بمراكز استهلاكية بالدرجة الأولى مما جعلها محط اهتمام من طرف الوسطاء التجاريين .

أما من خلال نوع نشاط الساكنة فقد توصلنا إلى استنتاج مفاده أنه في مجال التشغيل ، فالمراكز الناشئة جد قاصرة . بحيث إن للتشغيل بهذه المراكز طبيعته الخاصة . فهو أساسا غير موجود بالمراكز ؛ ذلك أن النشاط الذي يعتبر منفذا لتشغيل أفراد أسر هذه المراكز هو الريف المباشر المسقي ، حيث يشتغلون كيد عاملة فلاحية (انظر الشكل رقم -3-) وذلك في نظرنا نوع من النشاط الإجباري في حق أولئك الوافدين على المراكز من الريف وبالخصوص الذين لا أساس اقتصادي لهم ، بينما بعضهم اعتمادا على رأسمال نقدي أو معنوي (حرفة يتقنونها . . .) قد يشغلون أنفسهم بأنفسهم (تشغيل ذاتي) مساهمين بذلك في بنية الأنشطة الحرة للمراكز (انظر الجدول رقم -2-) .

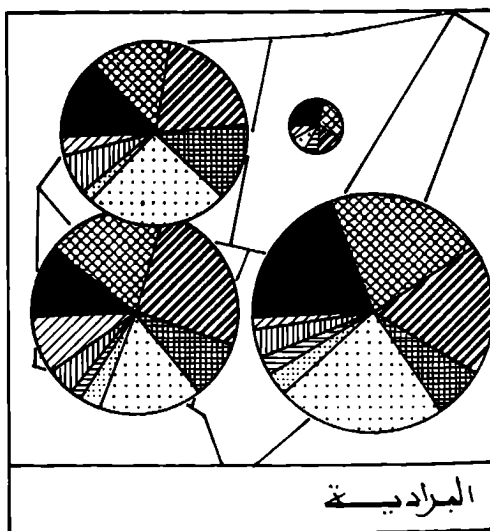
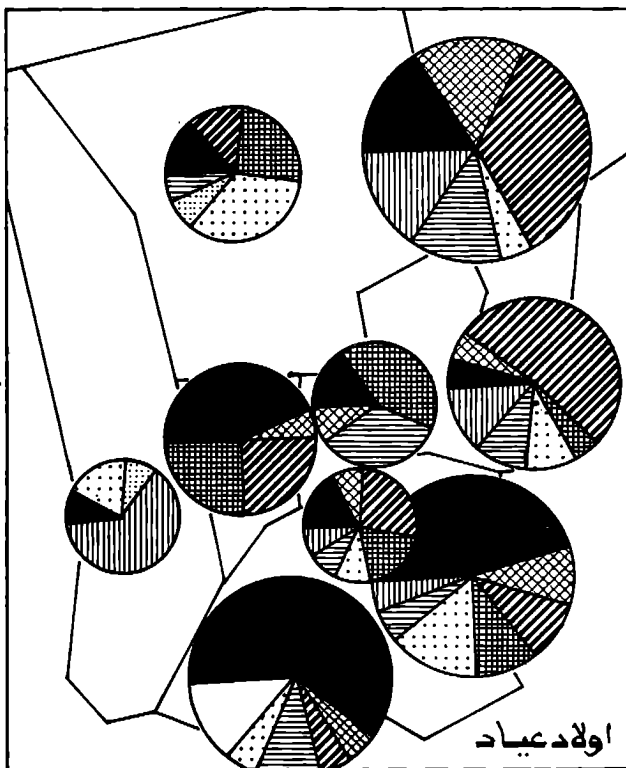
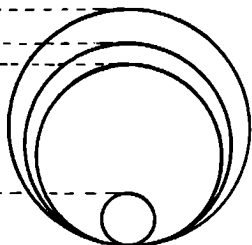
فمن خلال حالة التشغيل هاته ، استنتجنا أن المراكز الناشئة لا تقدم حلا نهائيا لبطالة ذلكم الوافد عليها من الريف ، بل هي فقط تقدم له ، إذا صح هذا التعبير ، مسكنات بمحاولتها إدارة أزمته ، مساهمة بذلك في خلق وضعية انتظارية ، أي بعبارة أخرى ، أن المراكز الناشئة ربما دورها الأساسي يكمن في اعتبارها مراكز للاستقبال موقعة في خط أمامي قبالة ريف متأزم وكأني بها " مصدات " والقول بأنها مستقطبة اجتماعيا أي أنها تأوي مطرودي الأرياف وتحاول إدارة أزمته بتذويبها عبر المجال ، المجال الريفي المسقي أولا ، ومجال المراكز الناشئة عبر أنشطته الحرة ثانيا . أي أن الدور الذي تلعبه هنا جاء مطابقا لما سبق أن جاء في أدبيات التخطيط الاقتصادي والاجتماعي

3. مهن النشيطين لمركزي اولاد عياد واحد البراديتة



35,2 %
30,2 %
26,8 %

16,8 %



(انظر المخطط الاقتصادي والاجتماعي 1977/73 صفحة 441 من الجزء الثاني) أنه لتفادي انعكاسات الهجرة الريفية الخطيرة على التمدين يجب تسخير المراكز الناشئة لتقوم بدور الأسوار الدفاعية التي تقي المدن الكبرى من ذلكم التوافد الريفي وانعكاساته الاجتماعية .

لكننا ومن منظور مجالي نرى أنه من حقنا أن نتساءل على الشاكلة التالية :

أليست إدارة أزمة مجال عبر مجال آخر أقل تأزما ، مضاعفة للأزمة نفسها ، وإعطائها فرصة لاكتساح المجال عوض العمل بحزم وصرامة على تطويقها ؟ بل الأخطر من ذلك أنه وفق هذه الحلول التجزئية ستمنح الفرصة للأزمة كي تنمو وترعرع ، في وقت كان من الممكن تطويقها بشكل جد مبكر ؟ لأن مثل تلكم الحلول المعلنة عبر أدبيات التخطيط سوف لن تخول لها إلا القدرة على اكتساب الدينامية بحيث أنها ستنعكس على المجال المسقي ، وذلك ما حاولنا رصد بوادره من خلال المناقشة القائمة حول الماء والأرض : من جهة حول الماء ما بين ساكنة المراكز والمجال المبنى للمراكز ومن جهة أخرى ما بين ساكنة المراكز والمزروعات حول الماء والأرض معا ؛ أي العنصران الحيويان اللذان شكلا ركيزة ومنطلق ذلكم المخطط الفلاحي الذي أراد أن يجعل من تادلة قطاعا مسقيا سقيا حديثا .

وعليه فإن الحلول التي لمسنا تمريرها عبر المجال التادلي المسقي ، رغم بعض إيجابياتها التي لا يمكن نكرانها ، تبقى حلولاً تجزئية .

استنادا لما سبق استنتجناه من خلال ذلكم المسلسل التنظيمي الذي أقحم فيه المجال التادلي منذ دخول الحماية إلى اليوم ، والذي انتهى إلى فصل سوسيو مجالي اختلت على إثره تلكم التوازنات المجالية الموروثة كما عكست ذلك ظاهرة الطرد الريفية التي تسببت في اختلالات سوسيو مجالية ؛ استطعنا رصد تجلياتها على واجهتين : حيث إن التجليات الأولى لتلكم الاختلالات تمثلت عبر المجال الريفي الطارد . وعليه خلفت الهجرة بوارا اجتماعيا تدنى على إثره حجم الإنتاج الفلاحي عموما (إنتاج الحبوب أساسا) .

أما التجليات الثانية لتلكم الاختلالات ، فقد استطعنا الوقوف عليها من خلال

الحلول التجزئية التي حاول المخطط من خلالها التصدي للهجرة الريفية ، فعوض العمل على استنفار كل الطاقات من أجل تطبيقها فقد فضل نهج سياسة انتظرية اضطر على إثرها بقبول مشروعية إنشاء تجمعات سكنية في قلب القطاع المستقي ؛ (كما كرس ذلك من خلال برنامج " پام " الذي عرفته أغلب المراكز التي اشتغلنا عليها ، ذلكم البرنامج السكني الذي اعتبرناه سابقا بمثابة إشارة رسمية من قبل المخطط بمشروعية البناء بشكل ارجحالي سابق لكل دراسة) بحيث إن الهدف من كل ذلك لم يكن مندمجا في سياسة شمولية ومعقلنة لتنظيم المجال الوطني ، بقدر ما كانت المسألة اضطرارية تحاول طمس ظاهرة سوسيو مجالية صعبة مهما كانت التكلفة .

فعلا كانت التكلفة جد باهضة الثمن ، لأن الذي كان كبش الفداء فيها هو أولا وأخيرا المجال . فأبي أشكال مجالية هاته التي يمكن رصدها عبر هذه المراكز ؛ إنها أشكال متناقضة يطبعها الميز من خلال المورفولوجية الحضرية المرتبة ومحتوياتها السوسيو اقتصادية ، ذلك أن عملية توسع البناء سائرة بشكل عشوائي يشكو النقص والقصور في التأطير القانوني والتقني .

إنه إذا كنا لحد الآن لم نتجاوز مناقشة استنتاجات عامة أملت بها علينا الحالات المشخصة ، فهل نحن بالفعل فملك القدرة على تجاوز هذا المستوى لنسمو إلى اقتراح وصفة علاجية ؟

4. تداخل التخصصات : بديل مقترح .

1.4 . على المستوى المنهجي :

إننا في هذا الصدد يمكن أن نقول إنه إذا كانت مسألة إدراك منطق الواقع عبر المجال صعبة ، ففضية التقرير في مصير هذا الواقع هي أصعب وأعمد . والذي يمكن إبداءه هنا ، أننا بتشخيصنا للأشكال المجالية للمراكز الناشئة ورصدنا للأدوار التي تديرها عبر المجال في إطار صيرورة عامة تكون بذلك قد تقدمنا بمساهمة علمية ، وبالتالي أعدنا ملفنا حول الإشكالية التي عالجتنا ، يمكن لمضمون هذا الملف إذا تقاطع مع مضامين ملفات أخرى تقوم بتشخيص لإشكاليات لها علاقة بالمجال من منظور تخصصاتها (اقتصاد ،

اجتماع ، تاريخ . . .) أقول إنه يمكن أن يشكل الكل قاعدة لبنية ذهنية مطابقة للواقع . لأن الأساسي في كل تخطيط تنموي في نظرنا ، ليس في إتقان صياغة أدبياته أو التفنن في رسم خطاطاته ، بل في مصداقية التخطيط التي لا تتأتى إلا من مدى ارتكازه على معطيات لها كينونتها في الواقع ، تجعل بالتالي هذا التخطيط ، يرسو فوق الواقع وكذلك المخططون واقعيون . لأننا نعتقد أن معضلة التخلف في بلدان العالم الثالث تكمن بالأساس في عدم قدرة مخططيها على ضبط واقعهم مما جعل مخططاتهم عكسية النتائج بمعنى أنها عوض أن تعمل على تجاوز التخلف فهي تعمقه ، لأن التجاوز يقتضي معرفة المراد تجاوزه .

2.4. على المستوى العملي :

هذه المراكز الحضرية الناشئة هي بمثابة مجال حضري مزدوج الوظيفة ، ذلك أنه يأوي النازحين عن أريافهم كوظيفة أولى ، وفي نفس الوقت ، يحاول إدارة أزمته بدمجهم عبر العمل الفلاحي المأجور في محيط زراعي مسقي ، ومن ثم التصدي لتيارات هجرية ريفية بالعمل على استقطابها وتثبيتها بعيدا عن المدن المتوسطة والكبرى .

بناء على الوظائف المشار إليها أعلاه ، فالمراكز الحضرية الناشئة تساهم إلى حد كبير في تخفيف ما يمكن أن ينجم عن ذلكم التوافد الريفي من انعكاسات اجتماعية بالنسبة للمدن السالفة الذكر ، وبالتالي فهذه المراكز الناشئة أصبحت في نظرنا من منظور سياسة إعداد التراب الوطني ، دعامة أساسية للحفاظ على التوازنات السوسيوإقليمية ، ومن ثم المساهمة الفعالة في السلم الاجتماعي .

لذا فنحن من منظور مجالي نرى أنه قد آن الأوان بعدما ، برهنت هذه المراكز الناشئة على نجاعة دورها الاجتماعي في سياق المسلسل التنظيمي المستحدث للمجال التادلي ، أن تنتزع نصيبها من التجهيزات الأساسية لترقى إلى لعب أدوار أخرى اقتصادية بالأساس ، وذلك في إطار تنمية الجهة العادلة ، وتدعيم اللامركزية . فلتتحقق هذه الغاية لا بد من تظافر جهود كل الفعاليات المتدخلة في عملية تنظيم المجال ، وعلى اختلاف مستوياتها ، أي المركزية والجهوية والمحلية ؛ فحينما نقول الجهوية والمحلية فنحن

نعني الجماعات المحلية ، لأنه في هذا الصدد نرى في المراكز الحضرية الناشئة مجالا صالحا لاختبار الكثير من التوصيات التي خلصت إليها المناظرات الخمس التي نظمت على التوالي ب : (مراكش ، دجنبر 1977 والرباط ، نونبر 1979 ومكناس ، يونيو 1986 والدار البيضاء ، يوليو 1989 والرباط ، أبريل 1992) حول موضوع الجماعات المحلية .

المصادر والمراجع

- AZARIZ (E.), L'impact de l'irrigation sur l'urbanisation à Tadla, cas de Fquih Ben Saleh, Thèse de 3ème cycle, Rabat, Université Mohamed V, 1988.
- BEGUIN (H.), L'organisation de l'espace au Maroc, Bruxelles, Académie royale des sciences d'Outre Mer, 1974.
- BELFQUIH (M.) & FADLOULAH (A.), Mécanismes et formes de croissance urbaine au Maroc, cas de l'agglomération de Rabat-Salé, Rabat, El Maarif, 1986.
- BENHALIMA (H.), Petites villes traditionnelles et mutations socio-économiques au Maroc : le cas de Sefrou, Rabat, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1987.
- BENCHERIFA (A.), Une région du sous en cours de transformation : Chtouka et Massa, Géographie agraire, Rabat, Publications de la Faculté des lettres et des sciences humaines, n° 5, 1980.
- BENZAKOUR (S.), Essai sur la politique urbaine au Maroc, 1912 - 1975, Casablanca, Ed. Maghrebines, 1978.
- BRIGNON (J.) & Coll., Histoire du Maroc, Paris, Hatier / Casablanca, Librairie Nationale, 1967.
- ESCALLIER (R.), "Citadins et espaces urbains au Maroc" Tours, Urbama, n° 8 - 9, 1981.
- GRAWITZ (M.), Méthodes des sciences sociales, Paris, Dalloz, 1975.
- LAGHOUT (M.), "Le rôle des petites villes dans la problématique de développement économique et social d'un pays sous-développé : quelques observations critiques à travers l'exemple du Maroc", R.G.M. n° 7, nouvelle série, 1983.
- Ministère du Plan, Plan quinquennal, 1973 - 1977, vol. n° 2.
- NACIRI (M.), "Les expériences de modernisation de l'agriculture au Maroc", R.G.M. n° 17, 1969.
- NOIN (D.) : "Repartition de population et mouvement migratoire dans la plaine du Tadla", R.G.M. n° 7, 1965.
- NOIN (D.), "Types d'habitat dans les campagnes marocaines", R.G.M. n° 8, 1965.
- ROBLES (P.), "Implantations humaines dans le dir de Beni-Mellal", R.G.M. n° 8, 1965.
- SANTOS (M.), L'espace partagé, Paris, M.T.H. Genin, librairies techniques, 1975.
- WALISER (B.), Systèmes et modèles, introduction critique à l'analyse des systèmes. Paris, Ed. du Seuil, 1977.

السكان والتنمية المستدامة بالآرياف المغربية ، حالة قطاع بني عمير بتادلا

محمد الأسعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بنمسيك - الدار البيضاء

1 - إشكالية التنمية المستدامة :

1.1 . مفهوم التنمية المستدامة :

بالنظر إلى التعاريف التي حددت مفهوم التنمية المستدامة نجدها عادة ما تفرق بمؤشرات إشباع الحاجات الأساسية للسكان . يعد ماسلوف (1954 Maslow) أول من هيكل مفهوم الحاجات الأساسية في خمسة أصناف كبرى وهي الحاجات الفيزيولوجية (تغذية ، هواء . . .) والحاجات الأمنية (الشغل ، ضمان متاع الأفراد . . .) والحاجات الاجتماعية (الانتماء إلى الجماعة ، المشاركة في أنشطتها . . .) والحاجة إلى تحقيق الذات (عدالة . . .) والحاجة إلى المعرفة والفهم .

وقد أوضح ماسلوف أن هناك نوعا من الارتقاء المتتالي للحاجات في شكل نظامي متدرج من الحاجات الأدنى إلى الأعلى وذلك حسب أهميتها ، إذ لا يتم إشباع للحاجات الأعلى إلا بعد إشباع الحاجات التي تقع في المستوى الأدنى (محمد خليفة 1992) . رغم التحفظات التي أبداه البعض تجاه نموذج ماسلوف (1982 ، Moles - Gultung 1981) فإنه أزال اللبس الحاصل بين الحاجات الأساسية والحاجات البيولوجية ووسائل الحاجات ، وجعل من مفهوم الحاجة أساسا للقيم التي تعد مطلبا مشروعاً للإنسان (Cunha ، 1988) . وهذا ما أكدته تقرير مؤسسة باريلوتشي ،

أتوجه بالشكر إلى الزميل محمد مدينة الذي أمدني بإحصاءات محضرة من طرف مديرية الإحصاء كما أشكر الزميل قاسم جمادي الذي أدلى بملاحظات قيمة حول بعض الجوانب الاجتماعية التي لها علاقة بالموضوع .

برئاسة أميلكار هيريرا (1976 ، Herera) الذي انتقد بشدة تقرير نادي روما المعروف بحدود النمو ، كما انتقد أيضا الأنظمة السياسية والاجتماعية الموجودة بالعالم ، واقترح بناء مجتمع جديد يقوم على المساواة ، ويكون الهدف الأساسي في المجتمع هو إشباع الحاجات الأساسية (غذاء ، سكن ، تعليم ، صحة . . .) ، ولاسيما بالبلدان المتخلفة . غير أن هذه التعاريف غيبت بعدا أساسيا في التنمية وهو البيئة . وقد حاولت التعاريف اللاحقة تدارك هذا النقص واعتبرت " التنمية هي مسلسل للتفاعل المستديم والتدريجي الذي يتم بواسطته الاستغلال التدريجي للطبيعة كما وكيفا في الزمان والمكان باعتبارها الثروة الأساسية وموضوعا وسطا من طرف الإنسان باعتباره مستغلا وهدفا نهائيا للتنمية " (1981 ، Laghouat) . وهكذا أصبحت التنمية المستدامة تندرج في إطار العلاقة بين الإنسان والبيئة ومن ثم أصبح البعض يتنادي بعدالة التنمية الاجتماعية المجالية وتقليص التباينات الجهوية (1981 ، Reynaud) . وفي هذا الإطار فإن التنمية ينظر إليها كنظام مجالي هدفها تحسين نوعية الحياة (الحاجات الأساسية) والذي يركز على خمسة أسس وهي : العدالة المجالية (تقليص التفاوتات الجهوية) والعدالة الاجتماعية (ضمان الحاجات الأساسية للفقراء) والتنمية المستقلة (تنمية الموارد المحلية) والحفاظ على البيئة واللامركزية (احترام التنوع الثقافي واحترام الرأي الآخر . . .) .

ومن ثم ضرورة اعتبار التنمية كنظام مجالي (1988 ، Cunha) ومسلسل لتحسين نوعية الحياة في إطار علاقة الإنسان بالبيئة .

بناء على هذه الخلفية النظرية سنحاول تحديد مشكلة البحث مركزين على الحاجات الفيزيولوجية علما منا بأن قيمتها لا تستقيم إلا بإشباع الحاجات الأخرى .

2.1. تحديد مشكلة البحث :

يهدف هذا البحث إلى معالجة موضوع التنمية المستدامة بالنظر إلى تلبية الحاجات الأساسية للجميع وإرضاء طموحاتهم إلى حياة أفضل ضمن حدود الإمكانيات البيئية ومدى تناغمها مع التطورات السكانية . وهكذا نرى أن مفهوم الحاجة هو إحساس الكائن الحي بافتقاد شيء ما (محمد خليفة 1992) بل إن مفهوم القيمة مكافئ لمفهوم الحاجة

(Maslow ، 1954) وإن أساسها بيولوجي لا يأخذ معناه إلا في إطار الحاجات الأخرى . وسوف نركز على الجانب الفيزيولوجي المتمثل في السكن والماء الشروب والطاقة والصحة والشغل ، ويتأثر إشباع هذه الحاجات بإمكانات الموارد البيئية التي لاتعد ثابتة بل متغيرة يحكمها نظام من القيود الثقافية الذي يسخر استراتيجيات عدة (اقتصادية وتقنية واجتماعية وديموغرافية وسياسية . . .) النموذج 1 . وهكذا يركز هذا البحث على مسلمة أساسية مفادها أنه بقدر ما يتحلى التعامل البشري مع الموارد بالفاعلية ، بقدر ما يتحقق إشباع للحاجات الأساسية ومن ثم نعتبر الموارد مفهوما ثقافيا . ونظرا لتشعب جوانب الموضوع سوف نحصر المشكلة موضوع البحث في السؤال التالي :

ما هي انعكاسات الري على إشباع الحاجات الأساسية للسكان بقطاع بني عمير

بتادالا ؟

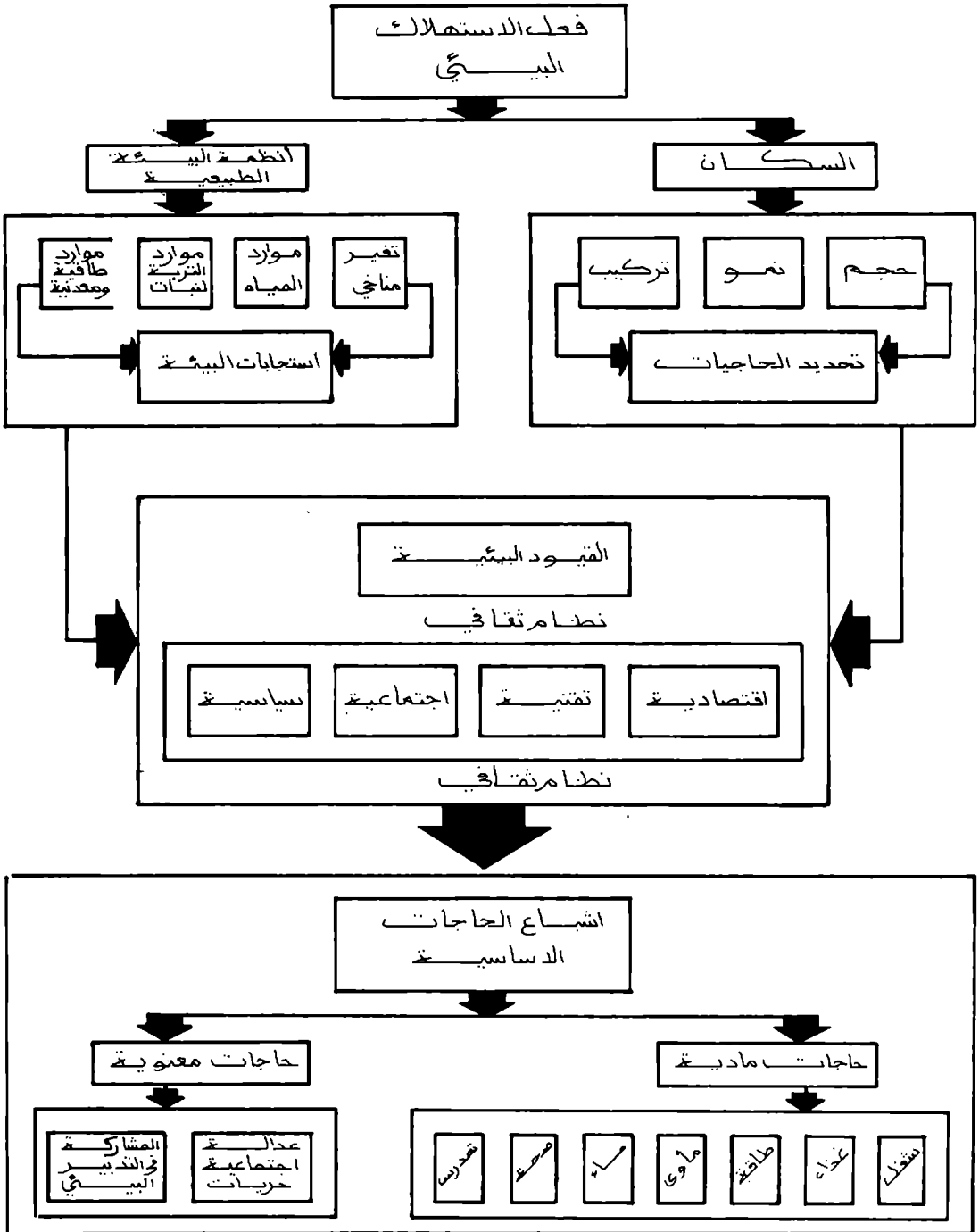
يقتضي الجواب على هذا السؤال وضع فرضين أساسيين :

- الفرض الأول : يحدد العلاقة بين السكان وإشباع الحاجات الأساسية :
لا يوجد ارتباط قوي بين ارتفاع الكشافات السكانية وضعف إشباع الحاجات الأساسية .

- الفرض الثاني : فرض صفري Hypothèse nulle لمقارنة الفروقات الجهوية :
لا توجد فروقات ذات دلالة إحصائية في عدم إشباع الحاجات الأساسية بين المجالات التي تغلب عليها الري (سيدي عيسى وأحد البرادية وبني عمير) والمجالات التي تغلب عليها الزراعة البعلية (بني وكيل وأحد أولاد بوموسى ودار ولد زيدوح) .

لايد من الإشارة أن مجال التطبيق هو قطاع بني عمير بتادالا الذي يشمل ست جماعات ريفية و 162 دوارا ، وقد اعتمدنا على إحصاءات 1982 محضرة من طرف مديرية الإحصاء ، هذه الإحصاءات تعطينا فكرة تقريبية فقط إذ لا يمكن الارتكاز عليها وحدها للبرهنة على المشكلة موضوع البحث ، غير أنه في غياب معطيات كيفية تنسجم مع خصوصية المشكلة المدروسة ، تصعب البرهنة بدون معطيات كمية .

1. نموذج التنمية المستدامة



2- السكان ومؤهلات البيئة الطبيعية لبني عمير :

إن العلاقة بين السكان ومؤهلات البيئة الطبيعية هدفها الأساسي هو استثمار الموارد وتنميتها . وتعد هذه العلاقة الركيزة الأساسية لتلبية الحاجات الأساسية للسكان ومنطلقا هاما لتحليل موضوع التنمية المستدامة ، لهذا يبدو من الضروري إبراز وزن كل من حجم السكان والموارد البيئية .

1.2. حجم السكان بقطاع بني عمير :

سننظر إلى حجم السكان بناء على ثلاث مؤشرات أساسية وهي : تطور نمو السكان وتوزيعهم الحالي ودرجة التركيز .

المجدول 1 : تطور نمو السكان الريفيين في بني عمير بتادلة ⁽¹⁾ .

2010	2000	1990	1982	1971	1960	
34093	25886	19572	15784	12686	8704	دار ولد زيدوح
70874	53812	40687	32812	20308	14499	أحد أولاد بوموسى
97919	74346	56213	45333	30850	20685	سيدي عيسى
88363	67091	50727	40909	31226	25723	بني عمير
65007	49357	37319	30096	27104	19922	بني وكيل
85653	65032	49171	39654	30678	13738	أحد البرادية
41910	35524	253689	204588	152852	103271	المجموع

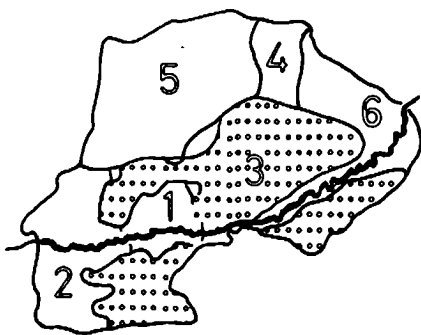
بناء على المعطيات الإحصائية الواردة في الجدول أعلاه ، يلاحظ تطور في زيادة عدد السكان لبني عمير حيث يصل عددهم حاليا إلى زهاء 260.000 نسمة بعد أن كان لا يتعدى 100.000 نسمة سنة 1960 . ما الذي يفسر هذا التطور ؟

2. السكان والموارد الزراعية بقطاع بني عمير بتادلة

- 1 - جماعة دار ولد زيدوح
2 - جماعة أحد اولاد بوموسي
3 - جماعة سيدي عيسى
4 - جماعة بني عمير
5 - جماعة بني وكيل
6 - جماعة أحد البرادية

الاساليب الزراعية

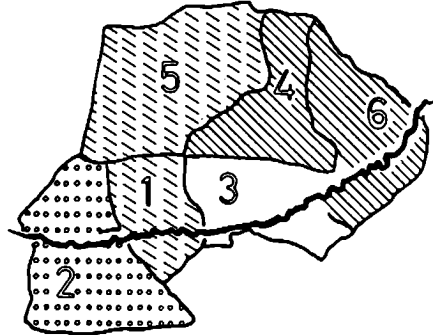
0 15 كم



أراضي الري
أراضي بعلية

الكثافة السكانية

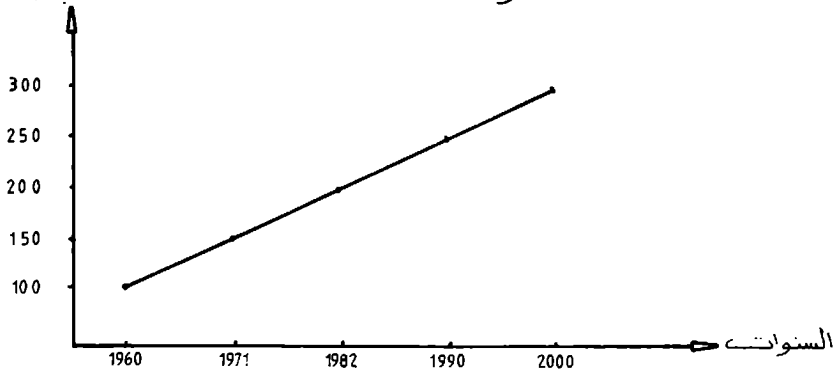
0 15 كم



82
149
58 - 44
117 - 102

حجم السكان (000)

تطور نمو السكان



وضع م. الاسعد .

يمكن تفسير هذا التطور اعتمادا على نظرية الانتقال الديموغرافي (الأسعد 1991) ، إذ يمكن التمييز بين نظامين : النظام الأول تقليدي استمر إلى بداية هذا القرن وتميز بنسبة ولادات عالية ونسبة وفيات عالية مما جعل النمو السكاني ضعيفا يقل عن 1 ٪ ومرد ذلك إلى ضعف التأطير الطبي وتفشي المجاعات والأوبئة . أما النظام الديموغرافي الثاني فهو نظام انتقالي ويتميز بولادات عالية ووفيات ضعيفة مما ينجم عن نمو سكاني سريع يقدر في بني عمير حاليا بحوالي 2.8 ٪ . وإذا استمر نمو السكان الريفيين في بني عمير بهذه الوتيرة فإن عدد السكان سيتضاعف عند سنة 2010 وأنه ينضاف سنويا إلى إجمالي عدد السكان زهاء 2500 نسمة بمعدل 68 نسمة يوميا وذلك منذ سنة 1982 . لا بد من إبداء ملاحظة أساسية هي أن الانتقال الديموغرافي بالأرياف المغربية عموما وكذا في بني عمير ، انتقال متأخر وسريع وقصير زمنيا يمتد على مدى الربع قرن الأخير (الأسعد 1991) . ويتوزع حجم السكان بشكل متفاوت (خريطة الكثافات) على مجال بني عمير . يصل متوسط الكثافة السكانية إلى 85 نسمة في الكيلومتر المربع وهو معدل عالي بالنظر إلى متوسط الكثافة السكانية بالمغرب حيث يتعداه بمرتين ونصف ، لكنه يقل عن المتوسط العام للكثافة السكانية بإقليم بني ملال التي وصلت إلى 119 نسمة في الكيلومتر المربع سنة 1988 (النشرة الإحصائية) . اعتمادا على التوزيع النطاقي للسكان في بني عمير يمكن التمييز بين أربعة منها : يطابق النطاق الأول والثاني أعلى الكثافات السكانية بجماعات سيدي عيسى وبني عمير وأحد البرادية بينما يطابق النطاق الثالث جماعة أحد أولاد بوموسى التي توافق المتوسط العام للكثافة السكانية في بني عمير ، أما النطاق الرابع فيطابق الكثافات السكانية بجماعات بني وكيل ودار ولد زيدوح . هل معنى هذا أن توزيع السكان يتسم بالتركز ؟ إن تركيز السكان في بني عمير ضعيف لا يتعدى 18 ٪ كما أن تطور هذه النسبة لم يعرف تزايدا كبيرا بل ظلت مستقرة ما بين 1960 و 1982 مما يدل أن السمة المميزة للتوزيع السكاني هي التشتت على مجموع المجال . ما هي مؤهلات البيئة الطبيعية التي يستغلها السكان بهدف إشباع حاجاتهم الأساسية ؟

2.2. مؤهلات البيئة الطبيعية في بني عمير :

المجدول 2 : المؤهلات الطبيعية في بني عمير ⁽²⁾ .

3							2		1		
نوع الماشية	مكونات الزراعة	المساحة البعلية (000 هـ)	المساحة المروية بالضخ (000 هـ)	المساحة المروية بالشبكة (000 هـ)	حجم مياه الري الجوفي م ³	حجم مياه الري السطحي م ³	مؤهلات التربة	نوع التربة	نوع المناخ	عدد أيام المطر	متوسط التساقطات المطرية
بقر غنم	حبوب شمندر بقليات	70	14	27	189	100	إمكانات ضخمة شريطة توفر الماء	صودية	شبه جاف	66-42	458 مم (1975 - 1951)

" إذا كانت الموارد هي مجموعة من الهبات والإمكانات التي تحتويها بيئة من البيئات التي تنطوي على منفعة كامنة للإنسان دون أن يكون له تأثير في وجودها وتكوينها " (طه نجم 1984) فإن قطاع بني عمير يتوفر على نوعين أساسيين من الموارد : يتمثل النوع الأول في الموارد الثابتة كالمياه السطحية والجوفية إذ يتوفر على زهاء 289 مليون متر مكعب ، وهذه الكمية الهامة تكفي للري خاصة إذا علمنا أن المنطقة تنتمي إلى النطاق شبه الجاف رغم أنها تستقبل سنويا زهاء 450 مم ، إلا أن هذه الكمية قد تنزل إلى مستوى يقل عن 300 مم في السنة في فترة الجفاف . أما النوع الثاني من الموارد فهو الموارد المتجددة كالتربة وهي صودية ذات إمكانات ضخمة توفّر المياه . وهكذا يبدو أن الماء مورد أساسي للحياة البشرية وهو يستعمل للري بواسطة الشبكة من مياه السد أو بواسطة الضخ حيث أن المساحة المروية في بني عمير تصل إلى زهاء 41 ألف هكتار (محمد مدينة 1988) تشمل معظم تراب جماعات سيدي عيسى وأحد البرادية وبني عمير . وبالنظر إلى علاقة الموارد الطبيعية بالسكان نجد أن نصيب الفرد الواحد يصل إلى 0.16 هكتار من أراضي الري وأن نصيب العائلة الواحدة لا يتعدى 2.5 هكتار علما بأن المعدل الأمثل هو 5 هكتارات . وقد عرف متوسط الأراضي للفرد الواحد تراجعاً إذ كان يقدر بحوالي 1.3 - 1.7 هكتار للفرد الواحد سنة 1960

(Noin ، 1965) . ويستفاد من التحليل أنه حدث عدم توازن بين حجم السكان وما ينبغي أن يتوفروا عليه من أراضي فلاحية تمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية . إلا أنه لا بد من الإشارة أن المعدلات المشار إليها نظرية وأنها قد تتأثر بعوامل أخرى كالتكثيف الرعي - زراعي وإضافة متوسط الأراضي البعلية الذي يصل إلى 4.4 هكتار للعائلة الواحدة زيادة على أن البعض قد يستغل أراضي أخرى خارج قطاع بني عمير أو قد يستفيد من عائدات المهاجرين . كل هذه العوامل قد تؤثر على إشباع الحاجات الأساسية ، فما هو مستوى إشباعها بقطاع بني عمير ؟

3 - مستوى إشباع الحاجات الأساسية للسكان بقطاع بني عمير :

الجدول 3 : عدم إشباع الحاجات الأساسية للسكان في بني عمير ⁽³⁾ .
(عدد الأسر)

الجماعات	مجموع الأسر	التنك	ماء عین أو بئر	عدم توفر الكهرباء	البطالون
دار ولد زيدوح	2701	80	270	670	60
أحد أولاد بوموسی	4094	90	345	520	105
سيدي عيسى	5466	945	670	3030	340
بني عمير	5411	2340	1985	4610	1345
بني وکیل	3916	985	2095	3870	1055
أحد البرادية	5848	1200	1485	1710	480
المجموع	27436	5640	6850	14410	3385

لقد سقنا مؤشرات إشباع الحاجات الأساسية المتمثلة في السكن (التنك) والماء الشروب (عدم توفر ماء عين أو بئر) والكهرباء والشغل (البطالون) على سبيل المثال لا الحصر وذلك لضرورة توفر المعلومات المتاحة . ولكي نتمكن من الجواب عن السؤال المطروح في مدخل هذا البحث سنقوم بتمحيص الفرضين السالفي الذكر وهما العلاقة بين السكان وإشباع الحاجات الأساسية زيادة على اختبار الفرض المتعلق بالفروقات الجهوية .

1.3. لا يوجد ارتباط قوي بين الكثافة السكانية وعدم إشباع الحاجات الأساسية :

نريد أن نؤكد أنه ليست هناك علاقة موجبة بين ارتفاع الكثافة السكانية (85 ن / كم²) وعدم إشباع الحاجات الأساسية . لتحخيص هذا الفرض سوف نستعمل معامل ارتباط بيرسون .

المجدول 4 : درجة الارتباط بين الكثافة السكانية وعدم إشباع الحاجات الأساسية .

$$\frac{(x_i - \bar{x})(y_i - \bar{y})}{\sqrt{\sum (x_i - \bar{x})^2 (y_i - \bar{y})^2}}$$

تمخيص الفرض الارتباطي :

نسبة الثقة	حدة الارتباط			قيمة الارتباط	المقاييس المتغيرات
	قوي	متوسط	ضعيف		
11				0.44	التنك
1				-0.06	الماء الشروب
23				0.63	الكهرباء
10				0.42	البطالون

بالنظر إلى المأوى يمكن تعريفه " بأنه الحماية من العوامل والقوى الجوية إنه في أبسط أشكاله مكان للأمان والراحة في حدها الأدنى (الشريف 1990) وبناء عليه فالمأوى يتكون من عناصر مادية وأخرى معنوية . ونظرا لصعوبة الحديث عن الثانية سوف يقتصر التحليل على العناصر الأولى المتمثلة في مواد البناء ، إذ سنؤشر على عدم إشباع الحاجات الأساسية بوجود بيوت التنك . تتمثل الملاحظة الأساسية في الارتباط الضعيف بين الكثافة السكانية وانتشار بيوتات التنك حيث لا يتعدى 0.44 بنسبة ثقة ضعيفة أيضا ومن تم فإن الكثافة السكانية العالية ليست مسؤولة عن عدم إشباع هذه الحاجة الأساسية . وبالنظر إلى نوعية مواد البناء نجد أن 36 ٪ من مجموع البيوتات هي عبارة عن تنك بمتوسط يصل إلى 940 مسكنا من التنك لكل جماعة ريفية في بني عمير ويطابق هذا المتوسط جماعة سيدي عيسى بينما تسجل جماعات بني عمير وبني وكيل

وأحد البرادية أعلى المعدلات (الخريطة 1.3) .

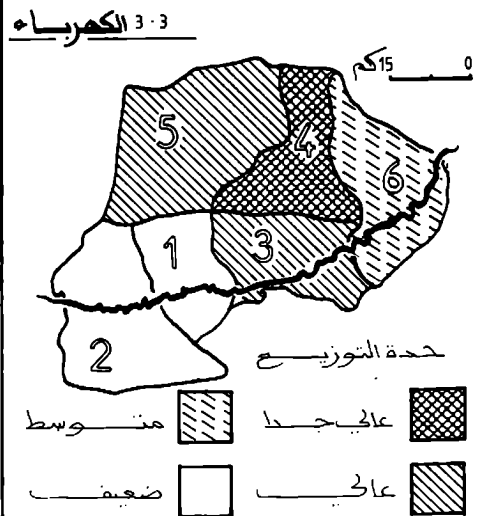
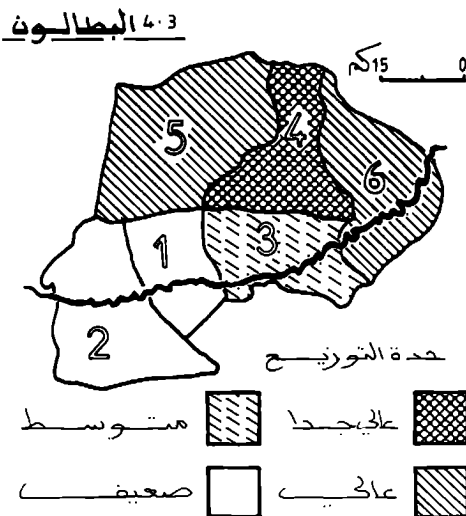
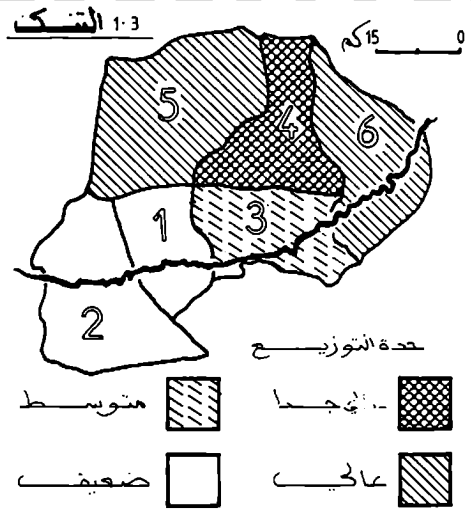
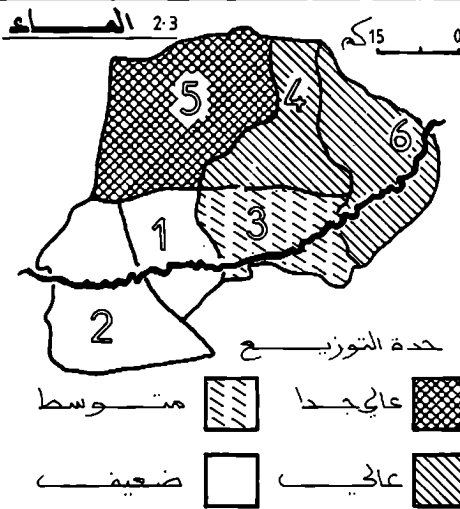
أما الماء الشروب فلا زال يشوبه نقص كبير ، بل يمكن القول إنه رغم الموارد المائية الهامة التي تحظى بها المنطقة فإنها عطشى . وقد ركزنا على مؤشر أساسي يتمثل في عدم توفر ماء عين أو بشر ووجدنا أن الارتباط بين الكثافة السكانية وعدم إشباع الحاجة الأساسية من الماء الشروب ضعيف جدا (-0.06) ومن تم إقصاء متغير الكثافة السكانية كعامل مفسر للنقص الفادح في الماء الشروب . إن 99 ٪ من الأسر لا يتوفرون على الماء الشروب بواسطة القنوات ، وإذا كانت هذه الظاهرة عادية في الوسط الريفي فإنها ليست كذلك بالنسبة لمجالات الري المؤطرة من طرف الدولة إذ يعد قطاع بني عمير جزءا منها ، لاسيما وأن التزود بالماء الشروب يعد أحد الدعائم الأساسية ضمن سياسة تنمية هذه المجالات . وإذا سلمنا بشذوذ هذه الظاهرة فإنه لا يمكن التسليم بضعف التجهيزات المتعلقة بالتزويد بالماء ولاسيما مياه العيون والآبار إذ أن 43 ٪ من الأسر هي التي تتوفر على هذه التجهيزات وأنه يلاحظ عدم تفاوت جهوي في عدم إشباع الحاجات الأساسية من الماء الشروب حيث أن جماعة بني وكيل تسجل نسبة عالية جدا (الخريطة 2.3) .

وفيما يتعلق بالكهرباء فإن 9 ٪ من الأسر هي التي تتوفر عليه وأن درجة الارتباط بين الكثافة السكانية وعدم إشباع هذه الحاجة الأساسية يصل إلى 0.63 وهو ارتباط متوسط يعني أن الكثافة السكانية تعد أحد العوامل المفسرة لعدم إشباع الحاجة الأساسية من الكهرباء إذ أن التجهيزات لا تواكب الطلب عليها . إلا أنه لا يجب الارتكاز على متغير الكثافة السكانية وحده ، إذ قد يرتبط ضعف الكهرباء بتشتت السكنى ، مما قد يرفع من قيمة التكاليف ، هذا زيادة على متغير أساسي آخر قد يفسر ضعف الكهرباء وهو المتمثل في السياسة المتبعة ، إذ أنه في بداية السبعينات اقترح البنك الدولي كهربية الأرياف بالمغرب ولاسيما المجالات البورية على أساس أن المجالات المروية تتوفر على قاعدة للموارد قد تنعش الشغل ، لكن رغم هذا ، فإن الكهرباء بالمجالات البعلية ظلت ضعيفة .

وقد اعتبرنا البطالة أحد المؤشرات الأساسية لعدم إشباع الحاجة من الشغل ، ويلاحظ أن الكثافة السكانية لا تفسر ضعف التشغيل إذ أن الارتباط بينهما ضعيف لا

3. عدم إشباع الحاجيات الأساسية للسكان الريفيين لبنى عمير بتادلة

- | | | | |
|---|------------------------|---|---------------------|
| 1 | جماعة دار ولد زيدوح | 4 | جماعة بنو عمير |
| 2 | جماعة أحد أولاد بوموسى | 5 | جماعة بنو وكيل |
| 3 | جماعة سيدي عيسف | 6 | جماعة أحد البرادينة |



يتعدى 0.42 بنسبة ثقة ضعيفة لا تتجاوز 10 ٪ .

الواقع أنه من الصعب الجزم بضعف التشغيل لاسيما في المجالات المروية ، تبين الإحصاءات الرسمية أن البطالين يشكلون 19 ٪ من مجموع النشيطين ، وبالنظر إلى الشغل الفلاحي بالمجالات المروية فإنه يقع أحيانا طلب قد يفوق العرض في فترات معينة وبالنسبة لأنواع معينة من المزروعات التي تتطلب عددا كبيرا من أيام العمل كالبقوليات والقطن والشمندر .

إذا كانت الصورة التي قدمناها عن العلاقة بين عدم إشباع الحاجات الأساسية وبين الكثافة السكانية بينت أنه لا يمكن الارتكاز على عامل الكثافة في التفسير إلا في حالة واحدة وهي الكهيرة ، فإن التحليل سوف يأخذ بعدا أعمق إذا ما قمنا بمقارنة الفروقات الجهوية بين المجالات المروية ونظيرتها البعلية بقطاع بني عمير .

2.3. لا توجد فروقات ذات دلالة إحصائية بين المجالات المروية ونظيرتها البعلية :

المجدول 5 : الفروقات ذات الدلالة الإحصائية لعدم إشباع الحاجات الأساسية بين المجالات البعلية ونظيرتها .

$$U^X = N_1 N_2 + \frac{N_1 (N_1 + 1)}{2} - R_1$$

$$U^{XX} = N_1 N_2 - U^X$$

تمحيص الفرض الصفري :

المقاييس المتغيرات	U _{xx}	U _x	مستوى دلالة الفرض الصفري بمدخلين
التنك	1	8	منعدمة
الماء الشروب	3	6	منعدمة
الكهرباء	2	7	منعدمة
الصحة	0	9	دالة
البطالون	2	7	منعدمة

نريد أن نؤكد أنه لا توجد فروقات ذات دلالة إحصائية بين الجماعات الريفية التي يغلب عليها الري (سيدي عيسى وأحد البرادية وبني عمير) والجماعات التي تغلب عليها الزراعة البعلية (بني وكيل وأحد أولاد بوموسى ودار ولد زيدوح) ، وقد أكدنا هذا الفرض الصفري (الجدول 5) بواسطة مؤشر هوي ويتني (Whitney).

ومن ثم فإن السؤال الذي طرحناه في مدخل هذا البحث يكتسي مشروعيته بمقارنة الفروقات الجهوية إذ أن المجالات البعلية ونظيرتها المروية سببان في عدم إشباع الحاجات الأساسية وأن الري لم تظهر آثاره الاجتماعية على السكان .

استنتاج عام : إن إشباع الحاجات الأساسية للسكان رهين بعدة اعتبارات :

- حفظ البيئة الطبيعية في إطار شمولي يهتم السهل والجبل ، ذلك أن الموارد المائية تتعرض للتلوث بالسهل بفعل تزايد التترات والأملاح التي تتراوح في بني عمير ما بين 1.5 و 4.5 جرام في اللتر (O.R.M.V.A.T) هذا زيادة على تراجع المجال الزراعي بمعدل 50 هكتارا كل سنة منذ السبعينيات بفعل انتشار البناء وإذا أضفنا إلى هذه المشاكل ما يعرفه الجبل من تدهور في الغطاء النباتي بفعل الرعي الجائر (7 رؤوس في الهكتار بأطلس القصيبة) (الأسعد 1992) زيادة على ظاهرة التوحد التي تستفحل بواد العبيد وسد بين الوديان مما قد تكون له آثار سلبية على سكان الجبل والسهل إذا لم تتخذ التدابير الإجرائية الوقائية .

- إنعاش الشغل غير الفلاحي لاسيما وأن معدل أراضي الري للنسمة الواحدة لا يتعدى 0.16 هكتار ، ويقتضي ذلك إجراءات عدة منها كهرة القرى سواء بالسهل وكذا بمناطق النفوذ الإقليمي لبني ملال وإنعاش السياحة البيئية بالجبل إذ من شأن كل هذا أن يساهم في إنعاش الشغل وإسناد الجماعات التي لا تتوفر على أراضي زراعية .

- إشراك الفلاحين في التدبير البيئي ولا يتأتى ذلك إلا بدعم روح التعاونيات الفلاحية وتنظيم الفلاحين في تنظيمات مهنية ونقابية ومشاركة الجماعات المحلية في التسيير الفعلي مما قد يرفع من مستوى الوعي بتوزيع عادل للحاجات الأساسية للسكان .

الهوامش

- 1- المصدر : مديرية الإحصاء لسنوات 1960 و 1971 و 1982 . تقديرات الباحث لسنوات 1990 و 2000 و 2010 : بناء على وتيرة نمو 2.8 ٪ سنويا .
- 2- المصدر : (1) مصلحة الأرصاد الجوية الوطنية (2) أطلس المغرب (3) تقرير المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بتادلا .
- 3- المصدر : مديرية الإحصاء / 1982 .

المصادر

- (A.), "Systemes et territoires : valeurs, concepts et indicateurs pour un autre développement", *Espace géographique* n° 3, 1988, pp. 181 - 198.
- (A.), *Catastrophe or New Society ? a Latin American World Model*, Ottawa, I.D.R.C. 1976.
- Lat (M.), "Quelques éléments de réflexion pour une redefinition théorique du concept de développement", *R.G.M.* n° 5, Nlle série, 1981, pp. 89 - 120.
- / (A. H.), *Motivation and personality*, New York, Harper, 1954.
-), "Répartition de la population et mouvement migratoire dans la plaine du Tadla", *R.G.M.* n° 7, ancienne série, 1965, pp. 53 - 69.
- .V.A.T. *Situation du niveau de la nappe phréatique et de la salinité dans le périmètre du adla durant la période du 30/12/91 au 13/01/92.*
- id (A.), *Société, espace et justice : inégalités régionales et justice socio-spatiale*. Paris, PUF, 1981.
- SAAD (M.), "Intensification et adaptation agro-pastorale au Maroc : Cas du Dir El Ksiba du Moyen Atlas de Beni-Mellal". 6^e rencontre culturelle de Sefrou : *piemont de montagnes : ressources et aménagement* ; 1992, sous presse.
- الأسعد (محمد) ، " الانتقال الديموغرافي بالبلدان المغاربية " ، ندوة الشباب والمجتمع في البلدان المغاربية ، الرباط ، كل علوم التربية ، دجنبر 1991 ، تحت الطبع .
- الأسعد (محمد) ، " السكان والتنمية المستدامة في بلدان اتحاد المغرب العربي " . مجلة المستقبل العربي ، العدد 155 يناير 1992 ، ص . 99 - 117 .
- طه بلم (حسين) والبنّا (علي) وأبو عياش (عبد الإله) ، *البيئة والإنسان . دراسات في الإيكولوجيا البشرية* ، وكا المطبوعات ، الكويت ، 1984 .
- مدينة (محمد) ، *تكتيف أنظمة تربية الماشية والتجديدات الفلاحية بقطاع بني عمير بتادلة* . د . د . ع . كلية الآداب الرباط ، 1989 ، غير مطبوع .
- محمد (خليفة) ، " ارتقاء القيم " (دراسات نفسية) *عالم المعرفة* ، العدد 160 ، الكويت ، 1992 .
- الشريف والجباجي ، " التكنولوجيا والتنظيم في عمليات التوفير الدائم للمأوى الأساسي في المنطقة العربية " ، *عالم المعرفة* العدد 150 ، 1990 ، ص . 275 - 388 .

بعض مظاهر تكثيف أنظمة تربية الماشية بسهل تادلا حالة قطاع بني عمير

محمد مدينة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بنمسك - الدار البيضاء

من القضايا التي تستأثر باهتمام الدارسين والباحثين في مجال التنمية ، مسألة التنمية الفلاحية . وهو موضوع يطرح بالحاح لدى دول العالم الثالث التي تبحث عن سبل ضمان أمنها الغذائي . وتعالج هاته المقالة موضوع تنمية قطاع فلاحي حيوي ألا وهو تربية الماشية من خلال رصد بعض مظاهر تكثيف أنظمة تربية الماشية بمجال يحضى فيه هذا القطاع باهتمام كبير خاصة بعد إدخال السقي العصري ، يتعلق الأمر بسهل تادلا ويقطاع منه وهو قطاع بني عمير⁽¹⁾ الذي يعتبر من أقدم الوحدات السقية بالمغرب .

فالماشية بهذا السهل والتي كانت منتجاتها لا يتجاوز استهلاكها مستوى الحيازة ، أصبحت الآن تزود السوق المحلية والوطنية . وهذا البعد الاقتصادي والمجالي الجديد ، يعبر عن تحول عميق في السلوك الاقتصادي للحيازة الفلاحية وخاصة الحيازات الصغيرة والمتوسطة ؛ التي تعتبر رائدة النظام الفلاحي الحديث بسهل تادلا من خلال ما تقدمه من شمندر وقطن وحبوب وحبوب وحبوب . . .

ويجدر بنا في البدء توضيح مفهوم نظام تربية الماشية ؛ نعني بنظام تربية الماشية - وهو أحد فروع النظام الفلاحي - مجموع العمليات المتعلقة بتربية مختلف الأصناف الحيوانية من تغذية وإيواء ورعاية وتحسين الأصناف المرباة ومختلف التقنيات والمهارات المستعملة من طرف المربي للارتفاع بقطيعه . وحتى يتم ضبط عناصر الموضوع ، ربطنا مضمون الماشية بخصوصيات المجال . وهكذا واعتبارا لعدم وجود الإبل ومحدودية دور الخيليات في النقل والجر ، فقد ركزنا على البقر والغنم والمعز .

أما عن خصوصيات المجال المدروس فقطاع بني عمير جزء من سهل تادلا⁽²⁾ يمتد على الضفة اليمنى لنهر أم الربيع . وقد أطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى قبيلة بني

عمير التي استقرت به في فترات سابقة . يحد هذا السهل من الجنوب نهر أم الربيع حيث يمتد قطاع بني موسى وتحفه شمالا وشرقا هضبة الفوسفاط .

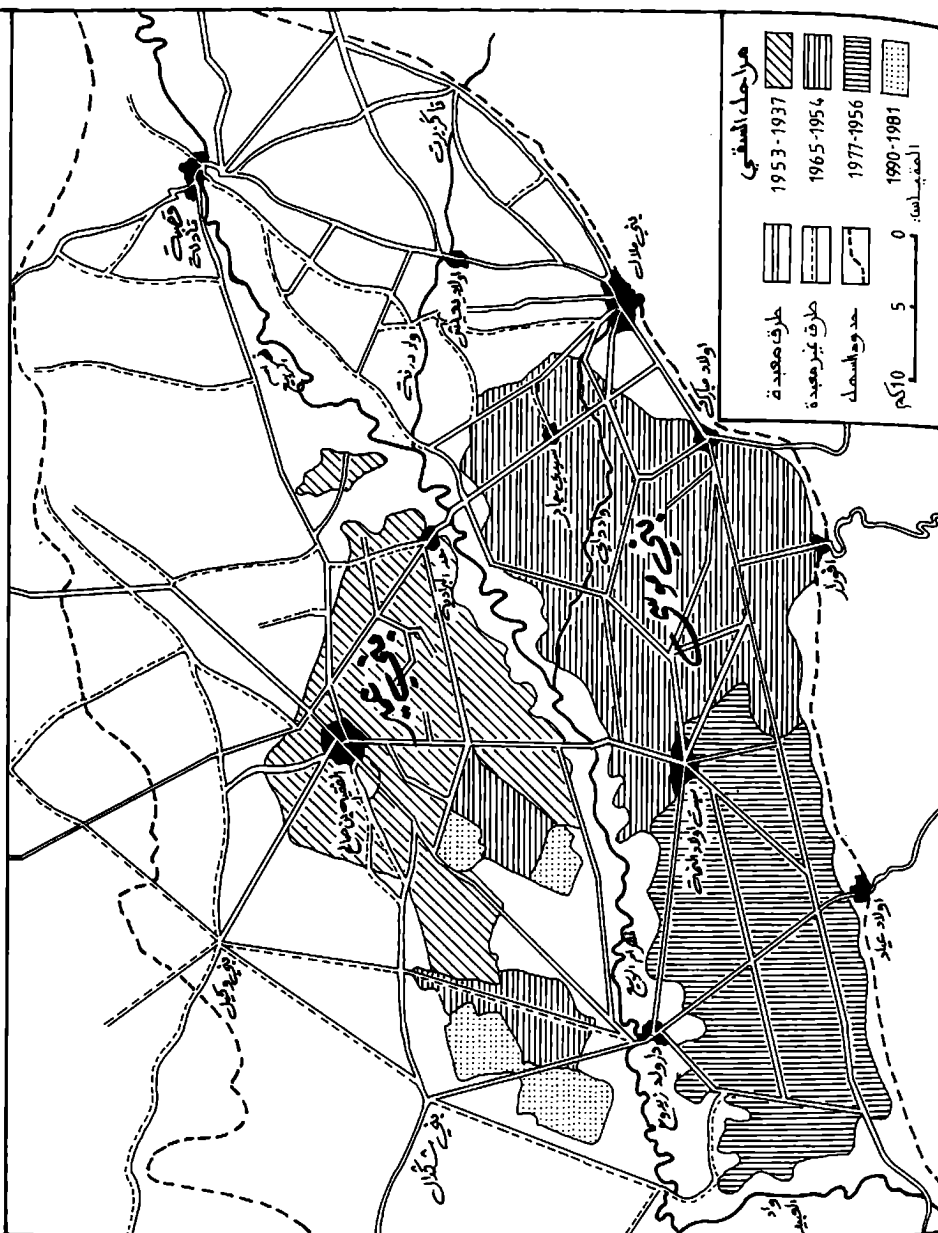
تبلغ مساحة سهل بني عمير 535 110 هكتارا ويتميز بتربة متنوعة . إلا أن كمية التساقطات السنوية تقل عن 350 ملم وهي كمية غير كافية للزراعة البعلية . فهو إذن سهل جاف ومن ثم تظهر أهمية الري الذي انطلق ببناء سد على نهر أم الربيع بقصبة تادلا سنة 1932 حيث تمثل المساحة المروية الآن 41.000 هكتارا مروية بالطرق العصرية سواء بشبكة الري أو بالضخ الآلي وتشغل الجزء الأوسط من بني عمير (انظر الخريطة رقم -1) . يخضع السهل إداريا للمكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بتادلا O.R.M.V.A.T. الذي يوجد مقره بمدينة الفقيه بن صالح ويقوم بالإشراف على النشاط الفلاحي بواسطة مراكز الاستثمار الفلاحية التي يبلغ عددها 35 مركزا بمجموع سهل تادلا منها 13 مركزا ببني عمير .

إن ما يثير الانتباه بالمجال العميري هو التحول الذي حدث على مستوى البنيات الفلاحية والتي انتقلت من بنيات فلاحية ما قبل رأسمالية تعتمد على الزراعة الموسمية والرعي الواسع إلى بنيات فلاحية رأسمالية تركز على نظام كثيف في الزراعة وتربية الماشية . ونعتبر تكثيف أنظمة تربية الماشية ببني عمير مؤشرا هاما على مدى التحولات التي عرفت تادلا عموما .

لمعالجة الموضوع صغنا ثلاث فرضيات هي كالتالي :

1. انطلق مسلسل التحولات الفلاحية بسهل بني عمير بإدخال السقي العصري ، فعمل ذلك على الانتقال من نظام فلاحي رعي زراعي إلى نظام فلاحي كثيف تسريقي ؛ فتبعنا لانتشار الري العصري وما يرتبط به من ظهور يومية زراعية مكثفة فإن ذلك سيعمل على حدوث تحول جذري في أنظمة تربية الماشية . وسيتجه الاهتمام نحو قطيع البقر الذي يعمل النظام الزراعي العصري على توفير الأعلاف اللازمة له ؛ وبذلك ستتغير أنظمة تغذية وإيواء القطيع مع توفير إمكانيات لتحسين الأصناف المرباة وبالمقابل سيعمل توسيع نطاق الري العصري على تقلص المساحات الرعوية ونفترض بذلك حصول تراجع نسبي لقطيع الغنم .

1. طرق المواصلات وتطور المساحة المسمية بسهولة تادلت



2. يوسع قطاع تربية الماشية من " إطار عمل الفلاح " في حرية اتخاذ القرار بحكم تحرر هذا القطاع من تدخلات مراكز الاستثمار الفلاحي . وتبعاً لذلك سيتزايد اعتماد الفلاح على القطيع هذا الأخير الذي تساعد مداخله على مواجهة مصاريف الدورات الزراعية وتسوية مداخل الحيابة .

3. ولأن المجال العميري لم يعرف نفس مستويات التحول الفلاحي ظهرت تباينات مجالية نفترض تكاملها في ميدان تربية الماشية .

لاختبار هاته الفرضيات كان اعتمادنا على الحيابة الفلاحية كوحدة للدراسة الميدانية باعتبارها وحدة إنتاج⁽³⁾ . وكان لزاماً البحث عن متغيرات لتصنيف هذا المجال الشاسع . لذلك وعلى أساس عنصر الري ميزنا بين المجال المروي بشبكة الري ويشمل الجزء الأوسط من سهل بني عمير (انظر الخريطة رقم -2-) ثم مجال يمارس فيه الري بالشبكة وبالضخ الآلي لذلك أسميناه بالمجال المزدوج ويشمل الأطراف الغربية والشرقية للمجال الأول . أما المجال الثالث وهو المجال البعلي فيشمل باقي أجزاء السهل .

بعد أن حددنا المراكز الفلاحية التي يخضع لها كل مجال وعدد الحيازات بكل مركز داخل المجال الواحد ، قمنا بتصنيف حيازات كل مركز اعتماداً على المساحة كمعيار أول . وبعد أن حصلنا على حجم العينة من كل فئة مساحية أخذنا بمعيار ثان وهو توفر الحيابة على القطيع مع اعتبار الحيازات التي تتوفر على القطيع دون الأرض وكذلك الحيازات بدون قطع ، وحصلنا في النهاية على 410 حيازة تمثل تقريبا 2.62 ٪ من مجموع حيازات بني عمير .

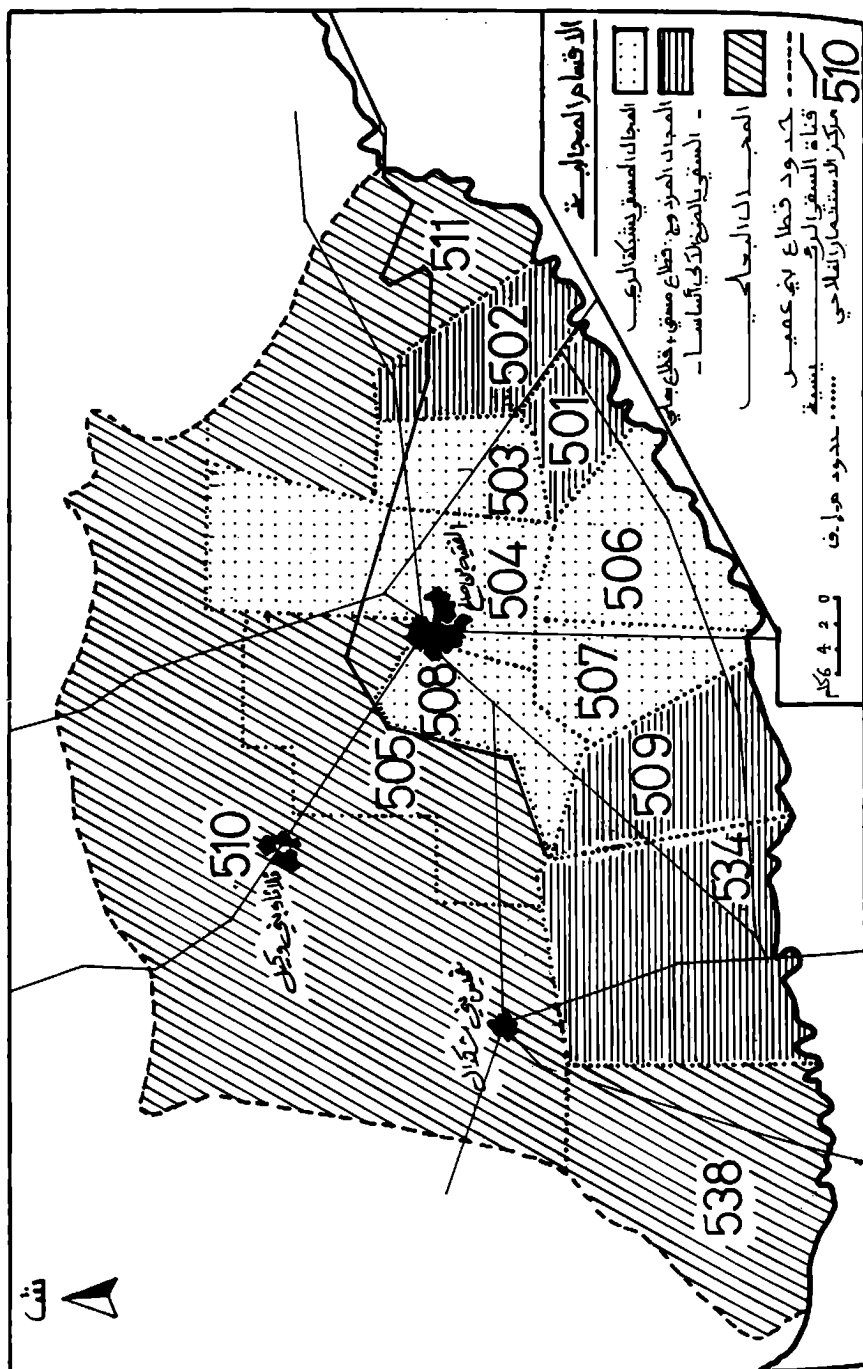
وبناء عليه سألست نتائج البحث في ثلاثة عناصر أساسية :

- 1- بنية حيازة الماشية وتوزيعها المجالي .
- 2- أشكال ومستويات التكتيف .
- 3- البنيات المجالية وتكاملها في مجال تربية الماشية .

1. بنية حيازة الماشية وتوزيعها المجالي :

1.1. تفاوت مجالي في أعداد وأصناف الماشية :

2. تخطيط الاقسام المجالية بسهل بني عمير



تكمّن أهمية دراسة بنية الماشية في كونها تمكّننا من معرفة وضعية هذا القطاع وذلك بالاعتماد على مؤشرات تتمثل في توزيع أعدادها وأصنافها . فمن الخاصيات التي يتميز بها السهل ؛ التفاوت المجالي في حجم الماشية سواء على مستوى أعداد البقر والغنم والمعز ، أو على مستوى الأصناف من محلية "Locale" وهجينة "Croisé" و أصيلة "Pure" . بالنسبة للأعداد هناك تطور عام بوثائر متباينة حسب نوع الماشية وحسب طبيعة المجال حيث الأهمية العددية للبقر بنطاق الريّ العصري ، والغنم والمعز بالنطاق البعلّي .

جدول -1- : عدد رؤوس الماشية بسهل بني عمير ضمن إقليم بني ملال.
(الأعداد بالرؤوس)

	إقليم بني ملال	بني عمير
البقر	142.000	71.755
الغنم	850.000	438.316
المعز	180.000	19.941

المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي لتادلا 1990

وعلى مستوى تراتبية توزيع أعداد الماشية بالحيازات المدروسة هناك 12.973 رأسا ؛ تأتي الغنم في المرتبة الأولى متبوعة بالبقر ثم المعز . ولتحديد القيمة الفعلية لأنواع الماشية قمنا بتحويل الأعداد بالرؤوس إلى وحدات الماشية الكبرى "Unité U.G.B. de gros Betail" . فأصبح مجموع القطيع يمثل 4639 و.م.ك. (4)، والتراتبية العددية أصبحت كالتالي ، البقر ، ثم الغنم فالمعز .

جدول -2- : توزيع أنواع الماشية حسب و.م.ك . بالأقسام المجالية .

نوع الماشية القرايع المجالية		البقر		الغنم		المعز		المجموع العام	
		العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
المجال المسقي		1711	57.74	627	38.58	4	7.84	2342	50.48
المجال المزدوج		857	28.93	406	24.98	9	17.66	1272	27.42
المجال البعلي		395	13.33	592	36.44	38	74.50	1052	22.10
المجموع		2963	100	1625	100	51	100	4639	100

المصدر : بحث ميداني 1988 .

وفيما يخص توزيع أصناف الماشية ، تبين لنا أن الصنف المحلي (البلدي) والهجين (الكروازي) يمثلان الغالبية العظمى لمجموع الماشية . وإذا كان الصنف المحلي يسود بالمجالات الثلاثة ، فإن الصنفين الهجين والأصيل (الرومي) يشعلان نصف البقر وينتشران بمجالات الري العصري . وهذا يعكس أهمية الصنف المحسن وخاصة من البقر - بالنطاق المروي نظرا لما يوفره الري من إمكانيات لتنمية القطيع وتحسين أصنافه .

جدول -3- : توزيع أصناف الماشية على الأقسام المجالية (الأعداد ب : و.م.ك .)

صنف الماشية القرايع المجالية		المحلي		الهجين		الأصيل	
		العدد	%	العدد	%	العدد	%
المجال المسقي		968	38.67	998	67.75	453	68.32
المجال المزدوج		733	29.28	376	25.52	134	20.22
المجال البعلي		802	32.05	99	6.73	76	11.46
المجموع		2503	100	1483	100	663	100

2.1. تنوع بنية حيازة الماشية :

1.2.1. بنية حيازة الماشية حسب فئات مساحة الأرض : (الشكل -1) .

يعتبر توزيع الماشية حسب فئات مساحة الأرض توزيعا ضعيف التركيز حيث لا يتعدى معامل التركيز 0.20 . إلا أن 50 ٪ من الحيازات لا تتوفر سوى على 38 ٪ من الماشية . ومن السمات المميزة لهذا التوزيع وجود حيازات بدون أرض والتي تمثل 4.14 ٪ من مجموع الحيازات وتربي 2 ٪ من الماشية .

وتبرز لنا هاته الوضعية جانبين أساسيين :

1. أهمية الحيازات الصغرى في مجال تربية الماشية وهو ما يعكس أهمية القطيع لدى هاته الحيازات .

2. ضعف نسب ملكية الماشية لدى الحيازات الكبيرة رغم أهمية رصيدها العقاري الذي من شأنه أن يحفز على تنمية القطيع لديها .

2.2. بنية حيازة الماشية حسب و.م.ك . : (الشكل -2) .

يتضح من خلال منحني تركيز الماشية حسب و.م.ك. مجموع سهل بني عمير أن هناك تفاوتاً كبيراً على مستوى التوزيع العام للماشية حسب أصنافها وعبر الشرائح المجالية الثلاثة ؛ فإذا كان معامل التركيز لا يتعدى 0.46 فإنه يخفي تباينات واضحة حيث أن 62.19 ٪ من الحيازات لا تتوفر سوى على 28.66 ٪ من الماشية .

إجمالاً يتبين من خلال بنية حيازة الماشية حسب و.م.ك .

1. الأهمية العددية للحيازات المتوسطة والصغرى مع ضعف نسب حيازتها للماشية واعتمادها على حيازة البقر .

2. القلة العددية للحيازات الكبرى مقابل تركيز الماشية بها وخاصة الغنم .

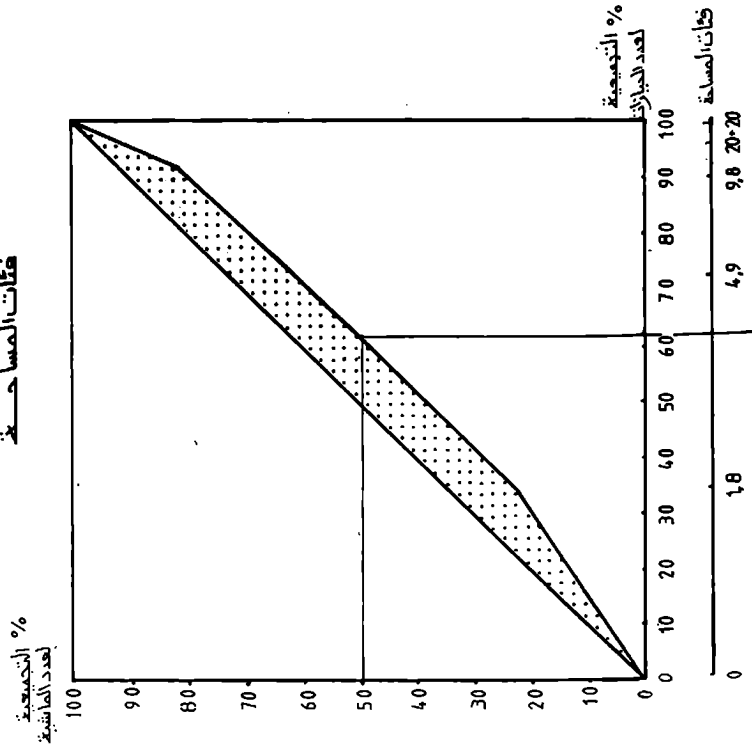
3.2.1. بنية حيازة الماشية حسب الصنف (5) :

بخصوص حيازة أصناف الماشية يمثل الصنف المحلي المرتبة الأولى عددياً ، ويتكون من الغنم والمعرز وغالبية البقر ؛ يليه الصنف الهجين والأصيل الذي يتكون من

منحنى تركز الماشية حسب فئات مساحة الأرض وحسب و.م.ك

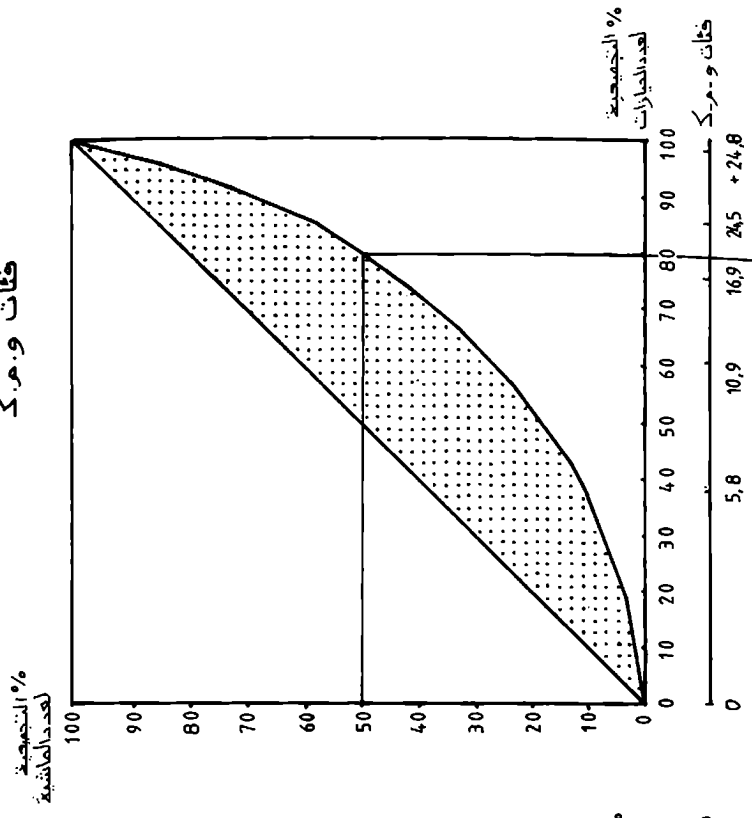
وضعية المجالات الثلاثة - المسقي. المزروع والبعلج -

2 منحنى تركز الماشية حسب فئات المساحة



الوسيط
معامل التركيز: 0,20

1 منحنى تركز الماشية حسب فئات و.م.ك



الوسيط
معامل التركيز: 0,46

البقر أساسا . وأهم ما يميز حيازة الماشية ببني عمير بنيتها المركبة حيث ميزنا بين ثمانية أصناف أجمعناها في نوعين رئيسيين .

النوع الأول : وتمثله الحيازات الثلاثية التركيب أي التي تتوفر على ثلاثة أنواع من الماشية :

* حيازات البقر المحلي والهجين والغنم .

* حيازات البقر بأصنافه الثلاثة .

* حيازات البقر المحلي والغنم والمعز .

النوع الثاني : حيازات ثنائية التركيب وتضم نوعين من الماشية هما :

* حيازات البقر المحلي والهجين .

* حيازات البقر الهجين والأصيل .

* حيازات البقر المحلي والغنم أو البقر الهجين والغنم أو الغنم والمعز .

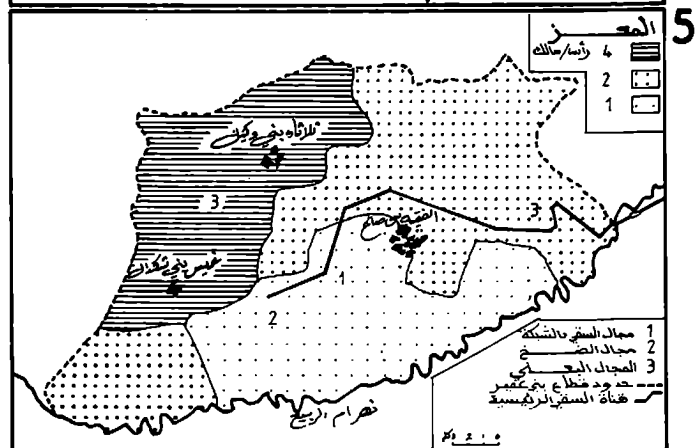
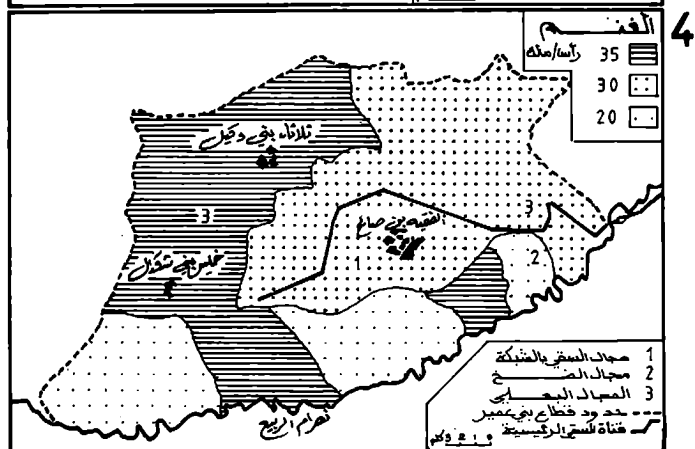
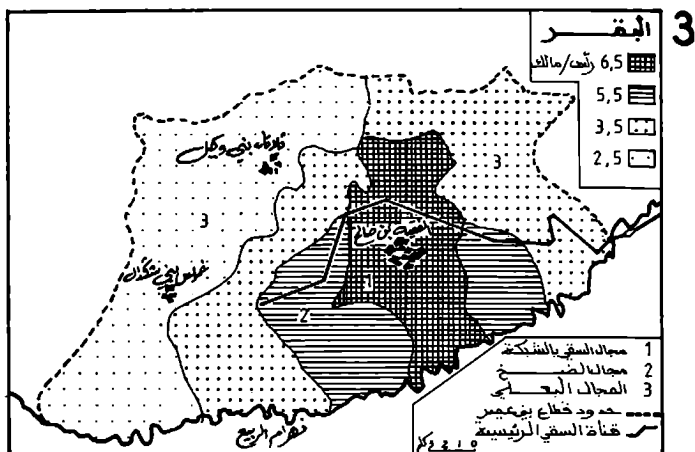
(انظر الخرائط -3-4-5 -) .

على المستوى المجالي تبين أن السائد بالمجالين المروي بشبكة الري (بني عمير الأوسط) والبعللي هو البنية الثنائية التركيب مع غلبة البقر بالمجال الأول (المروي) وهو ما يعكس أهمية إنتاج الحليب لدى هاته الحيازات . بينما الغالب بالمجال البعللي هو حيازات الغنم والمعز بحكم وجود مراعي شاسعة . أما حيازات المجال المزدوج فتتميز ببنية ثلاثية التركيب ، وذلك لوجود قطاعين مروي وبعللي يسمحان بتنوع القطيع . هاته الوضعية ستعكس على أشكال ومستويات التكثيف .

2. أشكال ومستويات التكثيف :

إن نظام تربية الماشية بالسهل هو انعكاس للتحويلات العامة التي لحقت النظام الفلاحي بتادالا والذي أصبح يعتمد على استعمال عقلائي ومكثف للموارد الطبيعية في إطار ترابط وتكامل نظامي الزراعة وتربية الماشية . فمن جهة أدى تطور المساحات المسقية وعمليات التملك الجديد للأرض إلى تراجع المساحات التي كانت مخصصة للرعي ولزراعة الشعير لصالح مزروعات أخرى كالقطن والشمندر والفصصة إلى جانب الحبوب .

متوسطات ملكية الماشية بسهل بني عمير



كما أدى انتشار المكننة إلى تخليص جزء من الماشية من القيام بأعمال الحرث والدراس حيث أصبح العميري لا يعتبر الماشية كطاقة للعمل فحسب بل كمصدر لمداخيل تدعم الحياة . لذلك يسعى المربي إلى الاعتناء بقطيعه من حيث التغذية والإيواء وإلى تحسين أصنافه بهدف الزيادة من مردوديته . واعتبارا لهاته الوظيفة خرج المربي من دائرة الإنتاج للاستهلاك الذاتي ليندمج في حركة التسويق سواء عن طريق تعاونيات تسويق الحليب أو بيع وشراء الماشية .

ما هي أشكال ومستويات التكثيف ؟

1.2. ارتباط نظام تغذية الماشية بالنظام الزراعي وتحسين بنية القطيع وإيوانه .

1.1.2. إنتاج زراعي مندمج مع حاجيات القطيع :

يعتبر النظام الزراعي من المؤشرات الهامة التي تدلنا على مدى الترابط والانفصال بين الزراعة وتربية الماشية . وبالنسبة لمجالنا قمزت هاته العلاقة قبل إدخال الري العصري بمحدوديتها حيث اعتمد النظام الرعي - زراعي بالأساس على الغنم والمعز حيث كانت تخصص لهما مساحات واسعة للرعي إلى جانب زراعة الحبوب وخاصة الشعير . بعد تجهيز السهل وإقامة شبكة الري تقلصت المراعي وفرض نظام زراعي كثيف تمثل فيه مشاركة الفصة حلقة أساسية وهو ما أتاح تطوير نظام تغذية القطيع ، وقد تم ذلك في إطار التنوع المجالي الذي يميز سهل بني عمير والمتمثل في وجود قطاع مروي 46.88 % من مجموع مساحة السهل الذي يوفر العلف الأخضر ، ومساحات بعلية 53.12 % التي تتيح مساحات واسعة للرعي الطليق . ويعبر الحرص على ممارسة العلفيات ومكانتها داخل الدورات الزراعية عن التحول الذي عرفه النظام الفلاحي ، خصوصا بعد اعتماد الدولة للمخطط الحليبي سنة 1973 ⁽⁶⁾ . وتعتبر الفصة أهم مزروع علقي فهي تشغل نصف المساحة المخصصة للمزروعات وتظهر ممارستها لدى كل الحيازات مع وجود تفاوت بين فئة وأخرى . وقد لاحظنا أن نسبة المساحة المخصصة للفصة تتناقص كلما زادت المساحة الزراعية وذلك بالمجال المروي بالشبكة . مما يؤكد الملاحظة التي استخلصناها من دراسة بنية وتوزيع الماشية الذي أبرز لنا دور الحيازات الصغرى والمتوسطة (حيازات أقل من 9.8 هك) في مجال تربية الماشية .

جدول- 4- : توزيع مساحة الفصة على فئات الحيازات .

فئات الحيازات (هـ)	ح	%	م	%
1.8-0.2	75	55.97	56.14	26.64
4.9-2	114	73.07	126.62	23.03
9.8-5	50	65.78	56.34	10.41
20-10	15	65.21	23.55	6.08
20+	11	84.61	32.01	5.19
المجموع	265	65.75	294.66	12.78

ح = عدد الحيازات الممارسة لزراعة الفصة .

% = النسبة من مجموع حيازات الفئة .

م = المساحة المخصصة للفصة بالهكتار .

% = النسبة من مجموع المساحة المستغلة لدى الفئة .

هذا وتختلف مكونات اليومية العلفية من مجال لآخر حسب الإمكانيات المتوفرة

للحيازة . عموما تتكون اليومية العلفية من :

1. التبن والعلف الأخضر الذي يشمل الفصة خضراء أو يابسة ، الشعير العلفي

وأوراق الشمندر وكلاً القطنيات والحصاد .

2. هناك أيضا العلف المركز ويتكون من ثفل الشمندر الطري أو الجاف

والنخالة .

إن غنى اليومية العلفية وتنوعها الفصلي يدل على أن الحيازات لا تعتمد في

تغذية القطيع على ما توفره الحيازة بل تكمل ذلك بشراء العلف وبالإرعاء خارج الحيازة .

وهكذا اعتبارا لاختلاف إمكانيات الحيازات سواء منها الناتج عن عامل المساحة

الزراعية أو مياه الري فإن نظم تغذية القطيع تختلف حيث يمكن في هذا الصدد أن نميز

ثلاثة أصناف من الحيازات :

1. حيازات تعتمد على الرعي والعلف وتقتل 58.29 ٪ من الحيازات وتتكون من قطع البقر والغنم .

2. حيازات تعتمد على العلف فقط وتهم بدرجة كبيرة حيازات البقر المخصص للتسمين .

3. حيازات الغنم التي تقوم بكراء المراعي بمناطق البور بيني وكيل ويني معدان .

2.1.2. تتجه أغلب الحيازات نحو تحسين بنية القطيع وإيوائه :

هناك اتجاه لدى أغلب الحيازات نحو تربية الصنف المحسن والأصيل . وتتجلى نسب⁽⁷⁾ تحسين بنية القطيع من خلال الأهمية العددية للبقر الهجين والأصيل لدى الحيازات حيث أن نسب تحسين القطيع تتجاوز 76.36 ٪ عند أغلب حيازات المجال المروي مقابل 44.30 ٪ بالمجال البعللي . ويتم تحسين بنية القطيع سواء بالتلقيح الاصطناعي أو عن طريق التهجين الطبيعي أو باقتناء الصنف الحسن .

وقد فرض تحول بنية القطيع وتحسينها توفير تجهيزات على مستوى الإيواء والمرافق التابعة له . فإذا كان النظام الرعوي القديم قد اعتمد على الزريبة كماوى أساسي لقطع الغنم فإنها لازالت ملازمة لمعظم الحيازات على الرغم من التحول الذي عرفته بنية الماشية . وقد تعزز وجود الزريبة باصطبلات وحظائر .

إن ممارسة نظام دورات زراعية تراعى فيه الحاجيات العلفية للقطيع ، أدى إلى حدوث تحولات هيكلية على نظام تربية الماشية تجلت بعض مظاهره في ممارسة الإرجان La stabulation وتحسين الأصناف المرباة مما سيكون له انعكاسات على وظائف الماشية .

2.2. ارتباط بنية وظيفة الماشية بالتسويق :

ترتبط وظيفة الماشية بأعدادها وأصنافها وطبيعة نظام تغذيتها وكذلك حجم الاستثمارات بها . ولقد ساهمت سياسة التسويق في ظهور ريع جديد للأبقار يتمثل في إنتاج الحليب الذي يوفر تسويقه دعما لميزانية الحيازة طول السنة خصوصا الحيازات الصغيرة⁽⁸⁾ . فإذا كان القطاع الزراعي قد ربط الحيازة بالسوق عن طريق التزام الفلاح بممارسة مزروعات تعاقدية كالشعير والقطن . فإن تسويق الحليب عبر التعاونيات⁽⁹⁾

عزز ربط الحيازة بحركة إنتاج تسويقي . وفي هذا الصدد يتميز توزيع الأبقار الحلوب بسهولة بني عمير بميزتين :

الأولى تتمثل في أهمية الأعداد سواء على مستوى الرؤوس 61 ٪ من مجموع البقر بالسهل أو على مستوى وحدات الماشية الكبرى وخاصة بالمجال المروي .

جدول -5- : عدد اللبائين والإنتاج اليومي للحليب حسب فئات و.م.ك. الإنتاج اليومي بالليتر .

فئات و.م.ك.	اللبائون		الأبقار الحلوب		الحليب	
	عدد	٪	عدد الرؤوس	٪	إنتاج ليتر/يوم	٪
5.8-1	133	36.84	164	11.54	1406	11.04
10.9-6	80	22.16	327	23.05	2928	23.01
16.9-11	57	15.80	336	23.66	2744	21.56
24.5-17	39	10.80	280	19.71	1882	14.79
24.8 +	52	14.40	313	22.04	3764	29.60
المجموع	361	100	1420	100	12724	100

المصدر : بحث ميداني . يونيو 1988 .

يساهم المجال المروي بنوعيه بمعظم إنتاج الحليب في بني عمير والذي يسوق جله . ويتجلى هذا الدعم في الريع الذي يوفره الحليب بالنسبة للحيازات الصغرى والمتوسطة بالخصوص . ويتأكد هذا بوضعية المربين اللبائين داخل تعاونيات تسويق الحليب حيث يمثل المنخرطون الرسميون 80.05 ٪ أما المؤقتون فنسبتهم 6.10 ٪ .

وتتعزيز وظيفة الماشية لدى المربين بممارسة التسمين لكون التسمين يوفر مداخل هامة في فترة وجيزة تساعد على مواجهة مصاريف الحرث والحصاد واليد العاملة وماء الري . ونميز في ماشية التسمين بين تسمين البقر الذي يشمل العجول والثيران ، وتسمين الغنم ويشمل الخرفان وخاصة صنف السردى الذي يتميز بخاصية سرعة النمو في الوزن .

3. يشكل تنوع البنيات المجالية وتكاملها بعني عمير إطارا ملائما لممارسة التكثيف :

إن تنوع البنيات المجالية بسهل بني عمير يساعد على تنمية أنظمة تربية الماشية . فمن جهة يتيح النطاق البعلي إمكانات لمربي القطاع المستقي لتدعيم تربية الغنم ، وبالمقابل فإن ربع الحاجيات العلفية لمربي المجال البعلي يوفرها القطاع المروي .

ما هي خصوصيات هذا التكامل ؟

1.3. يتيح النطاق البعلي إمكانات لمربي المجال المروي لتدعيم تربية الغنم :

يتميز النطاق البعلي بامتداد مساحته إذ يغطي أكثر من نصف السهل ؛ نطاق تقل فيه التساقطات التي لا تتجاوز 300 ملم / السنة ، به تربيات متوسطة الخصوبة ضعيفة السمك وتظهر في كثير من أجزائه قشرات كلسية . يتوفر هذا المجال على مراعي وهي أراضي جماعية كمراعي بني معدان وبني وكيل التي تستقطب منتجعي بني عمير وبني موسى ، وهو ما يدل على ارتباط حيازات القطاعات المروية بتربية الغنم . وإذا كانت بعض الحيازات قد خصصت حظائر للغنم فإن أغلب المربين وخاصة للقطعان الكبيرة الحجم لازالوا يعتمدون على الرعي ببني وكيل وبني معدان . ويتم الإرعاء إما بكراء الأرض أو تسليم القطيع لمرب بالمجال البعلي يكون له الحق في الانتفاع بأرض الجماعة . هذا وتختلف مدد الإرعاء حسب فصول السنة ويتركز الإرعاء خلال فصل الربيع حيث يكثر العشب إلا أن بعض المربين يوكلون قطعانهم لرعاة طيلة السنة بعد اكتراء الأرض لهذا الغرض .

2.3. ربع الحاجيات العلفية لمربي المجال البعلي يوفرها القطاع المروي :

إن عدم الانتظام السنوي لكمية التساقطات يجعل المحاصيل البعلية وكذلك الموارد النباتية الرعوية لا تكون متوفرة طيلة السنة ومن ثم تظهر الحاجة الملحة لشراء المواد العلفية لسد هذا العجز . ويظهر العجز العلفي خاصة في الخريف وبداية فصل الشتاء وهي المرحلة الصعبة في تغذية القطيع . وإذا كانت تغذية الماشية بالمجال البعلي مرتبطة بزراعة الحبوب البعلية وما توفره من تبن وحشائذ بالإضافة إلى المراعي فإن هاته الأخيرة اعتبارا للتدهور الذي تتعرض له بسبب كثافة الرعي أصبحت لا تساهم سوى بوحداث علفية محدودة خلال السنة واعتبارا لذلك تصبح ضرورة شراء العلف مسألة ملحة .

جدول-6- : توزيع أصناف مربى المجال البعلي حسب اعتمادهم على الفصة
وثفل الشمندر :

أصناف المربين	المجال المربي	المشترون لكل الفصة	المشترون لثفل الشمندر
غنم + معز	80	20	-
بقر هجين + غنم	21	17	14
بقر محلي + هجين + غنم	4	4	4
بقر هجين + غنم	3	3	3
المجموع	108	44	21

هذا وتتفاوت مشتريات المربين للعلف المركز بين سنة وأخرى تبعا لحجم القطيع ونوعه . ويستعمل المربون ثفل الشمندر الجاف والطري ويتم اقتناؤه من معمل السكر أو عن طريق الوسطاء وهي الحالة السائدة مما يؤدي إلى ارتفاع ثمنه، كما يعتمدون على الفصة خضراء أو ككلاً طول السنة . وتظهر حاجة المربين للعلف بإلحاح في فصل الشتاء وخاصة حيازات الغنم بسبب تقلص المساحة المخصصة للرعي .

إذا كانت مراحل إعداد المجال قد أسفرت عن تمايز تمثل في وجود قطاع مسقي وقطاع بعلي فإن وجودهما خلق فرصا للتكامل في مجال تربية الماشية .

استنتاج:

إن تحليل أنظمة تربية الماشية بسهل بني عمير أبرز لنا منذ البداية ارتباطه بالتحويلات التي عرفها النظام الزراعي بعد إدخال الري العصري وتبين أن آليات التكثيف مرتبطة بتكامل نظامي الزراعة وتربية الماشية . إلا أن قطاع تربية الماشية لازال يفتقر إلى وحدات صناعية للعلف ولتحويل منتجات الماشية والتي من شأنها أن تطور مستويات التكثيف ، خصوصا وأن قطاع تربية الماشية يعتبر وسيلة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية بسهل تادلا عموما .

الهوامش

- 1 - محمد مدينة ، التجهيزات الفلاحية وتكثيف أنظمة تربية الماشية بسهل تادلا حالة قطاع بني حمير ، دبلوم الدراسات العليا في الجغرافية الزراعية ، الرباط ، 1989 .
- 2 - ينتمي القطاع السقوي لبني عمير لإقليم بني ملال المقسم إداريا إلى 5 دوائر وإلى 20 جماعة و 3 مراكز مستقلة على مساحة 7360 كلم² ويمتد نفوذ المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي لتادلا على مساحة 2920 كلم² ويشمل 11 جماعة قروية .
- 3 - عبد اللطيف بنشريف ، " بنية الحيازات بالمغرب " ، مجلة جغرافية المغرب عدد 5 ، 1981 .
- 4 - و.م. ك. ، وحدات الماشية الكبرى : عن مصلحة تربية المواشي الفقيه بن صالح .

عجل	ثور	بقرة
0.9	1	1
1.1	2.1	2.1
1.2	2.4	2.4

الغنم :	خروف	كباش	نضجة
0.05	0.2	0.2	0.2

المعز : 0.2

CAMPREDON, (J-P.), "l'avenir de l'élevage dans les Beni-Amir, Beni-Moussa", B.E.S.M., n° 38, -5 1948.

" كان القطيع في تادلا يتكون من الغنم والمعز أساسا . ويتميز بتركز ملكية القطيع الذي يتراوح حجمه ما بين 30 و 100 رأس أما القطعان الكبيرة فتصل إلى 800 - 1000 رأس بل وأحيانا 1500 رأس " كميرزون .

6 - اعتمد المخطط الخليبي سنة 1973 أساسا علي تنمية إنتاج الحليب خاصة بالقطاعات السقوية واتخذت بهذا الشأن مجموعة من الإجراءات تتمثل في تطوير إنتاج العلف وتقديم تسهيلات وقروض لاستيراد الأبقار الحلوب وتطوير وسائل جمع الحليب .

$$7 - \text{نسبة تحسين النسل} = \frac{\text{بقر أصيل} + \text{بقر هجين}}{\text{مجموع البقر}} \times 100$$

BENCHRIFA, (A.), "Centres de collecte du lait et évolution des systèmes de production agricole au -8 Maroc, cas du Rharb, Doukkala et du Souss". R. G. M. n° 5, Nouvelle série, Rabat, 1981.

9 - يبلغ عدد تعاونيات الحليب بسهل تادلا حتى نهاية 1987 ، 38 تعاونية تضم 5712 منخرطا لا يمثل فيهم المنخرطون المؤقتون سوى 29 ٪ من مجموع المربين اللبانيين ، ويبلغ عدد الأبقار بهاته التعاونيات 18696 رأس ، 69 ٪ من الصنف المحسن .

البنيات الزراعية والتحول الاجتماعي بتادلا

محمد برهومي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

تاريخيا استمدت منطقة تادلا أهميتها من الدور الاقتصادي والاستراتيجي الذي لعبته في التجارة البعيدة . لقد شكل حصن داي منطلقا ليحيى الإدريسي للسيطرة على الجنوب المغربي . وأصبح مع المرابطين حصنا تؤمه القوافل القادمة من سجلماسة جنوبا وفاس شمالا . ومع صعود نجم الموحيدين والقضاء على آخر جيوب المقاومة المرابطية بتونس تم نقل عرب بني هلال من جشم ورياح على يد المنصور . ووطنت بني جابر إحدى فروع جشم بمنطقة تادلا للقيام بمهمة الحراسة الموكولة لها . وكون المنطقة ممرا ضروريا يربط الجنوب بالشمال ، فقد كانت بفعل هذا مسرحا للصراعات الدموية بين السلط المركزية التي تنازعت حكم بلاد المغرب . إن انعدام الأمن كوضعية مترتبة عن الصراع المحتدم بين السلط المركزية من جهة وبين القبائل نفسها من جهة أخرى ، إضافة إلى الضعف التقني لوسائل الإنتاج ، قد عمق العصبية على المستوى الاجتماعي وكرس الوعي كنشاط مهيمن على الصعيد الاقتصادي .

من هنا فإن استقرار القبائل وحركيتها قد تحكم فيهما عنصران أساسيان ، هما الماء والمنتجع . فإذا ارتبط استقرار بعض القبائل بمنطقة الدير بوفرة منابع المياه ، فإن الوعي من حيث هو نشاط إنتاجي يعتمد الحركة الدائبة شكل الجواب المناسب لشروط انعدام الأمن .

هكذا وتبعاً لنمط تملكها انقسمت الأراضي الفلاحية إلى قسمين :

الأراضي الجماعية والأراضي الخاصة . إن الملكية الخاصة قد تركزت أساساً بمنطقة الدير وتتميز بضيق رقعتها لكن الماء ظل ملكية للدوار أو القبيلة أما الأراضي الجماعية فهي إما أراض زراعية أو منتجعات للوعي .

فإذا كانت الأراضي العارية المخصصة للنشاط الزراعي في ملكية الدوار أو القبيلة فإن أراضي الانتجاع هي مجال استغلال القبيلة أو مجموعة قبائل والانتجاع البعيد المدى هو تعبير عن عدم قدرة المرعى على الاستجابة لحاجيات القطعان من مادة الكلاً ومن ثمة فهو اختراق للحدود الجغرافية القبلية . إن الإقرار بالحاجيات المتبادلة للقبائل في مجال الرعي ينتج عنه معاهدات رعوية ، تملك كل قبيلة تبعاً لها حق استغلال المراعي الموجودة فوق أراضي القبائل الأخرى .

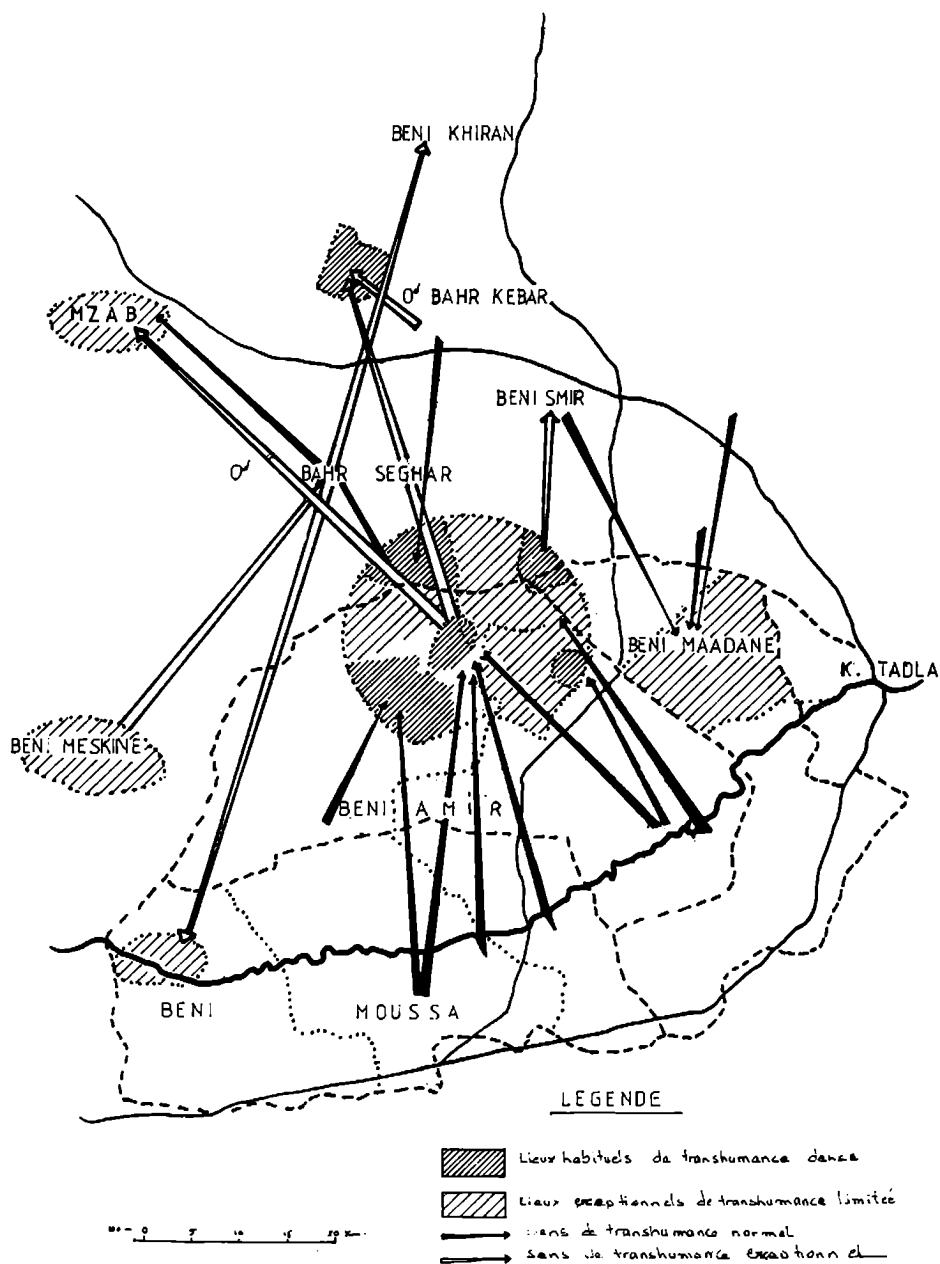
إن الخصائص في مادة الكلاً يفترض الانتجاع البعيد المدى من دون شك ، لكن يجب ألا نغفل شيئاً أساسياً ، وهو أن شكل الانتجاع هذا يترجم نوعاً من التوازن بين المراعي الشتوية (المشتى) والمراعي الصيفية (المضيف) .

القبائل	الفروع القبلية أو الدواوير	الموقع الجغرافي	المنتجعات
بني خيران	الكناديز مالين اكندون	شمال واد زم	أولاد بوموسى ببني موسى
ورديفة	بني سمير أولاد بحر الكبار أولاد بحر الصغار	شمال بني عمير	بني حسان ببني عمير وبني معدان بلاد حلاسة ببني عمير أولاد الساسي ببني عمير
سماعلة	السماعلة الشماليون السماعلة الجنوبيون	شمال بني عمير	
بني عمير	أولاد الساسي أولاد علي حد البرادية بني شكّال	شمال بني عمير وجنوب واد زم	مزاب وأولاد يخلف بأولاد بحر الكبار أولاد علي الواد ببني عمير المنتجع الجماعي ببني عمير بني وكيل ببني عمير
بني موسى	أولاد عريف بني وجين دار ولد زيدوح	جنوب بني عمير	أولاد الساسي ببني عمير أولاد الساسي ببني عمير أولاد الساسي وبني وكيل ببني عمير
بني مسكين	قراقرة	شرق بني عمير	أولاد بحر الصغار بورديفة أولاد مبارك ببني موسى

Bonjean (M) : "Le mouton dans la circonscription d'Oued Zem" : Extrait de la Revue de la Géographie Marocaine, Tome VI, Fasc 7. 1er trimestre, 1928, page : 18.

PLAINE des B' AM'R-B' MOUSSA

Carte de la Transhumance ovine,
d'après l'inspection de L'élevage d'Oued-Zem



إن انعدام الكلاً خلال الفترة الباردة يفرض التنقل بالقطعان نحو المناطق الملائمة للرعي ، وخلال الفترة الحارة نقف على هجرات فصلية للقطعان .

وكقاعدة عامة ، يمكن القول إن انعدام الأمن يفرض ممارسة الزراعة بالأراضي الآمنة القريبة عادة من المجال التقليدي للقبيلة ، ويترتب عن ذلك أن حركة الانتجاع هي حركة جذب خلال فصل الصيف مادام التبن متوفراً . وباستنفاد مراعي الصيف هذه ، فإن حركة الرعي تصبح نابذة أو محيطية ، تنطلق خلالها القطعان إلى المراعي البعيدة عن دواويرها وتظل هناك طوال الخريف والشتاء والربيع وتعود إلى منطقاتها مع انتهاء موسم الحصاد .

× وكمثال على ذلك مشاتي قبائل واد زم وهي الكعدة الكبيرة ، حلاسة ، طوال أزرو ، مقرط واد زم ، غابة السماعلة والكناديز .

إن بعض هذه المنتجعات ملكية لمجموعة قبائل كما هو الشأن بالنسبة للكعدة الكبيرة ذات 150 000 هكتار والتي ترجع ملكيتها لأولاد بحر الكبار وأولاد بحر الصغار . ثم إن هناك قبائل لها الحق في الانتجاع بمراعي قبائل أخرى ، كحق شرفاء الصومعة وبني سمير في غابة بني معدان ، وقبائل بني موسى وأولاد بحر الكبار في غابة بني عمير . وخلال السنوات الحارة ، فإن بني خيران وزعير جيران السماعلة الشماليين يستقبلون خريفا جزءا من قطعان السماعلة وبني سمير بمراعيهم . أما في السنوات الشديدة الرطوبة ، فإنهم يرسلون جزءا من قطعانهم إلى منتجعات السماعلة .

"المنتجعات ونسبة القطعان المنتجة"

المنتجعات ونسب القطعان المنتجة									القبيلة أو الفرع
زايان الأطلس	زعير وبني مسكين	بني خيران	حلاسة	طوال أزرو	مقرط وادزم	الكعدة الكبيرة	غابة السماعلة	تلزم مكانها	القبلي المنتجع
								كل القطعان	بني خيران
	15/1	16/1					4/3	20/1	السماعلة الشماليون
		8/1		5/2	5/1	40/1	4/1	8/1	السماعلة الجنوبيون
		5/1		3/1	3/1	30/1		15/1	بني سمير
						5/4		5/1	الكفاف وأولاد ابراهيم من أولاد بحر الكبار
		15/1				5/2		5/3	بني يخلف من أولاد بحر الكبار
						الكل			أولاد الدندون من أولاد بحر الصفار
			5/2			2/1			مالين الدندون والساسي من أولاد بحر الصفار
			الكل						أولاد عزوز من أولاد بحر الصفار

Bonjean (M) : "Le mouton dans la circonscription d'Oued Zem". Extrait de la Revue de la Géographie Marocaine. Op. cit, p. 21.

إن بنود المعاهدات الرعوية ويعد المنتجعات هي العوامل الأساسية في تحديد عدد الرؤوس المنتجة .

وإجمالاً سواء تعلق الأمر بأراضي الزراعة أو الانتجاع فإن شكل الملكية المهيمن هو المجال Territoire ، فالمجال في الأراضي الزراعية هو مجال مغلق ، والاستفادة منه تنحصر داخل القبيلة الواحدة .

أما المنتجع فهو مجال مفتوح والاستفادة منه ترجع إلى مجموعة من القبائل .

هكذا ، فالاستفادة من المجال الزراعي مشروطة بعلاقة القرابة أو الانتماء للقبيلة ، في حين أن الاستفادة المتبادلة من المجال الرعوي هي ترجمة لعلاقة تحالف . وإذا كان المجال موضوع علاقة قرابة وتحالف فإنه بذات الوقت محور لعلاقة قوة .

وإعادة إنتاج الشروط المادية لحياة القبائل ترتبط بقدرة مجالها على الاستجابة لحاجياتها لمادتي الحبوب والكلأ . وضمان التوازن بين المساحة المجالية وحجم القطعان والكثافة السكانية جعلت من الأرض محور علاقة تناحرية . ويجب القول : إن قواعد الزواج تسيّر بدورها في اتجاه إعادة الإنتاج . فإذا كانت الاستفادة المتبادلة من المنتجع تشجع الزواج الخارجي ، فإن الحفاظ على المجال القبلي تتطلب السكن الذكوري Patrilocalité ، وكون حق الاستفادة مقصوراً على الذكور ، فإن الأرض تظل داخل القبيلة .

هكذا إذن شكل المجال موضوعاً لعلاقة التملك ، وإذا كان تعبيراً عن علاقة قوة لا متكافئة بين القبائل ، فإنه ترجمة لعلاقة إنتاج جماعية داخل القبيلة الواحدة . إن هذا يكشف محورية الأرض في علاقة الإنتاج . والتملك الخاص لوسائل الإنتاج الأخرى كحيوانات الجر (الزوجة) لا يغير من طبيعة علاقة الإنتاج شيئاً مادام الإنتاج يخضع للشروط الطبيعية أكثر من ارتباطه بوسائل الإنتاج . ولذات السبب فإن عملية التبادل لم تحدث انقلاباً يذكر في طبيعة علاقة الإنتاج . إن الملكية الخاصة في المجال المشجر Arboriculture والمجال الزراعي ، من حيث هي وسيلة إنتاج ، تدخل مجال التداول ، لكن هذا التبادل لم يؤد إلى فصل نهائي للفلاحين عن أراضيهم ، بل ظلوا يملكون حق الانتفاع في الأراضي الجماعية لقبائلهم .

وبدوره ، فإن تداول فائض الإنتاج لم يسمح بعملية نقله ومراكمته بفعل هزالة المنتج كنتيجة للضعف التقني لوسائل الإنتاج . والجزء المسوق منه لا يستهدف الربح بقدرما يروم إشباع الحاجيات التي لا ينتجها الفلاح .

أما في المجال الرعوي ، فإن القطيع هو ملكية عائلية خاصة . والشروط السياسية والعواقب الكارثية للمجاعات والأوبئة شكلت عوائق أمام إعادة إنتاجه الموسعة واستنزافا دوريا لقوة العمل البشرية والحيوانية .

" فمن بين الحقب الأكثر مأساوية يجب الإشارة إلى مجاعات (1598 - 1607) ، (1625 - 1628) ، (1651 - 1652) ، (1660 - 1662) ، (1719 - 1724) ، 1736 ، (1776 - 1782) ، (1816 - 1822) ، (1825 - 1826) ، (1847 - 1851) ، 1858 وأخيرا (1878 - 1882) أما الأوبئة الأكثر فتكا فهي وباء الطاعون لسنوات : 1519 - 1521 - 1556 - 1558 - 1598 - 1607 - 1624 - 1626 - 1628 - 1742 - 1744 - 1747 - 1751 - 1779 - 1800 و 1818 .

أما وباء الكوليرا فقد هز المغرب سنة (1834 - 1835) ، (1856 - 1858) ، (1860 - 1861) ، (1868 - 1869) ، (1878 - 1879) وأخيرا (1895) . (NOIN D. 1970 : La population du Maroc. P.U.F. Paris. Tome I. p. 239.)

هكذا يمكننا القول : إن صيرورة الإنتاج في ظل هيمنة الشروط الطبيعية قد جعلت من الأرض محورا أساسيا لعلاقة الإنتاج ، والطبيعة الجماعية لهذه العلاقة تجد تفسيرها في التحكم الجماعي في وسيلة الإنتاج التي هي الأرض .

والتغير في طبيعة علاقة الإنتاج يرتبط من جهة بالتغير الحاصل في شكل تملك الأرض ومن جهة أخرى بالتحول الذي يمر تراتبية وسائل الإنتاج من حيث العامل الاستراتيجي في بنيتها .

إن الدور الاستراتيجي للأرض في صيرورة الإنتاج ، سينزاح عن موقعه بفعل الإجراءات المتضمنة في قانون الاستثمار الفلاحي .

فالتقسيم الزراعي الإجمالي للأرض Assolement obligatoire ، باعتماده

زراعات صناعية بالأساس سيدخل تغييرا جوهريا على صيرورة العمل الزراعي .

إن صيرورة العمل في الزراعات الصناعية (الشمندر والقطن) تتطلب الجمع بين عنصرين رئيسيين : رأسمال تقني متطور ورأسمال متغير مضمون . وإذا كان الرأسمال المتغير ينحصر في قوة العمل أو الأجور ، فإن الرأسمال التقني يتوزع إلى : رأسمال ثابت لا يتم استنفاده إلا بعد دورات زراعية متعددة ، إن الأمر يتعلق بالتجهيز السقوي والآليات ، ورأس مال متحرك يستنفد خلال دورة زراعية واحدة كالبذور والأسمدة والمبيدات ، والماء والتمويل .

ففي صيرورة العمل الزراعي الموجه نحو التصنيع تساهم السلطة الوصية بكل شيء ماعدا الأرض والآليات أحيانا . أما مساهمة الفلاح فتتحدد في الأرض وقوة العمل العائلية . في حين يظل السوق حكرا على السلطة الوصية مادامت المقتني الوحيد لمادتي الشمندر والقطن . وكون الإنتاج الزراعي الموجه نحو الصناعة يرتبط بالري ، فإن الرأسمال التقني هو العامل الحاسم في تحديد طبيعة علاقات الإنتاج .

هناك إذن تحول في بنية وسائل الإنتاج على صعيد الدور الاستراتيجي لعنصر من عناصرها . إن طبيعة علاقة الإنتاج الجديدة تبدو بجلاء من خلال عقد مقارنة بين قيمة المنتج الإجمالي لمادتي القطن والشمندر بدخل المنتجين بصدد نفس الزراعات .

"تكلفة الهكتار الشمندري"

القيمة بالدرهم			
التعيين	1978-1977	1982-1981	1984-1983
خدمات آلية	255	255	450
المتطلبات	1009	1009	2739.31
خدمات حيوانية	205	205	40
اليد العاملة	1160	1160	2040
الصوائر	1200	1200	1500
المجموع	3799	3799	6769.31

لكي نحصل على دخل الفلاح المنتج للشمندر حسب السنوات يكفي أن نخصم ثمن البيع من ثمن التكلفة . و ثمن البيع نحصل عليه من خلال ضرب متوسط الإنتاج في ثمن الطن لسنة محددة .

"تكلفة الهكتار الشمندري"

التعيين	1978 - 1977	1982 - 1981	1984 - 1983
متوسط الإنتاج (ط/هـ)	42.6	39.75	47.4
ثمن الطن (د/ط)	115.2	150	155
قيمة الإنتاج الإجمالية (د)	4907.52	5962.5	7347
دخل الفلاح الإجمالي (د)	1108.52	2163.5	577.69
دخل الفلاح الشهري (د)	158.36	309	82.52
دخل الفلاح اليومي (د)	5.27	10	15

وإذا كان الدخل اليومي للفلاح لا يتعدى 15 درهما في أحسن الأحوال ، فإن سعر العناصر التي تدخل في صيرورة العمل لم يلبث أن عرف ارتفاعا مهولا ، فقد وصل ارتفاع السعر بالنسبة لسنة 1983 - 1984 إلى 1284.99 درهما موزعة كالاتي :-

خدمات الأرض : 138.055 درهما .

اليد العاملة : 50 درهما .

المتطلبات : 796.94 درهما .

التكاليف غير المباشرة : 300 درهما .

في حين أن سعر الطن من الشمندر لم يتجاوز 20 درهما سنة 1982 - 1983 و 75 درهما سنة 1983 - 1984 .

إذا كان هذا هو الحال فيما يتعلق بالزراعة الشمندرية ، فإن واقع الزراعة القطنية أكثر قتامة . الشيء الذي يمكننا استنتاجه من خلال تتبع نفس الخطوات السابقة .

" تكلفة الهكتار القطني " *

القيمة بالدرهم			
1985 - 1984	1982 - 1981	1981 - 1980	التعيين
490	530	420	خدمات آلية
1676.67	1476.73	1270.07	المتطلبات
2250	2310	1812.50	اليد العاملة
295	-	-	خدمات حيوانية
1688	1700	1300	صوائر غير مباشرة
6399.67	6016.73	4782.57	المجموع

إن تكلفة الهكتار بطرحها من ثمن البيع تجعلنا نقف على مدى الحيف الذي يطبع علاقات الإنتاج بخصوص مادة القطن .

1985 - 1984	1982 - 1981	1981 - 1980	التعيين
14.23	16.8	19.4	متوسط الإنتاج (ق/هـ)
4	3.19	3.19	ثمن الكلف (د)
5692	5359.2	6188.6	قيمة الإنتاج الإجمالية (د)
- 707.67	- 657.67	1406.0	دخل الفلاح الإجمالي (د)
-	-	200.85	دخل الفلاح الشهري (د)
-	-	6.69	دخل الفلاح اليومي (د)

إن هذا الواقع المزري هو ما يفسر بيع المنتجين لمحاصيلهم للخواص عوض دفعه
للسلطة الوصية كما يوضح ذلك الجدول الآتي :

" المساحة القطنية التي لم تدفع محاصيلها للسلطة الوصية " *

المساحة بالهكتار			المنطقة
1984 - 1983	1983 - 1982	1981 - 1980	
481.39	431.24	712	بني عمير
269.41	184.40	522	بني موسى الشرقيين
674.38	599	1309	بني موسى الغربيين
1425.18	1174.64	2543	المجموع

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن مردودية الملكية تتقلص تبعا لتعدد الورثة من جيل
لآخر يمكن الاستنتاج أن الزراعات الصناعية هي زراعات التفجير . وفي نفس الاتجاه ، إذا
أدخلنا في الحساب أن آلية الخوصصة مست أو ستمس بعض إن لم يكن كل المعامل
المحولة لمادتي القطن والشمندر فالسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هو : ما هو الإطار الذي
سينظم علاقة المنتجين بالخواص ؟ وهل حل هذه العلاقة سيتم من خلال العمل بالسعر
الحقيقي ؟ وفي هذه الحالة هل فكرت السلطات الوصية في انعكاسات هذا الإجراء على
المستهلكين علما أن السكر بالخصوص يدخل في تغذية قطاع واسع من المغاربة ؟

* الإحصائيات مأخوذة من التقارير السنوية لمكتبي الشمندر والقطن بمركز الاستثمار الفلاحي لتادلة .

المحور الثالث
النظام الثقافي الشعبي
ودلالات الخطاب حول تادلا .

التلقي السياحي بتادالا : البطاقة البريدية من منظور سميائي - اجتماعي .

عبد الرحيم العماري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

مفتاح القول :

« سيعيش الطفل شيخا ، إن لم ير [صورته] » . كان هذا جواب الكاهن
ترزياس على سؤال والدي نرجس بعد ولادته .

تعددت روايات أسطورة نرجس . أشهرها رواية أقيد : نرجس فتى
جميل ، يكره الحب . تعذبت بعشقه حوار وفتيات . أحبته إلهة
الصدى ، فلم تنل منه . فانعزلت وهزلت ، ولم يبق منها سوى صدى
خفيت . ويلبي الإله فزيس نداء المعذبات : في يوم شديد الحر ، وبعد
قنص جهيد ، ينحني نرجس على عين كي ينتعش ؛ فيرى صورته . ويدرك
جماله . وعلى التو ، يعشق ذاته . ولم ينتبه إلي غرقه ، أثناء اندهاشه
بصورته . وفي المكان الذي مات فيه نبتت زهرة ، منحت اسمه ⁽¹⁾ .

وفي يوم من الأيام ، تحدث فرويد عن أوديب ونرجس .

- ألكون البطاقة البريدية نظاما مرثيا [صورة] ، نورد أسطورة نرجس ؛ إذا
كان الجواب بالإيجاب ؛ فالعناء في أغلبه مجاني .

المكتوب والمسموع والمرثي أنظمة تتعدد في التآلف بينها في الأنظمة السميائية
المجتمعية . ويحلولا مبرطو إيكو اعتبار المكتوب لم يتنازل - بعد - عن مكانته للمرثي
في النظام الثقافي (الحضاري) العام ⁽²⁾ .

من منظور السوسيو-سميائيات ، نذهب بالتحليل لنعتبر البطاقة البريدية شكلا
من أشكال التلقي السياحي .

إن المورد البشري السياحي بتادالا ، يقتضي عقلنته ، من حيث أشكال

(وسائل) تلقيه ، ليسهل تنظيم استثماره .

فأية قيم " مقتضاة " في هذا النظام السيميائي ، إذا ما طغى على نظامه الدلالي ((دا/مد) ع) المرئي ؟ وهل إذا وجد محترف البحث في المورد السياحي بتادلا ، معزز بإمكانات ميدانية ؛ يكون محكا حاسما لتدبيره ؟

1. ما قيل عن البطاقة البريدية ⁽³⁾ : طبيعة الدليل البصري .

1.1. عن تراتب الحقول العلمية :

من أهم مقاييس تحديد موضوع مبحوث فيه ، حصر الحقل العلمي المراد الاشتغال بوسائله المفهومية والمنهجية .

من ثمة :

« نعلن أن أبسط تعريف سيميائي للبطاقة البريدية ، مفاده كونها نظاما سيميائيا بصريا (Visuel) . لهذا تقع في صلب السيميائيات البصرية (Semiotique visuelle) ، باعتبار هذه الأخيرة الجزء الثاني ، المكمل للسيميائيات السمعية - البصرية Semiotique audio-visuelle . والحق أن كرستيان مس محطة رئيسية لاستيعابها ، من حيث اللغة الواصفة (Metalangage) والموضوع (انظر فصل : « السميولوجيا السمعية - البصرية واللسانيات التوليدية » من مؤلفه الصادر سنة 1977) . » ⁽⁴⁾

بيد أنه يمكن توسيع الانتماء إلى :

« حقل السوسيو-سميائيات العامة ، بمثابة معقل أبوي للفروع العلمية المذكورة سلفا : نحيل - قصد تأكيد ذلك - إلى بارث في دراسة **المحرفات** (1970) و **نظام الموضة** (1967) أو **امبراطورية الأدلة** (ب : 1970) ؛ وثانيا ، إلى غريماس **السيميائيات والعلوم المجتمعية** (1976) » ⁽⁵⁾

مؤدى ما سلف ، أن تركيز التحليل وضبطه ؛ يقتضيان تخريج مصادرة نواة في السيميائيات الاجتماعية ، بحيث تتمثل :

« في كون الأنظمة السيميائية المجتمعية ، تخضع - بدورها - إلى عملية الإنتاج والتبادل . وتتعدد طبيعتها ووظيفتها حسب آليات البنية الذهنية لدى كل شعب من الشعوب (انظر مؤلفي ليفي ستروص : **الفكر**

المتوحش " (1958) والأنثروبولوجيا البنيوية . وانظر أيضا تنظير روسي
لاندي من خلال فصل " الاقتصاد قطاعا للسميانيات " في مؤلف ألان
ريه .⁽⁶⁾

2.1. عن التصنيف السميائي للنظام البصري :

يفضي التساؤل عن موقع البطاقة البريدية إزاء أنظمة بصرية أخرى إلى المجهود
العلمي الذي عرض في مجال السميانيات البصرية على وجه الخصوص . والحق أن تعدد
الأنظمة البصرية وتشابكها ، يركان المحلل . لقد :

- « حصرها مس (1977 : 113) ، من حيث ثوابت شكلها ومتغيراته :
- الصورة الشمسية (Photographie) : صورة محصلة ميكانيكيا ، أحادية
وساكنة ،
- الرواية المصورة (Photo-Roman) : صورة محصلة يدويا ، متعددة ،
ساكنة ، خطوط مكتوبة ،
- القصة المصورة (Bande dessinée) : صورة محصلة ميكانيكيا ، متعددة
ساكنة ، خطوط مكتوبة .
- السينما - التلفزة (Cinéma - télévision) : صورة محصلة ميكانيكيا ،
متعددة ، متحركة . خطوط مكتوبة ، ثلاثية العناصر الصوتية : كلام ،
موسيقى ، ضجيج) .⁽⁷⁾

في دراسة قدمناها - سابقا - تبدى لنا أن :

« البطاقة البريدية تتطابق تماما مع الصورة الشمسية . إلا أن الرغبة
في تعميق الاستيعاب لكل ذلك ، تجوز لنا إمكانية استعادة تحديد جاك
برتان (Jacques Bertin) باعتباره جغرافيا مهتما بالخرائط ، وياحثا مغرما
بالسميانيات البصرية . إن الصورة - وفق تصويره - " مجموعة من
الترابطات " الخطية " graphiques الممكن حصرها من قبل القارئ في لحظة
رؤية . بمعنى (أنها) مجتمعة ضمن شكل بصري . . . والشكل هنا
بالمعنى الجشطالتي . من هنا ، فالشكل وحدة ذهنية (م ن :
101) ؛ يجب التمييز بينها وبين كونه وحدة مادية ، أي شكلا هندسيا
من الورق (مربع أو مستطيل أو دائرة) مس : م ن 101) .⁽⁸⁾

بغية تصنيف العينة المكونة من أربع عشرة بطاقة بريدية ، نعتد
كعادتنا « على مقاييس دالية ، أي من مستوى دال البطاقة البريدية ، الذي هو بنية

مرفلوجية ، سطحية » (9) .

يخضع دال البطاقة البريدية إلى قاعدة تكوينية ، قائمة على ثنائية : البسيط// المركب . فالنظام البسيط في البطاقة البريدية يقوم على لقطة أو وقفة واحدة ، تقدم صورة واحدة مرتكزة على نواة بصرية محددة . خلافا لذلك ، يشمل النظام المركب لقطتين أو لقطات (وقفين أو وقفات) تقدم صوراً عديدة . بذلك يكون ثنائياً أو ثلاثياً أو رباعياً أو أكثر من ذلك .

وعليه ، نصنف البطاقات إلى أنظمة ستة كبرى : [ا + ب + ج + د + ه + و] ، بالنظر إلى المقاييس المرفلوجية التالية :

1. تشابه مساحة الصورة ،
2. فضاء اللون المحيط ،
3. إقونة (icône) الخط المحيط الضام (10) .

2. الأنظمة الستة المصنفة : الوحدات ومرجعياتها .

1.2 . النظام (1) :

يشمل هذا النظام صنفين تجمع بينهما ، البساطة من حيث مستوى الدال . إلا أن الشكل الهندسي متغاير : الوقفة أفقية في (1) وعمودية في (2) . أما من حيث المرجعية ، نجد القاسم المشترك محصوراً في الاحالة إلى المجال (11) الطبيعي . ففي :

11 :

- تحيل الوحدة (1) إلى قصبة عين أسردون .
- تحيل الوحدة (2) إلى عين أسردون .
- تحيل الوحدة (3) إلى بحيرة سد بين الودان .

21 :

- تحيل الوحدة (1) إلى شلالات أزود .

إن أهم ملاحظة نديها بصدد النظام الأول ؛ أن الوقفة تتراوح بين المظهر aspect الكلي (لعين أسردون مثلا) والمظهر الجزئي (سد بين الويدان) .

2.2. النظام (ب) :

يقوم على وحدة سميائية ذات قيمة اختلافية . وتتحدد في بنية لسانية اسمية : Beni-Mellal . إن توفر النظام على هذه الوحدة ، تجعله خارج درجة الصفر ، أي معلما (12) . إلا أن كتابتها بالأحرف الفرنسية البارزة يشحن الدلالة بأبعاد مختلفة ، نتعرض لها بصدد تحليل القيم المقتضاة (الفقرة 1.3 .) .

إن المكون المشترك بين فرعي النظام (ب) ، متمثل في الوحدة اللسانية المعرفة ، وفي البنية البسيطة لا المركبة للدال .

غير أن وجود وحدات دالية تغايرية ، يمكن من الاقرار بالتمايز بين الفرعين :

ب 1 :

- تحليل الوحدة (1) على قصة عين أسردون ، بلمطة :
مبعدة + تحتية + أفقية .
(من حديقة العين)

ب 2 :

- تحليل الوحدة (1) على : عين أسردون ، بلمطة بانورامية :
مبعدة + فوقية + عمودية

3.2. النظام (ج) :

تحدد قاعدة هذا النظام في البنية المركبية للدال . بحيث تتفرع - ذاتها - إلى بنية مركبية أفقية وأخرى عمودية . مما يمنح تعددا على مستوى الدال البصري .

ثم إن البنية المركبية تكون أحادية أو متعددة المظهر . وفق ما سلف ، نميز فرعين مكونين للنظام (ج) :

ج 1 :

- الوحدة الأولى والوحيدة ثلاثية التركيب ؛ تتحدد مرجعيتها في :
برتقالة + نافورة في منتزه عين أسردون + شلالات أزود .

ج 2 :

إن ج 2 نظام سمبائي ، مزدوج (لساني وغير لساني) ومعلم :

- تقوم الوحدة (1) على تركيب ثلاثي ، معلم بوحدة لسانية وبالشعار الرسمي للدولة المغربية . وتتحدد المرجعية في :

منتزه عين أسردون + ساحة الحرية + منتزه عين أسردون .
(من مظهر جزئي) (من مظهر كلي)

- تبرز البنية التركيبية للوحدة (2) رباعية ومعلمة (لسانيا) . كما أن مرجعيتها متعددة :

سد بين الودان + ساحة الحرية + سوق الزرابي التقليدية + منتزه عين أسردون .
- بخلاف الوجدتين السابقتين ، تقوم الوحدة (3) على تركيب ثنائي وعمودي .
ويزكي تفردا مرجعيتها الأحادية . بحيث تحيل إلى مرجع واحد (سد بين الودان) .
وكالأخرين - السالف ذكرهما - فإنها نظام سمبائي مزدوج ومعلم لسانيا .

4.2. النظام (د) :

يشمل بطاقة بريدية واحدة . بحيث يتميز من خلال مكون سمبائي إقوني ،
متمثل في ثلاثة خطوط زرقاء ؛ ضامة بشكل مستطيل من جهة ، وعمودي من جهة
أخرى . وإن هذه الخطوط منظمة لفضاء الكون الأبيض المحيط بالصورة . أما المرجعية
فتتحدد في شلالات أزود بأزيلال . وذلك من مظهر جانبي .

5.2. النظام (هـ) :

يشمل نظامين فرعيين . تتحدد القواسم المشتركة بينهما في :

- مساحة الفضاء المحيط ،
- اللون الأبيض الضام للصورة ،
- اللقطة العمودية للمرجع ،
- الشكل الهندسي للبطاقة (المستطيل) .

بيد أن ذلك لم يمنع من الاختلاف في الخط الضام للصورة : الرمادي في (1) والأسود في (2) .

- تحميل الوحدة (1) على شلالات أزود من مظهر = مواز + أمامي + كلي .
- تحميل الوحدة (2) على فتاة (أمازيغية) في سن التمدرس ، تحمل برتقالة ، واقفة على عتبة باب خشبي مطلي باللون الأحمر .

6.2. النظام (و) :

منحت المكونات المرفولوجية البطاقة البريدية الوحيدة المكونة لهذه النظام ، تميزا وتفردا . نرتبها على الشكل التالي :

1. المباشرة في تقديم الصورة دون مكون إقوني أو فضائي محيط .
2. التركيز على الإنساني لا الطبيعي (امرأة أطلسية) .
3. التماثل مع الصورة الشمسية ، ذات الوظيفة التعريفية (الوجه والصدر) .

3. ما يقال عن التلقي السياحي للبطاقة البريدية لتادلا (13) :

لنتساءل لحظة وقوف متلق/مشاهد للبطاقة البريدية : كيف يكون إحساسه ؟

« يحس المشاهد للصورة بالحاجة إلى " التعرف " (معاينة) الأشياء المقدمة له ، عندما تكون الصورة (رسما) ؛ تعلق الأمر بصورة شمسية ، (أو لوحة ، أو فيلم . . . إلخ .) تذهب بعيدا لتقترح الصورة نفسها أشياء للمعرفة . ومن الممكن أن يحدث الشيء نفسه مع صورة أكثر تمثيلية ؛ بحيث يبقى طلب المستهلك غير ملبي تقريبا : فالغربي الذي يشاهد فيلما اثنوغرافيا ؛ كثيرا ما يظل حائرا إزاء الأشياء التي ميزها ، والتي لا يعرف كيف يسميها أو يصنفها (أدوات الطبخ ، سلاح القنص ، أو الصيد . . . إلخ) . والتسمية والتصنيف

(نقطة) بدء مشكلتنا . (إنه) مشكل الصناعات الثقافية ؛ والتي يقصد منها صنافة الأشياء الثقافية (أشياء الحضارة) ، كالصنافة الثقافية للأشياء الطبيعية . . . »

Metz (Ch.), *Essais Semiotiques*, Paris, Ed. Klincksieck, 1977, p. 131.

إن ما نود ترسيخه ، كون :

« البطاقة البريدية تقنية في تنظيم البصري ، إنها - على حد تعبير أ . إيكو - من صنع مصور محترف وضع في الحسبان اللحظة ، والضوء ، والإطار ،
Eco (U.), *La guerre du faux*, Paris, Ed. Grasset 1985, p. 295.

بذلك ، فالبطاقة البريدية صنعة لقارئ محتمل أي بمعنى عام، لمتلق محتمل ، وطنيا كان أم أجنبيا . »⁽¹⁴⁾

والحال أننا - بالإضافة إلى ذلك - ننبه إلى أن :

« الدراسة لا تنوي حصر نفسها في حقل علم نفس الاشهار باعتبار الإشهار وظيفة مجتمعية للنظام السميائي للبطاقة البريدية ، أو في حقل علم اجتماع تلقي وسائل التداول الثقافية ، أو ما يسمى بعلم اجتماع المؤسسات الرمزية . إن ههنا اعتبار البطاقة البريدية موضوعا من مواضيع السوسيو-سميائيات ؛ لكونه نظاما سميائيا ، يؤدي وظيفة مجتمعية متمثلة في الجذب السياحي . »⁽¹⁵⁾

ويحق لنا - بعد كل هذا - وضع السؤال التالي :

- أية قيم مقتضاة في البطاقة البريدية ، يتحقق بفعلها الجذب السياحي

لتادلا ؟

1.3 . نظام المدلول : القيم المقتضاة .

تبرز بعض أنظمة البطاقات البريدية لتادلا ، معلمة بالنسبة للمتلقى ، أي واقعة في درجة خارج الصفر . بخلاف أخرى ، بحيث غابت الوحدة اللسانية Beni-Mellal⁽¹⁶⁾ ، المكتوبة بالفرنسية وبالحروف الكبيرة البارزة (وهذا له دلالة ضمنية) .

إثر ذلك تضمن :

« لنفسها قابلية سياحية ، أي مستوى في الاستهلاك السياحي . إنها - إضافة لذلك - تخاطب بالخصوص سائحا من خلال نظام سميائي مزدوج ، أي لساني وغير لساني في الوقت ذاته . » (17)

وضمن السياق نفسه ، يمسى :

« التساؤل عن تراتبية القابلية السياحية في أنظمة (. . .) البطاقة البريدية ، رهين بالكشف عن درجة امتلاك كل نظام للقيم التداولية السياحية .

وهنا نكون في مستوى تفصي المدلول في البطاقة البريدية . ومستوى المدلول كون عام ، تتعالتق فيه قيم مقتضاة (présupposées) ، من أهمها : القيم التاريخية (مستوى راق في تجميل الطبيعة (. . .) ، والقيم الأثنوغرافية (تهب المتلقي معطيات تنظيم العلاقات المجتمعية والموارد الطبيعية) ، . . . إلخ .

وإن هذه البطاقات ، عندما تركز من حيث مدلولها على إبراز مؤسسات مرجعية واقعية (. . .) ؛ فإنها تضمن لنفسها قيمة سياحية فعالة . فهل يكفي ذلك لتدبير المورد البشري السياحي ؟ » (18)

3.1. البنية القيمية [ا + ب + د] : القيمة الاحالية / الطبيعية .

تطفى على البنية القيمية للأنظمة الثلاثة المذكورة ، المرجعية الطبيعية . فبعد عملية ترميق (19) للمجال الطبيعي ، تمنح البطاقات البريدية - أثناء تداولها - قيمة مقتضاة ؛ على السائح تخريجها : " منطقة تادلا تهيك طبيعة بكرة " . إن هذا العرض (الطبيعي) ، يتوافق مع طلب الخروج من إيقاع الحياة اليومية المعاصرة المثقلة بأخلاقيات التحديث والعصرنة .

يشكل ذلك - من ثمة - الفائدة السياحية (Intérêt touristique) (20) التي يسعى إليها السائح الوطني أو الأجنبي .

تحدد البنية القيمية الطبيعية في معطيات مرجعية بارزة ، تشكل مقومات العرض (بالمعنى الإقتصادي) السياحي :

- المدار السياحي لعين أسردون ،

- شلالات أزود .

وعندما نساير مس في بعض مفاهيمه ؛ فإن الوحدات المكونة للبنية القيمية الطبيعية ، تولد لدى المتلقي الحاجة إلى التعرف . مما يجعله يحقق رغبته في مستويين :

أ - مستوى الاستهلاك الرمزي .

ب - مستوى الاستهلاك الفعلي .

في المستوى الأول ، يمر المتلقي / السائح بعملية استدلال معرفي ، يصل من خلالها إلى كون المنطقة غنية طبيعيا . ووجود الماء والغابات الجبلية والمنتزهات الطبيعية ، يؤهلها بالضرورة إلى أن تكون فلاحية : فالمعطى الغابوي يدل على خصوبة الأرض وتوافق الطقس مع ذلك .

في الوحدة [(1 3)] تتألف موارد ثلاثة :

- المورد المائي (بحيرة سد بين الودان) .

- المورد الحيواني (المعز) .

- المورد الغابوي .

ودونما أدنى ملاحظة ، يتبدى لنا أن بطاقات هذه البنية القيمية عموما ، والبطاقة

[(1 3)] - على وجه البرهنة - تمتلك مصداقية تمثيلية للمرجع في منطقة تادلا . (انظر الهامش 21)

كما أن المورد الحيواني - الذي دلت عليه البطاقة - يفوق الاكتفاء الذاتي حسب

مجلة غرفة التجارة والصناعة (21) .

مما يؤدي بجميع الاستدلالات (22) التي يعقلها المتلقي / السائح ، إلى تخريج

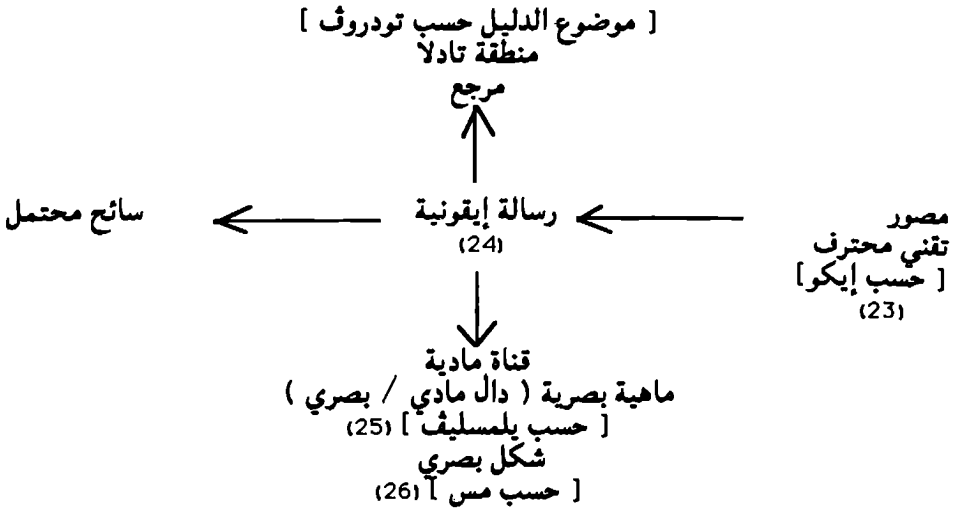
بعض المعطيات الديمغرافية : التي من أهمها طبيعة النشاط السكاني . بحيث دلت

البطاقة على نشاطين ؛ هما الزراعة والرعي (تشتغل نسبة 62 ٪ بالزراعة من مجموع

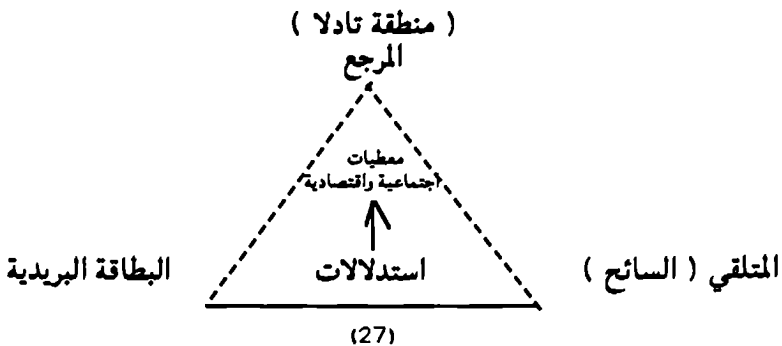
السكان النشيطين ، أي 27 ٪ حسبما جاء في مجلة غرفة التجارة

والصناعة (م ن : 19) .

تبرز النتائج - السالف ذكرها - ثمرة لعملية - هي من منظور سيميائي
 صرف - متشابكة . بحيث تشارك فيها عناصر عدة ، تتناسل - بغية دراستها - حقول
 علمية متشعبة :



ودونما مغالاة ، يبدو المتلقي العادي متمكنا من بناء تصور أولي ، يمنحه أرضية
 تمهيدية ؛ يعبر من خلالها - تدريجيا - إلى تشكيل معرفة حول مرجع البطاقة البريدية .
 فالاستدلالات - من ثمة - وسيط رمزي (ذهني) بينه وبين المعطيات الاجتماعية
 والاقتصادية المرجعية :



من شأن كل ذلك - في النهاية - البرهنة على المصادقية التمثيلية التي كسبتها البطاقات البريدية .

وعليه ، تتحدد قيمة هذه البطاقات في القيام بوظيفة مرجعية ، على أكمل وجه ، على حد تعبير رومان جاكبسن⁽²⁸⁾ .

وإن ارتكاز البنية القيمية للأنظمة - السالف ذكرها - على القيمة الطبيعية ؛ أكسب المنطقة قابلية فعلية للاستهلاك (المستوى الثاني) .

وفصل القول - ختاماً - أن الترميق (بالمعنى الاناسي) للطبيعي ، بالشكل الذي أبرزته البطاقات المدروسة ؛ ظل - دوماً - آلية الجذب السياحي لمنطقة تادلا .

2.1.3. البنية القيمية [ج] : القيمة الخلافية .

يشمل النظام ج أربع وحدات ، صنفناها - سلفاً - في فرعين نظاميين :

- ج 1 : المُغفل من حيث بنية الدال .

- ج 2 : المُعلم من حيث بنية الدال .

- ففي الوحدة [ج 1 (1)] ، تتكفل وحدتان داخليتان بتعريف البطاقة البريدية . وهما الوحدة اللسانية Beni-Mellal ووحدة سميائية مزدوجة ، هي شعار الدولة المغربية .

- أما في الوجدتين [ج 1 (2)] و [ج 1 (3)] ، فتتكفل الوحدة اللسانية - المذكورة سلفاً - بالقفز على درجة الصفر في الشكل / الدال البصري . وذلك في موقعين مختلفين ، حسب التركيبتين المختلفتين للدال البصري . بمعنى أن موقع وحدة الاعلام تحدد بتمفصله مع الوحدات الصورية الصغرى المكونة لكل بطاقة على حدة . على أن دورها يتحدد في القيام بوظيفة لغوية واصفة أيضا .

بيد أن ذلك سيكون له أثر بالغ على مستوى المدلول . فالتناسق المركب للوحدات الصورية الصغرى المكونة لكل بطاقة ؛ أكسب غنى وتعددا وتشابكا على مستوى بنية الاستدلالات الايحائية⁽²⁹⁾ .

وإن هذه الأخيرة لتزخر- من حيث مستوى مدلولات الإيحاء (" نمو نظام من المعاني الثنائية " بارث ، 1964 : 56) - بدلالات ثانية تفضي إلى زخم المعطيات . بحيث يتراكم الطبيعي والسكاني والاجتماعي والسلالي والاقتصادي والاناسي والتاريخي .

لكن عندما نود بالتحليل الوقوف على الهدف الأول للبحث الدلالي ، مستعيرين قولـة بارث ! نستسلم - ضرورة - للحظة تأمل وترو :

« يهدف البحث الدلالي (السيميائي) إلى إعادة بناء اشتغال الأنظمة الدلالية غير اللسانية ، تبعاً للمشروع ذاته ؛ الذي يضعه كل نشاط بنيوي نصب عينه ، وتكوين هيكل صوري Simulacre للأشياء الملحوظة » .⁽³⁰⁾

وعليه ، فالتساؤل عن الهيكل الصوري للأنظمة السيميائية ، تساؤل عن البلاغة الصورية ، أي عن قواعد داخلية ومتراتية في " الرسالة الصورية " ؛ باعتبارها " إعادة إنتاج شبهي للواقع (...) [بحيث] تنمو دلالات طفيلية منتمية إلى صعيد الإيحاء " (م ن : 159) .

يمكن حصر بلاغة الرسالة الصورية - في حالة البطاقة البريدية - في :

1. قواعد الاقصاء في التصوير (المحرمات وكل مايمس القداسة) ،
2. قواعد الجمع والتأليف في التصوير ،
3. التعارضات الدالة بين الوحدات ،
4. قواعد التفرد من خلال السمات المميزة .⁽³¹⁾

بيد أن كل هذه الأخيرة تخضع - أثناء التحليل - لمبدأ الملاءمة⁽³²⁾ ؛ الذي تقوم عليه مرتكزات البلاغة الصورية . ويتحدد مبدأ الملاءمة في الجذب السياحي ، باعتباره قاعدة أساس لاستعمال محتمل للواقع / المرجع (منطقة تادلا) ، المراد إنتاجه شبهيا .

بناء على ذلك ، تتأسس بلاغة الصورة في البطاقات البريدية ، المكونة للنظام ج ، على قيمة بنيوية ، ضمنية ؛ تنظم مدلولات الإيحاء . ويعثر عليها بعد عمليات استدلال إيحائي . وهي القيمة الخلاقية . بحيث طالت الدال والمدلول :

على مستوى الدال = مُعَلِّم // غير مُعَلِّم .
 القيمة الخلافية —
 على مستوى المدلول = أصيل // حديث .
 [مدلولات الإيحاء]

بغية توسيع وتأصيل الفهم للقيمة الخلافية ، نشير إلى كونها قضية نظرية
 ومنهجية نالت الكثير من الاستيعاب : تساءل بارث إبان تنظيره لعلم الأدلة :

« إذا كان اللسان خلافا محضا ، فكيف يمكن إذن أن
 يحتوي على عناصر غير خلافية ، أي إيجابية ؟ » (م ن :
 113) .

ثم أجاب :

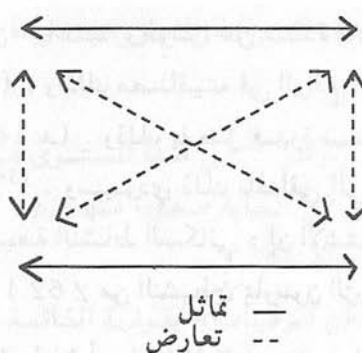
« الواقع أن ما يبدو عنصرا مشتركا في جدول معين ، يكون
 هو ذاته في مكان آخر ، في جدول آخر ، أي حسب ملائمة
 أخرى ، عنصرا خلافا صرفا : ولنتحدث غير متوخين الدقة ، فإن
 في التعارض الحاصل بين - ما / من - عنصرا مشتركا (إيجابيا) هو
 "م" بالتأكيد ، لكنه يصير في التعارض بين ما / ذا عنصرا خلافا «
 (م ن : 113/112) .

من وجهة النظر ذاتها ، حاول التنظير لمجال دلالية الأنظمة
 الدلالية ، غير اللسانية . وبالنسبة إلينا ، تحتفظ القيمة الخلافية في
 البطاقات البريدية بتحديداتها . فهي بنية علاقية من عناصر تعارضية
 تمييزية (33) .

في الوحدة [ج 2 (2)] ، نجد الوحدات الصورية الصغرى ، المكونة للبطاقة
 البريدية : متراكبة على الشكل التالي :

تنظيم للمجال البشري
ساحة حضرية
حديثة
(ساحة الحرية)

تنظيم للمجال الطبيعي
معمار أصيل
(عين أسردون)



تنظيم للمجال الطبيعي
حديث
(سد بين الودان)

تنظيم للمجال البشري
سوق قروي أصيل
(للزرايبي)



BENI-MELLAL



وفق منطق التعارض ، تعيد البطاقة البريدية إنتاج المرجع شبهيا . ومن خلاله ، يتم التحكم في إمداد المتلقي المحتمل بالطرق ؛ التي سيسلكها في استدلالاته الإيحائية ؛ قصد الوصول إلى تكوين تصور عن المعطيات المرجعية :

فبصدد المعطيات الاقتصادية والاجتماعية ، ومن خلال الوحدة [ج 2 (2)] المصنفة سلفا ؛ نستنتج عنصرين اقتصاديين متعارضين :

- سد بين الودان ، باعتباره مؤشرا عن منطقة فلاحية مسقية ، وعن إمكان طاقي حديث (الكهرباء) . ولذلك مصداقيته في الواقع : يعد القطاع المسقي من أهم قطاعات المغرب (144.900 هـ) . وذلك بفضل قدرة سد بين الودان : إذا ما قورن بالسدود الوطنية الأخرى (34) . وسيؤدي ذلك بالمتلقي إلى استنتاج بعض المعطيات السكانية . ومن أهمها طبيعة النشاط السكاني : إن الاشتغال بالفلاحة والرعي نشاط مركزي لسكان منطقة تادلا (62 ٪ من النشيطين يمارسون الزراعة والرعي (35)) .

- سوق قروي تقليدي (أصيل) للزراعي : باعتباره مؤشرا على منطقة تلعب فيها التجارة التقليدية الفلاحية (الصوف) دورا أساسيا في النشاط الاقتصادي للسكان . وقد الصورة المتلقي بمعطى يخص بالتدقيق البنية التجارية لمنطقة تادلا في قطاعها القروي . وإن ذلك يستدعي اكتساب تصور ، له مصداقيته في الواقع / المرجع . بحيث تحتل الأسواق أهمية بالغة في البنية التجارية لمنطقة تادلا (ما يعادل الثلاثين سوقا حسب إحصائيات مجلة غرفة التجارة والصناعة العصرية لبني ملال وأزيلال (36)) .

مؤدى التحليل ، إذن ، أن البنية القيمية للنظام ج خلافية . بحيث تقوم على التعارض (أصيل / حديث) ؛ الذي يشكل - في الوقت ذاته - قاعدة للجمع والتأليف بين الوحدات الصورية المركبية الصغرى داخل البطاقات البريدية . بمعنى آخر ، تقوم البلاغة الصورية - في هذا السياق - على قيمة خلافية .

ودوغا إطناب أو حشو ، ننبه إلى كون هذا النوع من البلاغة الصورية ، يستتبع نتائج إيدولوجية (37) ضمنية ؛ على الرغم من كون الثنائية (أصالة / حداثة) ذات بعد إناسي (حضاري) (38) . إذ كيف يمكن تأويل تجاور عمودي - في وحدتين صوريّتين. صغريين - بين أضخم رمز للحدثة (سد بين الودان) وأعرق رمز للأصالة (الزريبة التقليدية) بالمغرب في بطاقة بريدية واحدة ؟

3.1.3. البنية القيمية [ه] : قيمة اللامعيارية (39) :

إن ما يضمن للنظام (ه) تميزه ، الوحدة الصغرى [ه . 2 . 1] . بحيث يصدق على الوحدة [ه . 1 . 1] - على مستوى مدلولات الإيحاء - ماوصلنا إليه في البنية

القيمية [ا + ب + د] . وإن الذي حفزنا على تصنيفها - هنا - طبيعة بنية دالها وحسب .

بناء على ذلك ، نركز - في هذا المستوى من التحليل - على الوحدة [ه . 2 . (1)] . تعترضنا في البداية صعوبة منهجية ، كذلك التي طرحها بارث في مؤلفه التنظيري : **مبادئ علم الأدلة** :

« (...) لكن المركبات الأيقونية القائمة على تمثيل شبهي للمشاهد الواقعي يصعب جدا تقطيعها ، وربما لهذا السبب كانت هذه الأنظمة مرفقة دائما وأبدا بكلام متمفصل (كالبيان الذي يُعلقُ به على الصورة) يمنحها ذلك المتقطع والمنفصل الذي لا تتوفر عليه » . (م ن : 101) .

وإنما نجد أنفسنا هنا إزاء مركب إيقوني ، ينعدم فيه حتى البيان الذي يؤدي الوظيفة الواصفة أو - بمصطلح سميائي صرف - الوظيفة المافوق سميائية .

وعلى الرغم من ذلك ، تمكنا - أثناء تصنيف الدال في الفقرة (5.2) - من اقتطاف عناصر أولية ، بفضل المشاهدة العادية . وبإمكاننا - وفق ذلك - هيكلتها من جديد على شكل أرضية للتحليل .

تقوم الصورة في الوحدة [ه . 2 . (1)] على سنن متعدد (Code pluraliste) . بحيث يتألف من ماهيات عديدة (وقفة طفلة ، ألوان ، أشكال ، أشياء ، ألبسة ، فضاء ، حركات ، تسريحة الشعر) . إن السنن نظام لأنظمة صغرى في هذه الصورة . وإن هذه الأنظمة المشابهة لمرجع واقعي ، تسمي مجردة هنا ؛ لتعبر عن عالم مصغر للبنية الثقافية التداولية ، بمنطقها وأساطيرها . إن " الكل يدل " (40) ، أو لنقل إن وحدات المستوى التعبيري كلها دالة (Pansemique) (41) .

ولكون التواصل الجماهيري (Communication de masse) يمر دائما عبر سنن وتعاقبات ، وعبر نظام من العلاقات المنطقية (م ن : 196) ؛ فإنه في حالة البطاقة البريدية (والصورة الفتوغرافية عموما) ، ينزع نحو مبدأ المطابقة ، أي الموضوعية والعقلانية ، الذي تتأسس عليه وظيفة الصورة الإشهارية عموما (لاستيعاب مفهومي الموضوعية والعقلانية في الصورة الإشهارية ، انظر ص . 196 وفترة : سميولوجيا

الصورة الإشهارية في القاموس نفسه) .

بيد أن الذي يميز هذه الوحدة عن النموذج العام في الصورة الإشهارية ؛ كون هذا الأخير " رسالة من غمط فريد ، لظروف " مصطنعة " ؛ كما تكون عليه - إضافة إلى ذلك - صورة الدعاية والصورة البداغوجية " (م ن : 197) ؛ وكون الصورة هنا تميزت من خلال أنظمة صغرى تناسلت من التلقائية والمباشرة والبساطة .

تشكل بلاغة الصورة (مجموع الدوال / الموحيات) - هنا - ضمن تعاقد مسيرتين دلالتين : التقريرية والإيحائية (انظر فصل الإيحاء والتقرير في بارث 1964) . ومن ثم ، تتقدم البطاقة البريدية - التي تشمل صورة إشهارية - كرسالة حاملة دلالة ضمنية ، ثانية ؛ مخالفة لما تصرح به ، وتمثله سطحيا ؛ إنها لا تستعير وظيفتها المجتمعية من إقونيتها (تشابهها مع الواقع) ؛ وإنما من دلالتها في وظيفتها الرمزية⁽⁴²⁾ .

وأن تكون الصورة - في مستواها التعبيري - مركزة حول طفلة في سن التمدرس ؛ فإن شكل المحتوى (يلمسليف⁽⁴³⁾) ، يفيض بكل العناصر الدلالية الموازية للطفولة (البراءة ، التلقائية ، الفراغ ، الإهمال ، اللامبالاة) .

تنطبق على الوحدة المدروسة - من حيث التصنيف - صفة الصورة (Epiphanique) التي تقوم على المباشرة والجدة⁽⁴⁴⁾ . وعليه ، تخضع لنحو محدد من أنحاء التصوير ؛ في تنظيم الفضاء ، وتبثير الصورة ، ونظرة الشخصية . فمن أين تأتي الدلالة العامة لهذه الصورة ؟

يمكن القول أن نواة الدلالة العامة تتولد من خلال المظهر الجانبي (Profil) للطفلة المصورة :

أ- مظهر جانبي لنظرة ضائعة ، مهملة .

ب- مظهر جانبي بمثابة عرض عن ذهينة ونفسية شاردتين ، مهملتين .

من كل الاستنتاجات السابقة ، نركز على كون الصورة قامت على مبدأ " ألامعيارية " أو العرضية ، دون الاهتمام بصوغ اصطناعي للمحور المبأر (طفلة أمازيغية) . وذلك لن يشوش على غنى مدلولاتها الإيحائية .

فالمكونات التعبيرية للصورة تود إبلاغ دلالة عامة موحاة ، ثانية ؛ تتحدد في التساؤل عن طبيعة القطاع الاجتماعي - التربوي بتادلا . وذلك من خلال العناصر المكونة للدلالة التقريرية : طفلة في سن التمدرس ، تحمل برتقالة على عتبة باب خشبي ، بهندام غير موظب ، بين أنية قديمة وعليه "تيد" ، مشدودة إلى أمر على يمينها .

- ألا يحق - بعد كل هذه الاستنتاجات - التساؤل عن القاعدة العامة لبلاغة الصورة في الوحدة [هـ 2 . 1] ؟

إن اللامعيارية قيمة محورية " لشكل الموحيات " (بارث م ن : 138) في الصورة . وكأن اللقطة أخذت لطفلة أمازيغية في لحظة عرضية . وإن ذلك - في النهاية - من شأنه تقريب المتلقي / السائح إلى الواقع المجتمعي - التربوي ، بقدر أوفر من الموضوعية والمصادقية .

4.1.3. البنية القيمية [و] : قيمة الحذف / الإدماج .

« من البديهي أن للأزياء ، مثلاً ، مستتبعات ونتائج اقتصادية واجتماعية : لكن الدلائلي لا يعالج الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي للأزياء : وسببين فقط ، في أي مستوى من النظام الدلائلي للأزياء يلتقي الاقتصاد وعلم الاجتماع بالملاءمة الدلائلية : أعلى مستوى تشكل الدليل اللباسي مثلاً أم على مستوى القيود التجميعية (المحرمات) أم على مستوى الخطاب الإيحائي . إن مبدأ الملاءمة يؤدي ، بداهة ، لدى المحلل ، إلى موقف المثل أي ملاحظة نظام مامن الداخل » . (بارث م ن : 142)

أن نفتتح فقرة التحليل للنظام الأخير من المتن المدروس بقولة لبارث ؛ فذلك يدل - بداهة - على التقاء في تصور أولي حول معطيات التحليل :

- من الأشكال المرفولوجية المعروضة في الفقرة (2 - 6) تقوم الصورة على مبدأ المعيارية خدمة للاستراتيجية الاشهارية المحددة : اعتماد قاعدة علم نفس المحفزات اللاشعورية (الموسوعة الجماعية : 189) .

- على منوال ما أقره جاك برتان وأمبرطو إيكو وإميليو غاروني وألجيرداس - جوليان غريماس ؛ نرى الصورة مصنفة في خانة الصورة التي تترايط فيها أنساق سميائية عديدة في رسالة بصرية واحدة (م ن : 192) .

- تقدم الصورة زيا مثاليا ، نموذجيا للمرأة الأطلسية . ورومًا للدقة والبساطة ،
إن غاية الرسالة البصرية عرض تقليعة (Mode) مترسخة في فضاء تادلاوي محدد .

إن العناصر الثلاثة - السالف ذكرها - تمنحنا شرعية طرح السؤال الآتي :

- ماهو أساس بلاغة الصورة في الوحدة [و . 1 . (1)] ؟

أو بمعنى أدق وأوضح :

- على أي سنن - أساس - تركز هذه الرسالة البصرية ؟ وماهي القيمة العامة

المقتضاة ؟

لا بد - من ثم - أن نحصر أبرز المكونات البصرية للدال في الصورة ؛ التي يمنح

التألف بينها إمكان الاجابة على الأسئلة السالف ذكرها :

1- تتراكب الأنساق السميائية المكونة للدال البصري على الشكل التالي :

- نسق لباسي : قميص أبيض ، تقليدي ، وعُصابة (من عَصَبَ) الرأس

(تستعمل لِقَافَة للرَدْفَيْن عند الراقصة الأمازيغية) .

- نسق الحلي : على المعصم ، والأذن والعنق (من سلع الصناعة التقليدية

الرائجة بالمنطقة) .

- نسق الوشم على الجبين (هو كتابة على الجسد (عبد الكبير الخطيبي) ،

لكن لماذا على الجسد بالذات ؟) .

- نسق الحركات الجسدية : اليد اليسرى + نظرة العينين + الابتسامة على

الشفر .

- نسق التطرية (Maquillage) .

وإن تعدد الأنساق يهب بنية الايحاء - المعاني الثانية - غزارة وتعددا : الحلي

الذهبية توحى بمستوى مادي مخصوص . وكل الأنساق تمثل أجزاء نظام (الموضة) .

ثم إن هذه الأنساق تجمعت حول موضوع واحد (امرأة أطلسية تادلية) ،

ومكنت من أن تكون الصورة ذات قضية واحدة⁽⁴⁵⁾ . بحيث تكون هذه الأخيرة عماد الدلالة العامة . وقد يبدو أن الوظيفة الرئيسية للصورة تتخذ الجمالية / الشعرية محورا لها . غير أن ذلك لا يطفى على الوظيفة التأثيرية (الجذب السياحي) . بحيث تظل الصورة هنا " خزانا للمتخيل ، إنها تساعد على إنجاز لوحة جدرانية لذهنيات وأحلام غريبة في مجتمعنا " . (م ن : 192)

في تاريخ الصورة الاشهارية ، يحكم التصوير شكل الحذف (Ellipse) : " لكونه يتكئ على محرمات جنسية ، تجارية وأخلاقية ، . إلخ " . (م ن : 201) . وبالفعل تم ذلك على مستوى إبراز النصف الأعلى من الصدر . إلا أن ذلك لا يعني كون الصورة بقيت مطابقة للشكل المذكور في القولة : بل اعتمدت تقنية الحذف ، مع إعطاء المتلقي فرصة لتصور المحذوف : إن اللباس الأبيض الشفاف ، غير المغطي كاملا للكتفين ولنصف الصدر ؛ يعتبر شبه خرق ، على المتلقي تحقيقه كاملا بتمثل ذهني للصورة . وإن سنن الحذف قوام الوحدة ، ومرتکز بلاغتها . مما يدخل القارئ في استراتيجية الإشراك : على المتلقي الانجذاب سياحيا ، من خلال المجذاب غريزي - شهواني . ويعني ذلك من جهة أخرى ، اعتماد منهجية بيداغوجية في تلقي الصور : على المتلقي الكشف ذاتيا - وباستقلال (Heuristique) عن المرسل - عن دلالات موحاة - تخص معطيات اجتماعية واقعية - من خلال تصور محذوف من جسد المرأة ، موضوع الصورة (م ن : 201) .

وكي تؤدي الصور دور الاسناد أو الاخبار (م ن : 202) من خلال تضمين حمولة مشحونة ؛ تتوسل إلى تقنيات بلاغية = رفع اليد اليسرى إما إخفاء للفم خجلا وحشمة ؛ وإما إبرازا للحلي إحياء بامتلاك شخصي .

إن بعض الأنساق السميائية المكونة لنظام الدال البصري ، تحفز التحليل على الاهتمام بالمستوى الاجتماعي ، لا الفرق في النظرة النفسانية . إن شكل الابلاغ المجتمعي للصورة ، يفتني من خلال شكل الوشم أو النقش الموجود على الأسورة⁽⁴⁶⁾ . وإن مستوى التواصل الاجتماعي يتحدد في لاشعور جمعي ، خزان " قيم ضمنية ورموز أسطورية " (م ن : 206) .

ختاما ، يمكن القول أن قيمة الحذف / الادمج (للمتلقي) ، نواة الدلالة

العامة ، والقيمة المقتضاة للنظام [و] . وإن ذلك ، يمنح المتلقي تصور موضوع الصورة (امرأة أطلسية قد تكون راقصة) . ولقد ساعد في تحقيق الوظيفة الاشهارية مبدأ " المعيارية " ؛ التي حدد بواسطتها الموضوع الوحيد للرسالة البصرية .

4. مالم يقل عن المحترف السياحي : السيميائيات السمعية - البصرية أفقا .

بداية ، تسعف الاستنتاجات السالفة في تبصر معطى ؛ مفاده أن البطاقة البريدية - باعتبارها رسالة بصرية - " تفتتح بشكل واسع - ككل اللغات الغنية - على الرموز ، والتمثيلات الجمعية / الجماعية ، والأدلوجات ، والتيارات الجمالية " .⁽⁴⁷⁾ وإن ترسيخ ذلك ، يتم عبر قناة السيميائيات التطبيقية في مجال دراسة الصورة ؛ التي رقت إلى مستوى مرموق وسط وسائل الاتصال الجماهيري ، أو الوسائل السمعية - البصرية ؛ سواء أكانت رسالة إقونية معتمدة على أدلة غير لسانية ، أم كانت رسالة مزدوجة ؛ تشكلت ماهيتها من الأدلة اللسانية أيضا . وإذا ما رتبنا القيم المقتضاة - في البطاقات المدروسة - على الشكل التالي :

1- المرجعية / الطبيعية ،

2- الخلاقية ،

3- اللامعيارية ،

4- الحذف / الإدماج ؛

فإن المصادقية التمثيلية في الرسالة البصرية حاصلة وأكيدة . من شأن ذلك - من ثم - تعزيز دور البطاقة ، وسيلة لتبادل القيم السياحية . والحق أن مشروعية خلق محترف وسائل التلقي السياحي بمنطقة تادلا ، كمؤسسة فعلية مشتركة بين مندوبية وزارة السياحة وكلية الآداب والعلوم الانسانية ، مضمونة . وذلك تسهيلا لمشاريع :

- إدماج المؤسسة الجامعية في محيطها الجهوي الاقتصادي والاجتماعي ،

- الاستثمار السياحي المعقلن (المراعي لشرط التجانس بين الاقتصادي والاجتماعي ، أو بين الطبيعي والبشري . ثم إن تادلا جاءت وسط قطب سياحي ممتد بين فاس ومراكش) ،

- البحث العلمي المتعدد الاختصاصات : مما سيحفز الباحث في السيميائيات السمعية - البصرية على استثمار أعمق لتقنيات البحث الاجتماعي والاحصائي في مجال وسائل التلقي السياحي⁽⁴⁸⁾ .

ها نحن نتشبت بمبدأ الادماج الجهوي للجامعة في المحيط . لكن هل الحرارة نفسها يديها هذا المحيط ؟

بقي لي ، الآن ، أن أفصح عن سر بدء هذه الدراسة بأسطورة نرجس : هل إذا قلت إن بطاقات تادلا كصورة نرجس في العين التي شرب منها ؛ ستفهمني أيها القارئ عند هذا الحد ؟ حان الوقت الآن لأن أحيل على مبدأ القراءة المتعددة (بارث)⁽⁴⁹⁾ ، أو العمل المفتوح (إيكو)⁽⁵⁰⁾ . ودون هذه الاحالة - أيها القارئ العزيز - أسألك : لماذا تريد مني أن أعطيك إجابة مطلقة ؟

إنك - إن قبلت الاطلاقية - وجدتك قابلا حب إلهة الصدى ؛ الذي لم يقبله نرجس . ولو قبله ، لما ظلت حكايته متعنتة أمام جبروت التاريخ ، ولما تحدث عنها فرويد . وربما لما تأسس علم بكامله (التحليل النفسي) ، ولما كسبت شهرزاد حياة ليلة بحكاية " قمر الزمان " (نرجس ألف ليلة وليلة) لشهریار !

الهوامش

1 - انظر :

Grimal (Pierre), Dictionnaire de la mythologie Grecque et Romaine, Paris, Ed. S.P.A.D.E.M. 1969.

2 - انظر :

"Umberto Eco, du Semiologue au Romancier" (propos recueillis) in : Magazine Littéraire, n° 262, Février 1989.

"la revanche des Livres par Umberto Eco", in Le Nouvel Observateur, n° 1406 (Spécial) - Du 17 au 23 Octobre 1991.

3 - يمكن - في البداية - صرف تعريف حرفي لهذا النظام السميائي : البطاقة البريدية أداة تواصل بريدي .

4 - عبد الرحيم العماري ، مداخلة قدمت في المائدة المستديرة ليوم الخميس 24 أكتوبر 1991 ، بمناسبة ندوة منطقة الغرب : المجال والإنسان ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالطنجة . ونشرت بالملاحق الثقافي لجريدة العلم - العدد 746 - 91/11/02 .

5 - المرجع نفسه .

6 - المرجع نفسه ، ويصد الإحالة المتعلقة بتنظير روسي لاندبي ؛ انظر :

- Reý (Alain), Théories du signe et du sens, Paris, Ed. Klincksieck, 1981.

7 - المرجع نفسه .

8 - المرجع نفسه .

9 - تم توظيفها - بالشكل ذاته - في الدراسة المقدمة بمناسبة الندوة المذكورة في الهامش 4 .

10 - المرجع نفسه .

11 - ترابط مفاهيم عدة بشكل يشوش على دلالاتها : الفضاء ، الجهة ، المنطقة ، المجال . ولحل الإشكال نقترح التأريخ لها . فالجهة - من جهة (Region-Regionalisme) - مفهوم برز في المنتصف الثاني للقرن 19 . وشهد توسيعا في دلالاته السياسية ، بحيث استعمل في المعجم السياسي الفرنسي الحديث . والجهوية - موضوع استفتاء 1969 ، ومرجع قانون 2 مارس 1982 بفرنسا - مشروع اللامركزية الإدارية . ويتم الحديث عن جهوية دستورية كما في إيطاليا وإسبانيا . إن مصطلح جهة (Region) " كل تقسيم للمجال (Espace) " . والمجال مصدر ميمي لجال ، يجول . (انظر :

- Derrman (Max), Géographie Humaine, Paris, Armand Colin, 1976.

إلا أن ترسيخ الوعي بمفهوم الجهة ، يقتضي استيعاب نسقيته ومقوماته الاستعمولوجية :

"La région, sous-espace intégré à un espace national, est définie par les liens (homogénéité, complémentarité) existant entre ses habitants et par son organisation autour d'un centre (doté d'une certaine autonomie)".

George (Pierre), Dictionnaire de la Géographie, Paris, P. U. F. 1970, p. 404.

وحتى إذا ما تم تخريج جهة ذات قطب (région) ، يبقى التساؤل عن مركز مشروعها . انظر :

- Merlin (P.) & Choay (F.), Dictionnaire de l'urbanisme et de l'aménagement, Paris, P. U. F. 1988.

وعلى الأقل نصل إلى قناعة ، مفادها أن الحديث عن جهة (الجهري Régional) منعدم ، إذا لم يوجد المركزي . Le Central

12- انظر تحليلنا لمفهوم درجة الصفر ، مفهومنا لسانيا أولا ، وسمانيا ثانيا ، في : " المغيب في المشروع السمياني لدى رولان بارث " ، الملحق الثقافي للاتحاد الإشرافي ، العددان : 119 و 120 ، 1986 .

13- نصدر كثيرا عن استيعاب علم اجتماع التواصل الجماهيري أثناء توظيف مفهوم التلقي . ونركز بالخصوص على التنظير الألماني للمفهوم . انظر - مثلا - البليوغرافيا التي حصرها ب . ف . زيم تحت فقرة من مؤلفه : Zima (P. V), Manuel de Socio-critique, Ed. Picard, Paris, 1985.

مع أنني أحترض - من حيث المنطلق - على إدراج كل هذه الجهود النظرية تحت عنوان المؤلف السالف ذكره . وفي الوقت نفسه ، أنه بإلحاح شديد إلى مؤلفات منظر متميز في هذا المجال :

- Bourdieu (Pierre), La distinction, Paris, Minuit, 1979.

- Bourdieu (Pierre), Questions de Sociologie, Paris, Minuit, 1980.

- Bourdieu (Pierre), Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques, Paris, Fayard, 1982.

14- من مداخل ندوة منطقة الغرب ، المذكورة سلفا ، المنشورة سنة 1991 .

15- المرجع نفسه .

16- أفادتني كثيرا مداخل الأستاذ ليفي شمعون بصدد (بني ملال) يقول الأستاذ : "L'indice Aît est donc admis comme substitut de Bni ou Ahl (...) Mais le voisinage n'explique pas des éthonymes dont la partie berbère est le nom lui-même comme Bni Zemmur, Termast, Ulad Illul, Aît Mullal et Beni-Mellal qui renvoient aux termes berbères signifiant "blanc" (verbe, Imlul ; adj. Umlil) et que l'on retrouve partout dans la toponymie". " A propos du parler des paysans du Tadla..."

(انظر المداخلة في هذا العدد الخاص بأعمال ندوة تادلا) .

17- من مداخل ندوة منطقة الغرب ، المنشورة سنة 1991 .

18- المرجع نفسه .

19- ترميق ترجمة المفهوم أنثروبولوجي لدى كلود ليفي ستروص . والمفهوم بالفرنسية : (Bricolage) . ولقد عولنا عليه في الدراسة التي قدمناها بمناسبة الأيام الدراسية حول مدينة الصورة (بتنسيق بين كلية الآداب والعلوم الإنسانية باكادير وبلدية الصورة) ، بتاريخ 28.27.26 أكتوبر 1990 ، بمدينة الصورة . وعنوان الدراسة : " الصورة في البطاقة البريدية . تحليل سيكو-سوسيو-سمياني للطاقة البريدية " . إن الثقافة ترميق للطبيعة . والترميق - من ثم - عند ليفي ستروص مشحون بأبعاد معرفية عدة . لنتأمل القول المعروضة في الهامش 38 .

20- بات مفهوم الفائدة السياحية مسدجا . وأرى - من الضروري - إنجاز تراكم معرفي ؛ نظري وميداني ، لتصويبه وفق مشروع استثمار سياحي عقلائي ؛ يعتمد على معطيات علمية وميدانية ، تحارب ، من خلاله ، النظرة الفلكلورية للفائدة السياحية ، التي لا تمنح للسائح إلا قيمتي الفرانجية والمجانبة .

21- Le Tadla économique revue de la C.C.I. de Beni-Mellal et Azilal n°1, 1992, p. 21.

22- المرجع نفسه ، ص . 22 .

23- Eco (U.), La guerre du faux, Paris, Ed. Grasset, 1985, p. 295.

24- رسالة إيقونية : ماهيتها بصرية كالسينما والإشهار والهزليات . وماهية الدال مادية دائما (أصوات ، أشياء ، صور . . .) . بارث 1964 : 77 .

25- ماهية : Substance عند پلمسليف . انظر الإحالة السابقة والإحالة 43 .

- 26- مس ، 1977 ، 101 .
- 27- من التعريف الأولي للاستدلال ، تصوره عملية عقلية يتم بواسطتها استنتاج - انطلاقا من قضية أو قضايا (مقدمات) - قضايا أخرى تعتبر صادقة أو محتملة أو كاذبة . بيد أننا ضمن إطار الدراسة السيميائية - الاجتماعية للصورة ، نقره من مفهوم البناء الصوري لشبكة الدلالات الموحدة . انظر بارث 1964 : فصل الإيهاء والتقرير .
- 28- انظر :
- Greimas & Courtes, *Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, Paris, Hachette, 1981.
- 29- Barthes (R.), "Le message photographique", *Communications* 1, Paris, 1961, pp. 127-138.
- 30- Barthes (R.), *Eléments de Sémiologie*, Paris, Ed. du Seuil, 1964.
- ولكوني أدين لأستاذي محمد البكري بدين عظيم في هذا المجال ، مكنتني من معاينة اطلاعه الرصين والعميق ؛ فإنني أعول كثيرا على تصوره وتطبيقه للترجمة . انظر : رولان بارث : مبادئ في علم الأدلة . ترجمة وتقديم محمد البكري ، دار قرطبة للطباعة والنشر ، ص . 141 .
- 31- حصر بارث بعضها في النظام السيميائي للطعام : م ن : 53/52 .
- 32- المرجع نفسه : 141 .
- 33- لاستيعاب ذلك ، يمكن الاطلاع على تطبيقات بارث في مجال الأدلة غير اللسانية (نظام الموضة أو دراسة الحرفات) والأدلة اللسانية (سززين في S/Z - 1970) .
- 34- مجلة *Le Tadia économique* ، غرفة التجارة والصناعة العصرية ، المذكورة سلفا ، ص . 21 .
- 35- م ن : 19 .
- 36- م ن : 28/23 .
- 37- وكما أثار إشكالية الأصالة / المعاصرة من زوايا إيدلوجية ؛ انظر - مثلا - مؤلف الإيدلوجية العربية المعاصرة لعبد الله العروي . أشير إلى ذلك ، محتاطا من غول الإيدلوجيا : غول يخشى المعنى المقرر ، ويخفي خبثه وراء الإيهائي . غول يحتمي في خطابه بالطلقية والأحادية . لكن لا يثبت أمام خطاب العلم ، خصوصا عندما يتضاعف خطاب الإيدلوجيا ليمسي أسطوريا . للتوسيع نحيل إلى أن قضية موت الإيدلوجيا لم تثر مع خطاب نهاية التاريخ لفرنسيس فوكوياما ، وإنما بدأ الخوض فيها مع بدايات الستينات . وإلا كيف يمكن استيعاب أطروحة التوسير . انظر على وجه الخصوص :
- Boudon (R.), *L'Idéologie ou l'origine des idées reçues*, Paris, Fayard, 1986.
- Bourricaud (F.), *Le Bricolage idéologique*, Paris, P.U.F. 1980.
- Boudon (R.) & Bourricaud (F.), *Dictionnaire critique de la sociologie*, Paris, P.U.F. 1982.
- 38- نصدر كثيرا عن منظومة ليثي سترووس : إن الثقافة هي الحضارة : "Toute société est une société de sauvages, tout homme est l'indigène d'une culture". C. Levi-Strauss, *La Pensée sauvage*, Paris, Ed. Plon, 1958, p. 148.
- وعليه ، فتجاوز القيمتين في البطاقة البريدية ، يفيد التقاء حضارتين / ثقافتين ؛ تحت سن التاريخ أن تكون الأولى مغزوة ، والثانية غازية .
- 39- اللامعيارية خاصية تتنافى مع المعيارية . والمعيار نموذج مشخص أو صيغة مجردة لما ينبغي أن تكون عليه الأشياء . والمعيار عند الأصوليين : الطرف المساوي للمظروف كالوقت للصلاة . وعند المناطق ، مقياس مجرد لما ينبغي أن يكون عليه الشيء . ويرادفه العيار . وهو ما جعل قياسا ونظاما للشيء . والقاعدة قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها ، أو النموذج المثالي التي تنسب إليه أحكام القيمة . فالمعيار في الأخلاق نموذج مثالي تقاس به معاني الخير . وفي علم

الجمال مقبّاس الحكم على الإنتاج الفني . وفي المنطق قاعدة الاستنتاج السليم والصحيح . وفي نظرية القيم (Axiologie) مقياس الحكم على قيم الأشياء . والمعيار (Normatif) المنسوب إلى المعيار . ومنه العلوم المعيارية (المنطق ، الأخلاق ، علم الجمال) المقابلة للعلوم التفسيرية التي تقوم على ملاحظة الظواهر وتفسيرها كما هي في الطبيعة .

انظر : د. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج 2 ، دار الكتاب اللبناني ، 1982 .

Barthes (R.), *Le grain de la voix*, Paris, Ed. du seuil, 1981, p. 74. -40

41- انظر : فصل " الصورة واللغة " من :

- *Le langage* - sous la direction de Bernard Pottier, coll. Les encyclopedies du savoir moderne, C.E.P.L. Paris, 1973, p. 194.

42- م ن : 197 .

43- شكل المحتوى " تنظيم صوري فيما بين الدولات بواسطة غياب أو حضور علامة دلالية " . (بارت 1964 : 67) .

يستلهم بارت بشكل رصين تنظيم بلمسليف للسان من :

Hjelmslev (L.), *Prolégomènes à une théorie du langage*, Paris, Minuit, coll. arguments, 1971.

44- م ن : 202 .

45- م ن 199 .

46- يتماثل شكل دال الرشم مع أنظمة أخرى سمائية ، كالنقش على الجدران أو شكل المعبار على وجه العموم . وبهذا الصدد قدمت دراسة بمناسبة الملحق العلمي المغربي - البرتغالي الأول الذي أقيم من قبل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، بتنسيق مع معهد الدراسات العربية الإسلامية وكلية الآداب بجامعة لشبونة ، (11 -- 15 دجنبر 1991) وعنوان الدراسة : "Eléments de sémiologie anthropologique : systèmes graphiques dans les villes portugaises au Maroc : formes et interprétations".

47- قاموس : *Le langage* ، ص . 214 .

48- يجر مفهوم القراءة المتعددة وراء رعبا معرفيا وإيديولوجيا : وفي دراسة سابقة ، سميت بمنظومة التعدد والاختلاف .

انظر ، قصد استيعاب ذلك بعض دراساتنا المنشورة :

- عبد الرحيم العماري ، " المغيّب في المشروع السميائي لرولان بارت " الملحق الثقافي للامهاد الاشعراكي ، العددان 120/119 - 1986 .

- عبد الرحيم العماري ، " السميائيات الأدبية والنقد الأدبي عند رولان بارت (ملاحظات حول مقال الدكتور حسن النيمي) - الملحق الثقافي للامهاد الاشعراكي - العدد 191 - 1987 .

- عبد الرحيم العماري : " مشروع سميائية النص لدى رولان بارت " - ملف خاص حول السميائيات - أنوال الثقافي - العدد 310 - 1987 .

49- ECO (U.), *L'Oeuvre ouverte*, Paris, Ed. du seuil, 1965. -

المرأة في تادلا من خلال كتب الرحلات في العصر الوسيط

عصمت عبد اللطيف دندش
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الرباط -

يجد الباحث صعوبة كبيرة في تتبع دور المرأة ونشاطها في المجتمعات الإسلامية في مختلف العصور ، وعلى الخصوص فيما اصطلح على تسميته بالعصر الوسيط . فكل المصادر تتجنب التأريخ أو الإشارة إلى دورها في المجتمع وجل هذه المصادر لا تتعرض إلا لحالات نادرة لبعض النساء اللاتي لمعن كشاعرات أو محدثات ، أو لبعض الجواري ممن اشتهرن في بلاط بعض الخلفاء أو الأثرياء إما لجمالهن أو لموهبتهن في الغناء أو العزف أو قول الشعر والتطبيب . ومع أن المرأة لها دورها الفعال والنشط في تسيير الحياة العامة مهما كان موقعها ، إلا أن المؤرخين تعمدوا التعتيم على دور ونشاط المرأة في المجتمع الإسلامي ، وإذا ذكرت لا يعطى لها حقها ، ولا تذكر إلا بنوع من الاستخفاف والاستهانة بها أو إلصاق المكر والخديعة والشر بكل تصرفاتها ، وعدم براءة سلوكها في أي حدث غامض ، واتهامها دون الرجل بقصور عقلها ، وإيمانها بقدرة الجن والأرواح الشريرة وسيطرتها على حياتها الأسرية .

وعندما اخترت موضوع " المرأة في منطقة تادلا من خلال كتب رحلات العصر الوسيط " وجدت نفسي أبحث عن إبرة في جبل من القش أو الرمال ، فلا توجد أية إشارة من قريب أو بعيد عن المرأة في بلاد المغرب . وإذا كان مجتمع الأندلس قد حظي ببعض التفتح فذكرت بعض المعلومات القليلة عن المرأة ، فالمجتمع في العدة المغربية أهمل ذكرها تماما ، ولا شك أن هذا راجع إلى اختلاف التركيبة الحضارية للسكان ، خصوصا أن معظمها كانت مجتمعات قبلية ، لكل قبيلة خصوصيتها في العادات والتقاليد والأعراف الموروثة التي لم تتأثر كثيرا بتعاليم الإسلام بخصوص حقوق المرأة ووضعيتها ، وإن كانت جل هذه القبائل تشترك في معظم العادات والتقاليد والأعراف . ومن الغريب أن نجد الحجاج والتجار الأندلسيين أو المغاربة لا يهتمون تدوين أو

ذكر ما شاهده في المشرق خصوصا في مصر وبلاد الديلم والتركمان وما وراء النهر ، بخصوص نساء هذه البلاد في اللباس والعادات والتقاليد التي استنكروها ، واعتبروها من الفرائب ، وذكروها كنوع من الطرائف والمستملحات ، ولا نجد مثل هذا الاهتمام من الأندلسيين أو حتى المشاركة الذين زاروا العدو المغربية . فابن حوقل الذي يعتبر من أوائل الرحالة الذين جاسوا خلال بلاد المغرب والأندلس لم يشر إلى هذا الجانب ، ويبدو أن كل اهتمامه كان منصبا على كتابة تقارير مركزة عن الحياة الاقتصادية فقط مع تلميحات إلى التفكك السياسي الذي تعاني منه المنطقة ، ولم يتطرق إلى أي شكل من أشكال الحياة الاجتماعية .

ونجد أبا عبيد البكري في كتابه *المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب* والذي اعتمد في كتاباته على تقارير مفصلة أو على رواية شفوية كانت متاحة له من خلال مركزه ، نجده يتجنب ذكر الحياة الاجتماعية في هذه البلاد أو التعرض لذكر نساء كل منطقة وعاداتهن وتقاليدهن باستثناء ما ذكره عن يرغواطة ، وكأن هذا الأمر مفروغ منه أو لا يثير الاهتمام ولا يذكر إلا عبارة " وأهل السوس وأغمات يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب ، يشتغلن في غزل الصوف ويعملن منه كل حسن يديع من الأزر " ⁽¹⁾ .

وحتى البيذق خادم المهدي بن تومرت ورفيقه في رحلته خلال بلاد المغرب لا يذكر في رحلته بالنسبة للمرأة إلا ما أثار حفيظة المهدي من اختلاط النساء بالرجال عند سقاية الماء ⁽²⁾ ، أو مناطق المنتزهات ⁽³⁾ ، واستهجان زينة النساء وملابسهن في يوم العيد وخروجهن للصلاة ⁽⁴⁾ ، أو اللاتي يبعن اللبن وهن مزيّنات مكحلات ⁽⁵⁾ ، فلا يملك إلا أن يغطي وجهه حتى يتجاوزهن وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، بينما لا يتعرض بتفصيل لبور " راحل " أم يرزيج بن عمر (عبد الواحد الشرقي) التي قامت بمساعدتهم وسمحت لابنها بمصاحبة المهدي ، وتنازلت عن حمارها الذي تملكه عندما طلبه المهدي رغم حاجتها وفقرها ، ⁽⁶⁾ " وراحل " تمثّل نموذجاً لعددات مثلها من هذه الطبقة الدنيا . ونجده يركز على الأميرة فانو بنت عمر ينتان ⁽⁷⁾ التي انتزعت إعجاب الموحدين لشجاعته وبراعتها في القتال الذي فاقت فيه الرجال .

ويحتوي كتاب *التشوف للتادلي* على معلومات شحيحة ولكنها مهمة ولا نجدها في مصادر أخرى . ويعتبر الحسن الوزان هو الوحيد تقريبا الذي سجل مشاهداته ،

وتعرض لذكر خصوصيات كل منطقة زارها ، وما أثار انتباهه فيها دون حرج . واعتقد أن طول إقامته بإيطاليا أثناء أسره ، جعلته يتأثر بالحياة هناك كما أن وضعيته كمسلم وإحساسه الدائم بالغربة والحنين إلى وطنه جعلته يعرف أسريه بما تتمتع به بلاده من تنوع في الحضارة ، والغنى .

كانت منطقة تادلا من المناطق التي أولاها الحسن الوزان عنايته في التعريف بها ، خصوصا أنه زارها وكان شاهد عيان لبعض أحداثها ، فبين أهمية موقعها الاقتصادي والعسكري وما تتمتع به من جمال طبيعي ، وما تشتمل عليه من تنوع في كل أنماط المعاش من زراعة ورعي وصيد وتعددين . وحرص على وصف مدنها وأهلها . وقد حاول مارمول الكتابة عن هذه المناطق ولكنه نقل عن الحسن الوزان وشوه كثيرا من الحقائق .

لقد أجمع المؤرخون على أهمية هذه المنطقة بالنسبة للدول المتعاقبة على المغرب سواء اتخذت من مراكش عاصمة أو من فاس . ومنطقة تادلا تمتعت في عهد المرابطين بنوع خاص من العناية والولاء ، لأن تادلا كان يسكنها عدد كبير من المتصوفة والصالحين بلغ مائة وسبعين ولما ، كلهم يزورون كما ذكر التادلي في كتاب *التشوف* ⁽⁸⁾ ، وكان أمراء المرابطين يزورون بعضا من هؤلاء الصالحين للتبرك . فذكر صاحب *التشوف* ⁽⁹⁾ أن أمير المسلمين تاشفين بن علي عندما خرج من مراكش قاصدا وهران ، ومر بالقرب من تادلا قال لخاصته : " لأرينكم رجلا صالحا ، فتقدم بهم إلى مكان أبي زكريا يحيى بن محمد الجراوي المراسمي أحد الصالحين ، فدخلوا عليه متلثمين لا يعرف منهم من هو السلطان ، فرفع بصره بديهة إلى تاشفين فقال : أنت هو ؟ ، فإلى أين تذهب بهذا الخلق تهلك عباد الله ؟ فقال له : لم يدعنا هؤلاء القوم ، ثم سلم وخرج عنه " . هذه الحادثة التي ساقها التادلي تدل على أن الأمير تاشفين قد زار المكان من قبل وتردد على هذا الولي الصالح .

وبعد سقوط المرابطين استمرت تادلا مدة طويلة على ولائها له ، وكثرت بها الثورات على الموحدين الذين استعملوا الشدة في القضاء عليها فأكثروا القتل والسبي في قبائلها ، وبيعت نساؤهم وأطفالهم وماشيتهم حتى استكانت تادلا للموحدين استكانة الخائف من تكرار بشاعة ما ارتكب في بلادهم ، لدرجة أنه عندما قام بوسردون بالثورة لم يتجاوب معه أهل تادلا وقتلوه وساقوا بغله ورأسه للأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن ⁽¹⁰⁾ .

ومع ذلك لم يطمئن الموحدون لأهل تادلا ، فكانوا تحت مراقبتهم المستمرة وأسسوا تآكرارات في تادلا ، غير تآكرارات داود بن عائشة . سكنها الموحدون مع فرقة من الروم في عهد الأمير أبي يعقوب ⁽¹¹⁾ ، كما غير الموحدون التركيبة السكانية للمنطقة بإنزال قبائل عربية وبربرية موالية لهم فيقول صاحب الاستبصار ⁽¹²⁾ " وأحاطت به القبائل من كل الجهات فهو حقيق بالملكة والأمر العزيز أدام الله دوامه ملتفت له محتاط عليه " .

واستمر اهتمام الأسر الحاكمة بعد الموحدين بهذه المنطقة لأهميتها في استئباب الأمن واستقرار الحكم في البلاد ، وتحكمها في الطرق التجارية ، ولأهميتها الاقتصادية المتميزة . فمنطقة تادلا كثيرة الخيرات معمورة الأسواق كما أجمع على ذلك الرحالة والمؤرخون . فهي تتمتع بالعيون الثرة والأنهار الجارية كثرت بها زراعة الحبوب والأغراس والأعناب وغيرها من المحصولات الزراعية ، وأهمها كانت زراعة القطن .

وسكان هذه المنطقة إما تجار أو صناع أو زراع أو رعاة أو يشتغلون بالصيد . وكان لهذا الانتعاش الاقتصادي أثره على الحياة الاجتماعية التي ظهرت واضحة في مساكن أهلها التي بنيت بعضها بخشب الأرز ⁽¹³⁾ أو بالحجارة ، وأحيطت بالحدائق المثمرة ، كما كثرت بها المساجد والفنادق لإيواء التجار والمسافرين ، وأحيطت بعض مدنها بأسوار من حجر الكلس ⁽¹⁴⁾ .

كان لهذه الوضعية الاقتصادية أثرها في استقرار عدد كبير من اليهود ⁽¹⁵⁾ تساكنتوا مع أهلها واشتغلوا بحرفة التجارة والصناعة واختلطت العادات والتقاليد والمعتقدات بين الطائفة المسلمة والطائفة اليهودية خصوصا في الطعام واللباس والاحتفالات والاعتقاد في السحر والشعوذة .

وقد وصف الحسن الوزان نساء حواضر تادلا بأنهن لطيفات ظريفات أنيقات اللباس ، وكانت نساء هذه الحواضر ممتلئات شديداً بالبياض ذوات عيون سود وشعر أسود جميل ⁽¹⁶⁾ ، كانت النساء الموسرات يشتري ثيابهن من التجار الفاسيين الذين يأتون إلى أسواق مدن تادلا أو من التجار اليهود بها ، ويبادلونهم بمصنوعاتهن الصوفية أو القطنية أو غيرها ، وكانت المرأة تلبس في الصيف قميصا مخزما بنطاق ، وفي الشتاء تلبس ثيابا

عريضة الأكمام ومخيطه من الأمام كثياب الرجال ، وعندما تخرج النساء يلبسن سراويل طويلة ويضعن في آذانهن أقراطا كبيرة من الذهب المرصع بحجارة كريمة بديعة وفي معاصمهن أساور من ذهب ، وسوار في كل ساعد قد تبلغ زنته مائة مثقال . وكانت بعض نساء الأعيان يتحلين بأساور وخواتم من الفضة ويضعن الخلاخل في أرجلهن ⁽¹⁷⁾ . بينما كان لباس بعض النساء عبارة عن قطعة من النسيج غير مخيطة تشد إلى العنق بشوكات من الفضة يصنعها الصاغة اليهود ، وربما لبسن فوقها زنارا من الصوف الأسود أو الأحمر ، ويغطين رؤوسهن بغطاء يسمى الكنبوش ، وكانت بعض النساء ينتعلن في أرجلهن النعال التي تعرف بالشرابل ، وكانت مطرزة بخيوط الذهب أو الفضة . وكان اليهود متخصصين في صناعتها ⁽¹⁸⁾ .

ويصف الوزان المرأة في الطبقات الدنيا ، أو في المناطق الجبلية المعزولة عن هذه الحواضر بالقبيح ، وبأنهن كريهات المنظر ، وشبههن بالسعاللي بلباسهن الخشن القبيح ، ويقمن بالأعمال الشاقة فيحملن على ظهورهن الماء الذي يأتين به من العيون أو مجاري الأنهار ، كما يقمن بالاحتطاب من الغابة ويحملن كل ذلك على ظهورهن طوال النهار دون راحة ، وتنبعث منهن روائح كريهة لقذارتهن ، وتقفز منهن البراغيث التي لم ير مثيلها لكبرها ⁽¹⁹⁾ .

والمرأة في بادية تادلا كغيرها في مثل هذا المجتمع تقوم بجانب أعمال البيت ببعض أعمال الزراعة والرعي وجلب الماء والاحتطاب وبعض الصناعات المنزلية .

كانت المرأة في منطقة تادلا تخرج سافرة على ما يبدو من وصف الوزان ، وإن كان ابن الزيات التادلي ⁽²⁰⁾ قد ساق قبله بأزيد من قرنين قصة تدل على سفور المرأة قال : حدثني علي بن زكريا بن عبد الله قال : جلسنا يوما مع أبي ، وكان معنا أبو العباس السبتى ، فجاء إلي أبي يتيم فسأل منه شيئا . فأعطاه أبي نصف درهم فقال له أبو العباس : رد إليه نصف الدرهم يفتح الله عليك في أربعة دراهم ونصف ، فما برحنا من مكاننا حتى وقفت على أبي امرأة من الخدماء فقالت له : أتعرفني . فقال : لا أعرفك فمن أنت فقالت له : كنت قد اشتريت منك نطعا ببلد داي بأربعة دراهم ونصف درهم ، ثم طرأ على أهل داي ما طرأ من الجلاء عن بلدهم وافتراقهم في البلاد ، فأخذ منها تلك الدراهم .

ربما يكون سفور المرأة مقصورا على طبقة اجتماعية معينة ، وربما يرجع إلى الظروف الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في هذا المجتمع ، فمعظم اقتصاد البلاد الذي اشتهرت به وهو نسج الصوف وعمل البرانس والأكسية الفاخرة والأقمصة الثمينة والزرابي كانت تقوم بها النساء يتكسبن منها . وكانت لهن تجارتهن حتى أن البعض منهن كانت تريح أكثر من الرجال ، وشجع الرجال عمل المرأة في هذه الصناعات مما أوجد راجا كبيرا وطلبا كثيرا على هذه الصناعات . فكانت أسواق تادلا وداي على الخصوص عامرة يأتيتها التجار من جميع الأنحاء ، وأصبحت مدنها محطا للتجار والمسافرين يقول الإدريسي ⁽²¹⁾ : " وبهاتين المدينتين أرزاق ومعايش وخصب ونعم شتى " . وقد سكنها عدد كبير من اليهود الذين اشتغلوا بالتجارة والصناعة ، وقاموا بدور الوسيط بين تجار المغرب وأوربا خصوصا إيطاليا وإسبانيا . فمن منطقة تادلا كان يخرج القطن ويسافر به إلى كل الجهات ويعمل منه الثياب القطنية ، والمنسوجات الصوفية الرفيعة خصوصا البرانس التي يوصي عليها التجار الذين يؤدون ثمنها مسبقا ، على أن يتوصلوا بها بعد ثلاثة أشهر أو أكثر ⁽²²⁾ ، ونتيجة لهذا الانتعاش الاقتصادي والنشاط التجاري كثرت بها المساجد والفنادق لإقامة التجار الغرباء الذين يأتون بتجارتهم كالأقمشة والسكاكين والسيوف والسروج والشكائم (اللجم) والقلنسوات والإبر وأدوات الخياطة ، وكان معظمها يأتي من فاس . وكانت بعض هذه المصنوعات تتم عن طريق المبادلة بالبضائع المحلية كالزقيق والخبثيل والبرانس والجلد والنيلة ⁽²³⁾ ، والنحاس " الذي لا يعدله غيره بمشارك الأرض ومغاربها " كما ذكر الإدريسي ⁽²⁴⁾ ، وهو نحاس يميل لونه إلى البياض ويتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة ولا يتشرخ عند الطرق .

كان نسج الصوف يتم في المنازل وتقوم به النساء من مختلف الطبقات موسرة أو فقيرة ، لاستعمال الأسرة أو للتجارة ، فتنسج خرق تخاط منها الجلابيب والبرانس ، أو الزنانير والأغطية والفرش والمنازل النسائية .

فكان صاحب القطيع يجز صوف غنمه ويبيع جزءا منه لشراء حاجيات الأسرة ، وتنسج النساء باقي الصوف ليبيع مصنعا ، أو تحتفظ الأسرة ببعضه لسد احتياجاتها . وكان كل بيت يتوفر على أدوات لغزل الصوف التي يبيعها اليهود كما يبيعون الأمشاط .

لنفش الصوف والإبر والخيط .

أما أدوات النسيج فلم تكن متوفرة إلا عند الأسر الكبيرة ، أو عند الأسر التي تعتمد على النسيج في معاشها ، بينما كانت بعض الأسر تستعير مثل هذه الأدوات للوفاء بالتزاماتها للتجار ، وكانت الفتيات يتعلمن الغزل وإدارة المغزل من صغرن ليكون حرفة لهن عندما يكبرن ووسيلة لدفع السأم والبطالة ، بل إنه في يوم زفاف الفتاة تمشطها عماتها وخالاتها وأثناء تزيين شعرها ووجهها يذكرنها بأهمية المغزل ودوره في الحفاظ على زواج سعيد ، وعلاقة طيبة مع حماتها ⁽²⁵⁾ .

كانت المرأة تقوم بغسل الصوف وتوزعه على الجارات والأقارب وغيرهن من المتطوعات والمأجورات من أجل ندفه وغزله وتحويله إلى خيوط ، وبعد تهيئته كانت النساء يقمن بنصب النول (المنوال) وهي عملية تصاحبها طقوس وتراتيل معينة تنشدها النساء لتسهيل العمل والتهوين من مشقته . وكن يستعملن الصباغة البدائية في صباغة الصوف ، فيصبغنه على دخان كبريت محترق وسط سلة كبيرة أو يغمسونه في محلول قشر الرمان والشب ⁽²⁵⁾ ، وكان التجار اليهود يجلبون من المدن الكبرى مواد أخرى للصباغة ، وتقوم النساء اليهوديات بعملية الصباغة مقابل أجر يتفق عليه ، ومارست المرأة اليهودية بجانب صباغة الصوف ونسجه صناعة خيوط (الصقلي) وصناعة العقد والأحزمة (المزمة) وخياطة الملابس الموشية المزركشة وبيعها ⁽²⁶⁾ .

ويبدو أن تعدد الزوجات كان شائعا بين الطائفتين المسلمة واليهودية ⁽²⁷⁾ إذ أن المرأة كانت تكون عنصرا اقتصاديا نشيطا ، كما أن الأسرة كانت تعتمد على كثرة أفرادها ، وإن كانت الزوجة الأولى أو الأم لها وضعيتها المتميزة في إدارة شؤون الأسرة ، فهي التي تشرف على إدارة البيت وتوزيع العمل بين الزوجات وزوجات الأبناء اللاتي يعرفن قبل زواجهن أن الأمر النهائي في البيت هو والد زوجها (شيخها) وحماتها ، وأن على زوجة الابن أن تنفذ أوامر ربة البيت وما يعهد إليها من عمل ، وإعطاء نسل جديد إلى الأسرة ⁽²⁸⁾ ، لذلك كان اختيار الزوجة يخضع لمقاييس معينة فبجانب المواصفات الخلقية والجمالية من بياض البشرة وسواد الشعر وطوله إلى غير ذلك من المواصفات الجمالية يكون الجانب الاقتصادي من أهم الشروط في الاختيار ، علاوة على مهارة الفتاة في غزل الصوف ونسجه ، أو الحذق في صناعة معينة تدخل للأسرة دخلا إضافيا بجانب

مهارتها في أعمال المنزل ، لذلك كانت عملية التنقيب على الزوجة المقترحة من بين بنات القبيلة أو القبائل المجاورة تتم بمعرفة الأم أو من يقوم مقامها من الأخوات أو نساء الأسرة .

وعادات الزواج وتقاليده كانت متشابهة بين طائفة المسلمين واليهود في المنطقة ، فبعد اختيار الفتاة وموافقة أهلها يقدم أهل العريس الهدايا وهي مكونة من بعض الأساور ، وكانت تحدد عند اليهود بسبعة حسب أيام الأسبوع ، كما يقدم للعروس خمارا من الحرير وخمسة قوالب من السكر وكمية من الحناء والعطور والفواكه المجففة مثل اللوز والجوز والتمر والتين . ولا ينبغي أن يلتقي الخطيبان أثناء فترة الخطوبة وأن يرى أحدهما الآخر . ولا تخرج الفتاة طوال هذه الفترة التي تكون قصيرة في الغالب وتشتغل في تحضير وإعداد جهاز العروس الذي يتكون من بعض الملابس والأغطية .

ويتفق في عقد الزواج على مقدار الصداق ومراعاة المصالح المالية للمرأة ، وكان اليهود يقومون بعقد الزواج حسب تقليدهم ويسمى الكتوبة ويعين فيه الصداق الذي يقدم للزوجة ويرم أمام الرئيس الديني لليهود ، أو أمام القضاء الإسلامي في حضرة قاضي وعدلين أو من عدلين فقط ، إذا كان الأب لا يطمئن إلى مصداقية صهره أو يشك في عدم قدرته على الوفاء بالتزاماته وقد استمر هذا التقليد إلى نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر الميلادي بين طائفة اليهود (29) .

وتعتقد المرأة المسلمة واليهودية أن فترة الزواج فترة حساسة تعبر على عتبة من رهبة عالم تحكمه أسرار الجن ، وينظر للعروسين على أنهما شخصان قابلان للتعرض لأقل أذى ، ومهددان بكل أنواع الشرور وكل العمليات السحرية المؤذية وعلى الخصوص الشفاف أو الربط أي إصابة العريس بالعجز ، وعليه يجب حماية العروسين بالتعاون والتمائم وكتابات سحرية شبيهة بتلك التي تحفظ الأم وطفلها عند الولادة . وينبغي التمني بجلب البركة والسعادة والنجاح للعروسين ، وتكون هذه الطقوس مصحوبة بالأغاني والرقص والزغاريد ، ويطلق على العريس " أسلي " عند الطائفتين ويعين العريس بعض أصحابه الذين يصحبونه إلى الحمام ويرافقونه في مراسيم الاحتفال ويسمون " إسلان " . وتبدأ احتفالات العرس عند الطائفة اليهودية ابتداء من السبت السابق ليوم الزواج الحقيقي والذي يتم يوم الأربعاء ، وهذا السبت يسمى بسبت الرشيم (التعيين أو الإشهار)

لأن العريس (إسلي بالبربرية) يعين في هذا اليوم رفاقه من الشباب (العزارة = إسلان بالبربرية) الذين يصحبونه إلى الحمام ويرافقونه في موكب العرس (30) .

وهذا اليوم يحتفل فيه بتقديم الذبيحة لأهل العروس (ثور أو كبش أو أكثر عند المسلمين) ، (وبقرة عند اليهود) وتزين الذبيحة بحلي النساء وبالمناديل والأشرطة الحريرية الملونة والورود ، ويسير الموكب الصاخب بالأغاني والزغاريد إلى منزل العروس (31) .

يكون يوم الخميس هو يوم (أزموينغ) ويطلق على احتفال تكسر في أثنائه بيضة على رأس العروس تسيل على شعرها المسدل ، وتبلل الحاضرات أيديهن الواحدة بعد الأخرى في إناء به عجينة الحناء المعطرة ويضعن العجينة على رأس العروس حيث يشددن شعرها بقماش من القطن الذي يبقى كما هو إلى يوم الثلاثاء ، وهو يوم الذهاب إلى الحمام ويتم بعد الظهر في صهريج الجماعة المخصص لهذا النوع من الاغتسال ، وهو مناسبة لمجموعة من الطقوس الهدف منها حماية العروس من القوى الشريرة ، وترمي أكبر النساء من المصاحبات للعروس في ماء الصهريج طبقا من العسل ، وكأسا من الخل ومشطا وخضابا ، ثم يغسلن رأس العروس . وكل ما يسقط من شعر وحناء وفضلات البيض يخلط بالسكر والقمح ويوضع في قطعة من القماش . وتحشى في فراش الزوجية ، ويجرد ما تعود العروس من الحمام بمشط شعرها وتغير ملابسها وتتزين وتتعطر ، وتحلى بالحلي الذهبية والفضية ، وتلبس العروس كسوة يطلق عليها الكسوة الكبيرة مطرزة وتغطي رأسها بخمار من الحرير الأبيض أو الأخضر ينسدل على وجهها ، وتضع في قدميها بلغة مطرزة بالذهب (شريل) وتستوي على كرسي العرس (32) .

أما العروس اليهودية فيتكون لباسها من صدرية من المخمل مطرزة بخيوط الذهب (كتف) وصدار مخملي أحمر رماني ، أو أخضر مزين بإشارات مذهبة وأزرار فضية (الخونباج) وتنورة من المخمل من نفس اللون (زلطيطا) مزخرفة بأزرار مذهبة وتحتزم بحزام عريض ومقوى من المخمل المطرز بخيوط الذهب واللؤلؤ (مضمة) وتنتعل بلغة مطرزة (شريل) ، وتضع فوق رأسها إكليلا مشقلا بالأحجار الكريمة وخمارا ووشاحا من الحرير يشد الشعر والخمار من الحرير الأبيض أو الأخضر ويغطي بحجاب أبيض شفاف يدلى على الوجه (33) .

أما بالنسبة للعريس فيذهب مع أصدقائه إلى الحمام الذي خصص لهذا اليوم وفي الغالب يكون في عين تامكنونت أو عين داي . وبعد تمام الحمام يخرج الجميع في زفة يقودها أحد أصدقائه مرددين الأغاني ، ويلبس العريس جلبابا أبيضاً رقيقاً تحته الفرجية والتشامير وسروالا أبيضاً واسعاً ، وسلهما أبيضاً⁽³⁴⁾ ، أما ابن الطائفة اليهودية فيلبس لباساً مكوناً من سروال عريض وصديرية (بدعية) مطرزة مزينة وسترة طويلة مشدودة على الخصر بحزام من الحرير⁽³⁵⁾ .

تقوم عائلة العروس وصديقاتها بالاحتفال بالعروس ، وفي نهاية الحفل تقوم بسبع دورات في الدار ، ثم تحمل العروس في موكب إلى بيت الزوجية . وفي هذه الليلة تتعشى العروس مع زوجها ديكاً حضرته أمها محشوا باللوز والزبيب⁽³⁶⁾ .

أما الطائفة اليهودية فالعريس يصوم هذا اليوم ولا يفطر إلا في المساء حيث يتناول مع عروسه وجبة حضرت خصيصاً متبلة جداً تتضمن حماماً محشواً باللوز والزبيب⁽³⁷⁾ .

وصبيحة اليوم التالي للعرس (الصبيحة) يعتبر يوماً هاماً في حياة العروسين . إذ يقدم لأهل العروسين والأصدقاء الثوب الملطخ بالدم الذي يبرهن على عذرية وطهارة العروس ، ليكون موضع افتخار الأهل بشرفها ، وتقدم الهدايا للعروسين من الأهل والأصدقاء ، وتستمر مراسم العرس في الأيام التالية ، يوم السبت نهار الربطة وفيه يشد العريس عروسه بالمضمة ويطأ قدمها ، ويوم الأربعاء نهار الحوت إلى اليوم السابع ويمثل يوم الخروج الأول للعروسين ، يذهبان فيه إلى أحد العيون مع جوقة من الأصدقاء ، وفي مساء هذا اليوم تقدم للعروسين سمكتان من الشابل أو أي نوع آخر من السمك ، ومن ينتهي قبل الآخر من تقطيع وفسخ سمكته هو الذي يفرض إرادته في تدبير شؤون المنزل ، ولا يخلو هذا العمل من المرح والتحايل⁽³⁸⁾ .

كانت تدور حول عيون المياه في منطقة تادلا خرافات يعتقدونها المسلمون واليهود : فمنها العيون التي تشفي المرأة العاقر ، أو التي تشفي من السعال ، أو التي اشتهرت بأنها مأوى الجن والعفاريت . فإذا مرض أحد أبناء الأسرة حملته أمه إلى العين ، وتضع في شقفة خرف حبات شعير وبيضة وتدبح هناك ديكاً ، وغالباً ما كان بعض طلبة البادية يكتبون للناس التماساً أو يرقونهم بحسب الاعتقاد ، وقد يصفون لهم حتى

تلك الذبائح أو الطقوس التي تلقوها من نفس الوسط دون حرج أو فحص لسندها من الوجهة الشرعية ، ويسود الاعتقاد بين هاته النسوة أن هؤلاء الطلبة يملكون قوة خفية تمكنهم من التحكم في هذه الأرواح . وكانت الأم في هذه القبائل تحذر أولادها من الأماكن المظلمة أو الموحشة كمجاري مياه الدور ، والمساجد ، وبرك المياه الراكدة ، والمغارات والغابات المقفرة ومنايع المياه وأماكن الأرحاء ، وتتقي السير في هذه الأماكن خصوصا في الليل وتحذر أبناءها وزوجها من مغبة ارتياد هذه الأماكن ، وتقلدهم مختلف الحروز التي عملها لها من يسمى بالفقيه (39) .

وإذا طال المرض بالمريض أو تكرر إجهاض المرأة ، أو مات أولادها بعد الولادة أو في سن مبكر ، أو في أي حالة من الحالات المؤلمة فإنها تعد وجبة تقدم للجن وتطلب عفوه ، وكانت هذه الوجبة عبارة عن الكسكس الذي يعد بقطع صغيرة من لحم ديك أسود ، ويقدم لكل أفراد العائلة في المساء عند غروب الشمس ، ويوضع منه طبق كبير تذهب به بعض النساء المختصات في السحر والرقى ، وتلقي به في مجاري مياه المدينة أو في المسالخ . وكانت النسوة تحذر المرأة النفساء من الأرواح الشريرة وتطالبها بالمحافظة على وليدها (40) .

وإذا اكترى يهودي دارا أو حانوتا ، فإنه لا يسكنه ولا يستعمله قبل أن تضع زوجته ليلة انتقاله له كوميث أربع من الحنة بمقدار مد في كل كومة في كل ركن ، وتشعل فوق كل كومة شمعة ، متوسلة للجن ساكن المكان الترحيب بالسكان الجدد ، ثم تغلق البيت بالمفتاح وتغادره وفي صباح الغد تعود ومعها ديك أسود وشخص لذبحه (شوحط = جزار) فيذبح الطائر وسط المكان سواء بيتا أو حانوتا ، وترش أركانه الأربعة بدم الديك وتردد : ها نحن ذبحنا لكم يا جيراننا الطيبين ساكني هذا المكان حتى تستقبلوا بالترحاب جيرانكم الجدد الذين يسكنون معكم المكان اليوم . ثم تقوم المرأة بإعداد الكسكس بلحم الديك المذبح ليتناول منه كل أفراد العائلة كما تعطي منه للجيران وترمي ببعض منه في البئر والمراحض (41) .

ومن الملاحظ أن طعام الكسكس المعد بديك أسود مذبح كان يوصف دائما في كل الحالات التي يراد فيها إبعاد أذى الجن أو إبطال السحر ، وكان يقدم في المساء ويأكل منه كل أفراد العائلة ، ويوصى بأخذ كمية منه تحملها النساء أو الرجال الذين يقومون

يعمل السحر أو فك الحروز ويقومون برمييه في مجاري مياه المدينة أو في المسالخ ، ويشترك في هذه العادات المسلمون واليهود ، بل إن اليهود كانوا يأكلون الكسكس المعد بالدجاج أو باللبن في أعيادهم الدينية مثل عيد الخيام (سُكُومت) ويوم الغفران الأكبر (كَبُور) وكذا في عيد الفصح ، كما كانوا يأكلون الجراد مسلوقا أو مشويا وكان يعتبر من الأطعمة المفضلة لديهم ، رغم تحريم رؤسائهم الدينيين عليهم تناول مثل هذه الأطعمة (42) .

والمرأة في تادلا مثل غيرها من قبائل المنطقة في الإحتفالات بالمناسبات الدينية خصوصا في رمضان وعاشوراء وعيد الأضحى وغيره من الأعياد والمواسم ، فالأم عندما يبلغ ابنها أربعة عشر عاما تجعله يصوم يوم السادس والعشرين من رمضان ، وفي هذا اليوم عندما يقترب مغيب الشمس تستدعي جاراتها إلى دارها صحبة بناتهن الصغار ، وتضع الأم على وجه طفلها الصائم خرقة بيضاء وتربطها إلى رأسه بضميرة من حرير أو ما يقوم مقامه ، وتضع العسل في صحفة وتأخذها بيد ، وتأخذ قوقعة حلزون فارغة باليد الأخرى ، وتصعد هي وابنتها إلى وسط سلم خشبي ، وتجلس والطفل على يمينها والجارات وبناتهن أسفل السلم وهن يزغردن فتنادي الأم على طفلة صغيرة وتصعد عندها وتعطيها صفة العسل وقوقعة الحلزون ، فتملأ القوقعة بالعسل وتعطيها للطفل الصائم الذي يأخذها بأسنانه الأمامية ثم تهبط الطفلة الأولى ، وتنادي الأم على طفلة ثانية وهكذا إلى أن تنتهي البنات ، فيأخذ الجميع في الزغردة وغناء أغاني تتمنى السعادة للطفل والأسرة (43) .

أما في عيد المولد النبوي فكانت الأم تحضر طعام الكسكس وعليه سبعة أنواع من الخضر ، ويخرج الرجال والأطفال وفي أيديهم دبابيس لمطاردة الكلاب وقتلها (44) .

وفي عيد عاشوراء تقام أسواق خاصة لهذا الإحتفال ، يتزود منها النساء بأنواع الملابس والفواكه ، وتجدد النساء (حروزهن) ويحرقن البخور ، ويضعن الحناء ، وفي هذه المناسبة تشعل النار في أكوام من الحطب أمام الدور ليلا ، وفي الغد يخرج الرجال ويشكلون عصابات تتأمر على بعض الأفراد وتلقي بهم في المياه الجارية في العيون أو السواقي وسط التهريج والصياح ، وبعد عودة الرجال من احتفالهم إلى دورهم ، تقوم النساء بغلاق الأبواب عليهم ويخرجن إلى عيون الماء أو مجاري الأنهار وليس عليهن رداء

سوى ملاحف ، فإذا وصلن إلى هناك نزعن هذه الملاحف ونزلن الماء وأخذن يتقاذفن به ، متصايحات ، فرحات (45) .

وهناك عيد العنصرة الذي يشارك الطائفتان في الاحتفال به فبعد تناول العشاء المكون من قديد الأضحية تشعل النيران أمام المنازل وعندما يرتفع لهيبها يتلاحق الرجال في قفزها ، وعندما تهدأ النار يأتي دور الأطفال والنساء في القفز ، وتقفز النساء ويأيديهن الأبناء الصغار ، وكانت الفتيات الراغبات في الزواج يحرصن على الاغتسال بماء سُخِّن على تلك النيران (46) .

ولا شك أن كثيرا من هذه العادات تشارك فيه العديد من المجتمعات القبلية وإن اختلفت اختلافات بسيطة بل إن معظم هذه العادات والتقاليد نجدها مستمرة إلى وقتنا الحالي .

والمرأة مغلوبة على أمرها كما هو الشأن في معظم المجتمعات البدوية القبلية ، حتى ولو تفوقت ثروتها على الرجل ، فكانوا يتحايلون في حرمانها من الميراث ، أو في الاستيلاء على ثروتها ، أو إجبارها على الزواج من شخص غير مناسب لها في السن لأسباب اقتصادية أو اجتماعية ، إذ الغالب في هذه المجتمعات ترجيح العرف على أحكام الإسلام .

ومن الملاحظات الغريبة أن الذين كتبوا عن المعتقدات في هذه البيئة أو غيرها ، نسبوا إلى المرأة فقط إيمانها بقدرة الأرواح الشريرة والجن على تسيير حياتها الأسرية والعائلية ، ويرى الرجل من هذا الاعتقاد ، مع أن الواقع يبين إيمان المرأة والرجل بنفس المعتقدات واشتراكهما في نفس التخوفات وإلا لما تحاشى الرجل الأماكن التي يقال عنها أنها مسكونة ، ولرفض حمل الحروزات والأحجية التي تعلقها له أمه أو زوجته .

الهوامش

- 1- البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ط . المثني ، بغداد ، ص . 193 .
- 2- البيهقي ، أخبار المهدي ، الرباط ، 1971 ، ص . 21 .
- 3- ن . م ، ص . 25 .
- 4- ن . م ، ص . 13 .
- 5- ن . م ، ص . 21 .
- 6- ن . م ، ص . 18 .
- 7- ن . م ، ص . 64 .
- 8- التادلي ، التشوف ، تحقيق أحمد التوفيق ، منشورات كلية الآداب ، الرباط ، 1984 ، ص . 408 .
- 9- ن . م ، رقم 26 ، ص . 135 .
- 10- البيهقي ، م . س ، ص . 85 .
- 11- ن . م ، والصفحة .
- 12- مجهول ، الاستبصار ، تحقيق د . سعد زغلول ، جامعة الاسكندرية ، 1958 ، ص . 200 .
- 13- التادلي ، م . س ، رقم 25 ، ص . 133 .
- 14- الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة د . محمد حجي ، د . الأخضر غزال ، دار المغرب ، 1983 ، ص . 176 .
- 15- ن . م ، ص . ص . 185 ، 183 ، 176 .
- 16- ن . م ، ص . ص . 185 ، 184 ، 176 .
- 17- ن . م ، ص . 252 .
- 18- حاييم الزعفراني ، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب ، ترجمة أحمد شحلان ، عبد الغني أبو العزم ، الدار البيضاء ، 1987 ، ص . 155 .
- 19- الوزان ، م . س ، ص . 189 .
- 20- التادلي ، م . س ، ص . 465 .
- 21- الإدريسي ، نزهة المشتاق ... ج . 1 ، ط . 1 ، عالم الكتب ، بيروت ، 1989 ، ص . 241 .
- 22- الوزان ، م . س ، ص . 183 .
- 23- ن . م ، الإدريسي ، م . س ، ص . 241 ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ط . ليدن ، 1967 ، ص . 91 .
- 24- ن . م ، ص . 241 .
- 25- أحمد التوفيق ، المجتمع المغربي ، منشورات كلية الآداب ، ط . 2 ، 1983 ، ص . 243 .
- 25م- ن . م ، ص . 244 .
- 26- حاييم الزعفراني ، م . س ، ص . 155 .
- 27- ن . م ، ص . ص . 80 ، 81 .
- 28- مصطفى عربوش ، من تاريخ منطقة إقليم تادلا ، ج . 1 ، مكتبة الطالب ، 1989 ، ص . 221 .
- 29- حاييم الزعفراني ، م . س ، ص . ص . 77 ، 79 .
- 30- ن . م ، ص . 80 ، عربوش ، م . س .

- 31- ن . م ، ص . ص . 82 ، 83 :
- 32- ن . م ، عربوش ، م . س ، ص . 222 .
- 33- حاييم الزعفراني ، م . س ، ص . 85 .
- 34- عربوش ، م . س ، ص . ص . 222 ، 224 .
- 35- حاييم الزعفراني ، م . س ، ص . 85 .
- 36- عربوش ، م . س .
- 37- حاييم الزعفراني ، م . س ، ص . 86 .
- 38- ن . م .
- 39- أحمد التوفيق ، م . س ، ص . 431 .
- 40- ن . م ، ص . 422 .
- 41- حاييم الزعفراني ، م . س ، ص . 141 .
- 42- حاييم الزعفراني ، ن . م ، ص . 223 .
- 43- أحمد التوفيق ، م . س ، ص . 430 .
- 44- ن . م ، ص . 431 .
- 45- ن . م .
- 46- ن . م ، ص . 432 ، حاييم الزعفراني ، م . س ، ص . 254 .

شعرية التصوف

قراءة في كتاب التشوف لابن الزيات (617 هـ)

علاء الغازي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الزباط -

مهاد

أ - الشعرية بين التراكم النقدي واستمرار الإشكال :

تمرد مصطلح " الشعرية " - في النقد الأدبي المعاصر - على الشعر ، وأحس بأنه قادر أن يغزو أجناسا أدبية أخرى كالقصة والرواية والمسرحية ، ولم يعد للشعر سلطة عليه إلا من حيث ارتباطها بجنسه في البحث عن " شعرية الشعر " مقابل " شعرية الرواية " و " شعرية القصة " وغيرها .

ولقد تراكمت دراسات معاصرة في مجال " الشعرية " خصوصا في الجانب النظري ، تراكما كبيرا ، ومع ذلك فإن ذلك لم يمهّد الحديث عن إشكال نظرية الشعرية لأن روافدها الإبداعية من أنواع الأدب في تطور نوعي مستمر .

ومادام الإشكال موضوعا للنقاش ، فإنني لن أكرر ما أنجزه المعاصرون عن " الشعرية " غريبا وعربيا ، قديما وحديثا ، لأن ذلك سيكون من باب الاستهلاك المعاد ، ولأن استمرار النقاش سيظل يسبب الدهشة والاستغراب للذين يصيبان الباحث وهو ينتهي من توظيف أقوى النظريات والأدوات الإجرائية في اختراق عالم النص ، ومع ذلك يظل النص الشعري مغلقا على سره الإبداعي ، ويظل الذوق والحس مقياسين انطباعيين لإدراك لذة النص .

ولقد حاولت اللسانيات ، بكل فعاليتها الإجرائية ، أن تقتحم عالم الشاعر عبر خطابه الشعري ، فنجحت ، لكن لذاتها لا لصالح الشعر ، والموضوعيون من اللسانيين اعترفوا على لسان جورج مونان ومن تقبله بتأثير لغة الشعر في المتلقي ، وعجز اللسانيات بكل مدارسها أن تحاصر حدود هذا التلقي ونقله ولو إلى حيز النظر ، فطالبوا بضرورة وضع علم لغة للشعر .

ومادام الأمر كذلك فإنني سأواجه عالم الشعرية ونصوصها وظواهرها في *التشوف* بقراءة شخصية يستبطن صاحبها المناهج المعاصرة والقديمة يونانية وإسلامية / عربية ، وغربية ، دون أن يتعامل بها مع شعرية يعترف الجميع أنها ماتزال جديدة على الدرس النقدي المعاصر ، كشعرية التصوف التي تدخل عندي ضمن أدب يشكل أسلوبا أو جنسا أدبيا رابعا بعد القرآن والشعر وحديث الرسول ، لأن الأمر يتعلق بخطاب إشكالي تتحكم فيه ثنائية السماء والأرض ، العقل والقلب ، المادة والروح ، العادي والخارق ، الله مصدر الصفاء المطلق والإلهام المطلق ، والإنسان الذي يعبده بهذا الإبداع الرابع ، الثاوي في سلوك القوم وإيمانهم وكراماتهم .

ب - *التشوف* ومنهج تناول الشعرية فيه :

كتاب *التشوف إلى رجال التصوف* ، وأخبار أبي العباس السبتي هو منسوب حقا إلى أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (617 هـ / 1220 م) ، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة تحقيق الأستاذ أحمد التوفيق⁽¹⁾ ، وهو تحقيق يستوجب الكثير من الثناء والتقدير لهذا المحقق العالم المتفتح المالك لأدواته وثقافته وصدقه في إنجاز هذا النص الذي انتظرته المكتبة المغربية سنوات بعد صدور أول تحقيق له بعناية المستشرق أدولف فور Adolphe Four سنة 1958 ، والذي كان في حاجة إلى باحث محقق في مستوى الأستاذ أحمد التوفيق الذي استعد للعمل بجمع نسخه سواء المعتمدة في التحقيق الأول ، أو التي توافرت له من مختلف الخزانات بل إن ما وقف عليه منها " في مختلف الخزائن العامة والخاصة كثيرة يطول تعدادها⁽²⁾ " ، فجاء التحقيق بعد هذا في مستوى جيد هيكلا وتخريجات ومتنا وفهارس ومقدمة ، أغتنى بالإحالة عليها في أمور كثيرة بهذه المداخلة .

وتأسيسا على ما سبق ، فإن مواجهة كتاب *التشوف* بحثا عن " شعرية التصوف " فيه تستدعي استبطان كثير من المناهج والنظريات والأدوات لتفكيك هذا النص والإبحار في أعماقه . وباختصار ، تستدعي هذه المواجهة المباشرة لموضوع (الشعرية) في الكتاب اعتماد التصور الآتي :

1) يشكل الكتاب مادة معرفية تصب في موضوع واحد مهما تعددت وتنوعت ،

أشكال " أدبيتها " التركيبية العامة تصب في مجال واحد تعانقه الروح والغاية والمقصدية ، ويكفي أن نتأمل النسق أو الأنساق التي تتحكم في مادة أو مواد الكتاب والتي تمثل محطات للتوقف بالنسبة لما يهمننا منها ، فالخروج من النثر إلى الشعر أو العكس ، والخروج من الترجمة إلى نص شعري أو العكس ، يتم في إطار وحدة أسلوبية في قوة واحدة ونسق واحد .

2) والتزاما بنصوص الشعرية - نثرا وشعرا - نتجاوز اللوحات التي تشكل جسورا بين مواد الكتاب حيث يحضر العقل ، إلى تلك التي يخرج فيها ابن الزيات من صحوه العقل إلى هيام القلب وآفاق الخيال ، حيث يدفع قلب المؤمن / ابن الزيات ، تلك اللغة التي يدمج فيها - في إطار نقلتها الفنية - الشعري في النثري ، والعكس ، محققا خطابا أدبيا صوفيا متميزا .

3) ومع تداخل الشعر والنثر في تركيب خطاب ثالث ، فإن المنهاج يفرض تناول شعرية النثر وشعرية الشعر ، والأخيرة تتطلب وقفة مع مادتها وطبيعتها وسياقها الوظيفي لا نعتقد أن الوقت يسمح باستيفائها حقها ، ولعل ذلك يتم في مكان آخر .

4) وعلينا أن نضع في حسابنا أن جدلية الإيمان والسلوك بناء على سنية موثقة تحكمها الشريعة ، هي القوة المتحركة في صناعة هذا الكتاب ، وهي الموجهة لشعرية التصوف فيه .

ج - التشوف موضوعا وقضايا ومنهاجا :

1) الموضوع والقضايا :

ويمكن تحقيق هذه الثلاثية في محور واحد من هذا المهاد ، نظرا لتداخل مادة الموضوع مع مضامين الكتاب والإثنان مع منهاجه : وهكذا فالموضوع ورؤوس القضايا تقوم بها المقدمة التي أغنتنا أيضا بمنهاج ابن الزيات في محاوره الخارجية الأولى . واللافت للنظر في هذه المقدمة هو اشتغالها على لوحة فنية سنقف عندها لحمولاتها الشعرية المتدفقة ، ضمن تحديد المؤلف لموضوع كتابه ومفهوم الولاية والكرامة كما قدمت المقدمة تاريخ الشروع في تصنيف *التشوف* وهو " شهر شعبان المبارك من سنة سبع عشرة وستمئة " ⁽³⁾ وسيثبت المؤلف تاريخ الانتهاء منه في نهاية الكتاب بقوله " وقد فرغت من

جمعه يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ذي القعدة من عام سبعة عشر وستمائة " (4) ، ولعل أخبار أبي العباس السبتي المستقلة بالوضع قد تم وضعها ضمن هذا التاريخ وإن تأخرت في الترتيب بالنسبة للنص المؤرخ للاتهاء من الكتاب (5) .

ويختتم المؤلف المقدمة بتحديد " سبعة أبواب لازمة هي كالمدخل إليه - أي الكتاب - :

الباب الأول : في صفة الأولياء .

الباب الثاني : في حفظ قلوبهم وترك النكير عليهم .

الباب الثالث : في محبتهم .

الباب الرابع : في زيارتهم ومجالستهم .

الباب الخامس : في حسن الثناء ووضع القبول لهم في الأول .

الباب السادس : في إثبات أحوالهم .

الباب السابع : في إثبات كراماتهم ، ويشتمل على جملة فصول " (6) هي خمسة وعشرون فصلا .

ومع هذه المقدمة الخصبة يأتي محور أو موضوع الأولياء الذي عاجلته الأبواب السبعة السابقة ، وهذا الموضوع هو جوهر المحور الثالث الذي صيغ الكتاب من أجله وهو : تراجم الأولياء (277 ترجمة) فالمحور الرابع والأخير وهو : أخبار أبي العباس السبتي الذي استقل بمادته ومنهاجه وقيمته .

2) المنهاج :

وإذا كان المنهاج هو التركيبة الجدلية لوجهي العملة : المنهج العلمي والمنهج الإجرائي ، فإن التشويق قد حقق هذه الثنائية عبر كل صفحاته ومحطاته ، وهكذا نقف على مكونات منهج ابن الزيات فيما يأتي :

أ) حصر المؤلف زمان كتابه ومكانه قبل أن يحصر أبوابه وفصوله .

ب) تأكيد " أنه لم يخل زمان من ولي . . . يحفظ الله به البلاد ويرحم به العباد " (7) وكذلك تأكيد وجود " طائفة عظيمة بأقصى المغرب أهملت أخبارهم وجهلت

آثارهم . . . " (8) وتوثيقه مكانية هؤلاء بالحديث الشريف " لا يزال أهل المغرب . . . " وتحديد مراكش بالذات برؤيا أبي زيد الدقاق النبي صلى الله عليه وسلم بمراكش ، وقصة السبعة رجال بها ، وإشارته إلى مراكش كانت بهدف " ماخفي عن كثير على من كان بحضرة مراكش من الصالحين ومن قدمها من أكابر الفضلاء " وقد قاده هذا إلى :

(ج) تأليف هذا الكتاب وقوله في ذلك : " رأيت أن أفرغ لذلك وقتا أجمع فيه طائفة أدون أخبارهم ، وأضيف إلى ذلك من كان من أعمالها ، وما اتصل بها من أهل هذه العدو الدنيا ، وربما ذكرت من قدم مراكش وما اتصل بها من غيرها " (9) ولا إنجاز ذلك على الوجه الأكمل :

(د) التزم التحري والدقة لقوله " وتحريت في نقل ذلك عن أهل الثقة والأمانة والخير والصالح والمستورين ما استطعت . وربما ذكرت بإسنادي ما نقلته من ذلك ، وربما سمعت الخبر من عدة طرق بألفاظ كثيرة ، فاعتمدت على أصحابها سندا ، وأقربها إلى الصواب لفظا ، ونبهت عند ذكر كل رجل ذكرته ، على مقامه المعلوم له " (10) وهذه لعمرى هي أسس البحث العلمي الصحيح .

(هـ) ولقد أدرك قيمة المصطلح في البحث والمنهاج ، وهو يتأمل إشكال التداخل بين مصطلحات التصوف ، فأزال كل التباس بأن قرر " أن اسم الصوفي يصدق على جميعهم ، بوضع هذا الاسم عند المحققين ، فإن كثيرا من الناس لم يحصلوا حقيقة اشتقاقه ، والذي يعول عليه أن الصوفي هو المنقطع بهمته إلى الله تعالى ، المتصرف في طاعته ، وهو في الأصل منسوب إلى " صوفة " وهم قوم من العرب . والمتصوف هو المدخل نفسه في الصوفية " (11) .

وهذه الدقة في التمييز كانت بسبب ما أسماه بتباين المراتب ، مما استدعى منه ضرورة الفصل بين أهل البدع لما " حصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا وعبادا " (12) ، وبين أهل السنة - مطلبه في التشوف - الذين قال عنهم " فانفرد أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، والحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف . واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة " (13) .

(و) وميز بين أهل التصوف وعلوم التصوف ، فجرد الكتاب من تلك العلوم

واقترع على أخيار الرجال والنساء ليقينه أن إحياء الغزالي " هو المنتهى في ذلك " (14) مقتصرًا على الأموات دون الأحياء .

ز) ولتأكيد مشروعية تأليف *التشوف* أثبت أن " كرامات الأولياء جائزة عقلا ومعلومة قطعاً " (15) و " هي لأهل اليقين دون غيرهم . . . واليقين زوال الشك " (16) موثقًا ذلك بأكثر من حديث وخبر قائلًا " ولو قصدت استيعاب ما صدر منها عن الصدر الأول لكان كتابًا مستقلًا . . . " (17)

ح) إن منهج الإيجاز قد طبع أسلوب الكتاب ، لكن استثناء أخبار أبي العباس السبتي من ذلك كان بسبب " ما وقع فيه من الاختلاف " (18) لأن " شأنه من عجائب الزمان " (19) ، ومع ذلك فقد أشار إلى أن " أخباره كثيرة عجيبة ، ولو استقصيتها لطال الكتاب " (20) وهو اعتذار منهجي .

ط) وأخيرًا فكما كانت مشروعية تأليف الكتاب نزولًا عند الأسباب السابقة ، كذلك يأتي الهدف ليحتضن بداية ووسط ونهاية هذا الكتاب بإعلان الهدف من ذكر تلك الأخبار وهو " تقوية قلب سالك طريق الآخرة " (21) وهو عنصر المقصدية في الكتاب .

هذه هي الصورة التفصيلية لمنهاج ابن الزيات في *التشوف* قادتنا الضرورة إلى عرضها ، لأن " الشعرية " - نثرًا وشعرًا وتركيبًا - ستتموحمولة التصوف فيها ، داخل فضاءها متوسلة بمصطلحاتها وأدواتها وثقافتها صاحبها في نقل قلب ابن الزيات وعقله وهو يبدع أو يضمن أو يوظف ليخلق خطابًا ارتأينا أن تكون بعض نصوصه مادة هذه المداخلة ، فماذا عن شعرية التصوف داخل نثر وشعر *التشوف* ؟ ماذا عن الخصائص المعجمية والموسيقية / الإيقاعية ، والتركيبية النحوية ، والأسلوبية البلاغية التي تلاحمت في التعبير عن العبادة باللغة الفنية الصوفية ؟

شعرية التصوف

أ) تعارضات الشعرية بين الشعر والنثر .

وأعني بالتعارض هنا - رغم ثنائية التساوي بين الشعر والنثر في العنوان - وجود الشعرية في أسلوب ابن الزيات النثري الفني سواء استقلت لوحاته النثرية بنفسها ،

أو تضمنت نصوصا شعرية يمكن النظر إلى شعريتها في مستويين : مستوى ذاتي يرتبط بجنسية الشعر في صناعته وخصوصيته ، ومستوى وظيفي تضميني يرتبط بإدماج النصوص الشعرية ضمن سياق نشري تركيبى يسرد مرة جزءا منه حيث يخرج المؤلف من النثر إلى الشعر ، أو العكس دون فصل بين التركيب النثري المقصود بداية ونهاية ، وبين التفتة أو المقطوعة أو القصيدة التي تحتل مكانها كجزء من ذلك الخطاب العام ، وفي جميع الحالات فإن الشعرية تظل هاجس ابن الزيات بصناعتها وخيالها وجمالها الإبداعي الممتاز نثرا خاصا أو شعرا خاصا أو تركيبيا عاما .

ولم يكن لابن الزيات أن يتحقق له ذلك لولا ثقافته العلمية والدينية واللغوية والبلاغية والأدبية بعامة التي تلاحمت في بناء أسلوبه ونجحت في إغنائه بأكثر من خاصية فنية ارتقت إلى مستوى الشعرية وهي تتحرك في مجال التصوف لغة ومصطلحا ودلالة ، بل لم تكن تلك الثقافة على عمقها وموسوعيتها وأدبيتها لتنجح في ذلك لولا ذلك الصفاء الروحي الذي كانت مسكونة به كل كلمة وجملة وعبرة وفقرة ونص شعري في خطاب التشوف الأدبي .

والتعارض الشعري كان مشعرا منذ عنوان الكتاب بالتحرك في عنصري الزمان - منذ الرسول حتى عصره - والمكان - حيثما كان الإسلام وكان الولي وحدثت الكرامة وتم ذلك المحضور الإلهي في السلوك والعقيدة والتفاني في حب الله ورسوله والالتزام بأوامره ونواهيه . وكأن الصفة الأساس في خطاب ابن الزيات هي تحطيم الحواجز بين الخالق والمخلوق دوغا اعتبار للزمان والمكان والإنسان في وضعه الاجتماعي الخاص بهذه البيئة أو تلك . من أجل ذلك نجحت تلك اللوحات التي سنجعلها مادة لهذا البحث متوسلين بإجرائية منهجية ثلاثية تتحرك بين : شعرية النثر ، وشعرية الشعر ، وشعرية التركيب كغاية من دمج جنسي النثر والشعر في خطاب تركيبى عام يشكل أسلوب ابن الزيات الفني ، مع غزو علمي بالقرآن والحديث والخبر وكل ما يقود إليه السياق ، شريطة أن يؤسس أو يوثق أسلوبه بذلك ، لا أن يدخل ذلك كعنصر أساس ومقصود ، وإلا احتلت الساحة كل لوحات الكتاب العلمية التاريخية التي لا تهمنا لوحاتها لأن العناية ستنصب أساسا على كل لوحة ، خصوصا ، ما في المقدمة ، تحمل من خصائص الإبداع ما يجعلها تنضح بأكثر من صفات الشعرية بالمفهوم الذي يجعلها فوق جنس الشعر ، بل وتصبح

جنسية ثانية ، بجانب جنسيات أجناس أدبية أخرى كشعرية الرواية ، وشعرية القصة وشعرية المسرحية وغير ذلك .

ب) شعرية النثر .

الشعرية في الشعر محكومة بصناعته ، والشعرية في النثر محكومة بوجود جوهر الشعر فيه داخل صناعة النثر ، من هنا يدخل ضمن هذا التصور لوحات كتبها جبران وميخائيل نعيمة وفؤاد سليمان والرافعي ومي زيادة ومحمد الصباغ والتستائوتي في تقديمه لبعض قصائده وكثير من الأوراد والأدعية التي أبدعها المتصوفة كرابعة العدوية ومحبي الدين بن العربي وعبد القادر العلمي وأمثالهم ، إن أسلوب هؤلاء يشترك مع الشعر في كل صفاته الإبداعية دون التقيد بصناعته ، فمأذا عن نثر ابن الزيات الداخل بالقوة والفعل في هذه المدرسة الصوفية التي يشكو أديبها من عناية المحدثين بها ، إما عجزا منهم عن مواجهة خطابهم بما يملكون ، وإما لقلة عناية لأنهم لم يقفوا بعد على خصوصية هذا الأسلوب الرابع كما سنرى .

إن أول ما يثير تعجبنا واستغرابنا ودهشتنا في لوحات هذا الفن في أسلوب *التشوف* هو تلك اللوحة البديعة التي تصدرت الكتاب واحتلت عمق مقدمته وحملت روح ابن الزيات وقلبه وعكست بعمق إيمانه وصفاءه ، وتوهج قلبه وعقله معا ، ولم يكن خيال تلك اللوحة وشلال كلماتها المتدفق لينسيه أن يؤسس ذلك على أرضية علمية توثيقية - وهو صفة لازمة على طول صفحات الكتاب - بالخبر والإخبار بالقرآن والحديث وأقوال بعض الأولياء ، لقد كان ذلك أساسيا قبل أن ينساق قلم ابن الزيات مع خياله الروحي المؤمن في لغة وصور متلاحقة ، " إن الفائدة في ذكر أولياء الله تعالى تقوية قلب سالك طريق الآخرة " ⁽²²⁾ لذلك حصن عمله كمتصوف سني بكل ما يجنبه الزلل في الحكم والشطط في القول والغلو في الوصف والخيال . ويحسن بنا أن نضع اللوحة كاملة أمام عين القارئ وعقله وقلبه ، ليتتبع بعينه شكل الجملة والعبارة والرموز والإشارات الموازية لحركة مبنائها ومعناها (فاصلة ، نقطة ، تعجب ، اعتراض ، استفهام . . .) ويعقل معانيها وصدقها وصفاءها ومشروعيتها بوعيه وعقله ، ويستمتع ويمتع إحساسه وقلبه وعواطفه بخيالها ودقة صنعتها وحركات صورها وشطحات وتدفق صورها ، وجمال إيقاعها ، فبالعين والعقل والقلب ثم بالإيمان والثقافة يستطيع استلهاهم ما

في النص من رقة وجمال وأسرار الإبداع الصوفي الذي يجمع في شعرته بين الفن والعبادة عبر اللغة .

وفيما يلي النص النموذج نقتطعه من سياقه بالمقدمة واضعين إياه في سياقه الأسلوبي والمعرفي المطلوب : فقد أنهى ابن الزيات حججه على مشروعية الولاية والكرامة من القرآن والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين بقول سفيان الثوري الذي نسوقه مع النص كما يلي :

" . . . إن لم نكن من الصالحين ، فإننا نحب الصالحين ،

وصفنا طريق الصالحين وفعلهم وما حظنا إلا التزين بالوصف

أتري خلت الأرض منهم أم لا تراهم ؟ كلا ! لو صفت أعمالنا عرفناهم ، أما الأحياء منهم فالقطر يجري من جراحهم ، وأما أمواتهم فمعنا من الأخبار معناهم ، وإن كان لك انتقاد ، عرفتهم بسيماهم ، لباسهم ما ستر ، وطعامهم ما حضر ، ذلوا ليرضى ، فإذا رأيت القوم ، قلت : مرضى ، لله درهم من أقوام ! قطعوا أعمارهم في طلبه ، وأتعبوا أعضاءهم في فرضه وواجبه ، وقطعوا قواطعهم لأجل التعلق به ، وحلموا عن الجهال خوفا من غضبه ، فقدموا القيامة بقلوب تشتاقه ، وأقدام تسعى في طلبه ، فإذا مروا على النار قالت: خير يا مؤمن ، قد أطفأ نورك لهبي ، وإذا رأيت النار من جهر بالخير وما خافت خافت ، وإذا شهدت نفوسا طالما ضاقت ضاقت ، وإذا عاينت أجساما باينت الحرام وعافت عافت ، هلا تشبهت يا هذا بهؤلاء القوم ؟ هلا تنبهت من ذلك الرقاد والنوم ؟

ومن العجائب أن تكون كما أرى وتظن نفسك فائزا مقبولا

كيف السبيل إلى نعيم آجل في حق من لم يستقم في الأولى

قَوَاهُ لِقَوْمٍ هَجَرُوا لَذِيذَ الْمَنَامِ ، وَأَنصَبُوا لِمَا نَصَبُوا الْأَقْدَامَ ، وَانْتَصَبُوا لِلنَّصَبِ فِي الظَّلَامِ ، يَطْلُبُونَ نَصِيبًا مِنَ الْأَنْعَامِ ، إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ سَهَرُوا ، وَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ اعْتَبَرُوا ، وَإِذَا نَظَرُوا فِي عَيْبِهِمْ اسْتَغْفَرُوا ، وَإِذَا تَفَكَّرُوا فِي ذُنُوبِهِمْ بَكَوْا وَانكسروا وأقبلوا بالقلوب على مقلبيها ، وأقاموا النفوس بين يدي مؤدبها ، وسلموها إذ باعوها إلى صاحبها ، وأحضروا الآخرة فنظروا إلى غائبها ، وسهروا الليالي كأنهم وكلوا برعي كواكبها ، ونادوا أنفسهم : صبرا على نار البلاء لمن كواك بها ، ومقتوا الدنيا فما مالوا إلى ملاعبها ،

واشتاقوا إلى لقاء ربهم فاستطالوا مدة المقام بها

يا طالب الدنيا وما تبقى له ألهاك مغشوش النصيحة أفك
دار يريق دم المصدق زورها بصوارم الآفات وهي تضاحك
... هيهات في أهل الحقيقة قلة صعب الطريق فقل فيه السالك (23)

هيهات ! لا تنال الراحة بالراحة ، ومعالي الأمور لا تنال بالراحة ، فمن زرع
حصد ، ومن جد وجد ، فلله قوم شغلهم شغلهم بتحصيل زادهم عن أهلهم وأولادهم ،
ومال بهم عن المال ذكر المآل في معادهم ، وصاحت بهم الدنيا فما أجابوا شغلا بمرادهم ،
وتوسدوا أحزانهم بدلا من وسادهم ، واتخذوا الليل مسلكا إلى جدهم واجتهادهم ، وحرسوا
جوارحهم في هذه الدار عن غيهم وفسادهم ، أقبلت قلوبهم تراعي حق الحق ، فذهلت بذلك
عن مناجاة الخلق ، فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى ، والقلوب في رياض الملكوت ترعى ،
بان لهم الحق فصاروا والهين ، وناجاهم الفكر فعادوا متحيرين ، وجن عليهم الليل فباتوا
ساهرين ، فناداهم منادي الصلاح : حي على الفلاح ! فقاموا متهجدين ، وهبت عليهم
ريح السحر فجالوا مستغفرين ، وقطعوا بيداء المجاهدة فأصبحوا واصلين ، فلما رجعوا
وقت الفجر بالأجر نادى منادي الهجر : يا خيبة النائمين ! والله لا أدرك المفاخر ، من كان
في الصف الآخر ، سلع المجد كاسدة ، وكأن قد غلت ، ومراعي الفضل قريبة ، وكأن قد
علت ، فيا منازل الأحباب أين ساكنوك ؟ ويا بقاع الإخلاص أين قاطنوك ؟ ويا مواطن
الأبرار أين عامروك ؟ ويا مواضع التهجد أين زائررك ؟ خلت والله الديار وباد القوم ،
وارتحل أرباب السهر وبقي أهل النوم ، واستبدل الزمان أكلي الشهوات بأهل الصوم ، لله
در أعظمهم ! كمن تعبت في طاعة ! وذهبت والله أوصابهم وريحت البضاعة ، وبقي الثناء
عليهم إلى قيام الساعة ، لو رأيتمهم في الظلام قد لاح نورهم ، وفي مناجاة الملك العلام
قد تم سرورهم ، فإذا تذكروا ذنبا قد مضى ، ضاقت صدورهم ، وتقطعت قلوبهم ، أسفا
على ما حملت ظهورهم ، ويعثوا برسالة الندم ، والدمع ، جال الفكر في قلوبهم ، فألاح
صوابهم ، وتذكروا من الإله فمحا الذكر إعجابهم ، وحاسبوا أنفسهم فخففوا حسابهم ،
وهادوا للمخافة فأضحت دموعهم شرابهم ، وترغوا بالقرآن فكان مزمارهم وربابهم ،
وكلفوا بطاعة الله فألغوا محرابهم ، وخدموه مبتذلين في خدمته شبابهم ، فيا حسنهم وريح
الأسفار قد حركت أثوابهم ، وحملت قصص غصصهم ثم ردت جوابهم :

نسيم الصبا إن زرت أرض أحبتي فخصهم عني بكل سلام
ويلغهم أني رهين صباية وأن غرامي فوق كل غرام
وأنني ليكفيني طروق خيالهم لو أن جفوني تمتعت بمنام
ولست أبالي بالجنان ولا لظى إذا كان في تلك الديار مقامي
وقد صمت عن لذات نفسي كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي⁽²⁴⁾

وبهذه المقطوعة ينهي ابن الزيات لوحته الفنية الرائعة ليدخل أسلوباً آخر هو قوله : " وقد شرعت في تصنيف . . . " ⁽²⁵⁾

وهو بذلك يعود من السماء إلى الأرض ، من رحلة الوعي بالملكوت الأعلى إلى الوعي بالأرض ، لقد كان مرفوعاً - كما يقولون - وهو يمارس (عبادة الله) بتلك اللغة الشعرية الحاملة بعد أن أسسها على (سنية) دعمها بالقرآن والسنة وبأقوال الفضلاء ، فماذا نجد - إذن - في هذا النص المتمتع الذي نكتفي به - من حيث التطبيق - نموذجاً عن شعرية النثر ؟ ماذا عن بنياته الدلالية والأسلوبية بكل شبكاتها ووحداتها وبنياتها الخاصة ؟

١) شعرية البنية الدلالية :

يؤمن ابن الزيات - ويمارس - بضرورة اختراق الحواجز بين المرئي واللامرئي ، بين الوجود المادي والوجود الروحي ، بين السلوك المباشر وغير المباشر الذي يستمدّه من (القوم) ، إن للفائدة عنده معنى أوسع ، إنها - كما كررنا مراراً - : " تقوية قلب سالك طريق الآخرة " ، هذا المنطلق هو البنية المركزية / النواة التي اشتغلت عليها كل البنى الأسلوبية الأخرى واستمدت منها قوتها وطبيعتها بل ووجودها بالفعل ، إن اللغة / العبادة هي التي تطبع دلالة هذا النص وتسيطر على حروفه وكلماته وجملته ورموزه وإشاراته ، ومعنى ذلك أن الاستنجد بالقرآن والحديث وكلام الفضلاء ، لم يكن اعتباطياً قاده التوثيق المعرفي إليه فقط ، بل هو أس الروح / العبادة التي تسيطر على هذا النص وأمثاله وتوجه دلالته من الأرض إلى السماء ، من المخلوق إلى الخالق ، من المذنب إلى الغفار ، من الإنسان إلى الله تعالى ، إنه استنجد مقصود لذاته ولوظيفته في السياق اللغوي / التركيبي / الأسلوبي / المعرفي ، وذلك من أجل تمقص المرجعية في

تحقيق أصول الإيمان والصدق والصفاء واليقين ، إن ابن الزيات لا يناجي القوم إلا كوسيلة لكنها وسيلة تخترق الذات المتوسل بها لمقصدية أسمى وأعلى ، إنه يناجي ربه فهو هم وهم هو . من هنا تتأكد شعرية المعنى في هذه البنية الدلالية الكبرى وقوتها ثم شعرية الدوائر التي وجهت تلك الوظائف لصالح تعميق البنى المشكلة لبناء هذا النص ، فعبر تلك الجمل والرموز والإشارات والصور المضغوطة حيناً والمفتوحة على عالم خيالي أرحب أحياناً أخرى متحركة بين المسجوع والمرسل في تناغم ساحر ، يتحقق لنا إدراك هذه الدلالة الكبرى ودوائرها الصغرى وهي دلالة ترضع من ينابيع أصولية سنية بعيدة عن الشعوذة والاتكالية المقنونة ، والجنوح في أسلوبها وصورها الشعرية البديعة إلى الخيال الخلاق العبقري ، لا يطعن في تلك الأصول . إنه ليس تهويمات كما قد يتأولها قارئ غير مسكون بإيمان ابن الزيات وبقينه ، ولكنه تعبير عن الحد الفاصل بين التصوف المقبول والمطلوب ، وبين الدروشة المرفوضة ، من هنا نتحسس ما أسميناه بشعرية المعنى في ذاتها قبل تقمص اللغة لها والدفع بها إلى عالم أسمى وأعمق جمالاً وإبداعاً عبر جهازها التركيبي البلاغي والإيقاعي في معجمية تولد من ذاتها ومادتها ، تشكيلات دلت عليها بعمق خصائص النص ، وحلقات أسلوبه الفني الممتاز .

لا أريد أن أفكك النص إلى دوائره المعنوية بحثاً عن الحلقات التي شكلت المعنى الأكبر أو البنية الدلالية الكبرى ، فإن البنيات الأسلوبية ستقدم ذلك ، كل من موقعها ، لكنني أؤكد أننا أمام منشئ مبدع لعالم التصوف ، اتخذ منه ومن رجاله وحالاتهم وكراماتهم وسلوكهم مصدر إلهام كان في مستوى الاستجابة له موهبة وصناعة وإيماناً إن هذا الاختراق المدهش بين الأرض والسماء عبر قلب ابن الزيات وعقله ولغته هو الذي تحكم في حلقات معاني النص ومستوياتها ، وهو ما تنهض به البنى الآتية .

2) شعرية البنية اللغوية / أو المستوى المعجمي بين الوضع والوظيفة الصوفية :

إن للبنية المعجمية في لغة ابن الزيات وخطابه التركيبي مستويين يتحكما هرمياً في مستويات معجمية أدنى ، يحققها التحليل الموسع لمن أراد أن يبحر في أعماق هذا النص :

أولاً : المستوى الوضعي لمعجم ابن الزيات ، ولست أريد بهذا مستوى المواضعة

الأولي عند اللغويين ، وإنما أريد بعد ذلك طبعا وبدون قطيعة معه ، مواضعة المتصوفة أولا وابن الزيات ثانيا ، في انتقاء الكلمة والعبارة والسياق الصوفي الذي تشكو مكتبتنا وثقافتنا بعامة من غياب معجم صوفي متميز له بعد أن تطورت مادة هذا المعجم على أكثر من مستوى ، إن ابن الزيات يشعرنا بتوظيف مادة المعجم في مستواها اللغوي والبلاغي ، توظيفا يشكل أسلوبا رابعا .

لقد صفت لغة الكاتب صفاء مغريا بالبحث ، كما صفا قلبه المؤمن وعقله المثقف وإمكانياته الثقافية والموهبية ، فلا حوشي ولا غريب ، ولا تصنع ولا تكلف ، وإنما تدفق وصناعة لبناء معجم آخر .

ومع ذلك فالبنية المعجمية في صناعة ابن الزيات سواء في طرفها الوصفي أو الوظيفي ، وسواء في منطلقها وسياقها وغايتها ، وهي منطلقات وغايات وسياق تتحرك في مجال الصوفية قصدا وصناعة ونتائج ، هذه البنية لم تكن لتنتج لولا وجود بنى أسلوبية وتركيبية أخرى تشترك مع بنيتي الدلالة والمعجم في شعرية تسكنها وتؤطرها وتقرس مظاهرها وضوابطها الإبداعية التي تتميز بها عن بنى الخطاب البشري العادي ، لكنها لا ترتقي إلى مستوى الخطاب الإلهي المعجز ولا خطاب صاحب جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم ، من أجل هذه المنزلة بين المنزلتين سميت أسلوبها بالأسلوب الرابع ، ومن أجل ذلك نثلاث ب :

3) شعرية البنية التركيبية / البلاغية / الإيقاعية :

ولاشتراك البنيتين : التركيبية والبلاغية عندي هدف وواقع وصناعة تركيبية مقصودة في أدب المتصوفة وبالتالي في طبيعة الشعرية عندهم . لقد حصن ابن الزيات ثنائية هذه البنية بجهاز نحوي متحرك في إمكانيات النحاة ليتمكن بذلك من صياغة صناعة متميزة لخطابه ، فيها من فلسفة النحاة وجماليات البلاغيين ما جعلها تخلق شعرية اعتمدت جرس الألفاظ ورشاقة الكلمات وإخضاع الجمل في قصرها وطولها للخاطرة والفكرة وسياق المعنى مستغلا إشارات ورموزا تعجبية واستفهامية واعتراضية وغيرها ، ولقد كان مدار هذه الشبكة العناية بالجملة من أجل ذلك بحثنا في :

شكل الجملة التي تطول عند ابن الزيات وتقتصر حسب حملتها الدلالية

المكتشفة ، فقد نتأمل فقرة كاملة في وحدتها الدلالية فنجدها جملة كبرى لمثانتها وتلاحم جزئياتها ، ونجدها بذلك قد حققت ما أسماه توماس إليوت بالاستعارة الكبرى في صورتها البلاغية وإيقاعها الموسيقي ، وبالمقابل فقد نتأمل كلمة أو جملة صغيرة فنجدها كبرى في ثنائية التركيب والبلاغة كذلك نزولا عند طبيعة التركيب وسلطة السياق وشعرية الصناعة بالتقديم والتأخير والاستفهام والتعجب والاعتراض وغير ذلك من الأدوات التي أحسن ابن الزيات - وهو المتمكن الموهوب - توظيفها في هذا النص :

تأمل الفقرة التي يبتدئها بقوله : " . . . أترى خلت الأرض منهم . . . " إلى قوله : " فواها لقوم هجروا لذيد المنام . . . " نجد أنها بدورها تدخل ضمن جملة أكبر ، هي الفقرة السابقة عليها ، فهما إذن فقرتان / جملتان تشكلان جملة أكبر في ذلك التلاحم الأسلوبي المعجز ، وتأمل كلمة ما من الكلمات / الجمل التي قد تستقل بتركيبها وبالتالي بدلالاتها وسياقها الشعري ، تأمل قوله " كلا " أو " هيهات " أو " فواها . . . " أو غيرها ، وانظر إليها في سياقها التركيبي العام ، قبل نظرك في ذاتها ، تدرك أن تركيب ابن الزيات تتحكم فيه - بجانب موهبته الأدبية الشعرية ، وثقافته اللغوية / البلاغية / الأدبية - قوة خفية توجه الصياغة في وحداتها اللغوية ونظامها النحوي والبلاغي معا ، توجيهها ينضج بقوة الخلق والإبداع ويحققها ، وبجانب هذه القوة تتحكم في تركيب ابن الزيات - نحويا وبلاغيا معا - ثنائية صناعية أخرى هي ثنائية السجع والمرسل من الأساليب ، وهو تتحكم عفوي غير صناعي مقصود لذات الصناعة ، إن السجع والمرسل يتجاوران ويتحاوران ، كما أنهما يستبدلان الرتبة وضعا ودلالة وصياغة ، وكل ذلك يتم في انسجام ، مستعينا باللغة / الإشارة ، واللغة المكتوبة ، عندما يقف ابن الزيات ليتساءل أو يستفهم أو يتعجب فينتج تخبيلا شعريا تغزوه قوافي داخلية مسجوعة تأتي عفوا ، فكلمات مثل " هيهات " وقبلها " كلا " بعد تساؤله الشعري العميق " أترى خلت الأرض منهم أم لا تراهم ؟ " . هذه التركيبية تشعرنا فيها " هيهات " - مثلا - الحاملة لتعجب موحى بينيتين : عميقة لمسنا أبعادها ومؤشرات الدلالية الدفينة في النثر والشعر المضمن قبله وأثناءه ، وسطحية صناعية بدیعة قدمتها لغة النص وأسلوبه ، إن هذه الكلمة العادية في ذاتها والقوية في وضعها وسياقها ومجالها ، أسست لسجعتين دالتين اعتمدتا حرف (الحاء) في كلمة / سجمة (الراحة) ضمن عبارة " تنال الراحة بالراحة ومعاني الأمور لا تنال بالراحة " / و (الدال) في كلمتين من عبارة الحكمة

المشهورة " من زرع حصد ومن جد وجد " ، وقوله : " كلا " كان جوابا عن سؤال طالت كلماته وتطاولت دلالاته وذلك في أكثر من عبارة قبل هذه العبارة ويعدها ، تنظر نماذجها في سياق الفقرة ، لكن هذا الجواب كان إرهادا لتقرير شعري ، داخل رحم شعرية النثر ، من ذلك قوله : " لوصفت أعمالنا عرفناهم . . . " وهي سبعة تتواصل عبر ثلاث وقفات إيقاعية / شعرية جيدة هي (عرفناهم + جراهم + معناهم) وهي وقفات موسيقية تحكمت فيها كلمة داخلية بعد (كلا) هي (أما) بعد (لو) ، أما (لو) فقد ولدت (أما) مرتين ، وأعطت الحركات / الوقفات / السجعات الثلاث ، وأما (أما) فقد ولدت سجتين أضيفتا إلى الأولى (لو) فتناغمت بذلك السجعات الثلاث المتناغمة لا تشعر بتصنع الصناعيين ولا بتسيب المنشئين ، وإنما بتدفق إيقاعي جميل تلقائي ومحكم .

أما تراوح المرسل والمسجوع معا في ألوان أخرى بعد هذه الإشارة ، فنجد نموذجه / صورته في قوله : " لله درهم من أقوام . . . " التي سيبنى عليها سجعات هي قوافي داخلية انتهى إليها ذلك التركيب المحكم في نسق بلاغي شعري ، إنها قوافي أو تراكيب تنتهي بحرفي (الباء والهاء) وهما في قوة رويين من مستوى إيقاعي واحد كما يترجمه (طلبه - واجبه - به - غضبه) ، لكن ابن الزيات يبني على مقطع مرسل ورد ضمن سيطرة السجع على الرباعية السابقة ، قافية تكررت في (إطاء) مقبول هو قوله مرسلا " فقدموا القيامة بقلوب تشتاقه - ولا مقابل لسجعتها - وأقدام تسعى في طلبه . . . " . ولو سرنا مع هذا النمط من التحليل وما يفرزه من مظاهر تركيبية / بلاغية / إيقاعية معا تنضح بالشعرية وترجمها وتحققها ، لأعيانا القول ، لذلك نقف لنؤكد أن شعرية ابن الزيات في نثره تقوم على جملة خصائص منها :

(1) تحرك الجمل بين السجع والمرسل بصناعية مطبوعة لامصنوعة .

(2) اعتماد اللغة المكتوبة واللغة المرموزة ، وهي طريقة من صناعة الشعراء ، كشفت عن أسلوب مدهش ومتميز .

(3) مع اعتماد إمكانيات النحاة والبلاغيين نلاحظ أيضا داخل الجمل القصيرة أو الطويلة مكانة الضمائر في توجيه الدلالة .

4) طبيعة المعجم في لغة ابن الزيات لم تكتف بالثابت اللغوي فقط ، بل حاولت خلق الجديد داخل النظام اللغوي الصوفي .

5) التزام موسيقى الحرف قبل الكلمة والتركيب ، فجرس الألفاظ ، وحركتا السجع والمرسل ، وركوب لزوم ما لا يلزم ، كان من أدوات صناعته .

6) تحرك الصورة بين الواقع والخيال بين الثابت والمتغير في الكلمة والمصطلح ، ساهم في خلق صناعة تخيلية شعرية فريدة .

7) اختراق الحواجز بين النحو والبلاغة في التركيب ، وبين المعجم والتركيب في الدلالة ، ثم بين النثر والشعر في التضمين ، كان آية أخرى .

8) تجنب التصنع باسم الصناعة ، والالتزام بالمعروف من أدوات صناعة النثر ولو في ثنائية النثر المرسل والمسجوع ساهم في خلق صناعة فنية صوفية جعلت من ابن الزيات عندي مبدعا له مدرسته وصناعته وإبداعه : - أما المدرسة فيندرج فيها ضمن كبار المتصوفة الشعراء والأدباء ، وله فيها - كما يعكس التشوف - خصوصيته ، وأما الصناعة فقد قدمنا وجها منها عن شعرية النثر في هذا السفر الذي لا تدعي هذه المداخله أنها نجحت في استكناه عبقرية صاحبه فيه روحا وأسلوبا ومنهاجا وأما إبداعه فهو ما حاولت وتحاول - بالنسبة لما بقي من مباحث الشعرية في الشعر والتركيب - تقريبه وملازمته وصفا وتحليلا واستبطانا ، هذه الدراسة التي تمنيت بها أن أبحر في شعرية التشوف نشرا ويعدده شعرا . إن ذويان ابن الزيات بهذه اللغة / العبادة ، في الملكوت الأعلى من خلال عباده المخلصين الذين أحبههم ، هذا الذويان ينسجم وروح الإسلام قرآنا وحديثا وشريعة . " خرج عمر رضي الله عنه إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا معاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما يبكيك ، يا معاذ ؟ قال : يبكيني شيء سمعته من صاحب هذا القبر : أن يسيرا من الرياء شرك ، وأن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، وأن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء ، الذين إذا غابوا ، لم يفتقدوا ، وإذا حضروا ، لم يدعوا ولم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة " (26) . من هذا الحب صُنِعَ كتاب التشوف ، ومن روحه وصفائه وإيمان صاحبه تم بناء هذا النص وما يوازيه صناعة وموضوعا وشعرية خيالية مؤمنة ، ومن مداده وروحه تلاحمت سدى ولحمة تلك

البنيات في معجمها وتركيبها ونحوها وبلاغتها وإيقاعها الموسيقي الداخلي الشعري المتميز ، وهو بذلك حقق لي شعرية نثرية اكتسحت الكثير من خصائص الشعر وارتفعت بصناعتها - غير الشعرية - فوق جنسه ، وتميزت بصناعة وإبداع عز نظيرهما في تراثنا الصوفي .

ج) شعرية الشعربين الاستقلال والتركيب النثري .

أكدنا فيما سبق أن مفهوم (الشعرية) عندي أوسع من ربطه بجنس الشعر ، وأن علاقة الاشتقاق بين المصطلحين لا تشكل عندي احتواء الجنس لصفة وجوهر (الشعرية) . كما أكدنا أن (الشعرية) اليوم أصبحت تغزو كثيرا من الأجناس الأدبية القابلة لطبيعتها وحقيقتها كجوهر للإبداع بقطع النظر عن أجناس وأنواع هذا الإبداع الأدبي قديمه وحديثه ، ومن هذا المنطلق عالجنا بإيجاز ، بدون تعمق أو توسع ، ما عن لنا تقديمه من أمور في شعرية النثر ، ونسأله الآن عن (شعرية الشعر) بين استقلال النص الشعري عن سياقه ، وبين تركيبه كتضمنين ضمن تركيب أسلوبه أوسع هو النشر العلمي والفني معا ، وإن كان التركيب المعني عندنا فيما سبق هو التركيب النثري الفني المسكون بالإبداع ، ومنه الإبداع الشعري في مستوى الصفة المشتركة ، والجنس المستقل .

إن أول ما نقوم به هنا هو جرد كل أشعار *التشوف* ووضعها مرتبة منظمة أمام القارئ ليتملأها في سياقها وفي ذاتها عبر صناعاتها اللغوية والإيقاعية والدلالية . لا نطالبه إلا بالموضوعية التي طالبناه بها وهو يستوحي (الشعرية) من نشر ابن الزيات الذي ارتقى لمستوى العبادة ، وعبر هذه النظرة الثنائية للشعر - نتفة أو مقطوعة أو قصيدة - تتم مواجهة شعرية الشعر في تركيب ابن الزيات النثري ، وهي مواجهة في الموضوع والبناء ، أما الموضوع فهو موضوع استقلال النص في ذاته ، ثم موضوعه ضمن تركيبية الخطاب النثري العام ، وأما البناء فهو هذه المستويات المعمول بها في التحليل لا نضيف إليها إلا قراءة النص الشعري - كالنص النثري قبله - وتحليله في ضوء مجاله وفضائه ومقصديته صاحبه كشاعر أولا ، ثم كموظف لأشعار الآخرين في تركيبه أدب التصوف ثانيا ، وكلمتا (موصول) و (معزول) الواردتان في الجدول التالي تشيران إما لوصل النص بتركيب النص النثري صيغة وموضوعا ودلالة وأسلوبا ، وإما لعزل النص عن

سياقه عزلا لا يمس الموضوع والدلالة الخاضع إليهما الأسلوب النثري العام ، ولكنه عزل
من حيث الرسم بعبارة (قال الشاعر) أو مثلها :

جدول بأشعار كتاب العشوف

صفحة/شعر / ملاحظة	صفحة / شعر / ملاحظة	صفحة/شعر / ملاحظة
معزول /03/168	04/119-118 / معزول	معزول /03/36
موصول /03/171	• /05/121	موصول /01/38
• /02/173-172	• /03/122	• /02/39-38
• /08/174	• /7/123-122	• /20/40-39
موصول /06/176-175	موصول /5/124-123	• /05/41
• /04/177	• /03/125	معزول /02/64
• /10/178	• /07/128	• /03/68
• /02/181	• /02/130	• /02/73
• /04/181	• /02/130	موصول /20/77-75
• /02/183	• /02/132	• /02/85
• /14/186-185	• /04/133	• /02/87
• /04/192-191	• /03/136	• /13/91-90
• /03/194-193	• /02/139	• /03/93-92
• /10/201-200	• /02/139	• /02/94
• /02/202-201	• /02/140	• /02/95
• /17/205-203	• /03/142	• /02/97
• /03/207	• /05/144	معزول /02/97
• /07/208	• /03/144	• /01/97
معزول /03/211	• /02/146	موصول /02/99
موصول /04/223	• /5/149	• /02/101
• /09/226	• /03/152	• /03/104-103
• /02/231-230	• /06/153	• /17/105-104
• /06/236	• /06/154	• /21/108-106
• /02/248	• /03/155	• /02/110-109
• /02/254	معزول /03/156	• /02/110
• /12/256	موصول /04/158	• /05/112
• /02/265	• /02/160	• /02/113
• /08/272-271	• /06/163	• /11/115-114
• /11/277-276	• /03/165	• /07/116
• /09/278	• /09/167	• /03/117

صفحة/شعر/ ملاحظة	صفحة/شعر/ ملاحظة	صفحة/شعر/ ملاحظة
موصول /02/406	موصول /03/342-341	موصول /03/279
• /02/411	• /4/344-343	• /06/281
• /03/411	• /02/345	• /07/289
• /06/412	• /04/346	• /02/294
• /02/412	• /08/351	موصول /05/295-294
• /04/417	• /07/353	• /04/297
• /04/418	• /05/355	• /06/298
• /02/419	• /04/356	• /02/303
• /02/426	• /04/362	• /03/303
• /02/427	• /06/366-365	• /04/306
• /05/429-428	• /02/366	• /04/310
• /08/430	• /04/372-371	• /08/312-311
• /03/430	• /02/373	• /02/313-312
• /03/432	• /3/373	• /03/314
• /03/433	• /13/376-375	• /02/315
• /06/435	• /02/376	• /02/316
مغزول /03/436-435	• /06/378	• /06/317
موصول /04/437	• /05/380	• /02/321
مغزول /05/440	• /02/383	• /04/324
موصول /10/441	• /05/384	• /03/325-324
• /09/443	مغزول /01/385	• /04/326
• /02/445	موصول /02/386	• /03/327
• /08/447	• /02/388	• /03/328
• /40/449-448	• /02/389	• /05/330
مغزول /25/463-462	• /04/391	• /2/330
• /03/463	• /04/397-396	• /09/334-333
• /04/464-463	موصول /02/397	• /05/334
• /03/464	• /04/401	• /22/337-335
• /04/464	• /01/401	• /02/338
• /02/475	• /03/404	• /2/338
	مغزول /07/405-404	• /04/339

ويتتبع سياق الشعر نجد أن الشعر الموصول ورد في 159 موضعا ، بينما المغزول لم يتعد 24 موضعا ، وبوضع العددين ضمن سياقهما في الكتاب وهو 183 موضعا ،

نجد أن اللوحات الإبداعية التي تم فيها ورود الشعر موصولا بسباق النثر كالقرآن والأحاديث الشريفة وأقوال الصحابة والأولياء ، في خطاب تركيبى واحد هو الذي رأينا نمودجا منه في مبحث (شعرية النثر) ، هو الغالب على السياق الموصول للشعر ، ولهذه الإشارة دلالة منهجية وفنية وأسلوبية عندي ، اتضحت دلالتها من كل الإشارات السابقة واللاحقة .

إشارة أساسية أخرى بل وجوهرية في هذا الإحصاء هو ورود شعر غير ديني في موضعين من الكتاب بصفحتي 73 و 97 ، ولم يكن ورود الشعر هنا مقحما على السياق الصوفي / الديني الذي يسيطر على الكتاب ، ولكن النظرة الثنائية التي أشدنا بها فيما سبق ، وهي صوفية أو دينية النص الشعري في ذاته ، ثم في سياقه ، أو صوفيته ودينيته في السياق الوظيفي للنص ، هذه الأخيرة لا يبعدها شيء عن وظيفة النصين غير الدينين في سياق صوفي ديني كما هو واضح ، ومعنى هذا أن جميع الأشعار في كتاب **التشوف** كانت ثابوة في المنحى الروحي / الديني / الصوفي ، سواء بذاتها وسياقها ، أو بسياقها فقط ، أي أن هذا الترادف الشكلي والموضوعي يعتبر كل شعر مس جانبا دينيا - وهو الغالب ذاتا ووظيفة - أو قاد إليه السياق وإرادة المؤلف ، من جوهر الخطاب الذي نبحت فيه عن شعرية التصوف بالقوة والفعل أو بالفعل فقط . والإشارتان إلى الشعرين الصوفيين بالفعل لا تعدوان ثلاثة أبيات من مجموع 913 بيت هو مادة الشعر في التشوف كما قدمها الجدول الإحصائي السابق ، فإذا تابعنا الإحصاء من أجل رصد البحور التي تحرك معها ابن الزيات وجدنا النتيجة التالية رتب حسب الكم الشعري :

الطويل	الكامل	البسيط	الوافر	الرملي	المنسرح	الخفيف	السرعي	م.البسيط	الرجز	م.الكامل	المتقارب	م.الرجز	المجث
321	195	151	108	28	25	20	16	13	11	11	6	4	4

إن حصر المادة الشعرية في إحصاء جاف ، قد ننجم به في معرفة النسب وخلفيات العناية والاهتمام بالكم والكيف في توزيع المادة وحصر مجالها ، ولكن ذلك لن يقرنا خطوة من حميمية الشعر وحرارة وجمالية إبداعه ، من أجل ذلك ننبه إلى أن ربط طبيعة الموضوع بنوع البحور الطويلة أو القصيرة ليس من مذهبي ، فالشعرية لا ترتبط

بالبحر أو الموضوع بقدر ما ترتبط بأمر أعمق ، إنها في شرايين الصناعة الشعرية نفسها وعبر فلسفة أسلوبها ونجاح إيقاعها ومعجمها وتركيبها وصورتها وجرس حروفها وكلماتها ، لذلك ننظر في :

(د) السياقة والدلالة .

أما السياق الشعري لمادة التشوف فكثير المواضع والمواضيع ، وهو سياق مسكون بمقصدية المؤلف المتيم بحب رجاله وتمثل سلوكهم والذويان في محبتهم ، والهبام بأخبارهم ، وأما الدلالة فمن حيث غايتها وطاقتها المتحركة في نسيج أشعار التشوف هي دلالة واحدة كبرى كما قلنا ، وأما من حيث مكونات هذه الدلالة / الجوهر ، فهي مستويات متعددة تبعا لسياقها المتعدد وموضوعاتها ، إلا أنها - على كثرتها - تصب في الدلالة الأولى الكبرى التي هي دلالة التصوف / دلالة الصفاء / دلالة الإيمان الصادق المخلص له ورسوله وصحابته والتابعين من الأولياء الصالحين الذين هم عصب هذا الكتاب .

وحتى نتحكم في ثنائية (السياق) ، (الدلالة) نحترم أولا وظيفة كلمتي (موصول) و (معزول) ، وثانيا نخضع التحليل لثلاثة محاور أساسية نشخص من خلالها محركات دلالات المادة الشعرية في التشوف على أن نقف عند نماذج دالة على ما بعدها ، تحتوي على خصائص نعتقد أنها صالحة لتقديم تقريبي لشعرية الشعر على مستوى البناء والصورة ، وهذه الثلاثية نسبية لأن المحاور كلها تصب في دلالة واحدة تتحكم في جميع البنى وتوجهها منطلقا وصناعة وغاية :

المحور الأول : والأساس هو الحنين المباشر في النصوص الخاصة بالمحور إلى الديار المقدسة ، وعلى الرغم من تنوع هذا الحنين والإشكال الذي يطرحه بين الحنين المباشر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والديار المقدسة بعامة ، وبين الحنين غير المباشر الذي قد يكون لولي أو جماعة (قوم) صالحة ، فقد تم في هذا المحور إثبات ستة وعشرين نصا شعريا نستدل ببعضها للدلالة على الباقي :

في الترجمة رقم 18 لأبي العباس أحمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن العريف ، ترد هذه المقطوعة الدالة برقتها ودقة وصفها ورقة كلماتها وموسيقى إيقاعها ،

يحسن بنا قبل إيرادها والنظر فيها أن نضعها في سياقها ، يقول ابن الزيات :
 " وحدثوا عنه - أي ابن العريف - أنه قال : قلت لعبد الرحمن بن روييل ، وكان ممن رأى
 الصالحين : أخبرني عن رأيك من الصالحين ، فقال : سمعت برجل من الأولياء ، فمشيت
 إليه أربعاً وعشرين ليلة ، فوجدته مع جماعة يجتمعون في وقت الصلاة ثم يفترقون ،
 فأقمت عندهم ، فقلت له : متى يعلم المريد أنه مريد ؟ فأعرض عني ، فسألته يوماً
 ثانياً ، فأعرض عني ، فعدت إليه في اليوم الثالث ، فقال : متى علم المريد أنه مريد ،
 سقط عن درجة الإرادة ، فلا تقل هكذا ، ولكن قل : متى يضع المريد أول قدم في
 الإرادة ؟ فقلت له : متى يضع المريد أول قدم في الإرادة ؟ فقال لي : إذا كانت فيه أربع :
 إذا مشى على هذا بلا وساطة ، وأشار إلى البحر ، وكان قريباً منه ، وصارت له هذه قدماً
 واحداً ، وأشار إلى الأرض ، وأكل من الكون ، واستجيب له دعاؤه ، فقال ابن العريف :
 فلما سمعت ذلك صحت وبكيت وقلت : أيستنا من الإرادة يا أبا القاسم ، وقطعتنا
 عنها ، إذا كان أول قدم في الإرادة الذي ذكرته ! " (27) ثم قال المؤلف ، بعد أن وضع ابن
 العريف في عمق الدلالة التي تدرجه ضمن من سينشد الشعر في حقهم : " وأنشدنا أبو
 إسحاق السلمي قال : أنشدنا عبد الله الغزال قال أنشدنا أبو العباس لنفسه - أي
 ابن العريف - :

شدوا الركاب وقد نالوا المنى بمنى	وكلهم بأليم الشوق قد باحا
راحت ركائبهم تبدي روائحها	طيباً بأطيب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبر الرسول المصطفى لهم	روح إذا شملوا من ذكره فاحا
يا واصلين إلى المختار من مضر	زرتهم جسوما وزرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وعن قدر	ومن أقام على عذر كمن راحا " (28)

في هذا النموذج نلاحظ قوة السياق (المعزول) الشعر ، بعد أن حاصرت الدلالة
 العامة التي حققها أسلوب الترجمة ، فالسياق هنا سياق دلالة ، وليس سياق
 أسلوب لوجود عبارة شطرت النثر شطرين هي قوله قبل الشعر " قال أنشدنا أبو العباس
 لنفسه . . . " ولكن شعرية الشعر في هذا التركيب بدأت معالمها في الحوار حول صفة
 المريد بين جملتين دالتين " متى يعلم المريد أنه مريد ! " و " متى يضع المريد أول قدم له
 في الإرادة ؟ " والجواب كان أبديع من الشعر وأعم دلالة وعمقا وخيالاً منه ، ومع ذلك فقد
 جاء الشعر ليعمق من تلك الدلالة ويلتحم معها بصناعته وصوره وبموضوعه كذلك .

وكل شعر معزول يدخل ضمن هذا الحكم مع خصوصية قيمته الجمالية وطبيعة موضوعه وسياقه ، ودلالته الذاتية قبل الدلالة التي يكتسبها من السياق العام لأسلوب الترجمة ولوحاتها ، وفي مقابل هذا فإن كل شعر موصول يصبح جزءا من سياق أسلوب النثر وتركيبه العام ، ونكتفي لتحقيق الدلالة والسياق في هذا الوجه بالنموذج التالي :

ففي ترجمة 79 لأبي محمد زمور بن يعلى الهزرجي ، يورد ابن الزيات للمترجم له هذا السياق الشعري الجميل ليصله بالقصيدة قائلا : " وحدثوا عن أبي محمد زمور أنه كان بدكالة فحضر صلاة العيد بالمصلى ، فلما أرادوا أن يصلوا اختلفوا في القبلة اختلافا كثيرا ، فقام مغلوبا من بينهم فقال : يا هؤلاء العميان ، هذه القبلة ، أما تشاهدون الكعبة في هذه الجهة ؟ ها هي تتلاعب الرياح بأستارها ، فتساقط عليه الناس واحتفوا به فغاب من بينهم وعاد إلى بلده :

سرى من ربا نجد شذا عَرَفَ رياها	فأحيا قلوب العاصفين وحيهاها
وذكرها تلك العهود التي مضت	على أنها محفوظة لبس تنساها
وروح أرواح المحبين روَّحُها	فتاهت بهم وجدا ووجدا بهم تاهها
وهاموا فهامت عند ذاك رحالهم	تُرى علمت ما في حشاهم حشاياها
فيا سائق الأظعان مهلا فإنها	بها من عظيم الشوق ما عنك أغناها
تراءت لها من جانب الطور ناره	فطارت فلم يدر السرى أين مسراها
حينئذ إلى تلك الديار لأنها	متيمة تهوى الديار وتهواها
ألم ترها مدت إليك رقابها	وترمي بساقها وتذرف عينها
طواها السرى طيَّ السجل كتابه	فعادت حروفا تقرأ العين معناها (29)

وهذه القصيدة رقيقة كما ترى وتقدم حجة نقدية أن الإلهام وتحقيقه في اللغة الشعرية والبناء الشعري المحكم ليسا شرطا أن يرتبطا بطبيعة الموضوع ، فليس هناك مصدر أو موضوع صالح للإلهام ، وآخر يفتعل صاحبه الإلهام ، وإنما جميع الموضوعات سواء أمام الشاعر ، فالاعتبار يعطي للشاعر في أن يكون أو لا يكون ، وليس في كون هذا الموضوع شعريا ، وذلك غير شعري .

من جهة أخرى تأمل معي منهج ابن الزيات في تحقيق التفاعل بين النصوص سواء على مستوى المضمون والقضية ، أو على مستوى التركيب الأسلوبي كذلك ، فوصل الشعر بالشعر تم عبر عبارة " . . . فغاب من بينهم وعاد إلى بلده " (ثم الشعر) ، وكل شعر موصل يدخل أيضا ضمن هذا الحكم النقدي فلا نطيل به ما دام السياق والدلالة قد تحققنا بالنموذجين (المعزول) و (الموصول) ، لكنني أختتم هذا المحور بقصيدة تدعم السابقة أولا موضوعا وصياغة ، ولكون الثانية كذلك تجسم حب مهبط الوحي وقبر الحبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ففي ترجمة 111 لأبي مهدي وبن السلامة بن جلداس ، يترجم للرجل / الولي ، ويطيل في ذكر كراماته بأسلوب شاعري بديع مع تصوير دقيق للشيخ ثم يصلها بهذه القصيدة التي نذكرها كاملة لتكامل خصائص ما يرد من أشعار فيها ، لكننا نذكر قبلها سياقها الأسلوبي النثري ، يصف ابن الزيات هذا الولي ثم يذكر حوارا جرى بين (وبن الخير) وبين الشيخ ينهيه هكذا " . . . فأتيته ، فقال لي : يا بني ، رأيت بعض ما يراه الرجال ؟ فقلت له : يا سيدي وعسى أن أصحبك في مسيرك إذا سرت إلى مكان ، فقال لي : . . . إن الرجال ليصلون إلى مواضع لو طارت الطيور إلى أن يسقط ريشها وينبت لها ريش آخر فطارت حتى يسقط وينبت لها ريش آخر ما وصلتها ، ويصلها عباد الله في طرفة عين .

والذي بالبعد والبين رمانني	ما تذكرت الحمى إلا شجانني
حبذا أهل الحمى من ساكن	شفتني الشوق إليهم ويرانني
كلما رمت سلوا عنهم	جذب الشوق إليهم بعنانني
أحسد الطير إذا طارت إلى	أرضهم أو أقلعت للطيران
أتمنى أننسي أصحابها	نحوكم لو أنني أعطى الأمانني
لا تزيدوني غراما بعدكم	حل بي من بعدكم ما قد كفاني
ذهب العمر ولم أحظ بكم	وتقضى في قنيتكم زمانني
يا خليلي احفظا العهد الذي	كنتما قبل النوى عاهدتmani

واذكراني مثل ذكرني لكما فمن الإنصاف ألا تنسباني
واسألا من أنا أهواه على أي جرم صدعني وجفاني " (30)

المحور الثاني : في الوعظ والاستغفار وما يلحق بذلك من شكوى وإنذار ونقد ، وهي موضوعات مسكونة كذلك بروح التصوف ورسالة القوم ، وتستغرق صفحات هذا المحور خمسين موضعا وموضوعا ، وفيما يلي نموذجان دالان على المحور محققان من جهتهما للسياق والدلالة لأشعار *التشوف* :

ففي ترجمة 13 لأبي محمد عبد السلام التونسي دفين أغمات ، يورد إحدى كراماته مع امرأة يقال لها أمية بنت يغروسن ، طلبت منه دعاء بالتوبة " فقال : تاب الله عليك ، قالت فانصرفت إلى منزلي ، وتجردت من أثوابي ، وتطهرت وأقبلت على طاعة الله عز وجل ، وكانت تلبس خمار صوف ، وجبة صوف ، وتقيم النهار من أوله إلى آخره بجامع تلمسان إلى أن لحقت بالله عز وجل .

أما والله لو علم الأنام	لما خلقوا ، لما غفلوا ، وناموا
لقد خلقوا لما لو أبصرته	عيون قلوبهم ، ساحوا وهاموا
مئات ثم قبر ثم حشر	وتوبخ وأهوال عظام
ليوم الحشر قد عملت رجال	فصلوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا أمرنا أو زجرنا	كأهل الكهف أيقاظ نيام " (31)

فهذه النماذج تنطق بدلالاتها وقد أنطقناها أيضا بتحديد سياقها كذلك ، كما أنها أفصحت عن معانيها الروحية العميقة ، وما دامت كذلك ، فهذان المحوران يمهدان في شعر *التشوف* لمحور ثالث أكثر مادة وأعماق دلالة وأجمل صورة وأسلوبا ، وأغرب في الخيال ، وهو كذلك لأنه محور جوهر هذا الكتاب وروح هذا المبحث إنه :

المحور الثالث: في وصف الصالحين وذكر أخبارهم وكراماتهم ، وأشعار هذا المحور تكاد تغطي الكتاب كله ، ونستطيع أن نقول بأن مادة المحورين السابقين تشكل جزءا من هذه المادة هنا ، وصورة من صورها ، وقد بلغت نصوص هذا المحور نحو من خمسة وعشرين ومائة نص شعري بديع ، نسوق منها هذا النموذج :

ففي فصل أنواع الكرامات ، يورد المؤلف نقاشا في حديث طويل يحمل من الغرابة والتعجب الشيء الكثير ، ويحسن أن نورد بعض جملة الأخيرة تحديدا للسياق ورسما لفلسفة التخلّص إلى الشعر (الموصول) :

يقول أحدهم في الحديث ، واسمه سلمان : " يا ملك الموت ، أرفق بصاحبنا ! فقال : إني بكل مومن رفيق ، فقليل ليحيى بن معين : يا أبا زكرياء ، هل يصح هذا الحديث ؟ فقال : رواه شبانة المدائني ، وليس ينكر أن يكون لسلمان مثل هذا :

لا تسترب في كرامات يُخَصُّ بها	من اتقى الله في سر وإعلان
وأصغ سمعا لما يروي أئمتنا	عمن مضى من ذوي المقدار والشان
وأمر مريم يكفي المستدلُّ به	في شأن محرابها في آل عمران
تؤتَى الفواكه أنواعا متنوعة	بلا محاولة في غير إبان
وفتية الكهف في إيقاظهم عجب	بعد المئين كما يتلو حسان
... وكم دليل بأقوال الرسول لنا	فيها وكم حجة فيها وبرهان
ثم الكرامات أنواع إذا نُظرت	كالزهر في حسن أنفاس وألوان
مشي على الماء أو في الجو قد نُقلا	وشبَعُ ذي سغب أوري ظمآن
وكم أجيب ولي حين دعوته	وكم أغيث ولي عند إذعان
وفيه من يجيبه الجماد ومن	يغيب عن درك أسمع وأجفان
ومنهم من يرى المختار من ملك	ومن يجالسهم في حال إخوان
وكم لهم من مقامات مكرمة	هذا الذي قلته منها كعنوان
صَفَوْا فصوفوا ونال ضعف سعيهم	ألمرء يكسب إحسانا بإحسان
في عيش أرواحهم ماتت نفوسهم	وقد تموت نفوس دون أبدان
فافعل كفعالهم تقرب كقربهم	فالفضل عُمٌّ في القاصي وفي الداني
فإن عجزت عن الجد الذي لهم	فاصمت فليس مجد القوم كالواني ⁽³²⁾

هذي هي المجاور التي دلت على سياقها ودلالاتها هذه النماذج ، نكتفي بها

كمادة محصاة ، وكنماذج شهادة ، ونؤجل إلى بحث آخر مستقل بالشعر في *التشوف* ، والبحث عن الشعرية فيه كما تقدمها صناعته الصوفية ، والسبب في إيقاف القول عن الاستمرار في بنيات هذا الشعر والاكتفاء بالسياق والدلالة ، أن الأمر يتعلق بموضوع شعرية التصوف كما ركبها ابن الزيات من تراجمه ولوحاته الفنية الرائعة التي ضمنها قرآنا وشعرا في أسلوب تركيبى كان الهدف من هذه المداخله وليس ما تفاعل منها من نصوص - من بينها هذه المادة الشعرية - مما حقق تناسا متميزا روحا وبناء ودلالة وصياغة .

إن للبحث في شعرية شعر التصوف ، دون نظر في صاحب الشعر ، مكانا آخر ألقى بصناعته في لغته وتراكيبه وفي أسلوبه وبلاغته وفي خياله وإيقاعه ، وفي استقلاله عن أدبية التشوف النثرية - تقريراً أو إبداعاً - أو اندماجه معها حتى ليعد التناص المحكم جزءاً منها ، ويبقى في الأخير أن نؤكد أن لابن الزيات أسلوباً فنياً صوفياً في حاجة إلى دراسات تخضع لطبيعته وأدواته ومصطلحاته ومدرسته الفنية التي يشترك فيها كل المتصوفة المبدعين مع خصوصية كل واحد ، وهو بهذا الأسلوب يعد عندي من كبار المبدعين الذين سكنت مظاهر الشعرية كل لوحاتهم المتسمة بالإبداع .

الهوامش

- 1- من منشورات كلية الآداب - الرباط - ط 1 / 1404 هـ / 1984 .
- 2- من مقدمة المحقق : 26 .
- 3- العثوف : 41 .
- 4- العثوف : 450 .
- 5- تقع أخبار السبتي في ص . (451 - 477) .
- 6- العثوف : 43 .
- 7- نفسه : 31 .
- 8- العثوف : 33 .
- 9- العثوف : 33 .
- 10- العثوف : 33 - 34 .
- 11- العثوف : 34 .
- 12- العثوف : 35 .
- 13- نفسه .
- 14- نفسه .
- 15- نفسه : 18 .
- 16- العثوف : 55 .
- 17- العثوف : 56 .
- 18- العثوف : 451 .
- 19- نفسه .
- 20- نفسه : 477 .
- 21- نفسه : 38 .
- 22- العثوف : 38 .
- 23- العثوف : 38 - 41 ، هذه القصيدة من 20 بيتا سترد في مبحث شعرة الشعر بعده .
- 24- العثوف : 38 - 41 .
- 25- نفسه .
- 26- العثوف : 46 - 47 .
- 27- العثوف : 121 .
- 28- نفسه .
- 29- العثوف : 226 .
- 30- العثوف : 264 - 265 .
- 31- العثوف : 112 .
- 32- العثوف : 75 - 77 .

ملحوظات حول الحماسيتين المغربيتين والبياسية

لمحاضرة المهريني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الرباط -

تمثل كتب " الحماسة " أو " الاختيارات الشعرية " الحلقة الرابعة في تاريخ الاختيارات بعد المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، ولكنه أول اختيار يجري على تبويب معاني الشعر العربي ، وهو أول اختيار أطلق عليه صاحبه اسمهُ ، فأبو تمام هو صاحب تسميته بالحماسة كما جاء في *المؤتلف والمختلف* للأمدي ص . 181 ، *والموازنة* له أيضا 58/1 ، حيث قال عندما ذكر المثلث بن عمرو التَّنُوخي : " وأنشد له الطائي في اختياره الذي سماه الحماسة " (1) .

وقد حظي التأليف في هذا اللون الشعري في الأندلس والمغرب بمكانة خاصة ومتفردة ، إذ تنوع بين تصنيف على نهج حماسة حبيب أو شرح لها . وفيما يلي ثبت مفصل بما وقفنا عليه من تواليف وشروح ، بعد أن جمعناها من المصادر المختلفة ، ودللنا على المطبوع منها والمخطوط إن وُجد (2) :

1 - التأليف :

(1) *حماسة أبي حفص عمر بن منذر الصدفي الأندلسي المتوفى سنة 635 هـ* ، قال عنها ابن عبد الملك المراكشي : " وصنف في منحة حماسة حبيب مصنفا حسنا أفاد به " (3) .

(2) *حماسة البياسي* أو الحماسة البياسية لأبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم البياسي المتوفى سنة 653 هـ ، وستحدث عنه فيما بعد .

(3) *صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب* لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي (الكراوي) التادلي المتوفى سنة 609 هـ ، وهو مفقود ، غير أن الذي وصل إلينا هو المختصر الذي اشتهر بـ " حماسة الجراوي " أو " الحماسة المغربية "

وستحدث عنه فيما بعد .

(4) **حماسة أبي عامر محمد بن يحيى بن خليفة بن يثق الشاطبي الأندلسي** المتوفى سنة 547 هـ ، وتُعرف بـ " الحماسة الكبيرة " (4) ، وهو مفقود .

(5) **روض الأديب والمنزه العجيب** أو **حماسة أبي القاسم أحمد بن محمد البيلوي** المتوفى سنة 657 هـ ، سمعه ابن عبد الملك المراكشي مؤلف **الذيل والتكملة** (س 1 ، ق . 455/2) من مُصنّفه ، وهو مجموعة في الأدب ، أو كتاب في منتقى الأشعار مرتّب على فنون الشعر وأغراضه ، ضاهى به **حماسة الجراوي** ، يقول الدكتور محمد بن شريفة : " ولا تقتل هذه إلا مقدار الربع بالقياس إليه ، مع أن البيلوي لم ينجز من الكتاب المذكور إلا نحو ثلثه حسب مخطّطه ، ثم " عَجَزَ لِلْكِبَرَةِ عن إتمامه " كما يقول ابن عبد الملك " (5) [علاه الكِبَرُ أو علته كِبَرَةٌ] .

2 - الشروح :

(1) **شرح الحماسة لأبي الفتح ثابت بن محمد الجرجاني العدوي** المتوفى سنة 431 هـ (6) ، منه نسخة محفوظة بمكتبة الأسكوريال تحت رقم 289 ، وفي معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة نسخة مصورة عنها تحت رقم 517 أدب ، والشرح بخط مغربي تصعب قراءته ، وعدد أوراقه 131 ورقة في كل ورقة 25 سطرا ، " ويبدو أنه نسخ في القرن السابع حوالي سنة 643 هـ (7) " ، كما جاء في كتاب **حماسة أبي تمام** وشروحها للدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيان .

(2) **الأنيق في شرح الحماسة أو شرح كتاب الحماسة لأبي الحسن علي ابن أحمد بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسى** المتوفى سنة 458 هـ ، ذكره ابن خير الإشبيلي في **فهرسته** ص . 356 ، والقفطي في **إنباه الرواة** 226/2 ، وهو مفقود ، ولا نعرف عنه شيئا سوى عبارات مقتضبة وردت في صفة حجمه : فاكتفى بعض المؤلفين بقولهم " إنه شرح كبير إلى الغاية ، وزاد آخرون ذلك تفصيلا ، فذكروا أنه في عشرة أسفار أو في ستة مجلدات ، ومنهم من جعله في خمسة أسفار لا غير ، ولا ضير في هذا الاختلاف ، إذ نراه راجعا إلى اختلاف حجم نسخ الكتاب التي اطلع عليها المؤرخون كل على حدة " (8) .

3 شرح الحماسة لابن الحاج النميري المتوفى نحو سنة 780 هـ ⁽⁹⁾ .

4 شرح أشعار الحماسة لأبي بكر عاصم بن أيوب البلوي البَطَلَيْوسِي النحوي المتوفى سنة 494 هـ ، ذكره ابن خير في فهرسته ص . 388 .

5 مجلّي غرر المعاني عن مثل صور الغواني والتحلي بالقلائد من جواهر الفوائد ، وهو شرح الحماسة لأبي الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمري المتوفى سنة 476 هـ ، ومن خلال اطلعنا عليه تبين لنا " أن من الوهم اعتباره شرحا لحماسة أبي تمام ، إنما هو شرح لحماسة ألفها الأعلم نفسه ، وضمنها جل ما في حماسة أبي تمام والحماسات الأخرى ورتب الشعر فيها على حروف الهجاء في كل باب ، وزاد فيها بابين على ما جاء في حماسة أبي تمام ، ثم شرحها ، ويبدو ذلك واضحا مما جاء في مقدمة الشرح ⁽¹⁰⁾ " ، حقق الكتاب الأستاذ علي حمودان ، ونال به درجة الدكتوراه من كلية آداب القاهرة سنة 1983 م ، ونال به الأستاذ محمد عبد اللاوي دبلوم الدراسات العليا من كلية آداب الرباط سنة 1985 م ⁽¹¹⁾ ، كما نال به درجة الدكتوراه من لندن الأستاذ هاشم المهدي الشريف " دون تاريخ " ⁽¹²⁾ .

6 شرح أشعار الحماسة للمؤلف نفسه السابق الذكر ، ذكره ابن خير الإشبيلي في فهرسته ص . 388 .

7 عنوان النفاسة في شرح الحماسة لمحمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد الشهير بابن زاكور الفاسي المتوفى سنة 1120 هـ ، منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 158 ج ، " مبتورة الآخر " يقوم بتحقيقها الأستاذ محمود محمد عيسى مخلوف لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية آداب الرباط تحت إشراف الدكتور عزة حسن " دون تاريخ " لم تناقش بعد ⁽¹³⁾ .

8 إيضاح المنهج أو شرح الحماسة لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد ابن ملكون الإشبيلي المتوفى سنة 584 هـ ، ذكره صاحب كشف الظنون 691/1 ، 692 ، والسيوطي في بغية الوعاة 431/1 ، وقال عنه ابن الأبار : " جمع فيه بين كتابي ابن جني على الحماسة : التنبيه والمبهم " ⁽¹⁴⁾ . ومن هذا الكتاب نسخ خطية كثيرة في العالم تحمل نفس العنوان أي إيضاح المنهج ، بحيدر آباد الدكن بالهند ، منها مصورة بمعهد إحياء

المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم 24 لغة ، والأسكوريال تحت رقم 312 (كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد بن شريفة في كتابه **أبو تمام وأبو الطيب** ص . 79) ؛ **والزاوية الحمزاوية** " أهل زاوية سيدي حمزة ، إقليم الراشدية ، تحت رقم 132 فيلم " .

(9) **شرح الحماسة** لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن الأخضر الإشبيلي المتوفى في أوائل القرن السادس الهجري ، ذكره ابن بشكوال في **صلته** 404/2 ، والسيوطي في **بغية الرعاة** 174/2 .

(10) **شرح الحماسة** لأبي الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي الإشبيلي المعروف بابن عصفور المتوفى سنة 669 هـ ، ولم يتحّمه ، وهو مفقود ، ذكره ابن شاعر الكتبي في **فوات الوفيات** 185/2 .

(11) **شرح الحماسة** لأبي علي عمر بن محمد المعروف بابن الشلوين المتوفى سنة 645 هـ ، ذكره صاحب **خزانة الأدب** 92/2 ، وصاحب **كشف الظنون** 692/1 ، وهو تفسير لطيف عمد فيه صاحبه إلى نثر أبيات الحماسة موضحة معانيها ، وقد سمي كتابه **المنثور البهائي** لأنه ألفه لبهاء الدولة (15) .

× × ×

ومن هنا نأتى إلى كتاب **صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب** الذي اشتهر ب (حماسة الجراوي) ، أو " الحماسة المغربية " ولن أترجم له أو أعرف بحماسته ، فقد فعل ذلك كثيرون أمثال العلامة سيدي عبد الله كنون (16) ، والأستاذ عبد الكريم بن الحسن (17) والأستاذ حسن الشبيهي حسني (18) ، والدكتور محمد رضوان الداية (19) ، فصلوا وأجملوا ، مما يغنيني عن تكرار الترجمة والتعريف بها في هذا البحث المتواضع ، ولكني أود هنا أن أقف على ما جاء في تحلية حماسته قبل الانتقال إلى تصحيح وتصويب بعض الآراء فيها . قال ابن الآبار : " وألف للسلطان كتابا في معنى الحماسة لحبيب سماء **صفوة الأدب ونخبة كلام العرب** ، أخذه الناس عنه ، وكان شيخنا أبو الحسن سهل بن مالك يثني على هذا التأليف . وحدثنا به عنه ، هو وأبو الربيع بن سالم وأبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الرعيني وغيرهم " (20) .

- وقال ابن خلكان في ترجمة يعقوب المنصور : " وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه **صفوة الأدب وديوان العرب** في مختار الشعر ، وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كل الإحسان " (21) .

- وقال ابن خلكان أيضا في ترجمة السلطان يوسف بن عبد المؤمن : وجمع (أي الجراوي) كتابا يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي ، وسماه **صفوة الأدب وديوان العرب** ، وهو كثير الوجود بأيدي الناس ، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق " (22) .

- وقال ابن سعيد المغربي " ثم جالس المنصور ، وصنف له كتاب **صفوة الأدب** المشهور ب " حماسة الكورائي " (23) .

- وقال الحميري مؤلف **الروض المعطار** : " وصنف للمنصور يعقوب مجموعا من أشعار الناس رتبته على أبواب الحماسة " (24) .

- وقال صاحب **نهد تاريخية في أخبار البربر** : " ومنهم الجراوي ، مؤلف كتاب الحماسة ، ألفه لأمر المؤمنين المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن " (25) .

- وقال الصفدي " . . . له حماسة أجاد فيها " (26) .

ولا يعرف منها اليوم إلا نسخة خطية وحيدة من مختصره محفوظة بمكتبة الفاتح بتركيا تحت رقم 4079 (26) .

وعنها حققها الدكتور محمد رضون الداية ، وصدرت في جزأين عن دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق ، طبعة 1411/1 هـ ، 1991 م .

رتب الجراوي مواد كتابه على موضوعات ، ورتب أشعاره داخل تلك الأبواب أوالموضوعات .

وأبواب الكتاب كما صنعها المؤلف هي :

- المدح (وهو في قسمين : أحدهما في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، والثاني : سائر المدائح) .

- والفخر .

- والمراثي .

- والنسيب .

- والأوصاف ، والأمثال والحكم والملح وذم النقائص والزهد والمواظ . وتوخى المؤلف أن يصنف اختياراته في كل باب ترتيبا زمنيا غالبا ، وبدأ في كل باب بشعراء المشرق ، ثم بشعراء المغرب والأندلس ، حين يختار من أشعارهم ، ولم يقم المؤلف لنفسه في أثناء الأبواب شعرا من شعره ، وإن وردت أبيات مفردة في المقدمة " (27) .

أما **حماسة أبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي** المتوفى سنة 653 هـ ، فهي التي تعرف بحماسة البياسي أو " الحماسة البياسية نسبة إلى مؤلفها المنسوب إلى بياسة (28) في الأندلس " (28) وقد ترجم له ابن خلكان وأورد بعضا من أخباره ؛ فقال في حقه : " أحد فضلاء الأندلس وحفاظها المتقنين كان أديبا بارعا فاضلا ، مطلعاً على أقسام كلام العرب من النظم ومن النثر ، وراويا لوقائعها وحروبها وأيامها ، بلغني أنه كان يحفظ كتاب الحماسة تأليف أبي تمام الطائي ، والأشعار الستة . وديوان أبي تمام المذكور ، وديوان أبي الطيب المتنبي ، وسقط الزند ديوان أبي العلاء المعري ، إلى غير ذلك من الأشعار من شعراء الجاهلية والإسلام " (29) .

وكان ابن خلكان رأى نسخة من حماسته في مجلدين (29) ، ذكر أن مؤلفها انتهى من تأليفها وترتيبها بمدينة تونس في شوال سنة 646 هـ ، وهذه النسخة قرئت عليه (أي على المؤلف) ، وعليها خطه (أي خط البياسي) ، كتبها في أواخر شهر ربيع الآخر سنة 650 هـ (30) .

وقد وقف عليها ابن خلكان واطلع عليها ونقل شيئا من أبوابها في أماكن متفرقة من كتابه **وفيات الأعيان** ، " إذ كان الغرض - كما يقول - إيراد شيء من أخبار هذا الرجل ليستدل به على معرفته بالشعر " (31) .

وفي مقدمة **الحماسة** التي أوردها ابن خلكان ما يفيد أن البياسي جمع حماسته من أشعار الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمولدين والمحدثين من أهل المشرق

والأندلس ، ثم رتبها وبوبها على غرار حماسة أبي تمام ، يقول ، فيما نقله عنه ابن خلكان : " ونظرت . . . فلم أجد أقرب تبويب ، ولا أحسن ترتيب ، مما بوبه ورتبه أبو تمام حبيب بن أوس رحمه الله تعالى في كتابه المعروف بكتاب الحماسة ، وحسن الاقتداء به ، والتوخى لمذهبه لتقدمه في هذه الصناعة وانفراده منها بأوفر حظ ، وأنفس بضاعة ، فاتبعت في ذلك مذهبه ونزعت منزعه " (32) .

وقد ضاعت حماسة البياسي ، ولم تصل منها إلا شذرات جمعناها من مظان عديدة ، ورأيت من المفيد أن ألحقها ببحثي هذا - فكان أن عنونتها ب " ما تبقى من حماسة البياسي أو الحماسة البياسية " . أمل أن يتاح لي التنقيب عن الضائع منها في جملة من المصادر الأخرى .

هذا ، وقد عنت لي خلال مراجعتي حماسة الجراوي والضائع من حماسة البياسي تعليقات وتصحيحات واستدراكات يسيرة كنت علقتها في جذاذاتي ، ورأيت أن الفائدة في نشرها والتنبيه إليها ، منها :

(1) الخطأ في إطلاق اسم الحماسة التونسية على الحماسة البياسية : حاول الأستاذ حسن الشبيهي عبثاً إطلاق اسم الحماسة التونسية على حماسة البياسي في كتابه **أبو العباس الجراوي** (33) ، لا لشيء إلا لكونها صنف في تونس ، يقول : " الحماسة التونسية لبوسف البياسي الأندلسي 653 هـ ، جمعها بتونس سنة 646 هـ ، وذكر فيها المختار من شعر الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين والمولدين " ، وانظر كذلك الأستاذ محمد الفاسي في مقاله : " أبو العباس الجراوي " (34) .

(2) الخطأ في إطلاق اسم الحماسة المغربية على الحماسة البياسية : ووهم الأستاذ المرحوم الدكتور السيد يعقوب بكر في هذه التسمية وهما بالغا وهو يترجم تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان 140/6 ، وتابعه فيها (أي في التسمية) خير الدين الزركلي في **الأعلام** 249/8 ، والدكتور حسين محمد نقشة في مقدمة تحقيقه لكتاب **شرح ديوان حماسة أبي تمام** المنسوب لأبي العلاء المعري الذي صدر مؤخرًا (35) ، والأستاذ مختار الدين علي بن أبي الفرج البصري المتوفى سنة 639 هـ ، ص . 11، 10 (36) . والدكتور محمد

رضوان الداية في مقدمة تحقيقه لكتاب *الحماسة المغربية* ، مختصر كتاب *صفوة الأدب* ونخبة ديوان العرب للجراوي التادلي ص . 21 ، ونشرة أخبار التراث العربي ، الكويت ، ع 28 نونبر ، دجنبر 1986 ، ص . 20 .

ولعل مرد هذا الخطأ راجع - حين ترجمة *تاريخ الأدب العربي* لكارل بروكلمان - إلى مزج الأصل (أي أصل بروكلمان) بالذيل أي Supp. (التكملة)⁽³⁶⁾ ، ولم يتنبه إلى ذلك أيضا مراجع الترجمة الدكتور رمضان عبد التواب كما استدرك عليه ذلك بعض الباحثين في مجالسه العلمية في بيته⁽³⁷⁾ .

ولو رجعنا إلى الطبعة الألمانية في أصلها وذيلها ، لتبين لنا وهم الترجمة التي قام بها الدكتور السيد يعقوب بكر في أوائل السبعينات .

(3) الخلط بين *الحماسة البياسية* و*حماسة الجراوي* ، حيث أخطأ بعض الباحثين والدارسين في نسبة *حماسة الجراوي* إلى " البياسي " ؛ أمثال العلامة المرحوم عبد العزيز الميمني الرأجكوتي في مذكراته : " ماذا رأيتُ بخزائن البلاد الإسلامية " التي كتبها في يونيو / حزيران سنة 1938 م ، وهي منشورة في مجلة البصائر " التي تصدر عن الاتحاد الثقافي في فرنسا ، عدد 6 سفر 1986/2 ص . 137 ، هامش رقم (1) ، وكارل بروكلمان في *تاريخ الأدب العربي* 140/6 ، والدكتور حسين محمد نقشة في مقدمة تحقيقه لشرح ديوان *حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء المعري* ص . 10 ، والزركلي في *الأعلام* 249/8 ، والدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان في كتابه *حماسة أبي تمام وشروحه* ص . 53 .

(4) دحض الآراء القائلة بوجود مختصر *لحماسة البياسي* أو *حماسة الجراوي* بمكتبة غوتا = جوتا GOTH ، بألمانيا ، أشار كارل بروكلمان في كتابه *تاريخ الأدب العربي* 140/1 ، ود . عبد الله عبد الرحيم عسيلان في كتابه *حماسة أبي تمام وشروحه* ص . 53 والدكتور شفيق جاسر أحمد محمود في مقدمة تحقيقه لكتاب *الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام للبياسي* ج . 1/ وهي رسالة ماجستير بكلية آداب عين شمس بالقاهرة سنة 1974 ، تحت إشراف الدكتور حسن حبشي ، وقد صدرت في جزأين في عمان سنة 1988 م ، وفي مقال له كذلك عن أبي الحجاج البياسي ، نشره في *المجلة العربية للعلوم الإنسانية* التي تصدر عن جامعة الكويت

ع 15 ، مجلد 4 ، سنة 1984 ص . 77 ، " أن الحماسة البياسية منها مختصر في مكتبة جوتا تحت رقم 13 " . وذكر الأستاذ فؤاد سيزكين في كتابه *تاريخ التراث العربي* ، الترجمة العربية ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، ص . 119 - 120 ، أو النص الألماني⁽³⁷⁾ : " أن حماسة الجراري أو الحماسة المغربية ، منها قطعة واحدة في جوتا تحت رقم 13 ، أقل من 11 ورقة " ، وتبعه في ذلك الدكتور محمد رضوان الداية في مقدمة تحقيقه الأخير لكتاب الحماسة المغربية 25/1 ، فبعد أن اقتبس كلام سيزكين حرفيا ، زاد عليه : فقال : " . . . واعتمدت على المخطوطة الكاملة الوحيدة ، ولم أتمكن من الحصول على الأوراق الإحدى عشرة من غوته - وعسى أن نحصل عليها وعلى نسخة أخرى تعيننا على مراجعة هذه الطبعة إن أتيح ذلك ، ونسأ الله في الأجل . عليه التوكل والاعتماد ، لا رب غيره " .

والحق أن حماسة الجراري أو حماسة البياسي ليس لهما مختصر في مكتبة غوتا - جوتا GOTHا بألمانيا كما أشار إلى ذلك هؤلاء الدارسون ، أما الموجود فيها ، فهو صفحة واحدة فريدة فقط ، تتضمن نقولا واقتباسات من كتاب *الحماسة البياسية* المفقود ، ومن بين الشعراء الذين أنشد لهم البياسي فيها :

- قيس بن الخطيم الأوسي الظفري (7 أبيات) .
- بعض المولدين (بيتان) .
- الحسن بن هانئ (أبو نواس) (بيتان) .
- علي بن العباس الرومي (بيت واحد فقط) .
- صالح بن عبد القدوس (بيتان) .

وهذه الاختيارات تدخل في باب " الحكم " ، وقد حصلنا عليها بواسطة الباحث الأستاذ عبد العزيز الساورى الذي ظل يرسل مدير مكتبة غوتا الدكتور هلموت كلوس Dr Helmut Claus ، لفترة طويلة إلى أن حصل عليها ، وهي تحمل (رقم ، وجه = MS. Orient, A 13, BL. 2a) ، وتقع قبل أرجوزة أبي علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا المتوفى سنة 428 هـ في *تشریح البدن مطلعها* :

الحمد لله على تهذيبي وعصمتي من أمم تهذي بي⁽³⁸⁾

وهي مكتوبة بخط أقرب ما يكون إلى الخط النسخي ، حسن واضح متقن ، في عناية ملحوظة من حيث شكل الشعر ، مقاس الصفحة (17 x 13 سم) ، وعدد سطورها ثمانية عشر سطرا ، ومعدل كلمات السطر الواحد إحدى عشرة كلمة ، ولم يذكر عليها اسم الناسخ ولا تاريخ الفراغ من نسخها .

ولو اطلع هؤلاء الباحثون على فهرس مكتبة جوتا الذي وضعه الأستاذ بيرتش وليام Wiliam Pertsch ، وتمعنوا فيه قليلا ، لصححوا هذا الخلط الواقع بين الحماستين (38) .

وقد جعلنا للبحث مرفقا بصورة المخطوطة ، و صفحة من فهرس بيرتش لمكتبة غوتا ، ورسالة بقلم هلموت كلوس ، يفند فيها وجود مختصري البياسي والجرأوي بعث بها إلى الأستاذ عبد العزيز الساوري .

5) وثمة مخطوط بالخزانة العامة للكتب والوثائق - قسم المخطوطات بالرباط يحمل رقم 340 فيلم / 129 ر (39) ضمن مصورات معرض جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق إقليم مركز الرباط سنة 1972 في 74 ورقة (146 لوحة) ، مكتوب بخط أندلسي ، ونقرأ في الورقة الملصقة على الميكروفيلم : " قطعة من الحماسة البياسية لعلها للبياسي " ، وفي الجذاذات الموجودة بدرج الخزانة : " قطعة من الحماسة البياسية تخميننا " ، وأخبرني الفقيه محمد بن عبد الهادي المنوني مشافهة : " يظهر أنها للبياسي والله أعلم " . و أشار د . محمد بن شريفة إلى أنها الحماسة البياسية حيث يقول في كتابه *أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة* ص . 83 : " وتوجد قطعة صالحة من هذه الحماسة مخطوطة في بعض الخزائن الخاصة بالمغرب ، وعندني صورة عنها ، وكنت قد اخترت منها الأشعار الأندلسية على حدة من أجل نشرها فلم يتيسر ذلك إلى الآن " .

وأشار الأستاذ محمد المنوني في كتابه *المصادر العربية لتاريخ المغرب* إلى هذا المخطوط بقوله : " هو مجموعة شعرية تشتمل على مختارات متنوعة لشعراء عديدين من عصر الجاهلية إلى أيام الموحدين ، وهو ليس كتابا كاملا ، ولكنه قطعة مخطوطة مبتورة الطرفين من الأول والآخر وفي الأثناء ، ولذلك لم يعرف جامعها ، وأهمية هذه القطعة تكمن في احتفاظها بكمية كانت غير معروفة من آثار الشاعر الموحي التادلي أبي

العباس الجراوي - فانت الأستاذ حسن الشبيهي حسني جامع شعره وغيره - " (40) .

والملاحظ أن جميع النقول والاقتباسات التي عثرنا عليها من حماسة البياسي وذيّلناها ببحثنا هذا ، وعددها أربعة وعشرون مقطعة ، لا نجد لها أثرا في القطعة الخطية التي يظن أنها للبياسي .

هذه بعض الآراء والملاحظات التي توصلت إليها أثناء اشتغالي بحماستي الجراوي والبياسي ، ولا أعتقد أنني ألّمت بكل العناصر الشائكة التي كنت أرغب في طرحها ونقاشها لتعذر العثور على حماسة البياسي كاملة .

أملّي أن تساعدني الظروف مستقبلا على الحصول على الضائع من حماسة البياسي في ثنايا المخطوطات أو على النسخة الأم لهذه الحماسة حتى يتسنى لي الحديث عنها وتبيان قيمتها الأدبية والتاريخية من بين الحماسات الأخرى .

الهوامش

- 1 - شرح دهبان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء المعري ، ص . 8 .
- 2 - ذكر أغلبها د . محمد بن شريفة في كتابه : أهورام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، ص . 78 - 85 ، ونضيف إليها تواليف وشروحا أخرى .
- 3 - الذيل والتكملة 471/5 ، أشار إليها الدكتور محمد بن شريفة في كتابه : أهورام وأبو الطيب ، ص . 85 .
- 4 - أعلام الزركلي 7/8 وذيل كشف الظنون 421/1 ومعجم المؤلفين 109/12 .
- 5 - الذيل والتكملة 454/2/1 - 456 رس 8 ق 1 ، ص . 12 من المقدمة .
- 6 - انظر ترجمته في جلدوة المقتبس ، ص . 184 .
- 7 - حماسة أبي تمام وشروحها دراسة وتحليل د . عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، ص . 64 رقم 13 ، وص . 128 هامش رقم (1) إلى غاية ص . 132 ، وفي ص . 129 جاء ما يلي : " لم أجد من ذكر له شرحا للحماسة ممن ترجم له ، أو ممن عني بذكر شروح الحماسة ، كصاحب كشف الظنون ، سوى أن بروكلمان أشار إلى مكان وجوده في الأسكوريال " ، والواقع أن ابن خيبر الإشبيلي ذكره في فهرسته مرتين : الأولى في ص . 387 تحت عنوان : " تفسير الحماسة لأبي تمام " وفي موضع آخر ص . 388 : شرح الحماسة لأبي تمام " .
- 8 - ابن سيده آثاره وجهوده في اللغة ، د . عبد الكريم شديد التعميمي ، ص . 73 - 74 .
- 9 - في الإحاطة 347/1 ومقدمة كتابه فيض العباب ، ص . 30 : " شطر " ، والصواب ما أثبتناه .
- 10 - حماسة أبي تمام وشروحها ، ص . 65 .
- 11 - الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب ، ص . 150 .
- 12 - الأطروحات العلمية في الدراسات الأندلسية والمغربية ، ص . 38 رقم 229 .
- 13 - انظر : مجلة كلية آداب الرباط ، ع 7 سنة 1981 ، ص . 297 ، والأطروحات العلمية في الدراسات الأندلسية والمغربية ، ص . 42 رقم 274 .
- 14 - التكملة 157/1 - 158 .
- 15 - حماسة أبي تمام وشروحها ، ص . 67 .
- 16 - في كتابه أبو العباس الجراوي ع 6 سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ص . 1 - 35 .
- 17 - ملحق مجلة المغرب " الحماسة المغربية لأبي العباس الجراوي " ، ع 9 ، 9/6/1938 ، ص . 133 .
- 18 - في كتابه أبو العباس الجراوي .
- 19 - مقدمة تحقيقه للحماسة المغربية .
- 20 - التكملة 128/1 - 129 والإعلام بمن حل مراكش 115/2 ، أبو تمام وأبو الطيب ، ص . 82 .
- 21 - وفيات الأعيان 12/7 .
- 22 - نفسه 136/7 - 137 والإعلام بمن حل مراكش 115/2 ودليل مؤرخ 422/2 - 423 ، أبو تمام وأبو الطيب ، ص . 82 .
- 23 - الفصون البانعة ، ص . 99 - 100 .
- 24 - ص . 163 مادة (جراوة) .
- 25 - 65/1 ، لمؤلف مجهول نشره بروفنسال .

- 26 - الواقعي بالوفيات .
- 26م - أشار الدكتور ابن شريفة إلى هذه النسخة في كتابه ، أبو تمام وأبو الطيب ، ص . 82 .
- 27 - مقدمة الحماسة المغربية .
- 28 - نقلا عن الدكتور ابن شريفة في كتابه أبو تمام وأبو الطيب ، ص . 82 .
- 28م - سياسة Beaza يفتح الباء الموحدة والياء المشددة المثناة من تحتها ، وهي مدينة كبيرة في الأندلس تقع على مسافة عشرين ميلا من كورة جيان ، وتطل على النهر الكبير . انظر : المشترك وضعاً لياقوت الحموي ، ص . 73 ووفيات الأعيان 244/7 ومعجم مقيدات ابن خلكان ، ص . 61 لعبد السلام محمد هارون والروض المعطار 121 - 122 .
- 29 - وفيات الأعيان 238/7 .
- 29م - الوفيات 239/7 ، وانظر كذلك : كشف الظنون 692/1 وبغية الوعاة 359/2 وشلوات الذهب م . 3 ج 5 . ص . 262 - 263 والفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص . 119 وهدية العارفين 554/2 وتاريخ الأدب العربي 140/6 والأعلام 249/8 وتهذيب سهر أعلام النبلاء 310/3 - 311 وتخريج الدلالات السمعية ، ص . 614 ؛ 797 وسهر أعلام النبلاء 339/23 ومعجم المؤلفين 327/13 وحماسة أبي تمام وشروحها ، ص . 52 - 53 .
- 30 - المصدر السابق 239/7 .
- 31 - نفسه 243/7 .
- 32 - نفسه 239/7 .
- 33 - أبو العباس الجراوي ، 528-609 هـ / 1133 - 1212 م شاعر المرحدين ؛ حياته وشخصيته ، شاعريته وشعره ، تقويم فني لشعره ؛ الحماسة المغربية ، ص . 171 .
- 34 - وانظر كذلك : مجلة رسالة المغرب ج 7 س 1 ، 10 صفر 1962 - 1943/2/15 ، ص . 12 .
- 35 - 10/1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1411 هـ - 1991 م .
- 36 - 10/1 ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، 1383 هـ - 1964 م .
- 36م - CARL BROKELMANN, GESCHICHTE DER ARABISCHEN LITTERATUR, GAL(S) BDI, S-36 82, E, J BRILL, LEIDEN 1943 UND SUPP. L. I, S. 41, E. J. BRILL, LEIDEN 1937.
- 37 - انظر قصيدة أندلسية نادرة للرمادي وهو بالسجن ، تحقيق وتقديم الأستاذ عبد العزيز السائوري ، مجلة المناهل عدد 40 .
- 37م - GESCHICHTE DES ARABISCHEN SCHRIFHUMS band II; S 74 - 75 , LEIDEN. E. J. BRILL 1975.
- 38 - تقع الأرجوزة في عشر ورقات .
- 38م - "Katalog der orientalischen Handschriften der Herzoglichen bibliothek ZU GOTH A" III, 1, S. 40.
- 39 - في المصادر العربية لتاريخ المغرب 1/62 ، رقم 122 يحمل رقم 192 ، والصواب ما أثبتناه .
- 40 - أبو تمام وأبو الطيب ، ص . 62 .

FORSCHUNGS- UND LANDESBIBLIOTHEK GOTHA

FORSCHUNGS- UND LANDESBIBLIOTHEK GOTHA
SCHLOSS FRIEDENSTEIN · POSTFACH 30 · D-9800 GOTHA

Herrn
Abdelaziz Essaouri

B.P 773

Rabat-Agdal
Marokko

Ihre Zeichen

Ihre Nachricht vom 27.1.92

Unsere Zeichen

St-We

Datum 19.2.1992

Sehr geehrter Herr Essaouri,

mit Dank bestätigen wir den Eingang Ihres Schreibens und des von Ihnen unterzeichneten Verpflichtungsscheines.

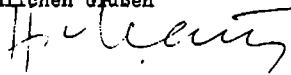
In Ihrem ersten Schreiben äußerten Sie den Wunsch nach einer Kopie der "Al-Hamasa al-Magribiya" von al-Bayasi,

laut GAL (Brockelmann) und GAS (Sezgin) vorhanden in unserer Handschrift Ms. orient. A 13. In beiden Nachschlagewerken fehlt aber die Information, daß Ms. orient. A 13 nur ein Fragment der Hamasa auf Bl. 2a enthält. Unser "Katalog der orientalischen Handschriften der Herzoglichen Bibliothek zu Gotha" III/1, S. 40, von W. Pertsch (siehe Kopie) ist genauer; er sagt aus, daß die Hamasa der erste von mehreren kurzen Auszügen aus Werken verschiedensten Inhalts ist. Die beiliegende Kopie aus Ms.orient. A 13, Bl. 2a, wird Ihnen bestätigen, was wir in unserem Schreiben vom 6.1.1992 mitteilten: Das Hamasa-Fragment beginnt auf Zeile 1 und endet mit Zeile 8 mit den Worten

"wa-sawwada 'asru 'a-saw'i gayra 'l-musawwad".

Da Sie ausdrücklich die Hamasa bestellt hatten und diese nicht mehr als eine Fotokopie erfordert, waren wir gesonnen, diese kostenlos an Sie abzugeben, um ein umständliches und langwieriges Zahlungsverfahren per Vorausrechnung zu vermeiden. Falls Sie auch jetzt noch an den anderen Textfragmenten aus Ms. orient. A 13 interessiert sind, müßten wir auf Ihre Bestellung hin eine solche Vorausrechnung ausstellen. Erst nachdem Sie diese beglichen haben, erhalten Sie die Fotokopien von uns zugesandt.

Mit freundlichen Grüßen



Dr. Helmut Claus
Direktor

Anlage

فايدة من مجموع تاريخ مصر للشيخ حسن بن حسين
الطولوني

3. Fol. 5^b: Ein über الصلاة und الوضو handelnder Abschnitt, überschrieben حيفة على مذهب ابي حنيفة (nach der gewöhnlichen Doxologie) mit den Worten فصل في بيان شروط الصلاة وهي ستة الاول الوضو بالما المطلق او التيمم مما يكون من جنس الارض beginnend.

9 beschriebene Blätter; gewöhnliches, deutliches Naschi mit 23 Zeilen auf der Seite. Abschrift vom Schaich (?) محمد الفقى im Jahre 1063 angefertigt.

13.

(arab. 569, s; Stz. Dam. 40, s.)

Kurze Auszüge aus Werken des verschiedensten Inhalts; der Haupttheil ist eine Argûzah des Ibn Sinâ († 428) über Anatomie (في تشريح البدن), die ich nirgends erwähnt finde. Den Anfang macht ein Auszug aus der Hamâsah von البياسى († 653, s. II. Ch. III, 116).

Anfang: انشد البياسى رحمه الله في حماسته لقيس بن الخطيم
الاوسى الظفرى

der Argûzah:

الحمد لله على تهذيبى وعصمتى من امم تهذى بى

11 Blätter; ziemlich altes Naschi mit 17 Zeilen auf der Seite. Randnoten.

14.

(Möll. 546; Stz. Hal. 487.)

Eine Sammelhandschrift, in welcher der Eigenthümer eine grosse Anzahl kurzer Notizen, Auszüge und Gedichte, vorwiegend in arabischer, hie und da auch in türkischer Sprache einschrieb. Wer dieser Mann, der die Hs. anlegte, war, kann ich nicht sagen; später fügten zwei kräftigere Hände noch einige wenige Auszüge hinzu, wo sie gerade Platz fanden, und diese letzteren Hände gehörten, wie sich aus zwei Notizen auf Fol. 43^a u. 47^b (لکاتبه) ergibt, einem حسين بن احمد المهنوی und einem ابو الفاء بن عمر العرضی الشافعی zu. Aus dem Inhalt der Hs. hebe ich Folgendes hervor:

1. Fol. 5^a: Titulaturen von Fürsten und Grossen. — 2. Fol. 6^b: Eben solche Titulaturen von verschiedenen Personen (beginnend mit محمّد افندی بن ابراهيم), (خطیب und مقتی, مفسّر). Die Abhandlung wird ein „Baum“ (شجرة) genannt, wahrscheinlich, weil die Titulaturen sich columnenweise an die Vorrede anschliessen, wie die Äste an den Stamm eines Baumes. Anfang: الحمد لله الذى جعل فى الوجود سادات هم سادات الوجود.
3. Fol. 12^b: Einige Briefe. — 4. Fol. 14^a: Zwei خطبة النكاح. — 5. Fol. 15^a: Tabellarische Übersicht über das, was der Jüngling (الولد) sich einprägen soll, wonach der Mann an einer Frau nicht streben soll, was er derselben gegenüber zu beobachten hat, wie man sich bei Erwerb, Erhaltung und Verausgabung des Geldes verhalten soll. — 6. Fol. 16^b: Philosophische Definitionen und Erörterungen über die Elemente (جوهر), das Wahrnehmen (حس), u. s. w. — 7. Fol. 17^b: Zwei türkische Ghazelen von باقى (s. meinen Katalog der türkischen Hss., Nr. 188). — 8. Fol. 18^a: Einige dergleichen von فخرى. — 9. Fol. 18^b: Tabellarische Zusammenstellung dessen, was Jemand, der nach Vervollkommenung seines Innern strebt, zu beobachten hat. — 10. Fol. 19^b: Eine längere Abhandlung über den Begriff des Wortes طب. — 11. Fol. 20^b: Medicinische Notizen über Pest, Blattern etc. — 12. Fol. 21^a: Kalendertabellen (nach den muham-

ما تبقى من (حماسة البياسي) أو (الحماسة البياسية)

[مقدمة]

صلى الله على سيدنا محمد وآله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الحافظ أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم
[البياسي] ⁽¹⁾ الأنصاري وفقه الله :

[الحمد لله الذي عم بجوده ونواله وشمل بإحسانه وأفضاله وصلى الله على
سيدنا محمد وآله] ⁽²⁾ .

[أما بعد : فياني قد كنت في أوان حدائتي وزمان شببتي ، ذا ولوع بالأدب
ومحبة في كلام العرب ، ولم أزل متتبعا لمعانيه ، ومفتشا عن قواعده ومبانيه ، إلى أن
حصلت لي جملة منه لا يسع الطالب المجتهد جهلها ، ولا يصلح بالنظر في هذا العلم إلا
أن يكون عنده مثلها ، وحملتني المحبة في ذلك العلم والولوع به على أن جمعت مما اخترته
واستحسنته من أشعار العرب : جاهليها ومخضرميها وإسلاميها ومولدها ، ومن أشعار
المحدثين من أهل المشرق والأندلس وغيرهم ، ما تحسن به المحاضرة وتحمل عليه المناظرة .
ثم إنني رأيت أن بقاءها دون أن تدخل تحت قانون يجمعها ، وديوان يؤلفها ، مؤذن بذهابها
ومؤد إلى فسادها ، فرأيت أن أضم مختارها وأجمع مستحسنها ، تحت أبواب تقيد نافرها
وتضم نادرها ، ونظرت في ذلك ، فلم أجد أقرب تبويب ، ولا أحسن ترتيب ، مما بوبه
ورتيبه أبو تمام حبيب بن أوس رحمه الله تعالى في كتابه المعروف بكتاب " الحماسة "
وحسن الاقتداء به والتوخي لمذهبه ، لتقدمه في هذه الصناعة ، وانفراده منها بأوفر حظ
وأنفس بضاعة ، فاتبعت في ذلك مذهبه ونزعت منزعه ، وقرنت الشعر بما
يجانسه ، ووصلته بما يناسبه ونقحت ذلك ، واخترته على قدر استطاعتي ، وبلوغ جهدي
وطاقتي] ⁽³⁾ .

(1)

أنشد البياسي رحمه الله في حماسته لقيس بن الخطيم الأوسي الظفري ⁽⁴⁾ : (من الطويل) .

وَأِنِّي لَأُغْنِي النَّاسَ عَنْ كُلِّ وَاعِظٍ ⁽⁵⁾	يَرَى النَّاسَ ضُلَالًا وَلَيْسَ بِمُهْتَدِي
وَذِي شَيْمَةٍ عَسْرَاءَ تَكَرَّهَ ⁽⁶⁾ شَيْمَتِي	أَقُولُ لَهُ دَعْنِي وَنَفْسَكَ أُرْشِدِ
فَمَا الْمَالُ وَالْأَخْلَامُ ⁽⁷⁾ إِلَّا مُعَارَةٌ	فَمَا اسْطَغْتِ مِنْ مَعْرِفِهَا فَتَزَوَّدِ
مَتَى مَا تَقْدُ بِالْبَاطِلِ الْحَقُّ يَأْبَهُ	وَإِنْ تَقْدُ الْأَطْوَادَ بِالْحَقِّ ⁽⁸⁾ تَنْقُدِ
إِذَا ⁽⁹⁾ مَا أَتَيْتِ الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ	ضَلَلْتَ وَإِنْ تَدْخُلِ مِنَ الْبَابِ تَهْتَدِ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُفْضِلْ وَلَمْ يَلْقَ نَجْدَةً	مَعَ الْقَوْمِ فَلْيَقْعُدْ بِصُفْرِ وَيَبْعُدِ
أَرَى كَثْرَةَ الْمَعْرُوفِ يُورِثُ أَهْلَهُ	وَسَوْدَ عَصْرِ السُّوءِ غَيْرَ الْمَسْرُودِ

(مخطوط جوتا Ms. Orient. A 13, BL. 2 a GOTHA) .

(2)

وأنشد لبعض المولدين ⁽¹⁰⁾ : (من البسيط) .

الْعَفْوُ أَوْلَى بِمَنْ كَانَتْ لَهُ الْقُدْرُ	لَا سِيْمَا عَنْ مُقِرِّ لَيْسَ يَنْتَصِرُ
أَقْرَبُ بِالذَّنْبِ إِجْلَالًا لِسَيِّدِهِ	فَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَعْتَذِرُ

(مخطوط جوتا Ms. Orient. A 13, BL. 2 a GOTHA) .

(3)

وقال الحسن بن هاني أبو نواس ⁽¹¹⁾ : (من الطويل) .

أَلَا كُلَّ حَيٍّ ⁽¹²⁾ هَالِكٌ ⁽¹³⁾ وَإِنْ هَالِكِ	وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقِ
إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لِبَيْبٍ تَكْشَفَتْ	لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

(مخطوط جوتا Ms. Orient. A 13, BL. 2 a GOTHA) .

(4)

وقال علي بن العباس الرومي⁽¹⁴⁾ : (من الطويل) .
فَلَا تَحْسِبِ الدُّنْيَا إِذَا مَا سَكَنْتَهَا . قَرَارًا فَمَا دُنْيَاكَ غَيْرُ طَرِيقٍ
(مخطوط جوتا Ms. Orient. A 13, BL. 2 a GOTHA) .

(5)

قال صالح بن عبد القدوس⁽¹⁵⁾ : (من الكامل) .
لَا تَأْمَنَنَّ أَخَا الْعَدَاوَةِ إِنَّهُ إِنَّ أُمُكْتَنَّهُ فُرْصَةً مُسْتَأْسِدُ
لَا تَيَأْسَنْ مِنْ أَنْفِرَاجٍ شَدِيدَةٍ قَدْ تَنْجَلِي الْغَمَرَاتُ وَهِيَ شَدَائِدُ
(مخطوط جوتا Ms. Orient. A 13, BL. 2 a GOTHA) .

(6)

أشار محقق كتاب **مطمح الأنفس ومسرح التأنس** في حاشية ص . 369 أن
إحدى النسخ التي اعتمد عليها وهي (ل)⁽¹⁶⁾ ذكرت بعضاً من ترجمة ابن البني نقلاً عن
البياسي في الحماسة ، قال ناسخها : قال البياسي في حماسته : هو أبو جعفر أحمد بن
الحسين بن خلف بن البني الأبيدي اليعمري ، والبنّي بكسر الباء وتشديد النون والأبيدي
بضم الهمزة وتشديد الباء الموحد وبعدها دال مهملة ، هذه النسبة إلى بلدة بالأندلس من
كورة جيان بناها عبد الرحمان بن الحكم وجدها ابنه محمد⁽¹⁷⁾ .
(**مطمح الأنفس** ص . 369 هامش رقم 1) .

(7)

قال علي بن محمد بن سعود الخزاعي : وقد جاء ذكر الرطل في أشعار العرب ،
قال النابغة الجعدي⁽¹⁸⁾ : (من الطويل) .

نُحَلِّي بِأَرْطَالِ اللَّجَيْنِ سُبُوقَنَا وَنَعْلُو بِهَا يَوْمَ الْهَيْجِ السَّنُورَا (19)
أنشده البياسي في " حماسته " مع أبيات من قصيدة له (20) .

(تخريج الدلالات السمعية ص . 614) .

(8)

وأنشد مؤرخ الأندلس أبو الحجاج البياسي لأبي جعفر بن البني: (من الكامل) .
يَا مَنْ قَصَدْتُ إِلَيْهِ أَلْتَمَسُ الْغِنَى وَالنَفْسُ مَقْرُونٌ بِهَا إِتْلَافُهَا
وَعَبَّرْتُ لُجَّةَ زَاخِرِ ذِي سَطْوَةٍ يَخْشَى الرُّدَى صَوْلَاتِهَا وَيَخَافُهَا
فَكَأَنَّ شُهْبَ النِّجْمِ قَدْ غَرِقَتْ بِهِ فَطَقَّتْ عَلَى أُمُوجِهِ أَعْرَافُهَا (21)
(رايات المبرزين ص . 129) .

(9)

وأنشد أبو الحجاج البياسي مؤرخ الأندلس لأبي الأصمغ عيسى بن عبد الملك بن قزّمان : (من الطويل) .
وَمِمَّا شَجَانِي هَاتِفُ يَنْعَثُ الْأَسَى فَهَيْجَ مَنْ قَلْبِي وَمِنْ حَفَقَانِهِ
يَكَادُ الْقَضِيبُ اللَّذْنُ يَعْشَقُ قَدَّهُ فَيُذْهِلُّهُ بِالْمَيْسِ عَنْ طَيْرَانِهِ
(المغرب في حلى المغرب 1/ 210) .

(10)

قال أبو القاسم ابن أبي العلاء الشاعر الأصبهاني : رأيت في المنام قائلاً يقول لي : لم لم ترث الصاحب [بن عباد] مع فضلك وشعرك ؟ فقلت : أجمتني كثرة محاسنه فلم أدر بمَ أبدأ منها ، وقد خفت أن أقصر وقد ظن بي الاستيفاء لها ، فقال : أجز ما أقوله ، فقلت : قل (22) ، فقال : (من الطويل) .

ثَوَى الجودُ والكافي معاً في حَفيرةٍ فقلت :

ليَأْتِسَ كُلُّ منهما بأخيهِ . فقال :

هما اصطحبَا حَيَّينِ ثم تَعَانَقَا فقلت :

ضَجِيعَيْنِ في لَحْدٍ يَبَابُ دَرِيهِ ⁽²³⁾ فقال :

إذا ارْتَحَلَ الثَاوُونَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِمْ فقلت :

أَقَامَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيهِ

ذَكَرَ هَذَا الْبِيَّاسِيُّ فِي " حِمَاسَتِهِ " .

(وفيات الأعيان 231/1 - 232) .

(11)

قال ابن خلكان : وأما أبو بكر بن اللبانة المذكور فما رأيت تاريخ وفاته في شيء من الكتب ولا رأيت من يعلم ذلك ، لكن رأيت في كتاب الحماسة التي صنفها أبو الحجاج يوسف البياسي . . . أن ابن اللبانة قدم مَبْرُورَةً في آخر شعبان سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بأبيات أولها : (من الكامل) .

مَلِكُ يَرَوُعُكَ فِي حُلَى رَيَّاعِنِهِ رَأَيْتُ بِرَوْتِقِهِ صِفَاتُ زَمَانِهِ

وكنيت أظن أنه مات قبل المعتمد ، لأنني ما رأيت له فيه مرثية ، إلى أن رأيت ما قاله البياسي ، والله تعالى أعلم .

(وفيات الأعيان 39/5) .

(12)

وقال البياسي في " حماسته " : هو أبو جعفر أحمد بن الحسين بن خلف بن البني اليعمري الأبدى ، والله أعلم ، إلا أنه لم يذكر هذه الأبيات ⁽²⁴⁾ ، ثم أورد البياسي لأبي

جعفر المذكور⁽²⁵⁾ : (من الخفيف) .

صَدْنِي عَنْ حَلَاوَةِ التَّشْيِيعِ اجْتَنَابِي⁽²⁶⁾ مَرَارَةَ التَّوْدِيعِ
لَمْ يَقُمْ أَنَسُ ذَا بَوْحَشَةٍ هَذَا فَأَيُّتُ الصُّوَابَ تَرَكُ الْجَمِيعِ
وله في صفة قنديل⁽²⁷⁾ : (من الوافر) .

وَقَنْدِيلٌ كَانَ الضَّرْوُ فِيهِ مَحَاسِنُ⁽²⁸⁾ مِنْ أَحَبُّ وَقَدْ تَجَلَّى⁽²⁹⁾
أَشَارَ إِلَى الدُّجَى بِلِسَانٍ أَفْعَى فَشُمِرَ ذَيْلُهُ فُرْقًا وَلَّى
(وفيات الأعيان 132/7 - 133) .

(13)

قال ابن خلكان : فمن ذلك ما ذكره في باب المرائي ، قال أبو علي القالي
البغدادي : أنشدنا أبو بكر بن دريد قال : أنشدنا أبو حاتم السجستاني⁽³⁰⁾ : (من
الطويل) .

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَاذَا تَضَمَّنْتُ بطونُ الثرى واستودعَ البلدُ القفرُ
بُدُورُ إِذَا الدُّنْيَا دَجَّتْ أَشْرَقَتْ بِهِمْ وَإِنْ أَجْدَبَتْ يَوْمًا فَأَيْدِيهِمْ الْقَطَرُ
فِي شَامَتَا بِالْمَوْتِ لَا تَشْمَتَنَّ بِهِمْ حَيَاتُهُمْ فَخَرُّ وَمَوْتُهُمْ ذِكْرُ
حَيَاتُهُمْ كَانَتْ لِأَعْدَائِهِمْ عَمَى وَمَوْتُهُمْ لِلْفَاخِرِينَ بِهِمْ فَخَرُ
أَقَامُوا بظَهْرِ الْأَرْضِ فَاخْضَرُّ عَوْدُهَا وصاروا ببطنِ الْأَرْضِ فاستوحش الظَّهْرُ⁽³¹⁾
(وفيات الأعيان 239/7 - 240) .

(14)

قال ابن خلكان : ونقلت من باب النسيب قول العباس بن الأحنف⁽³²⁾ : (من
الطويل) .

تَحْمَلُ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِنْ تَحِبُّهُ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا فَقُلْ أَنَا ظَالِمُ

فإنك إن لم ⁽³³⁾ تغفر الذنب في الهوى يُفارقك مَنْ تهوى وأنفك راغم
(وفيات الأعيان 240/7) .

(15)

وقول الوأواء الدمشقي ، هكذا قال [البياسي] ، قال ابن خلكان : وغالب ظني
أنها لأبي فراس بن حمدان ، والله أعلم ⁽³⁴⁾ : (من البسيط) .
بالله ريگما عوجا على سگني وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بي وقولا في حديثكما ⁽³⁵⁾ ما بال عبديك بالهجران تثلثه
فإن تبسم قولا في ⁽³⁶⁾ ملاطفة ما ضر لو بوصول منك تسعفه
وإن بدا لكما من سيدي غضب فغالطاه وقولا ليس نعرفه
(وفيات الأعيان 240/7) .

(16)

وقول المجنون ⁽³⁷⁾ : (من الطويل) .
تعلقت ^(ا) ليلي وهي بكر ^(ب) ⁽³⁸⁾ صغيرة ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرتين نرعى البهائم باليت أننا إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهائم
البهائم : الصغار من أولاد الضأن ، الواحدة بهيمة ، بفتح الباء الموحدة وسكون
الهاء . وهذان البيتان يستدل بهما النحاة على انتصاب الحال من الفاعل والمفعول به معاً
بلفظ واحد ، فإن " صغيرين " انتصب على الحال من التاء في قوله " تعلقت " وهي
فاعلة ، ومن " ليلي " ، وهي مفعولة ، ومثله قول عنتره العبسي ⁽³⁹⁾ : (من الوافر) .
متى ما تلقني فردين ترجف روائف أليتيك وتسطارا
نصب " فردين " على الحال من ضمير الفاعل والمفعول في " تلقني " ، ذكره ابن

الأثباتي في كتاب أسرار العربية (190 - 191) في باب الحال .

(وفيات الأعيان 240/7 - 241 وشذرات الذهب م. 3 ج. 5 ص. 262) .

(17)

وقول الوأواء الدمشقي أيضا ، ذكره في حماسته البياسي المذكور أيضا (40) :
(من البسيط) .

وزائري راع كل⁽⁴¹⁾ الناس⁽⁴²⁾ منظره
ألقى على الليل ليلا من ذوائبه
أراد بالقتل⁽⁴³⁾ هجري⁽⁴⁴⁾ فاستجرت به
فصرت⁽⁴⁵⁾ فيه أمير العاشقين فقد⁽⁴⁶⁾
أحلى من الأمن عند الخائف الوجيل
فهابه الصبح أن يبدو من الخجل
فاستل بالوصل روحى من يدي أجلى
صارت⁽⁴⁷⁾ ولاية أهل العشق من قبلى

(وفيات الأعيان 241/7 وشذرات الذهب م. 3 ج. 5 ص. 262) .

(18)

وقال علي بن عطية البلنسي بن الزقاق⁽⁴⁸⁾ : (من الطويل) .

ومرئجة الأعطاف أما قوامها
ألت فبات الليل من قصر بها
ويت وقد زارت بأنعم⁽⁵⁰⁾ ليلة⁽⁵¹⁾
على عاتقي من ساعديها حمائل⁽⁵³⁾
فكدن وأما ردقها فرداح
يطير⁽⁴⁹⁾ وما غير السرور جناح
تعانقني⁽⁵²⁾ حتى الصباح صباح
وفي خصرها من ساعدي وشاح

(وفيات الأعيان 241/7 وشذرات الذهب م. 3 ج. 5 ص. 262 - 263) .

(19)

وقال أحمد بن الحسين بن خلف المعروف بابن البني اليعمري . . . وكان قد

أخرجه صاحب ميورقة ، وسيره في البحر ، فساروا يومهم ، فهبت عليهم الريح فردتهم فقال (54) : (من الوافر) .

أَحْبَبْنَا الْأَلَى (55) عَتَبُوا عَلَيْنَا فَأَقْصَوْنَا (56) وَقَدْ أَزِفَ السُّودَاعُ
لَقَدْ كُنْتُمْ لَنَا جَذَلًا وَأَنْسَاءً فَهَلْ فِي الْعَيْشِ بَعْدَكُمْ انْتِفَاعُ
أَقُولُ وَقَدْ صَدَرْنَا بَعْدَ يَوْمٍ أَشَوْقُ بِالسَّفِينَةِ أَمْ نَزَاعُ
إِذَا طَارَتْ بِنَا حَامَتْ عَلَيْكُمْ كَأَنَّ قُلُوبَنَا فِيهَا شِرَاعُ
(وفيات الأعيان 241/7 - 242) .

(20)

وقال الواصل بالله وله فيه غناء : (من البسيط) .

مَا كُنْتُ أَعْرِفُ مَا فِي الْبَيْنِ مِنْ حَزَنٍ حَتَّى تَنَادَوْا بِأَنْ قَدْ جِيءَ بِالسُّفْنِ
قَامَتْ تَوَدُّعُنِي وَالِدَمْعُ يَغْلُبُهَا فَجَمَجَمَتْ بَعْضُ مَا قَالَتْ وَلَمْ تُبْنِ
مَالَتْ عَلَيَّ تُفْدِينِي وَتَرْشُقُنِي كَمَا يَمِيلُ نَسِيمُ الرِّيحِ بِالْقُصْنِ
فَأَعْرَضَتْ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ بِأَكْبَى يَا لَيْتَ مَعْرِفَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَكُنْ
(وفيات الأعيان 242/7) .

(21)

قال ابن خلكان : وأورد في باب القرى والأضياف والفخر والمديح قول أبي الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي (57) : (من مجزوء الكامل) .

عَجِبًا لِمَنْ طَلَبَ الْمَحَا مِدَّ وَهُوَ يَمْتَنِعُ مَا لَدَيْهِ
وَلِبَاسِطٍ أَمَالَهُ لِلْمَجْدِ (58) لَمْ يَنْسُطْ يَدَيْهِ
لِمَ لَا أَحَبُّ الضُّيُفِ أَوْ أَرْتَاحُ مَنْ طَرَبَ إِلَيْهِ

والضيفُ يأكلُ رِزْقَهُ عندي ويحمَدُنِي عليه

(وفيات الأعيان 242/7) .

(22)

ومما ينسب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال حين كُفَّ بصره (59) :
(من البسيط) .

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا ففِي لِسَانِي وَقَلْبِي (60) مِنْهُمَا نُورُ
قَلْبِي ذِكْرِي وَذَهْنِي (61) غَيْرُ ذِي دَخَلٍ (62) وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَيْفِ مَطْرُورٌ (63)

(وفيات الأعيان 242/7 - 243) .

(23)

قال ابن خلكان : وذكر في باب الهجاء والعتاب وما يتعلق بهما لأبي العالية
أحمد بن مالك الشامي (64) : (من المنسرح) .

أَذُمُّ بَغْدَادَ وَالْمَقَامَ بِهَا مِنْ بَعْدِ مَا خَبَرْتُ وَتَجَرَّبْتُ
مَا عِنْدَ أَمْلَاكِهَا (65) لِمُرْتَقِبٍ (66) رَفَدُ (67) وَلَا فَرْجَةً لِمَكْرُوبٍ
خَلُّوا سَبِيلَ الْعَلَى لِغَيْرِهِمْ وَنَازَعُوا (68) فِي الْفُسُوقِ وَالْخُوبِ
يَحْتَاجُ رَاجِي النِّجَاحِ عِنْدَهُمْ (69) إِلَى ثَلَاثٍ مِنْ بَعْدِ تَقَرُّبٍ (70)
كَنُوزِ قَارُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ وَعُمْرُ نُوحٍ وَصَبْرُ أَبِيوَبٍ

(وفيات الأعيان 243/7) .

(24)

وأشدد أبو بكر محمد بن يحيى الصولي لأبي العطف الكوفي صالح بن عبد
الرحمن بن نشيط : (من مجزوء الكامل) .

يا ابن الوليدِ أبْنُ لنا إنَّ البِيانَ لَهُ حَدودُ
 مَالِي أَرَاكَ مُسَيِّباً أَيْنَ السَّلَاسِلُ وَالْقِيودُ
 أَغْلًا الحَدِيدَ بِأَرْضِكُمْ أَمْ لَيْسَ يَضِطُّكَ الحَدِيدُ
 (وفيات الأعيان 243/7) .

[آخر الكتاب]

[وكان الفراغ من تأليفه وترتيبه بمدينة تونس ، حرسها الله تعالى في شوال سنة
 ست وأربعين وستمائة] ⁽⁷¹⁾ .

الهوامش

- 1 - زيادة توضيحاً لاسم المؤلف .
- 2 - شرح رسالة ابن حريق للبياسي ، ص . 84 مخطوط مكتبة الزاوية الحمزاوية (أهل زاوية سيدي حمزة) رقم 132 ،
وعنها مصورة في الخزنة العامة للمكتب والوثائق - قسم المخطوطات - بالرباط تحت رقم 143 فيلم .
- 3 - وفيها الأعيان 239/7 .
- 4 - الأبيات في ديوانه ، ص . 128 - 129 .
- 5 - في الديوان : " مُتَكَلِّفٌ " .
- 6 - في الديوان : " تَسْخَطُ " .
- 7 - في الديوان : " الْأَخْلَاقُ " .
- 8 - في الديوان : " وَإِنْ قُدَّتْ بِالْحَقِّ الرُّوَاسِي " .
- 9 - في الديوان : " مَتَى " .
- 10 - لم أعر عليها في المصادر .
- 11 - البيتان في ديوانه ، ص . 621 ومجموعة شعرية خ . ع . ج . سنة 1972 إقليم الرباط تحت رقم 120/430 ر
ص . 54 .
- 12 - في مجموعة شعرية : " وما الناس إلا " .
- 13 - في ديوانه : " أَرَى كُلَّ حَيٍّ هَالِكًا " .
- 14 - البيت في ديوانه 1706/4 .
- 15 - تعذر الحصول على ديوانه .
- 16 - يقصد نسخة مكتبة ليبزغ بألمانيا وهي مسجلة تحت رقم 546 .
- 17 - أنظر ترجمته في مطمح الأنفس ، ص . 369 - 374 ورايات المبرزين ، ص . 128 - 129 رقم 122 والمغرب
357/2 - 360 رقم 572 وقلائد العقيان 3 - 868/4 - 875 .
- 18 - البيت في ديوانه ، ص . 51 .
- 19 - السُّنُورُ : الدروع . أنظر مادة (سُر) في لسان العرب 381/4 .
- 20 - مطلعها :

خَلِيلِي غُضًّا سَاعَةً وَتَهَجَّرَا وَلَوْ مَا عَلَى مَا أَحْدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرَا

وهي في مائة وعشرين بيتاً . أنظرها في ديوانه ، ص . 35 - 59 .

- 21 - أعراف الرياح والسحاب : أوائلها وأعلىها .
 - 22 - يسمى د . محمد بن شريفة هذه الظاهرة : قال : فقلت " المقالوة " من حديث إذاعي له بتاريخ 16 مارس 1992 .
 - 23 - دزاه : من مشاهير قرى الري كالمدينة كبرا . أنظر : معجم البلدان 4/2 .
 - 24 - التي تروي لمحمد بن سعد بن مردنيش : (من مخلع البسيط) .
- وَحَقَّهَا إِنْهَا جَفُونُ تَسْلُ مِنْ لَحْظِهَا النُّونُ
لَا صَبْرَ عَنْهَا وَلَا عَلَيْهَا الْمَوْتُ مِنْ دُونِهَا يَهُونُ
لَأَرْكَبَنَّ الْهَوَى إِلَيْهَا يَكُونُ فِي ذَاكَ مَا يَكُونُ

قال ابن خلكان : ثم وجدت هذه الأبيات في كتاب " الملح " لابن القطاع وقد نسبها إلى أبي جعفر أحمد بن صمادح البني ، والله أعلم .

- 25 - البيتان في **قلائد العقيان** 3-870/4 .
- 26 - في **قلائد العقيان** : " اجتنائي " .
- 27 - البيتان في **المطرب** ، ص . 125 .
- 28 - في **المطرب** : " مُحَيَّا " .
- 29 - في **المطرب** : " إذا " .
- 30 - الأبيات في **الأماهي** 119/2 .
- 31 - في **الأصل** : " الطهر " ، والصواب ما أثبتناه ردا للمعجز على الصدر .
- 32 - البيتان في **ديوانه** ، ص . 243 .
- 33 - في **ديوانه** : " إلا " .
- 34 - الأبيات في **ديوانه** ، ص . 146 - 147 ، وأشار محققه في حاشية ، ص . 147 أنه حين نشر ديوان أبي فراس لم يقع على هذه الأبيات منسوبة إلى شاعر بني حمدان ، رغم اطلاعه على أربعين نسخة خطية لشعره .
- 35 - في **ديوانه** : " كلامكما " .
- 36 - في **ديوانه** : " عن " .
- 37 - البيت في **ديوانه** ، ص . 186 رقم 236 .
- 38 - في **ديوانه** : " غر " .
- أ - في **شذرات الذهب** : " وعلقت " .
- ب - في **شذرات الذهب** : " غر " .
- 39 - البيت في **ديوانه** ، ص . 43 .
- روانف ج . رانفة = أسفل الألية الذي يلي الأرض عند القعود .
- الألية : ما ركب المعجز .
- 40 - الأبيات في **ديوانه** ، ص . 180 - 181 .
- 41 - في **ديوانه** : " وجه " .
- 42 - في **ديوانه** : " الين " .
- 43 - في **ديوانه وشذرات الذهب** : " بالهجر " .
- 44 - في **ديوانه وشذرات الذهب** : " قتلي " .
- 45 - في **ديوانه** : " قد صرت " وشذرات الذهب : " وصرت " .
- 46 - في **ديوانه وشذرات الذهب** : " وقد " .
- 47 - في **ديوانه** : " أضحت " .
- 48 - الأبيات في **ديوانه** ، ص . 129 رقم 24 .
- 49 - في **ديوانه** : " ولا " .
- 50 - في **شذرات الذهب** : " لنا نعم " .
- 51 - في **شذرات الذهب** : " ليله " .

- 52 - في ديوانه : " يعانقني " .
- 53 - في شلوات الذهب : " خمانل " .
- 54 - الأبيات في مطمح الأنفس ، ص . 373 وقلائد العقيان 3-4-872-873 والمغرب 2/359 .
- 55 - في الأصل : " الأولى " ، والصواب ما أثبتناه .
- 56 - في مطمح الأنفس وقلائد العقيان : " نأتصرنا " .
- 57 - الأبيات في نفع الطيب 3/596 - 597 والمغرب 2/280 وقلائد العقيان 1/407 .
- 58 - في نفع الطيب : " للغير " وفي المغرب وقلائد العقيان : " في المجد " .
- 59 - البيتان في نكت الهميان ، ص . 71 .
- 60 - في نكت الهميان : " سمي " .
- 61 - في نكت الهميان : " عقلي " .
- 62 - الدخل : ما داخل الإنسان من فساد في العقل أو الجسم .
- 63 - في نكت الهميان : " مأثور " .
- 64 - الأبيات في معجم الهلدان 1/465 - 466 .
- 65 - في معجم الهلدان : " سكانها " .
- 66 - في معجم الهلدان : " لمختبط " .
- 67 - في معجم الهلدان : " خير " .
- 68 - في معجم الهلدان : " ونافسوا " .
- 69 - في معجم الهلدان : " باغى المقام بينهم " .
- 70 - في معجم الهلدان : " تشريب " .
- 71 - قال ابن خلكان : " وقد قرئت النسخة عليه وعليها خطه ، كتبه في أواخر شهر ربيع الآخر سنة خمسين وستمائة " .
- انظر : وفيات الأعيان 7/239 .

المصادر والمراجع

- 1 - ابن سيده آثاره وجهوده في اللغة ، د . عبد الكريم شديد التعميم منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، سلسلة دراسات رقم 368 ، سنة 1984 .
- 2 - أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، د . محمد بن شريفة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1986 .
- 3 - أبو العباس الجراوي ، حسن الشبيهي حسني ، مطبعة محمد الخامس الجامعية ، فاس 1986 .
- 4 - الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخالجي ، القاهرة 1983 .
- 5 - الأعلام للزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ط 4 ، 1979 .
- 6 - إنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت 1986 .
- 7 - بقية الوعاة للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، بيروت ط 2 ، 1979 .
- 8 - تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، ترجمة د . السيد يعقوب بكر ومراجعة د . رمضان عبد التواب ، (ج 5 ، 6) دار المعارف ، القاهرة 1977 .
- 9 - تاريخ التراث العربي ، نؤاد سزكين ترجمة د . محمود فهمي حجازي ، (م 3 ج 1) وزارة التعليم العالي ، الرياض 1983 .
- 10 - تخريج الدلالات السمعية لعلي بن مسعود الخزازي ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ط 1 ، 1985 .
- 11 - التكملة لكتاب الصلة لابن الأثير (نشرة السيد عزة العطار الحسيني) ، مطبعة السعادة ، القاهرة 1955 .
- 12 - تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي ، تحقيق بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1991 .
- 13 - " الحماسة المغربية للجراوي " ، مقال الأستاذ عبد الكريم بن الحسني ، ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية ، ع 9 يونيو 1938 .
- 14 - ديوان ابن الرومي ، تحقيق د . حسين نصار ، (ج 4) مطبوعات مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1978 .
- 15 - ديوان ابن الزقاق البلنسي ، تحقيق عفيفة محمود ديراني ، دار الثقافة ، بيروت (بلا تاريخ) .
- 16 - ديوان أبي نواس ، حققه أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت (بلا تاريخ) .
- 17 - ديوان العباس بن الأحنف ، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي ، مطبعة فضالة ، المحمدية 1977 .
- 18 - ديوان عنصرة ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1978 .
- 19 - ديوان قبس بن الخطيم ، تحقيق د . ناصر الدين الأسد ، دار صادر بيروت ط 2 ، 1967 .
- 20 - ديوان مجنون ليلى ، جمع وتحقيق وشرح عبد الستار أحمد فراج ، مكتبة مصر ، القاهرة (بلا تاريخ) .
- 21 - ديوان الواواء الدمشقي ، تحقيق د . سامي الدهان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق 1950 .
- 22 - الذليل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ت 710 هـ (س 5 ق 1 ، 2 - تحقيق د . محمد بن شريفة و س 5 ق 1 ، 2 تحقيق د . إحسان عباس دار الثقافة ، بيروت بلا تاريخ) ؛ (س 8 ق 1 ، 2 تحقيق د . محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ، مطبعة المعارف ، ط 1 ، 1985) .
- 23 - رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد الأندلسي ، تحقيق الدكتور نعمان عبد المتعال القاضي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة 1973 .

- 24 - الروض المغطار في خبر الأقطار للمحموري ، تحقيق د . إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط 1 (بلا تاريخ) .
- 25 - سير أعلام النبلاء للذهبي ، تحقيق د . بشار عواد معروف ود . محيي هلال السرحان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1985 .
- 26 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبل ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت (بلا تاريخ) .
- 27 - شرح رسالة ابن حريق للبياسي ، مخطوط مكتبة الزاوية الحمزاوية (أهل زاوية سيدي حمزة) ، رقم 132 (فيلم خ . ع الرباط 143) .
- 28 - شرح دبران حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء المعري ، دراسة وتحقيق د . حسين محمد ، نقشة دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1991 .
- 29 - شعر النابغة الجعدي ، تحقيق عبد العزيز رباح ، منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق 1964 .
- 30 - الفصوص البانعة في محاسن شعراء المائة السابعة لابن سعيد الأندلسي - تحقيق إبراهيم الإبياري ، ط 3 دار المعارف ، القاهرة 1977 .
- 31 - الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن القنفذ ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد تركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1968 .
- 32 - فهرسة ابن خير (ت 575 هـ) ، تحقيق كوديرا ورييرا ، أوفست المثنى 1963 عن ط . سرسطة 1893 .
- 33 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد (بلا تاريخ) .
- 34 - المصادر العربية لتاريخ المغرب ، محمد المنوني ، (ج 1) منشورات كلية آداب الرباط 1983 .
- 35 - مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ودار عمار ، عمان ط 1 ، 1983 .
- 36 - معجم البلدان لياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت 1977 .
- 37 - معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى ، دمشق 1961 .
- 38 - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي ، تحقيق د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ط 3 ، 1983 .
- 39 - الوافي بالوفيات للصفي ، تحقيق د . إحسان عباس ، (ج 7) ، ط 1969 .
- 40 - وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار صادر بيروت (بلا تاريخ) .

غريب بدائي

عيد/الرحمان قوري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- بني ملال -

يدخل المنفى صميم الإبداع الأدبي . وكان المبدع شخص مرتحل سقط من الجنة البدئية ، وطرد من بلده لينقطع عن لغته الأم . تلك كانت حياة إيليس ، وحياة الأنبياء ، وحياة كتاب ومبدعين يتأكلهم حنين العودة .

ومنذ أن لامس الإنسان الأرض ، وعانق جسده ثراها تأصل حبها في نفسه ، وتجسد إحساسها في وجوده مجاوبا وتألفا ، لأنه عرف فيها طعم الاستئناس ، ووجد في طبيعتها الحنو والرعاية . فكان الوطن حكاية لما يسمع ، ولونا لكل ما يبهر ، وحسا لكل ما يفعل ويعقل . تعالت نغماته في أعماق الذات ، وتحركت أصداؤه في حنايا النفس .

والحنين إلى الوطن ظاهرة نفسية إنسانية عامة لا يستطيع المرء التخلي عنها مهما بلغ رقيه الحضاري ، وتطوره المادي وسموه الروحي . وقد ساوى القرآن الكريم بين حب النفس وحب الوطن في قوله عز وجل : " ولو أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ " . النساء / 66 .

ولم يستطع الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يكتفم مشاعر اللوعة والحزن وهي تعصر قلبه وقد غادر مكة . فقد روى الأزرقي المتوفى سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة في كتابه أخبار مكة أن الرسول (ص) سأل أصيل الغفاري : " يا أصيل كيف عهدت مكة ؟ فقال والله قد عهدتها قد أخصب جنابها ، وابيضت بطحاؤها وأغدق أذخرها . فقال (ص) : حسبك يا أصيل لا تخزنا . " (1)

وقد برع شعراء عديدون في إبراز هذه العلاقة بين الذات والوطن ، ولله در أبي تمام حيث قال :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحـب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يعشقه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل
وهذه قصيدة القاضي عياض التي تدخل في إطار هذا الشعر ، شعر التغرب ،
ما يجعلها واحدة من عيون الشعر الوجداني .

يقول ابنه أبو عبد الله في تقديم النص : " . . . وله رضي الله عنه ما قاله
ببلد داي عند توجهه لحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وأنشدني غير واحد ممن كان معه حين
صنعه ، وأخذه عنه غير أنه ضاع لي منها بيت واحد . " (2)

أقمرية الأدواح بالله طارحي	أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقنتني من هديلك رنة	تهيج من برحي ورحائي
لعلك مثلي ياحمام فإنني	غريب بداي قد بليت بدا
فكم من فلاة بين داي وسبتة	وخرق بعيد الخافقين قواء
تصفق فيها للرياح لواقع	كما ضععتني زفرة الصعداء
يذكرني سح المياه بأرضها	دموعا أريقته يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها	خائل أشجار ترف رؤاء
لعل الذي كان التفرق حكمه	سيجمع منا الشمل بعد تنائي

هناك سؤالان يجدر بنا الإجابة عنهما قبل الشروع في قراءة النص : أما الأول
فهو هل داي هذه التي ذكرت في النص هي داي المعروفة لدينا هنا في بني ملال ؟ وأما
الثاني ، فهو هل حل فعلا القاضي عياض بمدينة بني ملال ؟

أما عن السؤال الأول ، فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية مانصه :

" فقد كان في تافزة حاضرة الإقليم - إقليم تادلا - على عهده - يقصد المولى
إدريس الثاني - مائتا بيت من بيوت اليهود . وكل هؤلاء كانوا من التجار والصناع ذوي
الثراء . ولا يزال عدد كبير من اليهود يعيش إلى الآن في (بجد) ، وفي (قصبة
بني ملال) . وكانت مدينة داي القديمة تقوم في مكان القصبة . والاسم مدينة داي
عربي بربري معناه فيما يظهر مدينة اليهود " (3) .

وداي هذه ، هي التي عرفها صاحب *الروض المعطار* (محمد عبد المنعم الحميري) بقوله : " داي بأرض المغرب بينها وبين أغمات أربعة أيام ، وبين داي وتادلا مرحلة . وداي في أسفل جبل خارج من جبل درن " (4) .

إذا لم يبق مجال للشك في أن المقصود هو بني ملال فعلا . ومعنى هذا أن النص يدور حول مقابلة بين بني ملال وسبتة .

وأما السؤال الثاني ، وهو هل حل القاضي عياض فعلا ببني ملال ؟ مما لا ريب فيه أن الكلام الذي قدم به ابنه هذه المقطوعة صريح في تبيان ذلك ، حيث قال : " . . . وما قاله ببلد داي عند توجهه إلى حضرة سيدنا أمير المؤمنين " هذا بالإضافة إلى نص آخر عن ابن خلدون يقول فيه : " ولذلك سخطته الدولة - يعني - دولة الموحدين - آخر الأيام حتى مات مغتربا على سبتة مستعملا في خطة القضاء بالبادية من تادلا . رحمه الله " (5) .

ويذكر المقرئ في *أزهار الرياض* نقلا عن ابن رشيد أنه " قال هذه الأبيات حين ولي القضاء بمدينة داي ببلاد تادلة سنة واحد وأربعين وخمسمائة " (6) .

إذا ، فقد كانت بني ملال تسمى داي . وجاء القاضي عياض إلى بني ملال وتولى بها القضاء سنة 541 هـ . ونظرا لأن وفاته كانت سنة أربع وأربعين وخمسمائة فقد ظن بعض الدارسين أن إقامة القاضي عياض في المنفى (داي) استمرت زهاء ثلاث سنوات . وهذا ما لا اعتقده شخصيا . وذلك لعدم وجود دلائل نصية تثبت ذلك . وحيث إن ابنه لم يشير إلى ذلك بثائنا مما يجعله افتراضا ليس إلا (7) .

وتبقى هذه المقطوعة النادرة الشاهد الوحيد على إقامة القاضي عياض بداي لمدة طويلة أو قصيرة . وتبقى أيضا شاهدة على التزام القاضي عياض بمبادئه السياسية إزاء المرابطين في دفاعه عن سبتة دفاعا كلفه الاغتراب .

وتبقى هذه المقطوعة أيضا شاهدة على عبث الأقدار بمصير القاضي عياض ، الذي كان يؤثر الاستقرار والسكينة . وله أبيات ينفر فيها من الأسفار فيقول :

تقعد عن الأسفار إن كنت طالبا نجاة فني الأسفار سبغ عوائق

تَشَوُّقُ إِخْوَانٍ وَفَقْدُ أَحِبَّةٍ وَاَعْظَمُهَا يَصَاحُ سُكْنَى الْفَنَادِقِ
وَكثْرَةُ إِيحَاشٍ وَقِلَّةُ مُؤَنِّسٍ وَتَبْذِيرُ أَمْوَالٍ وَخَيْفَةُ سَارِقِ
فَقَدْ كَانَ ذَا دَهْرٍ أَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَأَعْقَبَهُ دَهْرٌ شَدِيدُ الْمَضَائِقِ
فَهَذَا مَقَالِي وَالسَّلَامُ كَمَا بَدَا وَجَرَّبَ فِي التَّجْرِيبِ عِلْمُ الْحَقَائِقِ⁽⁸⁾

فإذا كان يكره الأسفار فإن يد الدهر عبثت به فجعلت مقامه الأخير في أرض بعيدة عن سبته فمات غربيا . ودفن غربيا . فكانت القصيدة واحدة من عيون شعر الاغتراب .

القصيدة في شكلها الخارجي مقابلة بين داي وسبته .

داي التي وصفها ابن خلدون بقوله : بالبادية من تادلا .

وسبته التي وصفها لسان الدين بن الخطيب بقوله :

هي جنة الدنيا التي من حلها نال الرضا والروح والريحانا

وشتان ما بين الوصفين !!

فجاءت المقابلة بصيغة أخرى بين الغربة والاستقرار . بين التغرب والألفة . إلا أن إحساس القاضي عياض بالجمال الطبيعي الذي تزخر به منطقة تادلا هو الذي ملأ عليه إحساسه بالتغرب . وهو جمال لا يكاد يكون واحدا بين المكانين : سبته / داي .

وليس الأمر كما اعتقد عبد السلام شقور في قوله : " ومالي لا أقول إن القطعة كلها صورتان متقابلتان ؛ سبته بمائها وسهولها الخضراء وداي بفلاتها ورياحها اللافحة " ⁽⁸⁾ . وأكبر الظن أن الأخ عبد السلام لم يكلف نفسه عناء الوقوف على هذا المكان (داي) حتى يصفه بفلاة رياحها لافحة . لأنه لو فعل ذلك لما قال ما قاله !!

ثم إن الشاعر نفسه الذي عاش في هذا المكان إنما يقول :

- فكم من فلاة بين داي وسبته -

فالمرجح أنه يتحدث عن الفلاة التي تفصل بين داي وسبته وليس عن داي كما خيل للأخ شقور . وقد يكون البعد النفسي هو الذي أشعر القاضي عياض بالفلاة . تغربه

في هذا المكان هو الذي صيره فلاة . حتى ولو كان دايا !! لأن الشاعر عندما يتحدث عن دايا ، فإنه يتحدث عن المكان بأشجاره ومياهه .

- يذكرني سح المياه بأرضها -

- يعجبني في سهلها وحُزونها -

- خمائل أشجار ترف رواء -

إذا فالقصيدة تنبني على ثنائية تغطي النص كله . وقد جاءت عناصر هذه الثنائية على الشكل التالي :

البيت	العنصر (1)	العنصر (2)
1	قمرية	الشاعر
1	نوح	غناء
2	برحي	برحاء
3	حمام	الشاعر
4	داي	سبتة
6	سح المياه	الدموع
7	السهل	الحزون (الأرض الغليظة)
8	التفرق	جمع الشمل

فالمقطوعة - إذا - من حيث تركيبها الثنائي ، وتناظر الدلالات فيها نموذج متميز لشعر الحنين . حيث تظهر الغربة / الوطن في أكمل صورة وقد انتظما جنباً إلى جنب في حالة توق ولا وصل بينهما برزخ لا يلتقيان .

وفي إطار هذه الثنائية يمكن تقسيم النص إلى وحدات أربع .

الوحدة الأولى . وهي التي تمتد عبر الأبيات الثلاثة الأولى .

أقمرية الأدواح بالله طارحي أخا شجن بالنروح أو بغناء

فقد أرقني من هديلك رنة تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي يا حمام فإنني غريب بدائي قد بليت بداء

وهي الوحدة التي تصور حوارا بين الشاعر والحمام . وقد استهل هذا الحوار بالنداء . - أقمرة الأدواح - مستعملا الأداة (أ - الهمزة) التي تستعمل للقريب . ولكنه أثر استعمال الهمزة لإبراز العلاقة التي تربط بين حالته النفسية وبين هذيل الحمام . فإذا به قريب منه يطارحه همومه . والمطارحة لا تكون إلا بين إثنين متقاربين لا متباعدين .

وهذا ما يجسده النداء من جهة ، وقوله : - أأأ شجن - من جهة ثانية فهما معا يشتركان في هذه الحالة التي لا ترى من الطبيعة ككل إلا جانبها المؤثر الحزين . فإذا بها تشاركه أحزانه ، وإذا بصوت الحمام هذيل يؤرقه ، ورنه تهيج من برحائه . وإذا الطبيعة بألوانها وأصواتها تشارك الشاعر في حالته تلك . وهذه المشاركة دفعته إلى الاعتقاد بأن الحمام غريب أيضا :

- لعلك مثلي يا حمام -

وما ذلك إلا لإحساسه العميق بالغربة . فالكون في نظره غريب أيضا . أما الوحدة الثانية فهي التي تغطي البيتين التاليين :

فكم من فلاة بين داي وسبتة وخرق بعيد الخافقين قواء
تصفق فيها للرياح لواقح كما ضععتني زفرة الصعداء

في هذه الوحدة يتحدث الشاعر عن المكانين . داي / سبتة . وعن المسافة الفاصلة بينهما فجاء بكلمة (فلاة) لدلالاتها العميقة عن البعد من جهة وعن الحالة النفسية المعبر عنها من جهة ثانية .

ففي لفظة (فلاة) إحساس بالغربة والعزلة والبعد ، وهي إحساسات يحملها الشاعر في نفسه بحيث لا يتوانى في إجلاء طبيعة المشاركة أيضا .

- كما ضععتني زفرة الصعداء -

فالإحساس بالمرارة والأسى يبدوان جليا في هذا الشطر خصوصا ، إلى حد أنهما يغيران من المعطيات العلمية الواضحة ، إذ لا وجود لما يسمى بالفلاة بين داي وسبتة ،

ولكنها النفس المكلومة التي لا ترى سوى ذلك .

أما الوحدة الثالثة ، فهي في قوله :

يذكرني سح المياه بأرضها دموعا أريقته يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحُزونها خمائل أشجار ترف رواء

وهي الوحدة التي خص بها الشاعر مدينة داي . بسهلها وخمائلها ومياهها .
وهي مظاهر طبيعية ابتعدت عنده عن هذه المعاني الجميلة وأصبحت دموعا أريقته يوم
تغربه وذلك لإحساسه المفرط بهذه التجربة .

بل أكثر من ذلك ، فإن هذه المظاهر الطبيعية على جمالها وروعته لا تعدو أن
تكون مثيرا نفسيا يذكره بما تركه في سبتة . وما يراه أمامه الآن ليس إلا انعكاسا
للمظاهر الحية التي تركها في سبتة .

وهنا أيضا ، لا يدع الشاعر الفرصة ليبيدي عن مشاركة الطبيعة له . فقد ذكرته
هذه المياه المتدفقة بالدموع التي أريقته يوم ابتعاده عن أرضه . لكن هذا الإحساس
بالمشاركة الحزينة ، وهذا الشعور بالاغتراب واللوعة أخذًا في الاختفاء تدريجيا بدءًا من
البيت السابع حيث استهله بجملة فعلية تحمل انطبعا إيجابيا : - يعجبني - فالإعجاب
هنا مصدره اللذة والتمتع . وهما هنا :

- خمائل أشجار ترف رواء -

وهو إحساس سيتقوى في الوحدة الرابعة والأخيرة ، التي سيختفي فيها الألم
والبأس ويولد الأمل والرجاء فيقول :

لعل الذي كان التفرق حكمه سيجمع منا الشمل بعد ثنائي

بحيث أن هذا التفرق الذي عانى منه الشاعر طوال حياته (في داي) وعلى
امتداد النص (أيضا) سرعان ما سيتبدى عندما يجتمع الشمل بعد طول الثنائي .
فكانت هذه الوحدة أملا في الجمع ؛ جمع الشمل . وجمع كل الثنائيات التي تقابلت في
النص !!

ولكن هيهات ، فلقد أخلف الدهر وعده . ومات الشاعر في غربته !!

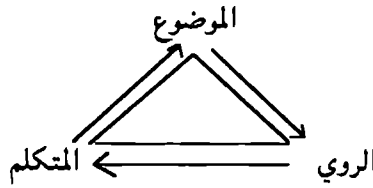
أما من حيث الإيقاع الخارجي للنص ، فانظر إلى استخدامه القذ لبحر الطويل ، وهو بحر بطيء الإيقاع ، ومن أكثر البحور حركية ، فيه لون خاص من الموسيقى يجعله - في حالة ما إذا أريد به الجذ - فخما جليلا مع عنصر ترفني ظاهر .

وقد جاءت أبيات النص على روي واحد ، الهمزة المشبعة بياء المتكلم . ولا يخفى مال هذه العلاقة من تكامل :

- الموضوع : مناجاة ذاتية .

- الروي : همزة .

- الهمزة : علاقتها بالمتكلم (أنا) .



بالإضافة إلى البعد التاريخي لهذا النص ، وذلك لكونه يسجل لنا إقامة القاضي عياض ببني ملال ، فإن له بعدا نفسيا أيضا . وذلك في تعبيره عن الحالة النفسية التي مر بها الشاعر ، وعانى منها الأمرين . ويتجلى هذا المستوى النفسي في مظهرين . أولهما : الإيقاع الحزين الذي يلف النص بمسحة من الكآبة متمثلة في بعض المفردات .

- البيت الأول : قمرية - طارحي أخا شجن - نوح .

- البيت الثاني : أرقطني - هذيل - برحي .

- البيت الثالث غريب - بليت .

- البيت الخامس : زفرة الصعداء .

- البيت السادس : دموعا أريق - يوم بنت .

- البيت السابع : التفرق - يجمع الشمل - ثنائي .

ثانيهما : هو الدخول في علاقة تمازج تام مع عناصر طبيعية وهي في الواقع منفصلة عن الشاعر ذاته . ولكنها في النص الشعري ، يفعل التجربة الشعرية الحادة تصير هذه العناصر الخارجية عنصرا ذاتيا ، بل استمرارا للذات حتى لا انفصام لها . ويتجلى هذا التمازج والانسجام بين الذات المبدعة والعناصر الخارجية في الصور الآتية .

- مطارحة الحمام بالنوح والغناء .
- هذيله يهيج من برحائه .
- الحمام غريب لأن الشاعر غريب .
- سح المياه دموع اريقته ليوم فراقه .

وبالإضافة إلى هذين البعدين : التاريخي والنفسي نجد للقصيد بعدا تراثيا . حيث إنها تشكل واحدة من عيون الشعر العربي في الحنين إلى الأوطان بل لا نكاد نجد لها فرقا عن باقي قصائد هذا الشعر .

ولنقرأ هذه المقطوعة لأبي ليلي الغنوي⁽⁹⁾ وقد عانى نفس التجربة التي عاناها القاضي عياض . فقد خرج من العراق مع عبد الله بن طاهر⁽¹⁰⁾ فلما نزل بواد من أودية الري ، ناحت قُمرية على بعض الأشجار حوله ، فذكرته أهله فقال :

أفني كل يوم غُرْبَةً وَنُزُوحُ	أما للنوى من وَثِيَةٍ فَتُرْبُحُ
لقدْ طَلَحَ البَيْنُ القَذُوفُ رَكَاتِي	فهل أَرَّيْنِ البَيْنَ وهو طَلِيحُ
وَأَرْقَنِي بالرِّي نَوْحُ حَمَامَةٍ	فَتُحَتُّ وذو الشُّجُون القديم يُنْوَحُ
وناحتُ وفرخاها بحيث تراهُمَا	ومِن دُونِ أَفْرَاحِي مِهَامِةٌ فِيحُ
عسى جودُ عبد الله أن يعكسَ النَّوَى	فيلْقِي عصا الاسقار وهو طَرِيحُ
فإنَّ الغنى يدني الفتى من حبيبهِ	وَضِدُّ الغنى بالمُقْتَرِنِ طَرِيحُ ⁽¹¹⁾

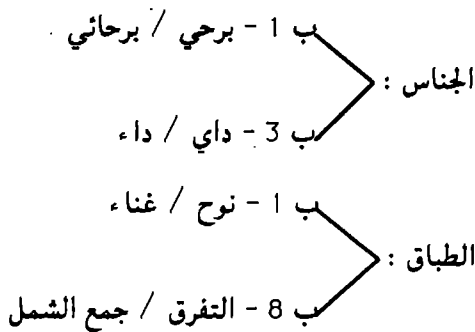
بحيث نجد عددا من العناصر المشتركة بين النصين . كما في الشكل التالي :

الصورة	القاضي عياض	أبو ليلى
التغرب المخاطب أثره على الشاعر الأمل المولود المكان	إنني غريب بداي قمرية / حمام أرقتني من هذيلك رنة لعل الذي كان التفرق حكمه داي	أفي كل يوم غربة ونزوح الحمام أرقتني بالري نوح حمام عسى جود عبد الله أن يعكس الري

أما على المستوى البلاغي :

فالملاحظ أن القاضي عياض قد تصرف بأوجه بلاغية محدودة جدا . مما يوحي بأن النص وليد تجربة شعرية قوية ، لا مجال فيها للتصنع أو التكلف أو تصيد الأوجه البلاغية البعيدة .

لهذا أمكن حصر الآليات البلاغية التي وظفها القاضي عياض في مايلي :



تشبيه : ——— ب 5 - تصفيق الرياح — زفرة الصعداء

وهذا ما لا يدع مجالا للشك في قيمة القاضي عياض الشاعر . وهي قيمة لا تقل أهمية ومكانة عن غيره من الشعراء ، وبالتالي لا تقل أهمية ومكانة عن القاضي عياض العالم ، الفقيه ، الكاتب .

فقد ألم في شعره بجل الأغراض ، متراوحا بين العفوية والصدق ، بين الصنعة

والتكلف . همه في ذلك الإفصاح عن تجربة شعرية مر بها الشاعر.

والحديث عن القاضي الشاعر قد يطول . والحديث عن القاضي عياض العالم أطول . ولكنني سأختم مداخلتني بهذه الكلمة التي يقول فيها صاحبها : " ولا تُبعد إذا قلنا إن القاضي عياضا - رحمه الله - يكاد أن يكون أشهر الأعلام في تاريخنا العلمي على الإطلاق ، فقد طارت شهرته في عصره وبعد عصره بالمغرب والمشرق على السواء ، وكُتِبَ الذبوع - بحق - لمؤلفاته ، ورُزق بعضها - كالشفا - من الخطوة و " السر " وحسن القبول والتلقي لدى الخواص والعوام مالم يُرزقه - فيما نحسب - مؤلف مغربي آخر ، آية ذلك هذه النسخ الخطية - من الشفا - التي تزخر بها الخزائن في كل مكان . وإن من الأعلام من تسمو بسببهم أوطانهم ، وتُذكر بفضلهم بلدانهم . وهذه حال قاضينا عياض الذي قيل فيه " لولا عياض لما ذكر المغرب " (12) .

الهوامش

- 1- أيهم عباس حمودي القيسي ، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام حتى سنة 23 هـ ، ط . 1 ، بيروت ، 1986 ، ص . 212 .
- 2- أبو عبد الله محمد ، التعريف بالقاضي عياض ، تقديم وتحقيق د . محمد بن شريفة ، ط . 2 ، الرباط ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 1982 ، ص . 98 .
- 3- دائرة المعارف الإسلامية ، م 9 ، ص . 100 .
- 4- مصطفى عريوش ، من تاريخ منطقة إقليم تادلة وبنى ملال ، الدار البيضاء ، مكتبة الطالب ، 1989 ، ص . 65 .
- 5- أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، 1956 ، 101/1 .
- 6- التعريف بالقاضي عياض ، م . س ، ص . 98 ، الهامش 247 .
- 7- جاء في كتاب تراجم أغلبية للقاضي أبي الفضل عياض (476 - 544 هـ / 1083 - 1149 م) تحقيق محمد الطالبي ، نشر الجامعة التونسية ؛ 1968 ، مانصه : "On l'envoya toutefois selon Ibn Khaldoun, exercer quelque temps ses talents de cadi au Tadla parmi des tribus nomades". p. 15.
- 8- عبد السلام شقور ، القاضي عياض الأديب (الأدب المغربي في ظل المرابطين) ، دار الفكر المغربي ، 1983/1 ، ص . 91 .
- 8م- ن . م . ص . 259 .
- 9- أبو ليلى الغنوي ، عوف بن محلم الخزاعي . أحد العلماء الأدياء الرواة الفقهاء ، الظرفاء الشعراء الفصحاء ، وكان صاحب أخبار ونوادر ومعرفة بأيام الناس ، وكان طاهر بن الحسين ابن مصعب قد استخضه واختاره لمناذمته " . ابن المعتز ، طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط . 4 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1981 ، ص . 185 .
- 10- عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، أبو العباس ، أمير خراسان من أشهر الولاة في العصر العباسي . ولي أمر الشام مدة ثم نقل إلى مصر سنة 211 هـ . ونقل إلى الدينور . ثم ولاه المامون خراسان . عن ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج . 7 ، ص . 5 .
- 11- محمد بن سهل المزيان الكرخي البغدادي ، الحنين إلى الأوطان ، تحقيق د . جليل العطية ، بيروت ، عالم الكتب ، 1987/1 ، ص . 74 .
- 12- التعريف بالقاضي عياض ، م . س ، ص . 1 .

فضاء تادلة في الرواية المغربية

حسن بـحـراوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الرباط -

لم تنشأ في المغرب رواية إقليمية بالمعنى الجغرافي للكلمة ، مثلما لم يظهر لدينا أدب مغربي محلي ذو طابع شوفيني من أي نوع . . . صحيح كتب غلاب عن فاس وشكري عن طنجة ، والعروي عن أزموور والجديدة وآخرون عن مكناس ومراكش وأكادير إلخ . . . ولكن ذلك لم يتجاوز رسم فضاء الأحداث واتخاذ المدينة بؤرة لوقائع النص الروائي .

ولابد من رصد حقيقة بشأن تعامل الرواية المغربية مع المدينة ، فلأمر ما ارتبطت هذه الرواية بفضاء المدينة الحديثة أو بمحيطها القريب على وجه الدقة بمعنى انشغالها أساسا بالعلاقات الحضرية وما يترتب عنها من مبادئ وقيم . . . ومن هنا رسوخ الحضور المدني في الرواية المغربية وفي عموم الرواية العربية مقابل الغياب المفارق للفضاء القروي الذي كان يشكل ، ولا يزال ، إطارا مهيمنًا في المجتمع المغربي .

ومع ذلك ، فبمقدار ما يجاهد روائيونا للوصول إلى العالمية - وقد وصل بعضهم إلى مشارفها فعلا (الطاهر بنجلون ومحمد شكري إلخ . . .) - بمقدار ما يكون التصاقهم بما هو محلي ووطني أمرا مشروعا ، ومن صميم مطالب التجربة الأدبية . على أن هذا الحضور لما هو محلي ومديني - تحديدا في الرواية المغربية - لا ينبغي أن يذهب بنا بعيدا ، فلا محل لأمل كبير بشأن وجود رواية تادلاوية أو ملالية مثلما لا وجود لرواية فاسية أو بيبضاوية إلخ . . .

وهكذا فمن ضمن حوالي مائة رواية مغربية ، صدرت بين (60 - 1990) لا توجد سوى رواية واحدة تدور أحداثها في منطقة تادلة وهي رواية هـامو للكاتب أحمد زياد ، وقد صدرت في بداية السبعينات وتحولت فيما بعد إلى شريط سينمائي يحمل نفس العنوان . والأستاذ أحمد زياد بدأ نشاطه الأدبي في مستهل الأربعينات كناقد

وكاتب مقالات وتحول إلى القصة القصيرة ثم إلى الرواية التي ألف فيها بامو و ولد
وبعده ، ولا يزال إلى اليوم يواصل نشر مقالاته بجريدة العلم التي سبق له أن كان مديرا
لها لفترة طويلة . ورواية بامو هي رواية في الوطنية ونموذج للقصة التي أخذت على
عاتقها تصوير لحظة حاسمة من لحظات المقاومة المغربية وبالذات ثورة المقاوم الحنصالي ضد
المستعمر الفرنسي الفاشم . لقد شاء الكاتب أحمد زياد أن يخلد هذه الملحمة التاريخية
من نضال الشعب المغربي عبر تصويره إحدى أعظم بطولاته فاختر حياة مقاوم من أكثر
المقاومين بسالة وشجاعة ولاء في سبيل الوطن هو البطل الحنصالي . . . واختار مكانا
من أفضل الأماكن تمثيلا للمقاومة والاستشهاد وهي منطقة تادلة المعروفة تاريخيا
بأسبقيتها في المقاومة المسلحة ومناهضة المستعمر .

ولتأطير هذه الملحمة كان لابد للكاتب ، على معتاد الأسلوب الروائي ، من
تخيل قصة عاطفية تجمع (باسو) بزوجته (بامو) التي جعلها تبدو ونموذجا للجمال
الأنثوي الخارق في نفس الوقت الذي تمثل فيه مثالا رائعا للأخلاق والعفة والنضال .

وربما كان من الضروري ، في مرحلة أولى ، تقديم فكرة موجزة عن المادة الحكائية
في هذه الرواية حتى تتضح لنا معالم التجربة الروائية التي يقترحها علينا الكاتب ،
ويصبح الحديث عن فضائها حديثا ملموسا ولا غبار عليه .

تنتفتح الرواية أول ما تنتفتح على قرية (ويزغت) ، إحدى ضواحي بني ملال ،
وعلى ضوضاء سوق الحدادين حيث دكان (باسو) بطل الرواية . وهذا الأخير يحمل وراءه
مأساة من النوع المألوف في الرواية المغربية (غلاب ، ربيع ، العروي) فقد سلبت منه
أرضه علي يد المستعمر الفرنسي فكان أن مات والده (سويلم) حزنا وكمدا وأصاب
الشلل والدته ، وهاجرت أختاه إلى الدار البيضاء ، بينما فضل (باسو) المكوث في
القرية كشاهد حي على هذه المأساة .

تعيش مع (باسو) زوجته (بامو) وتتميز بجمال خارق جعلها محط أنظار
الجميع ومصدر قلق دائم لباسو حتى أنه رفض السماح لها بالخروج إلى السوق لمساعدته
على تدبير حياته (وسيكون لهذا الرفض أسبابه ودلالاته كما سنرى) .

لكن بامو على حبها لباسو ، فهي معجبة بصديق زوجها (عقا) الوطني المتعلم

وهذا مما سيدفع باسو إلى الغيرة وإلى الرغبة في التعلم على يد الفقيه (سي موسى) الذي يمثل في الرواية نموذج السلفي الملتزم بوطنيته وتشبته بقيم حضارته ودينه .

لكن قائد المنطقة الفرنسي الشاذ (رامونا) يأبى إلا أن يسيء إلى صورة وسمعة الفقيه (سي موسى) فيبدأ في استدعائه إلى مكتبه باستمرار حتى يثير حوله الشكوك ويطعن في وطنيته أمام الجميع . . . ولم يكتف (رامونا) بذلك فقط بل عمد إلى سجن صديقيه (باسو) و (عقا) حتى يقال بأن الفقيه (سي موسى) هو الذي وشى بهما لدى القائد . . . وقد نجحت خطة هذا الأخير إلى حد بعيد وأصبح الناس يتجنبون (سي موسى) وينظرون إليه كجاسوس محالٍ للاستعمار ، وبالتالي فهو غير جدير بتعاطفهم مهما حصل له . . . ويدرك الفقيه (سي موسى) خطر الموقف الذي يوجد فيه خاصة بعد اعتقال باسو وعقا فيثور على هذا الوضع ولا يجد من سبيل للإعلان عن ثورته سوى الاتجاه إلى المسجد أحد أيام الجمعة بعد الصلاة والصباح بأعلى صوته في سكان القرية موضحا حقيقة الأمر الذي يدبره القائد (رامونا) معلنا عن صدق وطنيته مجازفا بحريته ، ولكن أية حرية هاته التي يقننها الاستعمار ويتحكم في جرعاتها . . . ويكون للفقيه ما أراد إذ يعتقله (رامونا) ويودعه في السجن بعد أن يلقى له تهمة ، ويتقبل الفقيه (سي موسى) خبر الحكم عليه بسنة سجن كما لو كان دليلا على براءته وحسن طويته تجاه الشعب والوطن . وبالقبض على الفقيه سي موسى يكون الثلاثة أي (باسو) و (عقا) و (سي موسى) قد أصبحوا رهن الاعتقال . وتخلو قرية (ووزغت) عن يصد عنها كيد القائد (رامونا) وأذنا به من الشيوخ والحراس ، ويبدأ الجميع في محاولة النيل من (بامو) لجمالها الفائق ولغيباب من يذوذ عنها . وأمام رفضها لكل الإغراءات تنتشر الإشاعات حولها وتنسج حولها الأقاصيص وتروج الاتهامات ، وأخيرا يشرع القائد (رامونا) نفسه في مضايقتها حتى أنه يدعوها إلى مكتبه ويقدم لها شتى الإغراءات دون جدوى . وإزاء رفضها المستمر للتصياح لرغبته ، يأمر (رامونا) بسجنها في إحدى غرف إقامته بالقصيبة ، مما يجعل الشكوك والغموض يحوم حول مصيرها خصوصا وأنه معروف بالشذوذ كما سنرى .

وفي هذه الأثناء تنتهي مدة العقوبة التي فرضت على (باسو) و (عقا) وكانا قد قضياها بسجن العاذر ، وتكون المفاجأة أثناء العودة إذ أن (باسو) لا يجد

أثرا لبامو فيزداد حزنا وثورة على الأوضاع ويشعر في البحث عن سبيل لإنقاذ زوجته . وفي القصيبة يظهر الحنصالي بوصفه خال بامو ليساعد (باسو) على تخليصها من سجنها وذلك بالتواطؤ مع كبير أعوان (رامونا) الحارس (سي موح) ، وهو أحد الوطنيين المتخفين الذي يحصل على نسخة من مفتاح سجن (بامو) مما يهيء الفرصة لتحرير (بامو) إلى (زاوية الشيخ) ثم إلى (ويزغت) . وتسقط (بامو) طريحة الفراش من جراء ما عانتها في سجنها ، وتحكي عن ممارسات (رامونا) الذي كان يمارس عليها شذوذه . ويأمرها بأن تضربه بالسوط لأنه كان يجد متعة في التعذيب الذي يناله على يد المرأة إلخ . . . وبينما ظل (باسو) إلى جانب زوجته يعالجها ويواسيها ! يكون الحنصالي قد قرر الانتقام من (رامونا) ومن يمثلهم (رامونا) . وقد اختار مكانا استراتيجيا في الجبل بحيث يوجه ضرباته دون أن يقع في يد الأعداء ، ولم تكن يحوزته غير بندقية بها عشرون رصاصة احتفظ بها من يوم أن كان شرطيا . وقد استطاع الحنصالي بذكائه ودقته في إصابة الأهداف أن يخلق اضطرابا ورعبا في صفوف الجيش الفرنسي الذي سخر لواء بكامله للقضاء عليه دون جدوى بل استخدموا طائرة هليكوبتر ، فاستطاع الحنصالي أن يسقطها ويصيب ركابها .

وفي هذه الأثناء ، وحيث كانت (بامو) تصارع الموت في لحظاتها الأخيرة ، داهمت الشرطة الفرنسية المنزل ، قصد أخذ باسو رهينة لإجبار الحنصالي على تسليم نفسه .

لقد استطاعت ثورة الحنصالي أن تحرز على صدى عالمي تجاوزت حدوده المغرب فتناقلت أخبارها الصحف الفرنسية والأمريكية . وينفذ رصاص بندقية الحنصالي ، وهو محتم بالأدغال ، مما يحتم عليه تسليم نفسه وذلك في الوقت الذي أسلمت فيه بامو الروح مجللة بهالة من العفة والطهارة فيخرج آلاف المواطنين في مظاهرة صاخبة يتجهون بها نحو مقر الحاكم الفرنسي بمدينة بني ملال ، ويظهر بينهم شبح بشري غائر الملامح يرقص رقصة بهلوانية وهو يحاول أن يتقدم الصفوف حاملا بندقيته . . . إلا أن رصاصة غادرة تصيبه وتجعله يسقط صريعا أمام الجموع الغاضبة . . .

إنه باسو الذي جاء يقدم نفسه شهيدا وشاهدا ، وعلامة بارزة على درب النضال ضد المستعمر وقوته الغاشمة ، أما الحنصالي فيحكي التاريخ أنه لقي ربه مطمئنا بعد أن

أدى رسالته تاركاً خلفه هذه الملحة الخالدة .

* * *

الآن وقد أتينا على إيجاز المادة الحكائية التي تضمنتها رواية بامو لا بد لنا من تحديد وإبراز الفضاءات التي كانت مسرحاً لأحداث القصة .

فمن أول صفحة في الرواية تتحدد (ويزغت) كقرية من تلك القرى المنتشرة بناحية بني ملال التي كان يتحكم في شؤون إقليمها قائد فرنسي يقع عليه الاختيار من طرف إدارة الشؤون السياسية بالرباط وذلك بمقتضى مقاييس محددة ومنضبطة تتكون عناصرها من استراتيجية المكان ونوعية التقاليد والعادات (الرواية ص 7) .

وهذا الفضاء الذي ستدور فيه الأحداث فضاء قروي يوحي لنا بنوع التقاليد ونمط الأبطال الذين سيصنعون الأحداث ، ويعني آخر فضاء ويزغت سيشكل الخلفية الرمزية للأحداث العاصفة التي تتوالى تباعاً على شخوص هذه الرواية . وتتشكل هذه الخلفية من مثالية أخلاقية تبرز في علاقة باسو بزوجته بامو ، وفي شيوع مبادئ التضحية واسترخا ص كل شيء في سبيل التحرر والانعقاد ، كما بدا ذلك واضحاً في شخصية الفقيه سي موسى .

هناك كذلك فضاء (العاذر) حيث السجن الفلاحي المعروف الذي اعتقل فيه باسو ورفيقه عقاً لمدة ستة أشهر ، وهو لا يزال يضم إلى اليوم رفات العديد من الشهداء من المقاومين والفدائيين الذين سقطوا برصاص المستعمر ، ثم هناك فضاء (القصيبة) وهو أيضاً فضاء سجن واعتقال ، ففيه سيجري سجن وتعذيب البطلة بامو على يد القائد الفرنسي الشاذ (رامونا) ، وهو إلى جانب ذلك فضاء تصميم وتخطيط ، ففيه سيخطط الحنصالي رفقة باسو وسي موح لتخليص بامو من سجنها ، ومن ثم يعتبر هذا المكان الأخير فضاء انتقال مقابل (ويزغت) التي تعتبر فضاء إقامة والقصيبة التي تعتبر فضاء إقامة عابرة (أي سجن محدد بمدة لا يتجاوزها) .

ونحن عندما نتأمل هذه الفضاءات التي تحتضن أحداث الرواية ، في تنوعها وترتيبها ، يمكننا أن نخرج بمجموعة من الملاحظات :

1) إنها فضاءات تنتمي كلها ، باستثناء العاذر ، إلى فضاء عام هو منطقة تادلة أو (إقليم بني ملال) ، وإذن فهناك وحدة جغرافية للأحداث أملتها الوحدة الحكائية للوقائع التي تأهل بها الرواية .

2) هناك تدرج وتمايز بين وظائف الأماكن المذكورة واستعمالاتها المختلفة في النص الروائي ، فكما مر معنا هناك :

أ - فضاء الإقامة الاختيارية (ويزغت) .

ب - فضاء الإقامة الإجبارية (العاذر - القصيبة) .

ج - فضاء الانتقال والعبور (زاوية الشيخ) .

ومعلوم أن هذا التنوع في الفضاءات ووظائفها يد الرواية بعناصر التنوع والغنى المكاني مما ينعكس إيجابيا على حركة السرد والاتجاه الذي تسير فيه الأحداث ، وذلك أن وحدة المكان في الرواية ربما كانت مدعاة للملل وتبرم القارئ الذي يميل أكثر إلى تنويع الفضاءات وتجديد أفق الانتظار .

3) يمكن اعتبار قرية (ويزغت) هي بؤرة الفضاء الروائي في هذا النص ، فمنها يكون الانطلاق عند بداية الرواية وإليها يكون الوصول في نقطة النهاية .

- من ويزغت إلى العاذر (بالنسبة لباسو وعقا) .

- من ويزغت إلى القصيبة (بالنسبة لبامو) .

- وتبقى (زاوية الشيخ) مجرد نقطة مرور وعبور .

* * *

وبرسم الخلاصة ، نقول إنه من النادر أن كانت القرية فضاء روائيا في الرواية المغربية ، وقد مر بنا في المقدمة أن هذه الأخيرة رواية مدينية في المقام الأول . ربما لأنها كتبت في جلها من طرف مؤلفين ينتمون إلى البورجوازية الصغيرة المدينية ، وقلة من هؤلاء ممن لهم أصول قروية هجروها إلى المدن التي اتخذوها مسكنا وفضاء لنصوصهم

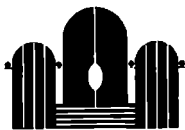
الإبداعية (نفكر هنا مثلاً في مبارك ربيع المولود في امعاشو والذي تدور رواياته في البيضاء والرباط ، وفي الميلودي شغموم الذي ولد في ابن احمد ولا تحمل رواياته أي تحديد للمكان الذي تدور فيه الأحداث ، وكذلك الشأن بالنسبة لأحمد المديني ابن الشاوية . . .) بينما يركز كاتب مثل عبد الكريم غلاب على فاس ولا مكان غيرها ، وهو تركيز مشروع إلى حد ما لأن هذه المدينة هي مسقط رأسه وهي التي يعرفها أكثر من سواها فلماذا نطالبه بالبحث عن فضاءات يجهلها ؟ ولا أدري ، بعد ذلك ، إن كان الكاتب أحمد زياد من مواليد منطقة تادلة أو أن اختياره لفضائها إنما تحكمت فيه عناصر تتصل بنوعية الأحداث والوقائع التي تناولتها الرواية ؟ وإذا صح هذا الافتراض الأخير فلا بد من تبيين المعرفة الكبيرة التي توفرت له بطبيعة هذه المنطقة وتقاليدها .

وأخيراً فإن رواية باهو ، بفضائها التدلوي المتميز تقدم لنا الدليل على أنه ليس هناك فضاء أحسن أو أفضل من فضاء آخر في ذاته ، وإنما العبرة لما يمكن للكاتب أن يستقطره من ذلك الفضاء من إمكانات حكائية وفرص مستمرة لتطوير مضمونه الروائي في أفق التنويع والعمق والجدة ، وفي ذلك فليتنافس الروائيون .

توصيات ندوة : " تادلا : التاريخ ، المجال والثقافة "

تقدم الأساتذة المشاركون في هذه الندوة بالتوصيات التالية التي يتوخون منها تسهيل التوجهات الهادفة إلى ربط الكلية بمحيطها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي :

- 1 - إعداد أطلس تاريخي لمنطقة تادلا
 - 2 - تحضير بيليوغرافيا قارة لجميع حقول المعرفة بتادلا
 - 3 - العمل على اقتناء جميع الدوريات التي تصدرها الكليات ومراكز البحث العلمي والمعاهد المتخصصة
 - 4 - التركيز على ضرورة القيام برحلات ميدانية وحفريات أثرية للكشف عن معالم منطقة تادلا
 - 5 - تخصيص غلاف مالي للبحث العلمي ، تساهم فيه جميع المؤسسات العمومية والخاصة بالمنطقة
 - 6 - التركيز في الندوات المقبلة على قضايا التمدين والهياكل الزراعية والبيئة ، على أن تكون هناك عروض في القاعات وأخرى بالميدان
 - 7 - البحث عن التراث التادلي خارج المنطقة ، والعمل على استنساخه ، وتصنيفه
 - 8 - تقديم ملتمس إلى وزارتي الثقافة والأوقاف ، قصد العناية بخزانات المنطقة وزواياها وأضرحتها وعمرانها
- وختاماً ، يود الأساتذة المشاركون أن تكون هذه التوصيات محل عناية واهتمام من لدن الباحثين والمسؤولين على حد سواء ؛ كي تدخل حيز التنفيذ ، بغية تحقيق مبدأ إدماج الجامعة في محيطها الاجتماعي والاقتصادي .



Royaume du Maroc
Université Cadi Ayyad
Publications de la Faculté des Lettres
et des Sciences Humaines — Beni Mellal
Série : Colloques et Séminaires N° 1

TADLA

Histoire, Espace, Culture

SOMMAIRE

Historiographie du Tadla	
Jean Louis MIEGE	7
A propos du parler paysan du Tadla	
Simon LEVY	11
Frame theory and humorous discourse	
Jamal KOUBALI	17

L'historiographie du Tadla

J. L. Miège
Université Aix-En-Provence
- France -

Le Tadla, qui constitue, à n'en pas douter, une entité, pose un intéressant problème aux chercheurs en sciences humaines dans la définition même de cette entité.

Formée de plateaux, de villes et de régions montagneuses elle ne constitue pas une région naturelle. Elle ne présente pas non plus d'unité humaine avec ses populations de berbérophones et d'arabophones, de sédentaires et de transhumants. Historiquement, et plus encore, administrativement, ses limites ont largement varié. Pourtant, autour d'un coeur immuable, l'existence du Tadla fut toujours à travers l'histoire signalée comme intermédiaire entre le royaume de Fès et celui de Marrakech, deux "états" aux limites instables et aux relations variables d'union ou d'opposition. A de courtes périodes on le voit élevé lui-même à la dignité de "royaume", désignation qui laisse supposer, avec une forte personnalité, une relative autonomie.

Mon propos est d'essayer de retrouver, à travers l'historiographie, les origines de la spécificité de la région, ce qui, d'âge en âge, et de témoignage en témoignage crée ce qu'on peut appeler "l'espace propre".

Cette quête s'appuie essentiellement sur les sources européennes, imprimées ou inédites, de l'oeuvre de Léon l'Africain jusqu'à la veille de l'intervention française (1546 à 1907). Sur ces trois siècles et demi il existe d'assez nombreuses données, mais extrêmement dispersées et aussi disparates que discontinues.

* * *

Le relevé de ces sources souligne l'importance de trois séries d'informations. Initialement les plus intéressantes sont celles fournies par les enquêtes, à partir des régions voisines (notamment de Meknès ou de Marrakech), des voyageurs et des ambassadeurs. Elles ont généralement été publiées, par leurs auteurs souvent, dans la série des *Sources Inédites de l'Histoire du Maroc*, avec l'appareil critique qui en fait, pour le XVII^e siècle, le recours indispensable. Plus rares, mais souvent beaucoup plus précises, sont les indications recueillies dans les récits de captivité, les esclaves chrétiens ayant été, du fait de leur compétence technique, employés par le makhzen à la construction de ponts ou de forts, en particulier de Kasbah Tadla. Certaines de ces relations, surtout pour le début du XVIII^e siècle, ont été publiées. La plus célèbre, et une des plus intéressantes, car il séjourna dans le Tadla, est celle de Pellow. Il en existe encore d'inédites ou d'inconnues, comme celle de Berg imprimée à Stockholm en 1767.

Pour la fin du XVIII^e et le XIX^e siècle s'ajoutent - en majeure partie inédites et à rechercher dans les archives européennes - les correspondances com-

merciales. Enfin, de 1883, année du voyage de Charles de Foucauld, à 1907, date de l'intervention française en Chaouia, il faut y ajouter les récits d'exploration (de Foucauld, de Segonzac etc.), les rapports des missionnaires protestants depuis Marrakech (voyage de Lennox en 1899). Une source de premier ordre encore inutilisée sont les rapports des officiers de la mission française, installés auprès de Moulay Hassan à partir des années 1878-1880 et l'accompagnant dans ses harka. A partir de 1883 la presse tangéroise n'est pas à négliger, encore qu'à manier avec précaution, les informations de ses correspondants juifs étant à prendre avec réserve.

L'ensemble de ces données constitue un riche corpus que complètent les sources marocaines, notamment celles des zaouia. Son étude permet de mettre en relief les trois fonctions de la région : religieuse, économique, politico-stratégique.

* * *

Cette triple vocation s'affirme à partir des pôles de rayonnement : centre de véritables réseaux religieux par les confréries, les saints et les pèlerinages (avec Dila et Boujad), politique et militaire par le contrôle de la route directe entre les capitales du nord Meknès-Fès et la capitale du sud Marrakech (Kasbah Tadla), économique à la fois par les marchés d'échange des produits complémentaires de la montagne et de la plaine, et sa vocation, plus large de rassemblement, des produits exportés vers l'Europe (laines) et de diffusion des importations (Beni-Mellal et Oued Zém).

A ces activités correspondent de grands ensembles de réseaux aux limites mouvantes. Le Tadla proprement dit est la zone où ces trois réseaux se rejoignent et se recouvrent entièrement. Toute zone périphérique affectée par l'un d'entre eux seulement demeure marginale. Elle est rattachée au Tadla au moment où elle subit également l'influence des autres, mais ne s'y intègre qu'épisodiquement, et en raison même de cette coïncidence.

C'est autour de cette existence des réseaux que l'auteur regroupe les principales sources d'information collectées dans les publications et les archives. Le procédé - méthodique et didactique - ne doit pas faire oublier qu'au long des trois siècles envisagés aucune de ces fonctions n'est entièrement distincte des autres. Ainsi - et à ne prendre que cet exemple qui peut être généralisé - la zaouia Sherqawiyya de Boujad, fondée en 1600 par Si Mohammed Chikr, appuie son influence religieuse d'activités politiques d'intermédiaires et d'arbitrage ; affirme, de décennies en décennies, son importance économique par le réseau de ses zaouia filiales et par son action commerciale, enfin grâce à ses azibs par la production agricole, source d'euphorie en année faste et d'influence en année de pénurie.

La politique des sultans (et celles de Moulay Ismael et de Moulay Hassan furent les plus cohérentes) traduit plusieurs soucis. La ligne de garnison, établie par le premier doit contenir les tribus sanhadja du Maroc central. Il la fait tenir par des tribus arabes, mais aussi des groupements maraboutiques, cependant que le désir de garder ouverte la grande route commerciale nord-sud n'est pas moindre. Les harka de Moulay Hassan en témoignent comme du souci politico-financier de faire rentrer l'impôt des tribus.

Le rôle économique se perçoit surtout à travers les correspondances des Européens - consuls et commerçants - des ports. Elles remettent en question deux problèmes. Celui de l'enclavement du Tadla souvent affirmé, à tort ou à excès. Celui de son ignorance : que la région demeure peu connue dans ses détails géographiques, sa vie profonde, voire même sa nature, en témoigne encore dans les années 1840 la conclusion de Renou dans sa célèbre *Description du Maroc*, qui conclut, après l'analyse de toutes les données connues à l'époque : "Le Tadla . . . dont la position demeure incertaine".

En fait, la science "pratique" dément la science officielle. Le Tadla, à cette époque, est déjà entré, et depuis plusieurs décennies, dans les circuits d'un commerce extérieur marocain croissant. Par Marrakech d'abord, puis, et de plus en plus, à partir du milieu du XIXe siècle, par Dar el Beida.

Les premiers facteurs des firmes européennes, bientôt bénéficiant de leur protection, apparaissent aux limites ouest dans les années 1850-1855 (pour l'achat des laines Ourdighia) à travers les listes des protégés et celles des débiteurs. Les archives signalent, dès 1866, que les habitants des tribus du Tadla, qui viennent apporter à Casablanca, "considérée comme leur capitale, leurs produits, sont en grand nombre".

Aux deux pôles d'attraction historique du Nord et du Sud vient s'ajouter, et en partie se substituer, le pôle occidental.

Le Tadla, comme le reste du Maroc, est lentement happé par l'attraction atlantique.

* * *

L'inventaire de toutes les sources, tel qu'il vient d'être esquissé, l'analyse des grands réseaux d'activité, l'élaboration d'une périodisation originale peuvent aider à définir la région historique du Tadla.

Cette définition devrait permettre la mise en place d'un programme interdisciplinaire sur le Tadla à l'époque moderne et contemporaine envisageant l'étude critique et systématique de l'hypothèse de travail ici dégagée.

A propos du parler des paysans du Tadla : Dialectologie et "archéologie linguistique"

Simon LEVY

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

- Rabat -

C'est, en général, l'histoire qui prête son concours à la linguistique diachronique : histoire de peuplement, des civilisations, etc. Est-elle payée de retour par la linguistique ? Philologie, étymologie, toponymie rendent des services reconnus. La dialectologie peut-elle apporter, pour sa part, des indications ? Sans doute la méthode comparatiste a-t-elle permis de reconnaître des "filiations" ou "cousinages" entre peuples - qui sont, le plus souvent, difficiles à distinguer des faits de conquête, militaire ou civilisationnelle.

Les faits dialectaux peuvent-ils être historiquement indicatifs ? Ils sont apparemment trop légers, leur interprétation n'est pas toujours univoque. . . On ne peut en attendre de "preuve". Mais, parmi un faisceau d'autres indications, des faits dialectaux peuvent contribuer à formuler des hypothèses. De ce point de vue, il est légitime de tenter une interprétation "archéologique" de traits phonétiques ou morphologiques. Avec la prudence la plus cauteleuse....

* * *

Le Tadla, au point de rencontre de tribus arabophones et berbérophones, en bordure d'une zone du Moyen Atlas - qui a connu aux XVII^e et XVIII^e siècles le bouleversement démographique que fut la "remontée" des tribus berbères - est, de ce point de vue, un terrain intéressant.

Le point de départ du questionnement est le **zézaïement** surprenant dans la prononciation de paysans qui se disent descendants des Banu Hilal. Ce trait dialectal, isolé dans les parlers hilaliens - ou bédouins - est-il un simple relâchement dans la prononciation ? C'est possible, mais pourquoi ? Cette tendance est, au Maroc, relevée dans des parlers arabes "**citadins**" (arabe *hadari*), pré-hilaliens, "génétiquement" différents. La prononciation [s] de /š/, et [z] de /ž/ - (sin pour chin ; et zay pour jim) - est fréquente chez les vieux meknassis, chez les femmes à Fès, Tétouan, Rabat ; elle est la règle pour presque tous les parlers arabes des juifs marocains, y compris ceux du Tadla (1). Ces parlers *hadari* se sont formés entre le VIII^e et le XII^e siècle, en même temps que les parlers de paysans dans les **Jbala**, et les régions de Moulay Idriss, Taza, Sefrou, soit avant l'arrivée des Bani Hilal et Bani Maqil, peuplement ayant connu une évolution dialectale différente.

Nous disposons d'un corpus de textes dialectaux, accompagné de notes phonétiques et morphologiques, établi par El Habib Naji, originaire de la région (2). On y relève les particularités suivantes :

- **phonétique** : réalisation [s] du /š/ et [z] de /ž/
- **morphologie verbale** : forme unique féminine à la deuxième personne du singulier de l'inaccompli et de l'impératif négatif : **tatakli** (tu manges) ; **tatzi** (tu viens) ; **tatsufi** (tu vois) ; **tatdiri** ; **matsufi-s** ; **matdiri-s**, etc.

Ce phénomène (**ta'nit**, "féminisation") est peu courant à l'inaccompli (moḍārie).

Mais la deuxième personne est "féminisée" à l'accompli dans de nombreux parlers, marocains (**ta'nit al-māḍi**) y compris dans nos parlers tadlaouis : **səfti**: (tu as vu), **ziti** (tu es venu / venue), **dərti** (tu as fait), etc.

Il n'entre pas dans notre propos d'étudier l'évolution historique des formes verbales dialectales. Mais nous pouvons observer que le **ta'nit** (féminisation) n'est jamais que l'adoption d'une **forme verbale unique**, simplification que l'on retrouve sous forme "masculine" dans les parlers pré-hilaliens des Jbala ou des Juifs :

Ex. : **Jbala**, inaccompli : **ənti**, **əntina** (masc) **dəkṭəb** (tu écris)
əntiya (fem.) (3)

accompli : " " **kṭəbt** (tu as écrit)

Juifs, inaccompli : **nti** (masc. et fem.) **t əktəb**

accompli : **nti**

kṭəbt

} deux genres

(NB. : Les parlers juifs de Rabat-Salé, Marrakech, Essaouira, etc., ont **kṭəbt** à l'accompli, aux deux genres.)

On peut donc considérer qu'il s'agit de deux variantes d'une même simplification, auquel cas ce serait un autre point de rencontre avec des parlers pré-hilaliens.

Ces éléments sont assez maigres ; une étude plus approfondie en découvrirait-elle d'autres ? Un Atlas linguistique de la région serait sans doute instructif. Les informations recueillies auprès de personnes connaissant bien la région signalant les traits dialectaux indiqués, outre chez les **Bradia**, chez les **Ulad ieiš**, **səmgətt**, **Ulad yusəf**, **Ulad Yub**. Encore cela demande-t-il à être précisé, détaillé (par tranches d'âge, sexe, etc.) L'étendue géographique du phénomène montre en tout cas qu'il est régulier (et non assimilable à un "défaut de prononciation" familial).

Notre hypothèse de travail est que nous sommes en présence d'un résidu de substrat linguistique antérieur à l'arrivée des Banu Hilal. Il nous faut, pour cela, examiner de plus près l'histoire du peuplement, le parler "hilalien", le rapport au monde berbère voisin.

* * *

Les Beni εAmir, leurs voisins de la plaine et du Dir se disent Banu Hilal. Il y a d'autres Beni εAmir ou Djaeda en Arabie du Sud qui font remonter leur origine

aux Banu Hilal (4). On cite aussi les *ε*Amir ben Sae Saea, confédération de tribus en Arabie du Centre-Ouest, avant l'Islam ainsi que les Hilal Beni *ε*Amir, dans leur domaine de Ḥarrat bani Hilal (5). Les tribus hilaliennes du Tadla y ont été installées au XIIe siècle, par Ya'qub Al Mansur. Plus précisément, elles descendent de la fraction Beni Jaber des arabes Jachem (selon *Rawd al Qirās*). Au XVIe siècle, les Beni Jaber sont sur l'Oued al eabid (Léon l'Africain). Les Beni Jaber se sont subdivisés en Beni *ε*Amir sur la rive droite de l'Um-ar Rabie, et Beni Musa, sur sa rive gauche . . . (6)

Ces tribus ne se sont pas installées dans un *no man's land*, mais dans un riche piémont (Dir), et au contact de montagnes peuplées depuis la nuit des temps. Cela ne s'est pas fait sans luttes (voir Léon l'Africain) sans mouvements tribaux, ni symbiose humaine. Le fait est que l'on trouve chez ces arabes hilaliens, un nombre impressionnant d'éthnonymes précédés de l'indice de filiation berbère Aït, ou des noms de fractions ou de tribus purement berbères.

Ainsi les quatre tribus *guich* chargées par Mulay Ismaël de la sécurité du Tadla sont toujours désignées sous le générique Aït Rbae. Les *Gettaya* ont des fractions Aït Ḥammu et Aït Mullal ; chez les *Samgatt* on relève les Aït Faṭma et Aït krad (berb "trois") . . . Chez les ahl əs-sumaea, trois fractions et six sous-fractions portent des noms à indice Aït (7).

L'indice Aït est donc admis comme substitut de Bni, ou Ahl. Mais la proximité des voisins berbères n'est pas suffisante pour l'expliquer comme c'est le cas lorsqu'une tribu arabe - ou arabisée - est isolée au milieu d'un environnement berbérophone : ce sont les "autres" qui vous nomment . . . (7 bis). Mais le voisinage n'explique pas des éthnonymes dont la partie berbère est le nom lui-même comme Bni Zemmur, Termast, Ulad Illul, Aït Mullal et Beni-Mellal - qui renvoient aux termes berbères signifiant "blanc" (verbe, *Imlul* ; adj. *Umlil*) et que l'on retrouve partout dans la toponymie.

Le contact avec les *imazighen*, avec les berbérophones, peut expliquer des emprunts, de vocabulaire pratique, dans un processus de sédentarisation - c'est le cas ici pour *isiki*, "terre non labourée", *tazaglot* "joug" ; *taḥlast* "pièce de harnais" pour le labour. Mais l'explication est un peu courte lorsqu'il s'agit de nom généalogique... Par contre, en supposant un étage intermédiaire, entre le fond berbère, et les Bni *ε*Amir, les phénomènes linguistiques envisagés deviennent plus explicables.

Avant de revenir sur cette hypothèse, il faut entrer, un peu plus avant dans l'examen du parler des Bni *ε*Amir (prononcé **Bni emir**), du point de vue des parlers dits "bédouins",) à travers quelques paramètres, ou traits dialectaux. Il faut dire que les études monographiques ne sont guère abondantes pour l'aire marocaine : parler des Zeer (Loubignac), du Sous (Destaing), de l'Oriental (S.Elbaz), de la région de Fès (D. Caubet)(8) G.S. Colin crut pouvoir réunir quelques traits communs des parlers "bédouins" (9). Comparons-les avec les données étudiées par El habib Naji (10). Pour Colin, le gaf [g] réalisation dominante de /q/ est le plus évident. C'est aussi le cas chez les Bni emir - encore faudrait-il affiner l'analyse des cas de maintien de /q/. Mais on ne décèle pas de réalisations interdentes de /t /, /d /, /ḡ /. Si le vocalisme est

"terne", avec peu de réalisations / i / franches, (plus de [e] que de / i /, sauf en finale selon Naji), les labialisations [kʷ] et [mʷ] ne sont pas signalées chez les Bni emir. La particule du génitif analytique est surtout **mtaε** (ou **ttae**) dans les parlers bédouins ; dans le Tadla **dial** est plus fréquent (on dit même **eando d.dial** "il a du bien") (11). La particule du présent est ici **ta**, plus souvent que **ka-** (**tangabəl** ; **tannod** ; **tatmsi** ; **katkəmmli**) alors que G. S. Colin signalait comme un trait "bédouin" la tendance à employer l'inaccompli **sans préfixe**. Tout cela reste approximatif et nécessiterait un travail, de terrain et comparatif, plus approfondi. Le parler a ses particularités, mais il garde un air de famille "hilalien". Une comparaison avec les parlers des voisins hilaliens **smaela**, **urdiga**, **bni ħirān** serait utile dans la mesure où ces tribus sont plus éloignées de la montagne. En outre, elles avaient gardé au début du siècle leur mode de vie pastoral et vivaient sous la tente⁽¹²⁾. Elles semblent avoir subi beaucoup moins d'influences du substrat humain. Les tribus du Dir, sédentaires, pratiquant l'agriculture, vivant dans des maisons, ne se seraient-elles pas mêlées à des populations plus anciennes ? Les auteurs signalent la fréquence des mariages entre arabophones et berbérophones : phénomène de la vie quotidienne d'aujourd'hui, qui n'ont que peu d'influence linguistique.

Mais si le substrat avait été, antérieurement, **arabophone**, c'est à dire berbère arabisé, **mostaerab**, son influence pourrait expliquer et les éthnonymes d'allure berbère, et les traits linguistiques qui se sont imposés au superstrat hilalien dans certaines tribus, et ont survécu.

Mais que savons nous de l'histoire linguistique de la région ? Nous avons des indications : suffisamment pour affirmer que le rapport berbère-arabe est plus complexe qu'il n'en a l'air : à partir du XVII^e siècle, le Moyen Atlas occidental a été concerné par la remontée des **imazighen**, mais sa toponymie garde des noms de lieux arabes (Khénifra, Ain Leuh . . .). Cela évoque une arabisation antérieure à l'arrivée des Banu Hilal. Il faut donc réintroduire dans l'équation l'élément berbère - arabisé (**mostaerab**).

Qu'en disent les sources historiques ? Elles sont peu loquaces sur ces questions, mais non muettes. Les principaux facteurs d'arabisation linguistique sont la ville, l'administration, les chorfa et Zawia, et les voies commerciales. Ce dernier facteur est particulièrement actif. Al Idrissi, au XII^e siècle, décrit la route Fès, Sefrou, Qal eat al Mahdi, Day (Tadla) avec ses prolongements vers Aghmat d'une part, Dra et Sijilmasa d'autre part⁽¹³⁾. A cette époque, l'arabisation a fait de grands pas le long de cette route, au Sud de Fès.

Nous n'avons pas droit à plus de précision, mais on peut parler au moins de bilinguisme, et pour les villes (Sefrou, Qale at al Mahdi, Day) d'arabisation plus poussée. Trois siècles plus tard, Léon l'Africain est un peu plus précis. Dans les villes du Tadla, malgré les difficultés de l'heure, industrie et commerce sont actifs ; on exporte des burnous en Italie et Espagne (Tefza) ; les marchands, musulmans, juifs ou étrangers sont actifs à Aït eiyad ; si Aït etab est une ville "construite par les africains" (est-ce à dire qu'elle est berbérophone ?), Efza elle, est peuplée "de **mores** et de **juifs**" . . . Ces "**maures**" ne sont, selon la terminologie de Léon, ni des "**africains**", ni des "**arabes**" (Zuhair ou Bni Jabir de la plaine, aux "nombreux cavaliers.")

Maure ne peut être pour ce fonctionnaire andalous du Makhzen wattaside, que l'arabophone, citadin ou rural, qu'il ne confond pas avec les arabes - aerab - de la plaine. Ce sont des **mostaerabin**, peuplement d'origine non arabe, mais **arabophone**.

L'arabe pré-hilalien des mostaerabin a survécu dans les Jbala, la trouée de Taza, Sefrou (parler des juifs) Zerhoun. Il y a de fortes probabilités pour qu'il ait été largement diffusé dans le Tadla, seul ou en situation de bilinguisme. Cela expliquerait la résurgence de traits de ce substrat dans le parler de certaines tribus, hilaliennes ou assimilées, du Tadla.

NOTES :

- 1- Parmi les parlers juifs, seul celui de Debdou (et des colonies d'originaires de Debdou établies au XXe siècle à Missour, Outat al Haj, Taourirt, Midelt etc.) a conservé une prononciation *chuintante* de *chin* /ʃ/ et *jim* /ʒ/ - que l'on retrouve d'ailleurs parmi les anciens parlers juifs de l'Oranie. Les parlers juifs de Tafilalet, Fès, Sefrou, Meknès, Rabat, Salé, Marrakech, Beni-Mellal, Demnate, El Jadida, Azemmour, Safi, Essaouira, Inezgane ont pour trait commun le *zézaïement* (/ʃ/ → [s] et /ʒ/ → [z]). Voir Simon LEVY, *Parlers arabes des juifs du Maroc: particularités et emprunts. (Histoire, socio-linguistique et géographie dialectale)* Thèse pour le Doctorat d'Etat, Paris VIII ; 1990 - 1815 pp.
- 2- Il s'agit d'une monographie de licence, élaborée dans le cadre du séminaire de dialectologie que je dirige au département d'Espagnol de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, de Rabat : Naji El Habib *Dialecto de Beni emir (Had Labradia, Ulad Dris, Lahlalma, Laezanna)* *Estudio fonético y morfológico*. Departamento de Lengua y literatura Espanolas, 1989 - 1990. (dactylographié) 65 pp.
- 3- Colin, Georges S. : "Notes sur le parler arabe au nord de la région de Taza". *Bull. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*. Tome XVIII, 1920 (pp. 33 à 110). Voir pp. 97 - 98. Notons que le pronom *anti*, *antina* peut être aussi *masc* que *fem.*, dans la plupart des tribus. La variante *fem. antiya* n'est de règle que dans certaines localités.
- 4- *Encyclopédie de l'Islam* (1965) T. II, p. 375.
- 5- *Encyclopédie de l'Islam* (1975) T. I, pp. 453 - 454. Les Djaeda font partie de ces tribus. On trouve aussi des B. Amir en Erythrée, dont la langue est le *bedja* (hamitique) ou le *tigré* (sémitique) selon les fractions. (p. 453). Voir T. III, l'épopée des Bani Hilal d'Arabie, en Egypte, leur arrivée en 1050 en Ifriqia et leur arrivée, cent ans plus tard, au Maroc.
- 6- Voir la Thèse de M. Mohamed ben Al Bašir Būsellām, *Qabilat Bani Mallal - 1854 - 1916* - DES, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Rabat, 1990 - 1991. pp. 32 - 34. Nous avons utilisé un exemplaire dactylographié aimablement prêté par l'auteur de cet excellent travail, publié également sous le titre:
تاريخ قبيلة بني ملال . 1854 - 1916 . جوانب تاريخ دير الأطلس المتوسط ومنطقة تسادلا (مطبعة المعارف الجديدة - 1991) .
- 7- Selon l'auteur, les Banu Jasem (transférés au Maroc avec les Banu Riyah) se sont fractionnés en Urdigha et Bani Jaber, dont sont issus les Beni Meskin, Beni Maedan, Beni Amir, Beni Musa, Beni Mellal et leurs fractions respectives.
- 7- Voir Capitaine Peyronnet, "Tadla, Pays Zayan, Moyen Atlas", *Bulletin de la Société de Géographie* (Alger), 27ème année, 4ème trimestre, n° 91. pp. 623 - 691.
- 7 bis- Près de Tiflet, une tribu *arabophone*, isolée en pays *Zemmur*, est nommée *Ait eli-ullahs an*.
- 8- Loubignac, Victorien : *Textes arabes des Zaers*. Publications IHEM ; Paris, 1925-594 pp. Destaing, Edmond, : *Textes arabes en parler des Chleuhs du Sous* ; Paris, 1937-336 pp. Elbaz, Simone : *Parler d'Oujda - Application de la théorie fonctionnelle - phonologie, inventaire, syntaxe*. Thèse d'Etat ; Paris V ; 1980 - Caubet, Dominique : *Grammaire d'une variété d'arabe marocain, Région de Fès*. Thèse d'Etat. Paris VII, 1989.
- 9- *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle Ed. 1986, T. V. p. 1196.
- 10- Voir note 2.
- 11- Information personnelle.
- 12- Voir Peyronnet, op. cit. p. 629.
- 13- Al Idrissi : *Kitab nuzhat al muštaq fi ihtirāq al afaq*. Publié par H. Peres. Alger, 1957 - Voir pp. 9, 51.
- 14- Léon l'Africain : *Description de l'Afrique*. Trad. Epaulard. Paris - 1956. T. I. pp. 141 - 147.

Frame theory and humorous discourse

Jamal KOUBALI

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
- Beni-Mellal -

ABSTRACT :

My aim in this paper is to consider the way in which Frame Theory can account for the perception of humorous discourse. Specific consideration will be attributed to the notion of incongruity and how it can allow cognitive attainment or laughter. I shall argue that during the perception of humorous structures the notion of acceptability can be subject to change depending on the mode of discourse in action. Data will consist of spontaneous speech of speakers from Beni-Mellal.

When Comedian Tom O'Connor issued in one of his shows the following command : "Shut your mouth and eat your food ! "(Tom O'Connor's Show, BBC I 1987), much of his utterance's humorous intent relied on a literal interpretation of "Shut your mouth !" (Do not open it !) as opposed to "Keep silent !", so that the next action (to eat) would practically be impossible. The two actions cannot be accomplished simultaneously, hence the incongruity of the utterance, or infelicity of the speech act (Searle 1979).

It is in fact this creative play with language involved in producing humour, coupled with an interpretation that captures the intention of speaker, that can result in a typically human reaction called laughter. It is this phenomenon that has attracted the interest of various researchers who have tried to display the structural, cognitive, and pragmatic aspects of humour.

1.1. THEORIES OF VERBAL HUMOUR

Highly suggestive perhaps is that much of the work on verbal humour that will be reviewed is based on the assumption that humour is the result of clash, conflict, incongruity or norm-upsetting in the use of language (I shall use incongruity throughout).

Certain studies on the topic of humour such as Koestler (1964), Jackson (1976) and Douglas (1968), though purported to disprove the social or psychological import of laughter, remain suggestive. Koestler's (1964) theory of Bisociation, for instance, which is taken as a condition for stimulating laughter, consists of :

"The perceiving of a situation or idea L1 in two self-consistent but habitually incompatible frames of reference M1 and M2. The event in which the two interest is made to vibrate on two different wave lengths as it were" (Koestler 1964, p. 35).

That is, humour as a creative act connects "previously two unrelated dimensions of experience." (Koestler 1964, p. 35.)

Consider at this initial stage the following example :

Situation : Café

Participants : two young males and two young females conversing, a female takes the turn :

A : hl əmt had llila žuž skajrija tajžə rriw elijja wana hərbana.
(Last night I dreamt of two drunken men chasing me !)

—> (1) B : (Response of the male) ?ana lli hə rra šthum elik (laughter)
(It was me who asked them to do that).

Incompatibility of the two frames of reference is striking in this example. The humour of (B) lies in the fact that the speaker has intentionally taken the dream frame and reality frame as if they were two related dimensions of experience. In fact, the two frames of reference are totally incompatible.

This conflict between two schemas is what Jackson (1976) refers to as "logical paradox". Douglas (1968) takes a similar stand as well. Joking (including its various types) which is a play upon social form consists of "a victorious titling of uncontrol over control" (Douglas 1968, p. 336). And since in humour speakers exploit what Douglas calls the "symbol of creativity", this implies that in a joking relationship "anything is possible" (Douglas 1968, p. 337). Bearing in mind the idea that language is primarily a socially established code, this can certainly be extended to cover norm control of the linguistic medium. More importantly, since Koestler (1964), Jackson (1976) and Douglas (1968) all emphasize the idea that humour is a creative act, it would perhaps be assumed that creativity can be reflected mostly in language. Indeed, in more recent studies in particular, there has been a noticeable orientation towards the consideration of language play with special relation to the techniques and strategies employed in getting a humorous effect. In this regard, Norrick's work (1984) and (1986) which integrates Bisociation and Frame theory (see later for a definition) will prove of considerable importance. We shall see before that that works of Milner (1972), Sherzer (1978) and (1985), Dolitsky (1983) can be incorporated in Norrick's (1986) model.

Milner (1972) recognizes the validity of the term "universe of discourse" on the assumption that within a single situation and a single linguistic context, many forms of humour are possible when "two quite distinct universes (...) have been

1 The arrow indicates laughter (or a humorous move) in Jèlferson's (1985) transcription of laughter.

juxtaposed or imposed". (Milner 1972, p. 16). This notion of clash between two universes is also felt in Sherzer (1985) when he considers the nature of the humorous function of puns. A pun, according to Sherzer is "a form of speech play in which a word or phrase unexpectedly and simultaneously combines two unrelated meanings" (Sherzer 1985, p. 213). As for Dolitsky (1983), the notion of clash is implicitly maintained. A major strategy in humour, Dolitsky (1983) observes, is when speakers go against "the pragmatic conventions of a linguistic community" (Dolitsky 1983, p. 47). Thus, in verbal humour, Dolitsky adds, speakers play on the model they have of their listeners' knowledge of the universe, and choose ideas to which "normal associations, presuppositions, and scripts will not apply" (Dolitsky 1983, p. 41). In fact, in an interactive context, individuals bring to the context their epistemic space. Among the types of assumptions speakers have is that of their interlocutors' view of the world, and this is a type of knowledge speakers are assumed to have. In most cases, indeed, much of the linguistic interaction can be modelled upon that assumed knowledge.

Up to this point, notions of conflict and incongruity seem to be essential in the works reviewed above. Now what is perhaps required is a model which can comprise the above views but with some more explanatory intent. In this regard, Norrick's (1984) approach to verbal humour clearly demonstrates that this phenomenon does lend itself to a cognitive account. Indeed, we shall see that Frame theory which is suggested by Norrick (1984) to complement bisociation theory can represent a theoretical framework, in accordance with which the collected data will be examined.

1.2. SCHEMA CONFLICT AND HUMOUR

In his approach to verbal humour, Norrick (1984) takes bisociation (understood by Koestler (1964) as a result of the clash of two unrelated dimensions of experience) as the correct identifying characteristics of laughter (see also Norrick 1986). But to supply a cognitive basis for the recognition of funny structures, Norrick formulates bisociation as schema conflict. Bisociation, Norrick maintains, also predicts conflict, but he argues that when this theory is stated in terms of schema conflict (Frame theory) the result will come out most clearly. Thus, in Frame Theory, human knowledge is expressed in terms of schemas representing an "array of relations between variables that stand for agents, objects, instruments . . ." (Norrick 1986, p. 229). In other words, these variables correspond to common everyday knowledge and belief, or what Norrick (1984) calls "stereotyped events internalised by speakers." Moreover, in a given situation, what guarantees the correct mapping of these variables and their relation is what Norrick refers to as scripts. Hence the idea of what is relevant / irrelevant, expected / unexpected, or appropriate / inappropriate. To illustrate this point Norrick (1986) provides the example of "It's late, I have to run." which can normally mark the end of the interaction. Therefore, in keeping with the schema / script of leave-taking the addressee can respond : "It's been nice seeing you," but hardly with "So Harry goes back to the bar" or "How are you ?" (Norrick 1986, p. 229).

Clearly, in terms of Frame theory, the latter two utterances create two schemas clashing with the schema of leave-taking marked by the utterance "It's late, I have to run." And though the notion of conflict should always be taken as relative,

frame theory appears rich enough to account for the perception of verbal humour. This theory seems in fact to have much to offer for the understanding of how the line which separates the acceptable and the unacceptable can be intentionally played upon to create a certain effect.

1.3. ACCEPTABILITY AND VERBAL HUMOUR: A RECONSIDERATION

Up to this point, there has been an attempt to outline some theoretical issues in a pragmatic study of humour. There is, however, a more substantial notion that still needs reconsideration. In the case of verbal humour that exploits incongruity, one can perhaps wonder whether it is still possible to raise the issue of acceptability as it is dealt with in formal / logical models.

Again, the humorous example :

A : / ɣləmt had lila žuž skajrija tajžərriw elijja wana hərbana /

B : / ʔana lli ɣərrəšthum eli:k /

will certainly be considered as unacceptable in van Dijk's (1977) formal account of coherence and acceptability. The question can be put more simply :

What guarantees the non-rejection of a humorous move such as the one in (B) above ?

Interestingly, there seems to be a general consensus among researchers in the field (Mulkay (1988), Davies (1987), Shultz (1983) and others) that absurdity (implausibility is also used for the same purpose) remains an expected feature of humorous discourse. More than that, Mulkay (1988) for instance, locates verbal humour in a "play-frame" where the absurd is interpretatively dominant on the assumption that information-processing within the humorous mode is not identical to that underlying "serious" discourse. This would certainly lead us to a quite general assumption that acceptability requirements will vary from one mode of discourse to another. This can also be joined to Bickerton's (1980) assumption that interpretability of texts is mode-of-discourse sensitive and that "our linguistic expectations adjust themselves to the mode of discourse we are receiving" (Bickerton 1980, p. 47). Mulkay (1988) presents further support to this assumption on the basis that in a "play frame" (humorous discourse),

"(...) rules of logic, expectations of commonsense, laws of science and the demands of propriety are potentially in abeyance" (Mulkay 1988, p. 37).

Thus, in the humorous mode, Mulkay maintains, recipients are required to accept even absurd representations and to suspend the standard notion of acceptability as it applies to that norm-based mode of discourse (or 'serious' in Mulkay's terminology). This would then allow what Kolek (1985) calls cognitive

attainment or resolution (i.e., laughter). The following example from Mulkay (1988) would be highly illustrative in this regard :

Question : What do you get if you cross an elephant with a fish ?

Answer : Swimming trunks (Mulkay 1988, p. 17).

Clearly, if the text (or the joke) is taken seriously, Mulkay explains, it can be processed for instance as a discourse of a biology seminar (and therefore rejected). But as a joke, the conception of acceptability will apply differently leading to a humorous processing of the text.

Nevertheless, Mulkay's notions such as 'the standard notion of acceptability', 'serious discourse' and 'non-serious discourse', still need consideration. 'Standard' with regard to acceptability has been associated only with a norm-based mode of discourse in Mulkay's study. In reality, a totally norm-based mode of discourse can hardly be encountered in the natural use of language. Indeed, as underlined by various writers (see for instance Farb (1974) and Bartsch (1984)) language as a system of rules and regularities allows, however, freedom and creativity in its use. This, in turn, can lead us to Mulkay's (1988) sharp distinction between 'serious' discourse and 'non-serious' discourse which appears somewhat simplistic. Mulkay seems to locate the absurd exclusively in a "play-frame" or what he calls "nonserious discourse". But how can we explain the possibility that for instance the following idiomatic expressions, which are incongruous, can be used in a serious exchange of talk :

He is like a dog with two tails (Seidl & Mc Mordie (1978)

/ m ša tajdhək mən wədni:h /

(Literally : He went away, laughing from his ears)

(very cheerful)

/ rasu tajqis ssma /

His head touches the sky (very tall)

Moreover, illustrative examples of incongruity in 'fresh talk' have been collected with no sign that they did produce laughter :

1. Situation : Bus

Participants : two middle-aged males, one asking the other about his health

A : / ki rak daba šwijja /

How are you ?

B : / ʔa wə ddi rani mkərfə s /

I'm in a very bad state of health

focal / rani qrib nə wled blawžə (uttered by a male)

utterance I'm about to deliver a baby out of pain.

2. Situation : Café

Participants : two young males who just met each other

A : / ʔah labas bixir /
Oh ! How are you ? .

B : / šwijja /
A little

A : / ʔa həqqa ki də rti
By the way, how is your health ?

focal B : / ʔa ġir skut lbarəħ xuk mat wəhja /
utterance Just don't ask me,yesterday I died and was reborn.

Thus, one can even argue that the 'standard notion of acceptability' can also be suspended in a serious exchange of talk (as in 1 and 2). This could imply that the issue of norm-breaking is very subtle and cannot be confined to 'non-serious' use of language only. I can add that text processing is not only subject to the mode of discourse in action but also to the context of use and more importantly the intention of speaker (consider for instance examples (1) and (2) above). And as underlined above, the creative play involved in producing humour should be coupled with an interpretation that captures the intention of the speaker in order to produce laughter.

1.4. DATA ANALYSIS

In the classification process of the collected data, two major types of verbal humour have emerged. There is what Norrick (1984) calls "Conversational Witticisms", understood as a form of language play which "takes place in outgoing conversation without any announcement or interruption of its flow" (Norrick 1984, p. 197). Here I shall consider "Witty Retorts" and "Witty Descriptions".

1.4.1. PUNNING RETORTS

As a form of language play, punning retorts constitute one of the humorous techniques identified in Norrick (1984). They normally occur in response to other utterances as in :

What does your Watch say ?

Tick tock - tick tock (Norrick 1984, p. 197).

Norrick explains that the response involves a pretended misunderstanding of say 'indicate' and say 'utter'.

In the collected data, four cases have been found to employ punning retorts as a humorous strategy.

1. (interaction between two young males)

A : / šħal hadi fəssəa /
What time is it ?

- B : / hadi ssætta bbila /
 It's six sharp (could also mean "drunk" colloquially)
 A : / šarba lwiski /
 It drank Whisky ?

2. (interaction between two young males).

- A : / hijja hadik wəṭṭih elijja wahəd lfikra /
 ... Then I got an idea ... / (literally : an idea fell on me)
 B : / wma hərsatləkš rasək /
 It didn't smash your head ?

In example 1, speaker (A) has played on the ambiguity of the word /bbila /

intended meaning : sharp

/ bbila / {
 new schema (a reinterpretation of the item)

Similarly, in example 2, the expression /ṭahə t elijja wahəd lfikra / is intended to mean idiomatically "I got an idea", but speaker (B) has presented a new schema through the literally absurd interpretation "an idea fell on me".

Thus, the two reinterpretations either of the word / bbila / or the expression / ṭahə t elijja fikra / introduce a new schema that leads to the clash between the intended meaning and the pretended misunderstanding. We can also notice that the clash resulted in laughter and the two utterances, where punning retort has been used, are literally absurd. With regard to the idiomatic expression / ṭahə t elijja fikra / (literally, an idea fell on me), one might notice that though in the interpretation of idiomatic expressions (including those which are literally absurd) it is generally assumed that speakers normally compute the intended meaning (Kess and Hoppe 1985), in some contexts, however, speakers may intentionally compute the literal meaning. This can further indicate that the literal meaning is always latent and that a literal interpretation (though absurd) can be activated to play a certain function in the discourse.

Another example of punning retort has also been encountered in the following fragment :

3. (an interaction between two young males).

- A : / fin mšiti tətṭəlti /
 Where did you go ? You are late !
 B : / m šit šrəbt wahəd lqəhwa /
 I went to drink a cup of coffee
 A : / maḥəslət lək ši šə lja /
 Didn't a chair stick to your throat ?

In this case, the item / qahwa / conveys both meanings in Moroccan Arabic : Café and coffee. Clearly speaker (A) has chosen a new schema, and the result is an absurd reinterpretation which clashes with the schema in force.

Another type of punning retort of a different linguistic nature has been collected :

4. Situation : Café

Participants : four (apparently) intimate friends, one is inviting the others for a drink, the waiter is standing up near them.

A : / šnu təšrə b /
What will you drink ?

B : / ši kuka /
A coke

A : / wənta /
And you ?

C : / ši qhiwa bləħli:b /
Coffee and milk

A : / wənta /
And you ?

D : / ʔana bæ llati /
Me (I'll have something) later

—> A : (to the waiter) / žiblu bæ llati blə ħli:b /
Bring him "Later with milk" !
(Laughter)

Acceptability of a sentence in a conversation or discourse, van Der Sandt (1988) observes, depends not only on its content but also on the speech act that is performed. Inconsistency of the speech act with the context set is taken by van Der Sandt as one of the principles constraining contextual acceptability.

Indeed, in example 4 inconsistency of the focal utterance / žiblu bæ llati bləħli:b / (Bring him 'later' with milk) with the context set (or schema in force) is highly noticeable. In this specific situation one can believe that the factual impossibility (Grice 1978) of such an utterance seems to deprive it from being intended as a request (it was in fact directed to the waiter).

Contrary to examples 1, 2 and 3 where the humorous effect has been achieved through the play on inherently ambiguous items or expressions, in example 4 the unit / bæ llati / does not display any ambiguity in its sense. Speaker (A), however, seems to have imposed his own interpretation on the unit / bæ llati /. The result then is a totally incongruous utterance, inconsistent with the logical and communicative make up of the structure of discourse. Nonetheless, the odd nature of this utterance and the existence of laughter in the transcription appear to turn it into a typically humorous move. One can even argue about the value of inconsistency and acceptability in this specific example. There is indeed inconsistency in example 4, but its functional intent seems to outweigh its being inconsistent. Due to the humorous intention of speaker (A), I can also assume that the standard notion of acceptability is suspended, which leads to a humorous processing of the sentence. This will receive further consideration while analysing the use of witty / odd descriptions in discourse.

1.4.2. WITTY DESCRIPTIONS

We have seen that in those cases of punning retorts, humour is achieved by the play on the meaning of a single item or expression. Another type of verbal humour has been identified where speakers play on the whole idea behind words (i. e., propositional content). This is what Morreal (1982) calls higher forms of wit, and which I shall refer to here as "Witty descriptions". Let us consider this example :

5. (a fragment of an interaction between a host and his two guests just before serving lunch).

Host : / ɛrəftuʃnu wəʒʒət lkum lʒum lləɣda wahəd lmakla mən dakʃʃi
ɾfi:ɛ /
Do you know what I have prepared for lunch ?
A very delicious food !

One of : / ʃnu had lmakla /
the guests what is this food ?

—> Host : / wəʒʒət lkum ʔaʒi:n djal ddinusur mxəddər bləkrasa wəmsəggi
bəreəd /
I've prepared a plate of dinosaur with chairs and thunder sauce.

In this example, the type of food being described by the host is factually absurd, something which has triggered laughter as indicated in the transcription. The assertion (I have prepared . . .), though the information it contains is new, remains defective and even pragmatically unsuitable. This can be attributed to the fact that it presents a totally unexpected schema logically and factually distant from the schema in force established by the utterance (Do you know what I've prepared for lunch ?). Typically, this move requires a kind of information in the upcoming discourse that should normally be consistent with the hearer's presumed knowledge of what could be possible as food in a given spacio-temporal context. Another illustrative example has also figured in the data :

6. (interaction between two young males)

A : / ʔawəddi ʒani ʒʒue /
I'm really very hungry !
B : / təbgi takul zzəbda qtibat /
(Do you want to eat 'roasted' butter ?)

Indeed, examples 1 and 2 bring us nearer to Dolisky's (1983) conception of verbal humour where speakers play on the model they have of their listeners' knowledge of the universe and choose ideas to which "normal associations, presuppositions, and scripts will not apply." (Dolisky 1983, p. 41).

Interestingly, van Der Sandt (1988) has drawn a distinction between the informative content of a sentence (or discourse) in a context and the new information conveyed by that sentence in that context. What van Der Sandt means by the notion "new information" is what he calls the "communicative contribution" of a given sentence in a given context, that is, all information contained in a given sentence minus the information that was already in the context preceding the utterance of that sentence. Thus, according to van Der Sandt, a sentence becomes acceptable only if its communicative contribution is not zero. Clearly, the focal utterance in example 1 above (I've prepared a plate . . .) remains uninformative if we take into account its communicative contribution. The information it contains does not meet the requirement of the context already established in the immediate preceding discourse. Still, the fact that this utterance has not been found acceptable in an information-oriented framework might not rule out the possibility that it could have a certain higher type of communicative contribution. This, in turn, is very likely to reinforce the idea that the communicative contribution of discourse can go beyond its informativeness. Humour, undoubtedly, suggests itself as a pragmatically-motivated play-frame discourse where the standard notion of acceptability can temporarily be suspended. Above all, this is very likely to shed more light on the kind of distinction between a formal account and a functional account and how the functional need can outweigh formal predictions.

References :

- gaitsch, R. (1984), 'Norms, Tolerance, Lexical Change, and Context Dependence of Meaning'. **Journal of Pragmatics** 8.
- bickerton, D. (1980), 'Prolegomena to a Linguistic Theory of Metaphor', in **Linguistic Perspectives on Literature**, ed. by M. K. L. Ching, M. C. Haley and R. F. Lunsford, Routledge & Kegan Paul, London.
- .Ching, M. K. (1980), 'A Literary and Linguistic Analysis of Compact Verbal Paradox', in **Linguistic Perspectives on Literature**, ed. by M. K. Ching, M. C. Haley and R. F. Lunsford, Routledge & Kegan Paul, London.
- .Davies, C. (1987), 'Language, Identity and Ethnic Jokes and Stupidity', in **International Journal of the Sociology of Language**, 65, pp. 39 - 52, Language & Humour.
- .Dolitsky, M. (1983), 'Humor and the Unsaid', **Journal of Pragmatics** 7, pp. 39 - 48.
- .Douglas, M. (1968), 'The Social Control of Cognition : Some Factors in Joke Perception', **Man** (n. s.) 3, pp. 361 - 376.
- .Farb, P. (1973), **Word Play**, Johnathon Cape, London.
- .Grice, H. P. (1978), 'Further Notes on Logic and Conversation', in **Syntax & Semantics : Pragmatics**, V. 9, ed. by P. Cole, Academic Press, New York.
- Jefferson, G. (1985), 'An Exercise in the Transcription and Analysis of Laughter', in **Handbook of Discourse Analysis**, V. 3, **Discourse & Dialogue**, ed. by T. A. van Dijk, Academic Press, London.
- Kess, J. F. & Hoppe, R. A., (1985), 'Bias, Individual Differences and Shared Knowledge in Ambiguity' **Journal of Pragmatics**, 1985, pp. 21 - 31.
- Koestler, A. (1964), **The Act of Creation**, Hutchinson, London.
- Kolck, L. S. (1985), 'Towards a Poetics of Comic Narratives : Notes on the Semantic Structure of Jokes', **Semiotica** 53 - 1/3, pp. 145 - 163.
- Kreidler, S. Drechsler, I. Kreidler, H. (1988), 'How to Kill Jokes Cognitively ? The Meaning Structure of Jokes', **Semiotica** 68 - 3/4.
- Milner, G. B. (1972), 'Homo Ridens, Towards a Semiotic Theory of Humour and Laughter', **Semiotica** 68 - 3/4.
- Morreall, J. (1982), 'Language, Logic, and Laughter', **The 8th Lacus Forum 1981, Language Ecology**.
- Mulkay, M. (1988), **On Humour its Nature and its Place in Modern Society**, Polity Press, Cambridge.
- Norrick, N. R. (1984), 'Stock Conventional Witticisms', **Journal of Pragmatics** 8, pp. 195 - 209.
- Norrick, N. R. (1986), 'A Frame-Theoretical Analysis of Verbal Humor: Bisociation and Schema Conflict', **Semiotica** 60 - 3/4, pp. 225 - 245.
- Palmer, J. (1987), **The Logic of the Absurd : on Film and Television Comedy**, BFI Publishing, London.
- Seidl, J. & Mc Mordie, (1987), **English Idioms and How to use them**, Oxford University Press, Oxford.
- Sherzer, J. (1978), ' "Oh ! That's a Pun and I Didn't Mean it" ', **Semiotica** 22 - 3/4, pp. 335 - 50.
- Shultz, T. R. (1983), 'A Cognitive-Developmental Analysis of Humour', in **Humour and Laughter, Theory Research and Application**, ed. by A. J. Chapman & H. C. Foot, John Wiley & Sons, London.
- Van Der Sandt, R. A. (1988), **Context and Presupposition**, Croom Helm, London.
- Van Dijk, T. A. (1977), **Text and Context Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse**, Longman, London.



Université Cadi Ayyad

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

Beni Mellal

TADLA

Histoire, Espace, Culture

